علم الاجتماع

دكتور
السيد عبد العاطى السيد
أستاذ ورئيس قسم الاجتماع
كلية الآداب / جامعة الاسكندرية

دكتور
محمد أحمد بيومى
استاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية



دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٢٣١٤٦





إهـــــــداء٢٠٠٧

اسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات

جمهورية مصر العربية

علم الاجتماع

دكتور

السيد عبد العاطى السيد

أستاذ ورئيس قسم الاجتماع

كلية الآداب / جامعة الاسكندرية

دكتور

محمد أحمد بيومى

استاذ علم الاجتماع

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

٢٠٠٢

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة ت ٤٨٧٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى ت ٥٩٢٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

صدق الله العظيم

آل عمران: ١٠٣

مقدمة

بالرغم من الجهود التي بذلت من قبل العديد من المفكرين الاجتماعيين لدراسة الظاهر الاجتماعية، إلا أن الدراسة العلمية لهذه الظواهر جاءت على يد كل من ابن خلدون وأوجست كونت.

وتوالت الدراسة العلمية للعديد من الظواهر الاجتماعية وأصبح هنالك علما يسمى علم الاجتماع يدرس العمران البشري ومايحيط به من ظواهر.

وبالرغم من مشاركة علم الاجتماع العديد من العلوم الاجتماعية لدراسة الحياة الاجتماعية، إلا أن علم الاجتماع أصبح من أهم هذه العلوم، أكثر من هذا، إن الكثير من العلوم الاجتماعية تتلقى نتائج بحوث علم الاجتماع بعناية وتحاول على ضونها تدعيم دراستها والاهتمام بالبعد الاجتماعي في تحليل أي سلوك أو تفاعي إنساني.

لقد خطى علم الاجتماع خطوات حثيثة وجادة في مجال البحث العلمي لكافة الظواهر الاجتماعية وظهرت العديد من المدارس والمداخل النظرية، وتضاربت بعضها وتقارب البعض الآخر منها. وظهرت اتجاهات محافظة وأخرى نقدية أو راديكالية وهذا شئ طبيعي في تطور أي علم خاصة في مراحلة الأولى.

إن الأزمة التي شهدها علم الاجتماع في الآونة الأخيرة ماهي إلا تصحيح لمسار ومسيرة علم الاجتماع، فالمقولات النظرية التقليدية لا تصلح الآن لتفسير مشكلات مجتمعات معاصرة لها مشكلات وقضايا جديدة لم تشهدها المجتمعات السابقة.

وعلم الاجتماع المعاصر يشهد صحوة جديدة تدعو إلى انبعاث جديد ليعود علم الاجتماع مرة أخرى نظاما عالميا محركة تقدمية تكشف الطريق امام صانع القرار وتكشف الزيف في وعي الجماهير.

إن الحديث عن علم الاجتماع في العالم العربي يتطلب مراجعة منهجية ونظرية من قبل علماء الاجتماع العرب، فبالرغم من النداء المتكرر والحركة النقدية في علم الاجتماع العربي، إلا أنه لم يحن الوقت بعد لظهور علم اجتماع له هوية عربية. إن علم الاجتماع الذي يدرس في الوطن العربي علم مغترب وليس له أي تأثير خارج نطاق أسوار الجامعة، ولهذا جاءت معظم البحوث السوسيولوجية مهمشة للواقع وقضاياه ويغلب عليها التلفيق النظرى ولم يتصدى لمشاكل الجماهير الحقيقية. إننا مازلنا نأمل بعلم اجتماع عربي له وعي وحس صادق شبيه " يحي بن يقظان".

إن المؤلف الذي نقدم له وضع من أجل القارئ والطالب، ففيه عرضا لتعريف علم الاجتماع ومجالاته وعلاقته بالعلوم الاجتماعية الأخرى، وفي الباب الثاني تعرضنا لميكانيزمات التفاعل بين الفرد والمجتمع. أما الباب الثالث فقد خصصناه لمعالجة النظم الاجتماعية الأساسية: السياسة والاقتصاد والدين والأسرة.

إننا نرجو بهذا العمل أن نكون قدمنا علم الاجتماع في صورة سلسلة يعم النفع منه.

والله ولي التوفيق.

المؤلفان

الفهرست

" أعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصفة، غريب النزعة . غزير الفائدة. اعتير عليه بالبحث، وأدى إليه الغوص . ليس من علم الخطابة . الذي هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه. ولا هو أيضا من علم السياسة المدينة، إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة وليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقائه. فقد خالف موضوعه موضوع هذين العلمين اللذين ربما يشبهانه. وكأنه علم مستنبط النشأة.

ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة، ما أدري لغفلتهم عن ذلك، وليس الظن بهم، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا؛ فالعلوم كثيرة والحكماء في أتم النوع الإنساني متعددون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل.

عزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب.. فقد استوفينا من مسائلة ما حسبناه كفاء له. ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم متين يغوص في مسائله على أكثر مما كتبناه، فليس على مستنبط العلم استقصاء مسائله، وإنما عليه يقين موضوع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه أو الناظرون يلحقون المسائل من بعده شيئًا فشيئًا إلى أن يكتمل.

ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهامًا واعثرنا على علم جعلنا من يكره وجهتيه خده، فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزته عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية، وإن فاتني شئ من إحصائه واشتبهت بغيره مسائله: فللناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأفسحت له الطريق، والله يهدي بنوره من يشاء". [1]

---

(1) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٧-٣٩، ٨٥-٨٨، ٩٠-٩٣.



الباب الأول

علم الاجتماع : المجال، المجال، المنهج

الفصل الأول : علم الاجتماع ... لماذا ؟

الفصل الثانى : علم الاجتماع والمنهج العلمى.



الفصل الأول

علم الاجتماع ... لماذا؟

١- اهتمامات علم الاجتماع.

٢- من هو عالم الاجتماع؟

٣- ما هو علم الاجتماع؟

٤- علم الاجتماع كعلم.

٥- أغراض علم الاجتماع.

٦- تعريف علم الاجتماع.

٧- مجالات علم الاجتماع.

٨- موضوعات علم الاجتماع وفروعه.

٩- علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى.

الفصل الأول

علم الاجتماع ... لماذا؟

١ - اهتمامات علم الاجتماع:

إن الانطباع العام عن علم الاجتماع للرجل العادى يكشف عن أن هناك وجهتى نظر، بالرغم من شيوعهما إلا أنهما متعارضتان، فوجهة النظر الأولى تنظر إلى علم الاجتماع على أنه علم "غامض" و "متعال"، والنظرة الأخرى تنظر إلى علم الاجتماع على أنه الأساس العقائدي للثورات. والحقيقة أن هاتين النظريتين خاطئتان، فعلم الاجتماع يحتوى مجالات أكثر وأبعد من ذلك.

فعندما يواجه الناس المشاكل التى تعترضهم من كل ما يحيط بهم، نجد الكثير منهم لا يحتمل الصبر، بل يطالب بحل سريع لهذه المشاكل، فمنهم مثلا من يريد أن يضع حلاً سريعاً لمشكلة المدارس التى لا توفر الإمكانيات المادية للأطفال، والبعض الآخر يريد أن يعرف كيف نتجنب الحروب فى الشرق الاوسط، وهناك فريق ثالث يلح فى معرفة امكانية الحصول على مصدر وافر من البترول بأسعار معتدلة، وفريق رابع يحاول البحث عن الوسائل التى بها يتجنب المجتمع الكساد الاقتصادى وكيفية تحقيق الرعاية الصحية الملائمة وكيفية ممارسة الحق الانتخابى بطريقة سليمة .. وهكذا. كل هذا يشكل الاهتمامات اليومية التى يهتم بها رجل الشارع وينظر إلى علماء الاجتماع ليقدموا لها الحلول المناسبة.

والحق أن علماء الاجتماع لا يستطيعون حل مثل هذه المشاكل. ذلك لأن وظيفة علماء الاجتماع تنحصر فى جمع الحقائق عن المجتمع بطريقة سليمة ومنظمة . ولهذا فعلماء الاجتماع يؤكدون على أن الحلول الموثوق فيها لابد أن ترتبط بمعرفة كافية عن الحقائق المرتبطة بالمشكلة التى نبحث لها عن هذه الحلول.

فى الكثير من الأحيان تبدو مجهودات علماء الاجتماع على أنها اجتهادات غير ملائمة لهذا السبب. فالهيئات والأشخاص الذين يمولون الكثير من البحوث الاجتماعية فى عجلة دائمة لإيجاد الحلول العملية بالمشاكل التى تواجههم. فهم لم يكتفوا ولم يكفوا عن تحليل لماذا يقوم علماء الاجتماع بأبحاثهم عن: كيف يختار الناس أزواجهم وكيف يتكيف الأطفال فى حياة الجماعة وفى مجتمعهم المحلى. أو لماذا يتعاطى بعض طلاب الجامعات العقاقير والمخدرات .. الخ. فعلماء الاجتماع لديهم تعطش للمعرفة سواء كانت لها اتصال مباشر أو غير مباشر بالحلول العملية لمشاكل المجتمع. وهم يدركون جيداً من تعمقهم فى تاريخ العلم أن ما يبدو الآن على أنه ليس بذى أهمية أو ما لا ينظر إليه أنه حقيقة عملية ذات فائدة جمعت فى مرحلة معينة ربما سوف يقدم فيما بعد المادة الأساسية المتطلبة لتقديم الحلول العملية، ولهذا يركز علماء الاجتماع جهدهم الرئيسى لجمع الحقائق وغالباً ما يجدون أنفسهم مطالبين بدراسة أكثر عن العالم الاجتماعى المحيط بهم.

ومع أواخر الستينات وبداية السبعينات من هذا القرن برزت بشكل واضح الحركات الاجتماعية والمعارضة، مثل الحركة المضادة للحرب وحركة السود فى أمريكا وحركة تحرير المرأة .. الخ، ولهذا لوحظ تدفق أعداد كبيرة من الدارسين لمحاضرات علم الاجتماع لمعرفة ماذا يعرف علماء الاجتماع عن المجتمع، وتصور البعض منهم خطأ أن علم الاجتماع قد يمد هؤلاء الدارسين بالوسائل العقلية والفعلية التى من خلالها يستطيعون أن يصقلوا أو يغيروا ما هو قائم. والحق أن هذه الحركات المعارضة وجهت الأذهان لأحد الموضوعات الجوهرية لعلم الاجتماع، وهو المناقشة المتصلة للوضع القائم. ومن ثم فإن علم الاجتماع يناقش ويهتم بموضوع التغير الاجتماعى. وقد تستطيع كل المجتمعات والجماعات أن تضع لنفسها افتراضات تخمينية تؤيد ممارستها الخاصة. ولكن الأمر يختلف بالنسبة لعلماء الاجتماع، فهم ينظرون إلى الجماعات والمجتمعات بمنظور شامل، وهم فى هذا يناقشون الطرق القائمة للقيام بأى سلوك، وهم فى

هذا أيضا يتشككون يناقشون كيفية تغيير ما هو قائم. ومن ثم يحاولون وضع أسس التغير المطلوب.

ويدرك أولوا القوة والأمر فى مؤسسات المجتمع هذه الحقيقة. وغالبا ما ينظرون بعين من الريبة إلى علماء الاجتماع. مثال على ذلك رفض بعض الشركات فى الدول المتقدمة لتعيين بعض المتخصصين فى علم الاجتماع. وذلك لأنها نظرت إليهم على أنهم راديكاليين وثوريين، وغير ذلك من الأمثلة الأخرى. وهكذا نرى أن علم الاجتماع ينظر إليه على أنه ميكانيزم للوضع القائم. فعلم الاجتماع يناقش ويتساءل ويقدم التقارير التى تشير إلى وجود البدائل فى عادات وممارسات مجتمعات وجماعات أخرى. ومن هنا يمكن القول بأن علم الاجتماع يدعم التغير الاجتماعى.

وكما يتساءل علم الاجتماع وعلماؤه عن الوضع القائم ويتشككون فيه، فهم كذلك يتساءلون عن الحركات الثورية والمعارضة التى سوف تحل محل النظام القائم. ويدرك علماء الاجتماع على سبيل المثال أن هذه الثورات لديها القليل من التجديدات. ولهذا بعد أن تنجح هذه الثورات غالباً ما تنتهى وتموت، وتعود الأشياء مرة أخرى لما كانت عليه قبل ذلك. فالثورات فى العشر سنوات الأخيرة، أكدت على الحاجة الكاملة لتدمير أو هلاك البناء القائم، ومن ناحية أخرى أن هذه الثورات تدعى أنها تعارض النظام برمته. وربما يكون هذا الموقف صحيحا للجماعات المعارضة، ومن هنا يختلف علماء الاجتماع والراديكاليون المتطرفون، بالرغم من أن علماء الاجتماع يعترفون بأن ما يسمى بالنظام القائم ليس بشىء مقدس، فهم أيضاً يرون أنه يجب أن نقرر أن هناك نظام، وأنه لابد من وجود بعض القواعد والمقاييس التى تعد ضرورية إن لم تكن حتمية. فتصور مجتمع يفعل فيه أفراده ما يشاءون بحرية تامة لن يكون إلا ضرباً من التشويش الكامل، ولا يمكن له أن يعمل وأن يستمر. بهذا المعنى يمكن أن ينظر إلى عالم الاجتماع على أنه محافظ. فعلماء الاجتماع يدركون أن المجتمع الذى يشمئز من عدم النظافة مثل الطبيعة التى تشمئز من الفراغ.

٢- من هو عالم الاجتماع؟

يمكننا مما سبق أن نقول إن عالم الاجتماع هو "جامع للبيانات" وهو كاشف الميكانيزمات المتناقضة في الوضع القائم، ويناقش أي نظام اجتماعي جديد ويؤكد على أن النظام ضروري في الحياة الاجتماعية. هذا لأن يعلل سر تأكيده على حتمية التغير الاجتماعي.

ونظراً لاتساع المجتمع فإنه من الصعوبة أن يستطيع باحث بمفرده أن يدرس هذا المجتمع، علاوة على ذلك فإن الباحثين غالبا ما يعملون بمفردهم أو وهم في جماعات صغيرة وبإمكانيات محدودة. وعلماء الاجتماع دائماً ما يقرون أنهم لا يستطيعون أن يتأكدوا من أن دراستهم قائمة على معلومات صادقة وثابتة كلية. فهم لا يستطيعون دراسة المشكلة ككل، وخلال مجرى الزمن كله. وأكثر من هذا، فإن علماء الاجتماع يعترفون بأنه في حالة مجتمع متغير فإن ما يعد حقيقياً وصادقاً في العام الماضي أو في الحقبة الماضية، لا يصبح هكذا الآن، ولهذا يؤكد علماء الاجتماع بأنه لكي نصل إلى التعميمات، فإنه يجب أن تكون المعرفة حديثة باستمرار.

وبعد أن أوضحنا هذه الحدود المنهجية للمعرفة السوسيولوجية فإنه يمكننا أن نتساءل كيف يعرف علماء الاجتماع أن نتائجهم جديرة بالثقة؟ الحقيقة أن علماء الاجتماع لا يعرفون الإجابة على هذا بطريقة قاطعة، فهناك بعض الإجراءات الفنية التي تستخدم لضمان عدم وجود تحيز وتساعد على تأمين نوعية البيانات.

ولكن الحقيقة ليست قاطعة في كل هذا؟ وإلى حد ما يجب على علماء الاجتماع أن يستخدموا أحكامهم الخاصة في تقرير درجة الثقة التي تعطى لنتائجهم في أبحاثهم، وهذا يفسر لماذا يطالب علماء الاجتماع بالالتزام بقوانين مهنتهم. فهم مطالبون بجعل أبحاثهم ودراساتهم عامة ومنشورة، ولهذا نجد أن هذه الأعمال تتضمن اعتبارات منهجية عن المناهج والطرق والأدوات التي استخدمها الباحث في الحصول على معلوماته. كذلك تضمن هذه البحوث

تقرير عن درجة ثبات وصدق هذه المعلومات. وفي أحيان كثيرة نجد أن الباحث يقدم البيانات التفصيلية عن دراسته. ومن المعروف أن علماء الاجتماع غالبا ما يجتمعون في شكل مؤتمرات دورية إما إقليميا أو قوميا أو عالميا وغالبا ما يناقشون وجها لوجه أعمالهم. وخلال هذه المناقشات سواء كانت على صفحات الكتب أو في المؤتمرات فإن كل باحث عليه أن يفحص أعمال الآخرين وما فيها من أخطاء وعند اكتشاف أي خطأ فإن الدراسة بأكملها توضع محل اختبار وذلك بإعادة البحث مرة أخرى وتصحيح مصادر الخطأ. وبالرغم من أن هذه العملية غالباً ما تكون طويلة إلا أنه مع الوقت فإن كثير من الأخطاء في الدراسات السوسيولوجية قد تنحصر بالتدريج. وذلك حتى يستطيع علماء الاجتماع أن يضعوا اعتبارهم لقبول البحث أو العمل العلمي، ولا يتم ذلك في شكل مراسين رسمين. ولكن بتحديد نتائج الأبحاث المقبلة. ومعنى هذا أن الحكم الجمعي لزملاء المهنة هو الأساس لتقيم المعرفة السوسيولوجي فعندما يقتنع علماء الاجتماع بأى عمل. فمعنى هذا أن هذا العمل يعد مقبولاً. وقد يخطأ المقيمين في بعض الأحيان، ولكن من حق علماء الاجتماع أن يناقشوا ويفحصوا وينقدوا أى عمل. فربما يقدم لنا البعض أسئلة جيدة أو يكتشف مصادر أخرى للخطأ. وهذا يفسر لنا كيف يتقدم علم الاجتماع. وهذا يؤكد أن علم الاجتماع هو الدراسة العلمية للمجتمع الإنساني وللسلوك الإنساني.

٣- ما هو علم الاجتماع [1]:

يجدر لنا بعد ذلك أن نحدد ما هو علم الاجتماع؟

يعتبر "أوجست كونت" Auguest Conte أول من أطلق مصطلح علم الاجتماع Sociologue عام ١٨٣٩. ولقد كان يريد أن يطلق على العلم الجديد الفيزياء الاجتماعية، ولكنه نبذ هذا المصطلح بعد أن بدأ "العالم البلجيكي" أدولف كاتيليه" Adolphe quetelet في عمل دراسات إحصائية عن المجتمع وسمى هذا الميدان من بحثه بالفيزياء الاجتماعية ومع أن مصطلح علم

---

(1) Timasheff N Sociological Theory. p 3-12

الاجتماع تركيب من اللاتينية واليونانية إلا أن هذين الشقين يصفان ببراعة ما يهدف العلم الجديد إلى إحرازه.

و "Logy" تعنى الدراسة على مستوى عالى من التخصص، وعلى سبيل المثال البيولوجيا وعلم النفس يعتبران دراسة متخصصة للحياة والعقل على التوالي. ولفظة Socio تشير إلى المجتمع، وهكذا فإن شقى علم الاجتماع يعنيان "دراسة المجتمع على مستوى عال من التعميم والتجريد"، وهذا التعريف يعرف منه المرء ما هو المجتمع، وسوف يبدأ فى الظهور الدور المنطقى، إذا كان علم الاجتماع قد عرف بأنه علم المجتمع والمجتمع يجب أن يعرف عن طريق علم الاجتماع فإننا سوف ندور فى حلقة مفرغة. ومثل هذا الغموض غالباً ما يحدث فى الخطوات الأولى للبحث العلمي، والمشكلة يمكن حلها بإعطاء موضوع الدراسة مجالاً محدداً.

نستطيع أن نحدد فاصلاً بين علم الاجتماع وبقية العلوم الأخرى التى موضوعها الإنسان سواء كان أفراداً أو جماعات. فالفسيولوجيا تدرس وظائف الكائنات البشرية التى توجد فى كل إنسان، والانثربولوجيا الفيزقية تدرس فاعلية التغير فى بناء أجسام هذه الكائنات ودرجات الاختلاف فى ذلك. أما علم النفس فيدرس العمليات العقلية الموجودة بداخل عقول الأفراد ويدرس كذلك كيف أن الكائن البشرى يرد ويسمع ويشعر ويستجيب للإحساسات وهكذا. وعلم الاجتماع لا يهتم بالتركيب البنائي للإنسان ووظائف أعضائه أو عملياته العقلية أو ما شابه ذلك. ولكنه يهتم بما إذا يحدث عندما يقابل إنسان إنساناً آخر، وعندما تدخل الكائنات البشرية فى شكل جماعات فى تعاون او صراع وعندما يتغلب أحدها على الأخرى، إن وحدة الدراسة السوسيولوجية ليست الفرد بل هى رأى فردين، وبأى شكل ينتسب كل منها للآخر، وعلى كل حال، فمع أن مادة موضوع علم الاجتماع هى الناس فى علاقتهم المتبادلة، فإن ميدان علم الاجتماع لا يشمل كل أنواع الدراسات عن الإنسان فى علاقاته. لأن الإنسان أيضا يدرس فى فروع أخرى كعلم النفس الاجتماعى والتاريخ وبعض العلوم الأخرى.

أدرك "أوجست كونت Conte و"سان سيمون" Saint Simon الحاجة لهذا العلم الجديد. فكتب "كونت" في عام ١٨٢٢ يقول: "نحن الآن لدينا فيزياء فلكية وفيزياء أرضية وفيزياء آلية أو كيميائية ولدينا فيزياء نباتية وفيزياء حيوانية ولكننا مازلنا في حاجة إلى فيزياء أخرى وأخيرة هي الفيزياء الاجتماعية ليكتمل نظام معرفتنا بالطبيعة وأقصد الفيزياء الاجتماعية. إنها العلم الذي يدرس الظواهر الاجتماعية بطريقة موضوعية بنفس الروح التي ينظر بها إلى ظواهر الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو الفسيولوجيا أي أن تخضع الظواهر الاجتماعية لقوانين ثابتة"[1].

٤- علم الاجتماع كعلم:

والسؤال الذي يطرح أحيانا "هل علم الاجتماع علماً؟ والإجابة الصحيحة لا يمكن تقسيمها إلى قسمين، نعم أو لا. بالرغم من الإجابة يجب أن تكون في شكل درجة. أي إلى أي درجة يكون علم الاجتماع علما. ويقاس العلم بثلاثة قواعد، ثبات مادة المعلومات ونظامه ومنهجه [2].

أ- وبالنسبة إلى المعرفة الموثوق بها Reliabte Knowledge، فإن علم الاجتماع بالرغم من حداثته، إلا أنه بدأ بداية طيبة في كل دراساته. مثل مشكلة السكان، والأسرة والسلوك الجمعي، وتطوير النظم، وعمليات التغير الاجتماعي، وكذلك في بعض المجالات المختلفة الأخرى. فالكثير من دراسات وبحوث علم الاجتماع قد تجاوزت نطاق الزمان والمكان. وبالرغم من ذلك فإنه لم تزل التعميمات السوسيولوجية ضعيفة نسبياً، ولقد أحرز علم الاجتماع بعض النجاح وعلى سبيل المثال في إصدار التعميمات التي تتعلق بالأسرة وبعض النظم الاخرى. ولكن التنبؤ في علم الاجتماع عرضة للخطأ في كثير من بعض الحالات، وقد يكون الخطأ محدوداً مثل التنبؤ ببعض الآثار الاجتماعية للاختراع أو الآثار الاجتماعية لدورة العمل.

---

(1) Ibid. p 19

(2) Ogburn. Nimkoff. Hadbook Sociology. 1958

وفي بعض الحالات الاجتماعية تكون المعرفة الموثوق بها صعبة التحقيق، مثل الحالات التي يكون القياس نادرا أو التي تكون الملاحظة فيها تعتمد على الإحساس الذاتي بدلاً من اعتمادها على التسجيلات الموضوعية من خلال الملاحظة، وبالطبع هناك ميادين أخرى مثل الدين والفن لا يمكن أن تخضع تماماً للمنهج العلمي.

ب- أما تصنيف المعرفة Organization of Knowledge، فمن المعروف أن تنوع مجموعة من الحقائق لا تشكل علماً، ولكن العلاقات المتبادلة بين العناصر والحقائق. وقيمة التبويب أو التصنيف في تنسيق النماذج الذى يحقق مزيد من المعلومات هي التي تشكل العلم، ونظام العلم يقوم على دعامة العلاقات المتبادلة حيث أن أجزاء المعلومات يستند كل منها للآخر، وهناك في علم الاجتماع كثير من العلاقات المتبادلة المتشابكة، وهي كافية لأن تعطى كثير من المؤشرات لمزيد من الاكتشافات، ولكنها مع ذلك ليست كافية لكي تعطى تسيقا لكل المجالات. فالمزيد من المعلومات المعتمد عليها هي التي يمكن أن تمدنا بمثل هذا النظام العلمي.

جـ- المنهج Method الشعوب البدائية لديها معلومات عن الأسلحة والآلات والملابس والمنازل التي يمكن الاعتماد عليها، ولكن هذه المعلومات لا تشكل علماً يزعم بعض المفكرين إلى أن الشعوب البدائية ليست لديها المنهج العلمي الذى أخذناه عند بداية العلم على يد بيكون Bacon و" كوبر نيكس" Copernicus و"جاليليو" Galileo فما هو هذا المنهج؟ غالباً ما يكشف الرجل البدائي ويعرف الأشياء سواء كانت لمعرفة محدودة أو كافية فإن ذلك يكون بواسطة المحاولة Trail والخطأ error والمنهج العلمي أقل إنفاقاً وأسرع. وتجربة المعمل التي تعد مساعد لكثير من علماء الطبيعة، فإن استعمالها غير شائع في علم الاجتماع، ولكن علم الاجتماع لديه بديل لتجربة المعمل. ولو أننا تساءلنا عن ماهية تجربة المعمل. وبالتأكيد ليست حجرة بأجهزة، وتجربة المعمل على العموم وسيلة لنقيس بها العلاقة بين متغيرين بينما نثبت بعض العوامل الأخرى. في علم الاجتماع نفعل نفس الشيء، ليس في المعمل ولكن

بالإحصاء. ولدى علم الاجتماع الآن مناهج على درجة عالية من الدقة ولكن الصعوبة تكمن في إعطاء المدلولات السوسيولوجية تفسيرا مناسبا. ويقوم معظم العمل السوسيولوجي على جعل المعلومات أكثر دقة.

٥- أغراض علم الاجتماع:

إن لعلم الاجتماع أغراض عديدة ويمكن أن نجملها في قولنا أن لعلم الاجتماع أغراض نظرية وأخرى عملية.

أ- الأغراض النظرية لعلم الاجتماع:

وهي تتلخص في الآتي:

١- دراسة طبيعة الحقائق الاجتماعية وما يتصل بها للوقوف على نشأتها وعلى المبادئ العامة للحياة الاجتماعية والدعائم التي ترتكز عليها (١).

٢- دراسة تطور الظواهر الاجتماعية واختلافها باختلاف الأزمنة وباختلاف الشعوب.

٣- دراسة العلاقات التي تربط الحقائق الاجتماعية بعضها بالبعض الآخر أي دراسة العلاقات والروابط الاجتماعية والوقوف على مبلغ التفاعل الذي يحدث بينها وما ينجم عن ذلك من آثار في حياة الأفراد بصفة خاصة وحياة المجتمع بصفة عامة.

٤- تحديد علاقة العوامل الاجتماعية بالحضارة أو الثقافة بصفة عامة.

٥- الكشف عن الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها الظواهر والنظم الاجتماعية وتطور هذه الوظائف واختلافها باختلاف المجتمعات.

٦- الوصول إلى القوانين الاجتماعية التي تخضع لها طوائف الظواهر الاجتماعية والتي تحكمها في نشأتها وتطورها وعلاقتها المتبادلة والوظائف التي تؤديها.

---

(١) عاطف غيث. علم الاجتماع. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. ١٩٧٧م.

ويعتبر الغرضان الأخيران هما أهم الأغراض جميعاً وأجدرها بالعناية والدراسة. ذلك لأن الهدف الأساسي الذي يقصده الباحث عن دراسة نظام ما أو أية ظاهرة هي الوقوف على الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها النظام أو تحققه الظاهرة في حياة الفرد والجماعة. وذلك للبحث فيما إذا كان من الممكن الارتقاء بهذه الوظيفة لإسعاد الفرد وتحقيق أكبر قسط من منافعه. أما عن محاولة الوصول إلى القوانين العامة هي النقطة الأساسية التي تضفي على العلم الوجود الحقيقي. وبدون الأحكام العامة والقوانين الكلية تصبح الدراسة عديمة الجدوى ولا ينطبق عليها اسم "علم". ولعل هذه النقطة بالذات هي التي أخرت قيام علم الاجتماع وفوتت عليه فرصة النشأة والاستقلال منذ القدم بشأن فروع المعرفة الإنسانية الأخرى، ويرجع ذلك إلى أن العلماء الذين كانوا يكتبون في الدراسات الاجتماعية ويعالجون شئون المجتمع. لم يحاولوا الوصول إلى القوانين الاجتماعية التي تحكم الظواهر المدروسة اعتقاداً منهم أن الظواهر الاجتماعية لا تخضع بطبيعتها لفكرة القانون. وإنها لا تدرس إلا في ضوء النظريات الخاصة. وكأن هذا الاعتقاد هو نقطة الضعف في بحوثهم. فلما امتد المنهج الوضعي حتى شمل هذه الظواهر أصبح الوصول إلى كشف القوانين الاجتماعية وصياغتها هو المرحلة الهامة لاستكمال علم الاجتماع خصائص العلم المستقل.

ب- الأغراض العملية لعلم الاجتماع:

ويقصد بذلك أنه من الممكن الانتفاع بحقائق هذا العلم في الناحية العملية والاهتداء في ضوئه إلى ما ينبغي عمله في الحياة للارتقاء بأحوال المجتمعات وحل مشكلاتها وتحسين مستويات الجنس الإنساني بصفة عامة. فمن الممكن أن تقام على قواعد علم الاجتماع بحوث فنية ترشدنا إلى ما ينبغي عمله في محاولة إصلاح ما هو معتل من شئون المجتمع والقضاء على علله والانحرافات التي تنشأ فيه ورسم خطط وتصميمات الإصلاح.

١- تعريف علم الاجتماع:

إن تعريف علم الاجتماع ليس أمراً سهلاً أو هيناً، لعدم وجود اتفاق على تعريف محدد، وذلك لأن تعريف علم الاجتماع أمر مرتبط ارتباطاً تاماً بموضوعه ومنهجه. بل وبعلاقته بالعلوم الاجتماعية وغير الاجتماعية. من هنا تعددت التعاريف بتعدد العلماء وبتعدد النظريات والمذاهب الاجتماعية المختلفة. ومن المفيد هنا حقاً استعراض عدد من التعريفات لهذا العلم والتي تنبع من إطارات مختلفة من المفاهيم العام في النظرية السوسيولوجية، والتي تصور في نفس الوقت مدى التقارب الذى يتجه إليه علماء الاجتماع في بعض المسائل الأولية كتعريف العلم [1].

١- يعرف علم الاجتماع بأنه "علم المجتمع" على اعتبار أن المجتمع عبارة عن سلوك أى جماعة مكونة من أعضاء (كائنات) يحيون حياة متساندة ووسيلتهم الى ذلك التفاعل والعلاقات المتبادلة. ومن هنا يكون موضوع علم الاجتماع هو دراسة السلوك الاجتماعي الإنساني مع التأكيد على أهمية التفاعل الإنساني الذى يعبر عن سلوك الإنسان في علاقته بإنسان آخر. ولهذا يميل من يؤيد هذا التفسير إلى تعريف علم الاجتماع بصورة أكثر تحديداً بأنه: "مجموعة من التعميمات المترابطة تدور حول السلوك الاجتماعي الإنساني الذى نصل اليه عن طريق استخدام المناهج العلمية".

٢- ويعرف أجبرن Ogburn ونيمكوف Nimkoff علم الاجتماع من خلال مناقشتهما للتعريف الموجز له بأنه "الدراسة العلمية للحياة الاجتماعية"، ويرون أن الحياة الاجتماعية تقوم على التفاعل، والتفاعل يؤدى إلى التنظيم الاجتماعي الذى يؤدى بدوره إلى خلق أشياء كثيرة كالمباني والموسيقى والاخلاق - أى إلى خلق الثقافة - ومادام علما الاجتماع يدرس هذا كله فإنه

---

(١) د. عاطف غيث، علم الاجتماع - الجزء الأول، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٣، ص ١٣٤ - ١٣٥.

صالح لأن يكون علما عاما يعالج الخصائص المشتركة بين الجماعات والمجتمعات المختلفة (١).

٣- ويعرف أوجست كونت مؤسس علم الاجتماع هذا العلم بأنه "العلم الذى يدرس النظم الاجتماعية على الحالة التى بدت فيها والتطورات التى حدثت لها فيما بعد". أى أن كونت يريد من هذا العلم أن يدرس ظواهر المجتمع ومشاكله دراسة موضوعية Objective علمية كغيره من العلوم. ويدرس النظم الاجتماعية فى حالتها الساكنة والتغيرات التى تحدث لهذه النظم وما يترتب على ذلك كله من آثار"(٢).

٤- وهناك وجهة نظر أخرى فى تعريف علم الاجتماع يثيرها أو سيبوف فى كتابة المترجم تحت عنوان "قضايا علم الاجتماع" حيث يرى أن علم الاجتماع يهتم بدراسة نشأة ونمو واختفاء مختلف الأشكال أو العلاقات الاجتماعية وكذلك جميع الاتجاهات المتناقضة التى تؤثر فى هذه الأشكال، فعلماء الاجتماع يحللون دوافع الأفراد والمجموعات الاجتماعية والطبقات، ويدرسون الأنماط الموضوعية للعلاقات الاجتماعية، ومن هنا نجد أن دراسة البناء الاجتماعى للمجتمع كالعلاقات بين الطبقات وبعضها البعض والعلاقات داخل الطبقة الواحدة، والمؤسسات الاجتماعية التى تنظم هذه العلاقات ونمو تفاعل الأنظمة والتنظيمات الموجودة داخل المجتمع (٣).

٥- كما يعرف سوروكن Sorokin علم الاجتماع بأنه "دراسة الخصائص العامة المشتركة بين أنواع الظواهر الاجتماعية" لذلك تقتضى هذه الدراسة دراسة العلاقات والارتباطات بين الأنواع المختلفة من الظواهر الاجتماعية كالعلاقة بين الدين والاقتصاد مثلا. وأيضا دراسة العلاقات والارتباطات بين

---

(١) المرجع السابق ص١٣٥ - ١٣٦.

(٢) د. صلاح العبد. علم الاجتماع التطبيقى. القاهرة: دار التعاون للطبع والنشر. ١٩٧٢. ص٢٠.

(٣) أوسيبوف. قضايا علم الاجتماع. ترجمة د. سمير نعيم. د. فرج أحمد. القاهرة. دار المعارف. ١٩٧٠. ص٢٧.

الظواهر الاجتماعية والظواهر غير الاجتماعية كالجغرافية والبيولوجيا. وأخيراً دراسة الخصائص العامة المشتركة بين كل أنواع الظواهر الاجتماعية. التي تعتبر محصلة للدراسات السابقة.

واخيرا يؤكد سوروكن أن القول بأن تعريف علم الاجتماع بانه علم الثقافة او المجتمع أو العلاقات الإنسانية أو التفاعل الاجتماعي أو الصور الاجتماعية تعريفات غير دقيقة. لأنها لا تبرز الخصائص المميزة لعلم الاجتماع. كما أنها لا تحدد مكانه بدقة من العلوم الاجتماعية الأخرى (١).

٦- ويعرف رينيه مونييه علم الاجتماع بأنه "الدراسة الوصفية للمقارنة التفسيرية للمجتمعات الإنسانية حسب ما تسمح به مشاهدتها في الزمان والمكان" ويرى أن علم الاجتماع يجب أن يدرس الواقع في الحاضر والماضي لا على المثالي أو الممكن أي بعيدا عن الفلسفيات وما ينبغي أن يكون. ويرى أنه يصد بالوصف والمقارنة والتفسير في هذا التعريف بأن هذه الصفات الثلاثة هي التي تحدد روح العلم ومنهجه. وهو يرى أنه بالوصف والمقارنة والتفسير نقترب بعلم الاجتماع الى مصاف العلوم الطبيعية والتي وصلت إلى ذروة الموضوعية (٢).

٧- وهناك تعريف جونسون الذي يرى فيه أن علم الاجتماع هو العلم الذي "يدرس الجماعات الاجتماعية من حيث صور أو نماذج تنظيمها الداخلي. والعمليات التي تميل إلى استمرار أو تغيير هذه الصورة التنظيمية والعلاقات بين الجماعات". وهو يرى أن موضوع الجماعات الاجتماعية معقد للغاية بحيث تتطلب لمعالجته معالجة علمية مفاهيماً محدودة واصطلاحاً فنية معرفة تعريفاً جامعاً. كما أن كلمة "الجماعات" وهي ذات استعمال شائع في اللغة العادية. تحتاج هي الأخرى إلى مراجعة تعريفها وتحديدها بدقة لتؤدي الغرض الذي ننشده من الدراسة العلمية لها.

---

(١) د. عاطف غيث. مرجع سابق. ص١١٦ - ١١٧. ١٣٧.

(٢) رينيه مونييه. المدخل في علم الاجتماع. ترجمة د. السيد البدوي. الإسكندرية. دار نشر الثقافة. ١٩٥٣. ص١٩ - ٢٠.

ويقول. لسنا في حاجة إلى تأكيد أهمية الجماعات الاجتماعية، وذلك أن كلا منا ولد في جماعة أسرية وأن معظم أفعالنا منذ الولادة تمارس في حدود جماعة أو أخرى بل إن الانحراف ينشأ من جماعة. وأن عقائدنا وأهدافنا ملتصقة بجماعة تشارك فيها أو نود المشاركة فيها. لذلك يرى جونسون أن تحديد فكرة الجماعة كنسق اجتماعي أو كنسق للتفاعل الاجتماعي تبدأ بالتمييز بين الجماعات وبين العلاقات الاجتماعية بصفة عامة. فيقول أن العلاقة الاجتماعية تقوم الى المدى الذي يتفاعل فيه فردان أو أكثر أو جماعتان أو أكثر أو أفراداً وجماعات مع أي عدد منها. كما أن العلاقات الاجتماعية تختلف عن التفاعلات المؤقتة كتبادل التحية مثلا. وكل الجماعات عبارة عن علاقات اجتماعية، ولكن ليست كل العلاقات الاجتماعية جماعات، فالجماعة من حيث الاصطلاح تتضمن درجة من التعاون بين أعضائها للوصول إلى أهداف مشتركة. فالأسرة مثلاً قد يكون هناك اختلاف في الاتجاهات بين أعضائها، ومع ذلك لابد أن تتعاون ككل للحفاظ على البيت.

واضح أن جونسون يعرف علم الاجتماع في ضوء "الفعل الاجتماعي" الهادف الذي يتحرك لبلوغ غايته داخل الجماعة. وما يترتب على الوجود الجماعي من تفاعل وعلاقات وصور متعددة للنشاط تشمل كل مطالب الإنسان. لذلك يهتم جونسون بدراسة الثقافة باعتبارها لها تأثير جوهري في عمليات المجتمع الهامة كالتنشئة الاجتماعية. فالثقافة لها أهميتها الجوهرية في تشكيل الفعل الاجتماعي هذا [1].

وتوجد حاليا تعاريف عديدة لعلم الاجتماع ولكن يمكن أن نميز في محيطها بين اتجاهين أساسيين (وهما يهتمان بناحية الإصلاح الاجتماعي):

الأول: يرى أن يكون مجال العلم مقصوراً على جمع الحقائق عن المجتمع وعرضها على المربين والمصلحين الاجتماعيين للاستفادة منها في

---

(1) د. عاطف غيث، مرجع سابق، ص١٣٩ – ١٤١.

وضع السياسة الإصلاحية العامة وبذلك يكون علم الاجتماع علما خالصا تقتصر مهمته على جمع الحقائق فقط.

الثاني: يرى ألا يقتصر دور العلم على ذلك، بل يجب أن يتعداه إلى وضع السياسة الإصلاحية أو المساعدة في ذلك - حيث أن اشتراك الباحث في تخطيط السياسة الإصلاحية يجب أن يجعل لها الصفة الواقعية ويجعل إمكانية الاستفادة منها كاملة لإلمامه بمشاكل المجتمع إلماماً علمياً وعملياً (١).

مما سبق تبين لنا الاختلاف الواضح في تعريف علم الاجتماع، هذا الاختلاف الراجع إلى عوامل عديدة منها فلسفية وأيدلوجية وتاريخية وغير ذلك. عموما، يمكننا حصر الاختلاف في نقطتين أساسيتين هما:

أ- خلاف على طبيعة العلم وخصائصه بالتطبيق على دراسة المجتمع. وينحصر الخلاف هنا على نوع الحقائق التي تصلح للمعالجة العلمية وخصائص المنهج الصالح للتطبيق، ومثال ذلك ما ذهب إليه لندبرج من أن علم الاجتماع يمكن أن يستخدم مناهج وأفكار العلوم الطبيعية، لأنه هو الآخر علم طبيعي، وما ذهب إليه آخرون من أن الحقيقة الاجتماعية من طبيعة مختلفة عن الحقيقة الطبيعية، ولذلك تتطلب معالجة مختلفة.

ب- خلاف على الوحدة الاجتماعية في التحليل السوسيولوجي وأبعادها. بمعنى آخر كان الخلاف ولا يزال يدور حول الأساس الذي يقوم عليه المجتمع، هل هو الفعل أو العلاقة أو الجماعة. وأي منهم يمكن اعتباره أصغر وحدة تصلح كنقطة بدء في الدراسة. كما أن التفاعل الذي يخلق العلاقة يأخذ شكلاً معيناً ترسمه له الثقافة السائدة في المجتمع، ومن هنا تتحدد صورة البناء الاجتماعي ويتبلور في بوتقة الثقافة فيحدد طابع الشخصية الإجتماعية [٢].

---

(١) صلاح العبد، مرجع سابق، ص٢٠ – ٢١.

(٢) د. عاطف غيث، مرجع سابق، ص١٤٢ - ١٤٣.

٧- مجالات علم الاجتماع:

ويتساءل الكثير من طلاب علم الاجتماع عن ماذا يفعل علماء الاجتماع وما هي المهنة التي سوف يلتحقون بها لو أراد لهم أن يكونوا متخصصين في هذا العلم. وأوجست كونت - كما اشرنا - هو الذي أعطى اسم العلم في عام ١٨٣٧ ووصفه على أنه تاج العلوم. ولاشك أن نظرة واعتقاد كونت تحتوى شيئا من الصحة، فمجال علم الاجتماع أوسع من معظم ميادين العلوم الاجتماعية الأخرى. وطلاب علم الاجتماع ربما يأخذون تدريبا نظريا وعمليا في كل مجالات العلم ولكنهم بالضرورة يتخصصون في أحد فروع هذا العلم. ولهذا يجدر بنا أن نصف بعض هذه المجالات هنا.

١- يميل بعض علماء الاجتماع إلى أن يؤدوا أبحاثهم في مجال علم الجريمة Grimmology والأحداث الجانحين Tuvenile delinquency ويحاولون فهم ما هي الجريمة وما هي الأسباب التي تؤدي إليها وكيف يصبح الناس مجرمين. وكيف يعامل المجتمع الجريمة والمجرمين. وحديثا جاءت عبارة العدالة الجنائية لتشمل ثلاث فروع للقانون تنفيذ الأحكام. المحكمة. والإصلاح ويقوم علماء الاجتماع بعمل الابحاث في هذه المجالات الثلاثة. ويميل بعض علماء الاجتماع إلى استخدام مصطلح أوسع من الجريمة. ولهذا يستخدمون مصطلح آخر هو الانحراف deviance يتصف مجال تخصصهم ويشتمل موضوعات مثل إدمان الخمور (الكحوليات) والعقاقير. والبغاء. والشذوذ الجنسي.

٢- وعلم النفس الاجتماعي تخصص مشترك في كل من علم النفس وعلم الاجتماع. فاهتمام علماء الاجتماع يتدرج من الاهتمام بكيف تقع الجماعات الصغيرة مثل المحلقين واللجان والأسر وقراراتها إلى سلوك الناس في الازدحام ومواقف الشغل وهم أيضاً يدرسون تطور الرأى العام حول بعض المسائل الاجتماعية وكيف تنمو البدع والإشاعات.

٣- ولعل الأسرة والزواج مجالاً آخر من مجال البحث السوسيولوجي. فعلماء اجتماع الاسرة قد حللوا نماذج مختلفة من الاسرة في مجتمعات مختلفة. وهم في دراساتهم هذه صورة يؤكدون على أثر التحضر والتصنيع على بناءات الأسرة واستقرارها. كذلك يهتم علماء الاجتماع بالعلاقات الداخلية في الأسرة، مثل تفاوت السيطرة بين الأزواج والزوجات وهذا المجال له أيضاً ناحية عملية. وبعض علماء الاجتماع يعملون في مجال الأسرة والتربية الأسرية والزواج وتنظيم الأسرة ... الخ.

٤- ويهتم علم الاجتماع الحضرى بالأسباب التى تجعل جماعات معينة وأعمال معينة موجودة في أماكن مختلفة في المدن وتأثير ذلك على الحياة الاجتماعية عامة والتصور الداخلي للمدينة انتشار الضواحي يرمز إلى المشاكل الواضحة التي يجب أن يهتم بها عالم الاجتماع ويعمل الكثير من علماء الاجتماع مع وزارة الإسكان والمهندسين ومخططي المدن لخلق بيئة محتملة يسكنها الأفراد.

٥- ويتخصص بعض علماء الاجتماع في دراسة السكان Population وهم مهتمون بمقارنة معدلات النمو السكاني في فترات مختلفة من تاريخ مجتمعات متنوعة ومن أجل هذا فهم يحللون معدلات المواليد ومعدلات الوفيات وأنماط الهجرة ولاشك أن هذا مرتبط بمشاكل عملية أصبحت أيضا ضمن مجالات علم الاجتماع مثل وسائل منع الحمل وتنظيم الأسرة، فعلماء الاجتماع يقومون بأبحاث مكثفة حول عدد الأطفال الذين يريده الناس، إقبالهم وأحجامهم على استخدام وسائل مختلفة من تنظيم النسل والعوامل التي لها اتصال بإمكانية التخطيط الناجح.

٦- ودراسة وضع جماعات الأقلية وطريقة معاملتهم تشكل مجالا فى المدن في علم الاجتماع وتستخدم مفاهيم مثل التعصب والتفرقة ... الخ في الإقليمات العنصرية والدينية والقومية وفي علم الاجتماع الأمريكي نجد اهتمام الناس بمشكلة العلاقات بين الهنود وغيرهم والعلاقات بين الشرقية والبيض

ومشكلة الهنود الحمر وكذلك أصبحت المعالجة العلمية للنساء كجماعات أقلية من الميادين الحديثة في هذا الفرع.

٧- وميدان علم الاجتماع الطبي. غالبا ما يكون في المستشفات خاصة في تعليم وأبحاث المستشفيات وعلماء اجتماع الطب يدرسون الطرق التي تنظم بها الخدمات الطبية وكيف يؤثر التنظيم في الرعاية الصحية للمرضى وكذلك يهتمون بالطرق التي من خلالها تصل العوامل الاجتماعية في ظهور وعلاج بعض الأمراض وغالباً ما يكون علماء الاجتماع أساتذة يشرحون لطلبة الطب نماذج الأسرة والأنماط العنصرية والعوامل الاجتماعية الطبقية تؤثر في العلاقة بين الطبيب ومرضاه، كذلك يهتم هذا النوع بكل ما يتصل بالشيخوخة والمسنين.

والأمثلة السابقة تمثل جزءاً بسيطاً من عدة تخصصات في علم الاجتماع ولكنها تكشف صفات وتنوع الدراسة في علم الاجتماع.

ولقد حددت الجمعية الأمريكية في علم الاجتماع خمسة وثلاثون مجالاً للعلم على النحو التالي:

١- علم الاجتماع التطبيقي	Applied Sociology
٢- السلوك الجمعي	Collective behavior
٣- المجتمع المحلي	Community
٤- علم الاجتماع المقارن	Comparative Sociology
٥- الجريمة والجنوح	Crime and delinquency
٦- علم الاجتماع الثقافي	Cultural Sociology
٧- الديموجرافيا	Demography
٨- السلوك الانحرافي	Deviant behavier
٩- التعليم	Education
١٠- التنظيمات الرسمية والمركبة	Formal and complec organization

Human ecology	١١- الايكولوجيا البشرية
Industrial Sociology	١٢- علم الاجتماع الصناعي
Law and Society	١٣- القانون والمجتمع
Leisure/Sports, recreateion and arts	١٤- الفــراغ والرياضــة والترفيــه والفنون
Marriage and Family	١٥- الزواج والأسرة
Mathmatical Sociology	١٦- علم الاجتماع الرياضي
Medical Sociology	١٧- علم الاجتماع الطبي
Methodology and Statistics	١٨- المناهج والإحصاء
Multavy Sociology	١٩- علم الاجتماع العسكرى
Professions	٢٠- الوظائف والمهن
Polilical Sociology	٢١- علم الاجتماع السياسي
Race and ethnic relations	٢٢- العلاقات العنصرية والسلالية
Religion	٢٣- الدين
Rural Sociology	٢٤- علم الاجتماع الريفي
Small groups	٢٥- الجماعات الصغيرة
Social Change	٢٦- التغير الاجتماعي
Social Control	٢٧- الضبط الاجتماعي
Social Organization	٢٨- التنظيم الاجتماعي
Social Psychology	٢٩- علم النفس الاجتماعي
Stratification and Class	٣٠- التمايز والطبقة
Sociology Knowledge and Science	٣١- علم اجتماع المعرفة والعلم
Theory	٣٢- النظرية

٣٣- علم الاجتماع الحضرى Urban Sociology

٣٤- الاتصالات الجمعية Mass Communications

٣٥- الاقتصاد والمجتمع Economy and Society

٨- موضوعات علم الاجتماع وفروعه:

لازال تقسيم أوجست كونت لعلم الاجتماع إلى موضعين أساسيين هما الاستاتيكا الاجتماعية Social Statics والديناميكا الاجتماعية Social Dynamic محل موافقة كثيرين من علماء الاجتماع في مختلف أنحاء العالم من حيث الشكل على الأقل، وإن كانت تسمية كل موضوع قد تعدلت إلى تسمية الأول بالبناء الاجتماعي Social Structure، والثاني التغير الاجتماعي Social Change كما أن مضامين كل منهما يختلف اختلافاً كبيراً في كل اتجاه من اتجاهات علم الاجتماع المعاصر.

أما عالم الاجتماع الفرنسي دور كايم. فقد جعل الظواهر الاجتماعية الموضوع الرئيسي لعلم الاجتماع. ومن ثم اجتهد في تحديد خواصها التي تميزها عن غيرها من ظواهر الطبيعة أو الحياة الإنسانية. وعلى ذلك ينقسم علم الاجتماع إلى فروع عديدة بعدد الظواهر الاجتماعية الأمر الذى أدى إلى ظهور علوم الاجتماع الخاصة مثل علم الاجتماع الاقتصادي وعلم الاجتماع السياسي والديني والعائلي والانحراف والصناعي والطبي وغير ذلك من العلوم، وتكون مهمة علم الاجتماع العام حينئذ هي ربط النتائج العامة التي توصلت إليها هذه الفروع وسن القوانين أو التعميمات التي تفسر الحياة الاجتماعية تفسيراً شاملاً.

وهناك اتجاه آخر له أنصار كثيرون في علم الاجتماع، يتناول أقسام المجتمع بأنماطه المختلفة بالدراسية كوحدات متميزة بنوع خاص عن الحياة الاجتماعية نظراً للعوامل والظروف المتمايزة التي تؤثر على كل منها. ولذلك يدور اهتمام علم الاجتماع حول موضوعات مثل: دراسة المجتمعات

المحلية Communities التي تتميز بطابع جغرافي معين وبخصائص فارقة للسكان تفرقهم عن غيرهم من سكان المجتمعات المحلية الأخرى. كدراسة المجتمع الفردى مثلا ومحاولة الكشف عن بنائه الاجتماعي المتميز، وكيف يتطور المجتمع الفردى من المرحلة البسيطة القروية إلى المرحلة المدنية الحضرية. كما يميل علماء الاجتماع في أمريكا دراسة علم الاجتماع الحضرى الذى يهتم في المحل الأول بدراسة المدينة باعتبارها مجتمعاً متميزاً. وقد تطورت الدراسة فيه وتشعبت فروعها. ويزداد الاهتمام به بزيادة المدن عددا وحجما، غير أن هذا الفرع مازال يواجه العديد من الصعوبات أهمها عدم تحديد موضوعه بدقة وذلك لتنوع المناشط الاجتماعية داخل المدن الكبرى خاصة الصناعية منها. فمع زيادة التصنيع وتطوره أصبح من أهم الموضوعات التي تواجه سياسات الدول المختلفة. ويعتبر فروع علم الاجتماع الصناعي الذى يدرس مجتمع المصنع وما فيه من علاقات وعمليات اجتماعية نتاج لذلك. من هنا فإن علم الاجتماع الحضرى كان تحديد موضوعه بدقة أمرا صعباً نظراً لتعدد المناشط الاجتماعية داخل المدينة الواحدة.

غير أنه يمكن تحديد الموضوعات الأساسية في علم الاجتماع على النحو التالي:

أ- الجماعات الاجتماعية Social Groups:

وهى التي ينتمى إليها الناس بطرق مختلفة وتعتبر الجماعة نسقاً له بناء معين يتكون من أجزاء، كل جزء يؤدى وظيفة معينة في ضوء الوظيفة الكلية له. وتعتبر دراسة الجماعة أحد المداخل المهمة الآن لدراسة علم الاجتماع.

ب- العمليات الاجتماعية الاطرادية Social Processes:

وهى المصادر الأساسية للأفعال الاجتماعية من حيث الأغراض التي تتجه إليه والموجهات التي تعين مسارها. ويعتبر التعاون والتنافس والصراع أهم العمليات التي يعالجها علم الاجتماع.

جـ- الثقافة Culture:

وهي مجموعة الطرق الثابتة نسبيا، وذات الصفة العامة للتفكير التي تكون فعالة في مجتمع معين. أو هي نتاج العقل الإنساني من تفكير وعلم وفن وأدب وتكنولوجيا، ولذلك تكون الثقافة مدخلا هاما في دراسات علم الاجتماع. فالثقافة التي تؤدي إلى الاختلافات الواسعة النطاق بين النظم الاجتماعية.

د- الشخصية Personality:

وهي التي تكون موضوع التفاعل، والتفاعل في حد ذاته لا معنى له إلا إذا درس في ضوء المؤثرات الثقافية. ويهتم علم الاجتماع بدراسة الشخصية لأن المجتمع ليس إلا مجموعة من الشخصيات.

هـ- التغير Change:

وهو القانون الدائم في حياة المجتمعات، فالتغير بالنسبة لها كالتنفس بالنسبة للكائن الحي. وتعتبر دراسات التغير أهم موضوعات علم الاجتماع اليوم (١).

لعل ما سبق يجرنا إلى نقطة هامة وهي فروع علم الاجتماع. فطالما أن علم الاجتماع له مثل هذه الأهمية بالنسبة للفرد والمجتمع، وطالما أن موضوعاته بهذا التشعب كانت أيضاً فروعه عديدة بتعدد أهميته.

فالفرنسيون مثلاً يقسمون العلم عادة إلى سبعة فروع هي:

١- علم الاجتماع العام: ويشمل تعريفات العلم وموضوعه وتاريخه والمقصود بالوقائع الاجتماعية (الظواهر الاجتماعية) والعقل الجمعي ومناهج البحث في علم الاجتماع.

٢- علم الاجتماع الديني: وهو يشمل دراسة المبادئ الدينية التي تسود المجتمعات المختلفة. وما يتعلق بها من نظريات وطقوس.

---

(١) د. حسن شحاتة سعفان، أسس علم الاجتماع، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥، ص٤٥ - ٤٦.

٣- علم الاجتماع الأخلاقي والقضائي: ويدرس النظم القضائية والنظم الاسرية والسياسة والعادات والتقاليد.

٤- علم الاجتماع الجنائي: ويعالج بوجه خاص مشاكل الأسرة ومشاكل الجريمة من زواج وطلاق ومواليد ووفيات.

٥- علم الاجتماع الاقتصادي: ويدرس الظواهر والنظم الاقتصادية.

٦- علم الاجتماع اللغوي والفني.

٧- علم الاجتماع السكاني: ويدرس السكان وهجراتهم وتزايدهم وفياتهم وغير ذلك.

أما الأمريكيون فيقسمون علم الاجتماع إلى الموضوعات التالية:

١- علم اجتماع السكان والبيئة.

٢- الدراسات الثقافية: كدراسة العادات والتقاليد والتمثيل والتكيف الثقافي.

٣- دراسة الجماعة الاجتماعية.

٤- دراسة الشخصية.

٥- دراسة العمليات الاجتماعية والتكيف والصراع.

٦- علم اجتماع التنظيم.

٧- التغير الاجتماعي والحراك.

٨- دراسة المناهج الاجتماعية (١).

على أن المثالين اللذين ذكرناهما عن تصنيف فروع علم الاجتماع عن كل من الفرنسيين والأمريكان لا يدلان على الفروع العديدة التي وصل إليها علم الاجتماع المعاصر مثل علم الاجتماع الطبي، القيمي، الضبط الاجتماعي، علم النفس الاجتماعي، علم الاجتماع النظري، علم الاجتماع التربوي، علم الاجتماع الطبقي. وغير ذلك من الفروع.

---

(١) د. حسن شحاتة سعفان. المرجع السابق. ص٤٥-٤٦.

ولعل هذا التعدد في علم الاجتماع يعكس لنا الحاجة الملحة لهذا العلم الذى أصبح له إسهام فى كل صورة من صور حياتنا المعاصرة.

٩- علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى:

منذ أن أطلق كونت لفظة علم الاجتماع على العلم الجديد والجدل كما هو مستمر حول مكانة هذا العلم بين العلوم الأخرى. لقد رأى كونت أن العلم الجديد (علم الاجتماع) هو ملك العلوم فلقد رأى أن الإنسانية تتلمس الفكر الاجتماعى منذ البداية وتطور الفكر الإنسانى من التطور اللاهوتى إلى الميتافيزيقى إلى ما أسماه كونت بالمرحلة الوضعية حيث بدأ الناس فى السعى وراء القواعد العلمية للحياة الاجتماعية ليتمكنوا من توجيه مصائرهم على ضوء القوانين المكتشفة والتحقق منها عن طريق البحث والتجريب.

والحقيقة أن علم الاجتماع يشارك الكثير من العلوم التى تدرس أوجه نشاطات الإنسان المختلفة مثل الاقتصاد وعلم النفس والسياسة والتاريخ والأنثروبولوجيا وغيرها وربما تشير النظرة الأولى أن هذه العلوم منفصلة عن بعضها إلا أنها فى الحقيقة تشكل وحدة متكاملة. هذه الوحدة هى وحدة تجمع المتعددات المتمايزة وأن ميادين العلوم الاجتماعية تختلف اختلافاً أساسياً فى المجالات وفى التطبيق كما أن لكل منها طريقته الخاصة فى دراسة ظواهره ولكن نتائج البحوث متشابكة.

لا نستطيع الوصول إلى فهم سليم لحياة الإنسان الاجتماعية إذا نظرنا إليها من منظور واحد، ذلك لأن حياة الكائن الإنسانى حياة معقدة ومركبة، فإذا نظرنا مثلا الى الأسرة - فإننا نجد أنفسنا يمكن أن ننظر إليها من منظور علم الاقتصاد بناء على الأنشطة الاقتصادية التى يقوم بها الآباء لتوفر المعيشة لأفرادها. كما يمكن أن ننظر إليها من منظور علم القانون. حيث أن الزواج عبارة عن صك قانونى يبيح لرجل أن يتزوج امرأة ويعيش معها وينجب منها، كما أن العلاقة بين الزوج والزوجة والأبناء علاقة قانونية أيضاً حيث يكفلها القانون

بحمايته. كما يمكن النظر الى الاسرة من وجهة النظر النفسية وذلك بدراسة العوامل النفسية التي تودي إلى تماسك الاسرة أو إلى هدمها.

خلاصة القول، إن الحدود الفاصلة بين العلوم الاجتماعية المختلفة أمر غير واضح من حيث الواقع ومن حيث المبدأ، ومثل هذا الموقف خلق خلافات كثيرة مثلما تحلق خلافات الحدود بين الأمم من مجادلات ومشاكل كثيرة.

وإذا نظرنا إلى ذلك من الناحية العلمية البحتة نجد أن العلم لا يعرف حدا وربما كان أهم عوامل الخلاف بين العلوم الاجتماعية والصراع بين العلماء على مسائل لا تتصل بالمعرفة ذاتها وخير طريقة لفهم طبيعة العلوم الاجتماعية المتعددة أن نفحص ما يقوم به الباحثون لا ما يقولونه، ولسوف يتضح من ذلك أن أساس التمايز لا يمثل اختلافاً في الموضوع، لأن جميع هذه العلوم تدرس نفس الظواهر "حقائق الحياة الاجتماعية". أو بمعنى آخر يمكننا أن نقول إن الاختلافات تنصب على مركز الاهتمام أو النظرة الخاصة لكل علم من العلوم الاجتماعية. ومع ذلك فمن المناسب أن نلقي نظرة سريعة على أهم هذه العلوم وأكبرها اتصالا بعلم الاجتماع ليتضح مدى الصلة التي تربطها به:

١- الاقتصاد وعلم الاجتماع:

يدرس علم الاقتصاد كيف يصنع الإنسان حياته المادية ويهدف إلى إيجاد وحدات عامة لكل الظواهر الاقتصادية. والاقتصاد يهتم بالمتغيرات المجردة مثل الأجور والأسعار والسيولة النقدية ودراسة العلاقات الموجودة فيها فهو يهتم بانماط من التفاعل المتعلقة بانتاج وتوزيع البضائع والخدمات. وعالم الاجتماع ربما يهتم بمثل هذه الموضوعات ولكن يعطي اعتباراً كبيراً للسلوك الإنساني تجاه هذه المتغيرات أو بمعنى آخر يعطي أهمية للمتغيرات الاجتماعية في الظاهرة الاقتصادية. ولقد قدم ماركس هذا النموذج عندما يبين أن فكرة الصراع هي التي تفسر سلسلة الانتقالات الثورية داخل الأنظمة الاقتصادية فمن الشيوعية البدائية إلى العبودية القديمة إلى الإقطاع إلى الرأسمالية وأخيراً إلى الاشتراكية. فعلم الاجتماع ينظر إلى النشاط الاقتصادي على انه ما هو إلا

انعكاس للطريقة التي يحدد بها الناس نمط سلوكهم التى حددت لهم، وأن نشاط السوق دائماً مقياس الوجود والطلب ما هو إلا مظاهراً لأنماط السلوك التي ترتبط وظيفتها بالعقائد والعادات والتقاليد والانحراف فكل نظام اقتصادى لا يمكن فهمه الا في حدود ظروف المجتمع الذى يعمل فيه.

٢- السياسة وعلم الاجتماع:

يحصر علم السياسة دراسته في أشكال القوى الممثلة خاصة في منظمات حكومية، فهو يهدف إلى إيجاد مفاهيم عامة عن اكتتاب وتوزيع القوى في المجتمع، ولهذا نجد علماء السياسة يهتمون بدراسة مراكز القوة الممثلة فيه أو قد تبين للدولة الأساليب والأحزاب في الحكم التي يشار إليها بمفهوم البيروقراطية. وباختصار فإن علم السياسة يدرس النشاطات التي تهتم داخل التنظيم السياسي، وأكثر ذلك عن بقية التنظيم الاجتماعي وهو يركز في تحليله للتنظيم السياسي عن نتائج تلك التنظيم على أفراد المجتمع ومنظماته كما أنه يعتبر المتغيرات السياسة متغيرات مسببة أو مستقلة والمتغيرات الأخرى متابعة ومعتمدة.

يبلغ الفرق بين تحليل علم الاجتماع وعلم السياسة للظواهر السياسية عند مقارنة طريقة كل منها في دراسة دستور الولايات المتحدة الأمريكية، فالعلوم السياسية تعتمد على التحليل المعقد لمواد الدستور مع دراسة تاريخ تفسير هذه النصوص بواسطة القضاء في نفس الوقت ثم مناقشة المجهودات والعيوب القانونية في القرارات القضائية الهامة المختلفة وعلاقة الوقت ثم مناقشة المجهودات والعيوب القانونية في القرارات القضائية الهامة المختلفة وعلاقة الولايات بالحكومة المركزية ومعنى فصل السلطات والوقاية والموازنة والتفسير القانوني للحريات التي تتحول وثيقة حقوق المواطنين. أما علم الاجتماع فيهتم بوظائف نصوص الدستور في المجتمع الأكبر الذى يضم الولايات كأجزاء منه فقط وتظهر هذه الوظائف بشكل يتضح فيه تغيرها تحت تأثير الظروف التاريخية ثم يبحث علم الاجتماع عن الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى تراجع المحكمة العليا على مر السنين ودرجة فهم الناخبين للدستور. وباختصار يدرس

علم الاجتماع الدستور كسرك سياسي ظاهر واغفال القضاء والمواطنة الشرعية. كذلك ينظر عالم الاجتماع للرأى العام كوسيلة مثل القضايا العامة في المجتمع الديمقراطي، ثم يبحث الطريقة التي يتم بها تكوين الرأى العام بوسائل الإعلام المختلفة كالصحافة والمجلات والإذاعة والتليفزيون ومدى قابلية العامة للتأثير بالدعاية والإعلان والأثر العكسي لهذه الوسائل في التعليم وهذا يعنيه الحال يتضح تطويراً للاساليب الإحصائية للقياس واختيار عينات الرأى العام والتنبؤ بالرأى.

٣- التاريخ وعلم الاجتماع:

يهتم علم التاريخ بدراسة ما حدث فعلاً ويؤرخ لحوادث تاريخية في مواقف معينة فهو سجل حافل لتاريخ البشر يفرض الشروط والأسباب لحدوث المحددات التاريخية كما حدثت فالمؤرخ يختار من بين تلك الحوادث الكثيرة ما يراه أكثر أهمية ويعرض كيفية ارتباط حادثة معينة بحوادث أخرى وكل ذلك يتعلق بنظرة إلى الذاتية الخاصة.

وعالم الاجتماع يهتم بدراسة التاريخ ولكن على نحو مختلفة مهنته الأساسية هي:

١- الفهم الشمولي للعمليات الاجتماعية المتكررة بالنسبة للجماعة أو المجتمع، وبمعنى تحليل القوى الاجتماعية والثقافية والسياسية والعسكرية التي لعبت دوراً بارزاً في تشكيل الواقع الاجتماعي في فترة زمنية وكيف تمخض عن ذلك ظهور بعض الظواهر أو المشاكل الاجتماعية.

٢- الوقوف عند العلاقات العملية التي تربط الماضي والحاضر وكيف تفسر وتؤثر في المستقبل بمعنى أن عالم الاجتماع يهتم بالماضي لكي يفسر به الحاضر وكلاهما (الماضي والحاضر) يعمل صورة تنبؤية للمستقبل.

٣- تطوير بعض الفروض العلمية والتي قد تختبر فيما بعد في دراسات أخرى.

٤- الكشف عن النظريات التي تفسر التطور التاريخي مثل ما قام به ماركس في محاولة الكشف عن ميكانيزمات الصراع الاجتماعي وما ينتج عن ذلك من آثار اجتماعية واقتصادية وسياسية شكلت مجرى التاريخ الإنساني وكذلك يهدف البحث التاريخي وضع نظريات اجتماعية تفسر ثقافات وأشكال الحضارات الإنسانية مثل سوروكن وسيجر وباسونز وغيرهم في مجادلتهم. استقصاء التاريخ من أجل تفسير أشكال التغير الثقافي والاجتماعي في المجتمعات الإنسانية قديماً وحديثاً.

٤- علم النفس وعلم الاجتماع:

يدرس علم النفس الإنسان الفرد فهو يهتم بدراسة الدوافع والأحاسيس والشعور ويركز على العمليات العقلية والدوافع والرغبات وأثرهما في تكوين مقومات الشخصية كذلك هناك فروع من علم النفس تهتم بدراسة الغدد المختلفة لمعرفة مدى تأثيرها في تكوين الشخصية وطبع السلوك بطابع خاص وعلى العكس من ذلك يهتم علم الاجتماع بتفسير تفاعل الأفراد في الجماعات الاجتماعية والمجتمعات.

ويدرس المختصون في علم النفس الاجتماعي السلوك الاجتماعي لتوضيح كيفية سلوك الفرد والجماعة من ناحية لتوضيح أثر الاشتراك في الجماعات عن تحديد سلوك الأفراد من ناحية أخرى. كذلك يعطى اهتمامات تثيرت مشكلات السلوك الجماهيري مع تركيز على أثر وسائل الاتصال الجماهيري على الاتجاهات والقيم فتدرس الصحافة والسينما والإذاعة والتليفزيون على أنها أجهزة تؤثر في سلوك الجماهير تحمل مشابها في مجتمع يعتز بما لديه من قيم فردية.

والخلاصة أن علم الاجتماع يختلف عن علم النفس في أن علم الاجتماع يتخذ عن الجماعة الاجتماعية إطاراً مرجعياً في التحليل وبهذا يعتمد الفرد هذه المرة التحليل في كثير من البحوث النفسية وظهور علم النفس الاجتماعي هو

ميدان المشترك بين العلمين لدراسة التفاعل بين الأفراد والمعايير والقيم كثيرة في المجتمع.

٥- الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع:

تهتم الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان ببيان أوجه النشاط الإنساني في عصور قديمة أو مجتمعات معزولة وصغيرة نسبياً وهي باعتبارها تهتم أيضاً بدراسة الحضارة البشرية والتطور المادي والثقافي للإنسان. وتقسم الأنثروبولوجي إلى أربعة أقسام رئيسية هي: الأنثروبولوجية الفيزيقية وعلم الآثار والأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الاجتماعية. وتدرس الأنثروبولوجياة الفيزيقية الإنسان كامتداد للمملكة الحيوانية كما تدرس وراثة صفاته البيولوجية بمؤثرات بيئية ثم تصنفه تبعاً لسلالة. أما علم الآثار فيبحث عالم الأنثروبولوجيا عن آثار الإنسان ما قبل التاريخ مثل الحفريات والمخطوطات والنقوش والطيور والآثار التي تساعد على تصور حياة الجماعات والعلاقات والاجتماعية وتهتم الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة الثقافة كطريقة مشتركة للحياة توجه سلوك الناس في الجماعات والتي تنتقل إلى الأجيال عن طريق الاسرة والتعليم ووسائل الاتصال الأخرى كذلك يهتم الأنثروبولوجي بدراسة الثقافات الفرعية.

وتختص الأنثروبولوجيا الريفية بتطبيقات مفهوم الثقافة بكل تشعباته عن المجتمع والواقع أن وحدة البحث والتحليل في الأنثروبولوجيا هو المجتمع المحلي في مقابل ذلك نجد مفهوم المجتمع وعلم الاجتماع. تختلط الأنثروبولوجيا الآن بكثير من فروع علم الاجتماع وتعد الأنثروبولوجيا بإنجاز آخر مرادفاً لعلم الاجتماع حيث يدرس ضمنه العلوم الاجتماعية.

وموجز القول أن علم الاجتماع بوصفه أحد العلوم الاجتماعية له وظيفة عامة تناسب تلك الوظائف التي تؤديها بقية العلوم الاجتماعية. والعلوم الاجتماعية كلها تدرس السلوك البشري ولكن من زوايا مختلفة والاختلاف راجع الي اختلاف في موضوعات الدراسة وكذلك نوع المتغيرات المستخدمة في التفسير. ويؤكد الكثير من العلماء أن الاختلاف في العلوم الاجتماعية هو

اختلاف تمليه ضرورة الدراسة والتحليل فقط غير أن نتائج البحوث في ميادين العلوم الاجتماعية متشابكة ومترابطة.

١٠- أهمية علم الاجتماع:

ما هي الفائدة التي تعود على الفرد والمجتمع من دراسة علم الاجتماع؟ عندما واجه العالم التغيرات الهائلة بعد الثورة الصناعية وما طرحته من مشاكل اجتماعية وفردية أدرك المسئولون بأن فهم القوانين والتطور والتغير أمر حتمي، وذلك من أجل بناء مجتمع أفضل وعلم الاجتماع يساعد المسئولين في التنبؤ ويبدي النصيحة والمشورة فيما يتعلق بالنظام والأفراد ويلخص جولدنر الهدف من دراسة علم الاجتماع في الآتي:

١- استقصاء المعارف والمعلومات المتعلقة بالعلاقات الإنسانية والأسباب والعوامل الكامنة وراء الأحداث والظواهر المعقدة وتنسيق هذه المعلومات وترتيبها في أنماط تضفي على هذه المعارف الكثير من الضوء.

٢- المعارف الاجتماعية مثلها مثل الدليل الذي يستخدمه السائح ليوضح له الطريق وهذه المعارف تجعل خطى الإنسان في حياته أكثر توفيقاً ونجاحاً.

٣- إن استقصاء الحقائق المتعلقة بحياتنا الاجتماعية أمر بالغ الأهمية وليس يكفي القول بأننا نعيش هذه الحياة وبالتالي فنحن نفهمها.

٤- في محاولة بناء الدولة العصرية يشارك كل علم في رفع عجلة التطور والمساهمة في عملية بنائها ولهذا يحاول علم الاجتماع بدورة أن يدرس العلاقات الاجتماعية والمشاكل الاجتماعية التي يهتم بها المجتمع الحديث كذلك يقوم بدراسات أساسية عن التنمية والتحديث وتوجيه التغير كذلك في إعادة بناء الإنسان وبناء فكره وقيمه وتنظيماته.

٥- إن علم الاجتماع بما يقدمه من دراسات وبما يلقيه من ضوء على حياتنا الاجتماعية يساعد الأفراد على تحديد أهدافهم ويساعدهم على الوصول إلى هذه الأهداف.

الفصل الثانى

علم الاجتماع والمنهج العلمى

* تمهيد.

١- معنى العلم والاتجاه العلمى.

٢- المنهج العلمى - تعريفه وخطواته.

٣- إمكانية الدراسة العلمية للمجتمع.

٤- المناهج والطرق والأدوات المستخدمة فى البحوث الاجتماعية.

الفصل الثانى

علم الاجتماع والمنهج العلمي

تمهيد:

عندما ظهر علم الاجتماع على يد عالم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت كان أهم ما شغله وشغل الكثيرين من بعده أن يدرس علم الاجتماع الظواهر الاجتماعية المختلفة دراسة تعتمد على المنهج العلمي - ذلك المنهج المطبق في العلوم الطبيعية - وذلك للوصول إلى فهم دقيق لها، ولما تشكك البعض في إمكان تطبيق المنهج العلمي على دراسة الظواهر الاجتماعية، وحاول دور كايم حل هذا الإشكال عن طريق الفصل بين الظواهر الاجتماعية وظواهر الكون المختلفة، وعين لها خصائص ملازمة، واعتبرها "أشياء" تخضع لقواعد المثودولوجيا العامة. وقد انقسم علماء الاجتماع إلى طوائف كثيرة في ميدان المعركة، الأمر الذى ظل علم الاجتماع يحمل آثارها حتى اليوم.

ويلخص لنا Sprott المنهج في علم الاجتماع بقوله:

"إن علم الاجتماع يعتبر نظاماً علمياً يلتزم بمطالب الشروط العلمية المتضمنة في كلمة علم، وعلى ذلك فهو لا يختلف عن أى نظام علمى آخر. وعلى الرغم من خاصيتي التعقيد والتغير اللتين يتسم بهما علم الاجتماع في مادته، فهو لا يختلف عن أي علم آخر. نعم إن لديه أدواته ووسائله في التفسير، وهي تختلف عنها في العلوم الفيزيقية، وله أيضاً مفهوماته الخاصة، إلا أنه مع ذلك ينهج الطريقة العلمية في الدراسة. وأخيراً، نقول إن الملاحظات المعاصرة في الغالب تهدف إلى القول "فلنذهب إلى الميدان" وهذا هو نداء العلماء في العصر الحديث والذي يهدف إلى تأكيد أهمية الدراسة الحقلية والبحث الميداني. والمطلوب الآن الملاحظة المباشرة للوقائع، ولكن هذا للأسف يحتاج إلى إمكانيات واسعة النطاق.

ولعل نجاح العلوم الوثيقة الصلة بمناهجها معلم الإنسان قد شجع الكثير من علماء الاجتماع إلى الاستعانة بنفس المناهج للوصول إلى نتائج متماثلة أو مقاربة في فهم القوانين التي تنظم حياة الجماعات والأفراد، ويغلب على الدراسات الاجتماعية الأخذ بهذه النظرية. ولقد قطع هذا الاتجاه أشواطا متفاوتة في مختلف المجتمعات. ولكنها تأثرت بنوع من الثقة في قدرة الطريقة التجريبية في تحليل ظواهر المجتمع واستخلاص القوانين الاجتماعية العامة.

لذلك سنبحث في هذا الفصل موضوع المنهج العلمي وإمكان تطبيقه في علم الاجتماع والدراسات والبحوث الاجتماعية بشيء من التفصيل:

١ – معنى العلم والاتجاه العلمي:

لا يوجد تعريف متفق عليه للعلم، وإن كان يمكننا أن نقول إن العلم هو بناء منظم من المعرفة. يبدأ بالواقع وينتهي إلى تفسيره. وإن العالم هو في المحل الأول إنسان يسلك طريقا خاصا في الحصول على هذه المعرفة أو يتبع برنامجاً محددا يؤدي به إلى الكشف عن الحقيقة مستندا إلى مجموعة قواعد عامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة. وهذه القواعد هي التي نطلق عليها المنهج العلمي (١).

لذلك يمكننا أن نحدد وظائف العلم من أنه يكشف الحقيقة ويقيم الدليل عليها. والسبيل إلى ذلك أن يصيغ القوانين العلمية التي هي في حقيقة الأمر عبارات تتضمن تفسيراً للارتباط بين الظواهر فتنتقل بنا من عالم المجهول إلى نطاق المعلوم. أو كما يقول براثويت إن وظيفة العلم هي إقامة القوانين العامة التي تحكم اكتشاف الأحداث الواقعية أو المسائل التي يبحثها. ومن ثم تساعدنا على الربط بين ما توصلنا إلى معرفته عن أحداث، كما تمكننا من التوصل إلى تنبؤات ثابتة تتعلق بتلك الأحداث التي لا تزال غير معروفة.

---

(١) د. محمد علي محمد. علم الاجتماع والمنهج العلمي. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠، ص١٠.

ويجرنا الكلام السابق إلى معرفة خصائص المعرفة العلمية، فنجد أنها يمكن أن تحدد في الآتي:

أ- إن المعرفة العلمية واقعية أي أنها تدرس الظواهر التي نعيشها لا التي في نطاق الخيال أو التصورات.

ب- إن العلم مصاغ في قضايا أي أن المعرفة العلمية هي عبارات تقرر العلاقة بين ظاهرتين يتبعها حكم صدق أو كذب. وهناك قضايا أقرب إلى العمومية وأخرى أقل مستوى في عموميتها وليست القضايا العلمية مطلقة في صدقها ولكنها احتمالية.

جـ- إن المعرفة العلمية منطقية، فالعلم يجب أن يتسق وقواعد المنطق.

د- يتسم العلم بأنه عام - وأيضاً المعرفة العلمية - فهي قابلة للتواصل بين الباحثين ويتم ذلك عن طريق اتفاق على الرموز المستخدمة من العلم.

هـ- العلم يسعى إلى حل المشكلات، ويقصد بالمشكلة هنا موضوع أو مسألة تشغل اهتمام الباحثين العلميين ولا تزال بحاجة إلى تفسير يكشف طبيعتها ويحدد الارتباطات بينها وبين ظواهر أخرى، ومن ثم يضع الباحث هذه المشكلة في صورة تساؤلات تتحدى تفكير، ويكون البحث العلمي هو الوسيلة للإجابة على هذه التساؤلات.

و- العلم يميل إلى التجريد، لأن قضايا العلم - والتي توضع في صورة مجردة - قضايا عامة تفسر مجموعات من الملاحظات المتخصصة [1].

لعل الكلام السابق عن العلم والمعرفة العلمية يجرنا أيضا إلى معرفة معنى الاتجاه العلمي وما خصائصه والعلاقة بينه وبين البحوث الاجتماعية.

---

(1) المرجع السابق، ص١٠ - ١٤.

إن أهم خصائص الاتجاه العلمي هي:

١- أن هذا الاتجاه يستند إلى التسليم بالحقيقة التي مؤداها أنه من الممكن اكتشاف تفسير طبيعي لكل ظاهرة نلاحظها في الواقع، ومعنى هذا أن أي ظاهرة يمكن عن طريق دراستها أن نفسر أسبابها وتطورها.

٢- إن الاتجاه العلمي يفرض على الباحث ألا يقبل أية نتائج إلا إذا توفرت الشواهد الواقعية على صحتها.

٣- إن الاتجاه العلمي يفرض على الباحث ضرورة الاستعانة بالتجريب، والتجريب ببساطة هو ملاحظة مضبوطة تهدف إلى التحقق من صحة الفروض المبدئية.

هذا بشكل عام أهم خصائص الاتجاه العلمي، ولعل تحقيق هذه الخصائص يتم عن طريق ما يعرف بالبحث الاجتماعي (وهو ما سنتكلم عنه في حينه بإسهاب). ونستطيع هنا أن نقول إن أهم أهداف البحوث الاجتماعية بشكل عام هو:

١- اكتشاف الحقائق وجمع أكبر عدد ممكن من الوقائع والظواهر.

٢- تفسير معلومات أو بيانات متاحة.

٣- صياغة النظريات العلمية.

٢- المنهج العلمي - تعريفه وخطواته:

قبل الخوض في خطوات المنهج العلمي، يجب علينا أن نعرف مام هو المنهج فنرى أن المنهج هو "أسلوب على نهجه الباحث لكي يحقق الهدف من بحثه كأن يجد إجابة مناسبة للسؤال الذي يطرحه، أو يستطيع التحقق من الغرض الذي يبدأ به بحثه" وفي قول آخر المنهج عبارة عن "مجموعة من الاسس والقواعد والخطوات التي يستعين بها الباحث في تنظيم النشاط الإنساني الذي يقوم به من أجل البحث عن الحقائق العلمية أو الفحص الدقيق

لها". كما يعرف المنهج بأنه "الاستراتيجية العامة أو الخطة العامة التي يرسمها الباحث لكي يتمكن من حل مشكلة بحثه أو تحقيق هدفه".

والنتيجة التي يمكن أن نستخلصها من كل هذه التعريفات أن المنهج عبارة عن أسلوب أو تنظيم أو استراتيجية أو خطة عامة تعتمد على مجموعة من الأسس أو القواعد أو الخطوات يستفاد منها في تحقيق أهداف البحث أو العمل العلمي.

من هنا ينبغي علينا أن نوضح المقصود بخطوات المنهج العلمي - (نحن نقصد بالمنهج العلمي هنا الاستقراء والذي هو محاولة للوصول إلى تعميمات عن حالات جزئية) - والتي يمكن تحديدها في الآتي:

أ- تحديد المشكلة:

من الطبيعي أن يحصر الباحث جهده وتفكيره في نطاق معين فمن بحث كل شيء لن يصل إلى شئ، والمقصود بالمشكلة هنا مشكلة البحث العلمي في موضوعها وبطبيعة الحال تتدخل عوامل واعتبارات تجذب اهتمام الباحث بموضوع معين. منها طموحه أو مصلحته واطلاعاته الخ. وعن طريق الملاحظات يثار في ذهن الباحث تساؤلات معينة تدفعه لإجراء بحثه بهدف تفسيرها أو الكشف عن أسبابها. وما من نظرية علمية أو اختراع علمي إلا وانبثق أصلاً من تلك التساؤلات التي تثار في ذهن الباحث حول موضوع محدد.

ب- صياغة الفروض:

وتمثل محاولة الباحث صياغة فروض تفسير الظاهرة أو تحل مشكلة البحث أو تجيب عن تساؤلاته التي طرحها من قبل. تمثل الخطوة الثانية من خطوات المنهج العلمي ذلك أنه لا قيمة لتكدس الملاحظات أو التجارب، وإنما يتعين على الباحث أن يوضح ما يكمن وراء هذه الملاحظات والظواهر من قوانين تفسرها ولا سبيل إلى ذلك إلا بوضع الفروض التي تنظم بطريقة مبدئية - على الاقل - بين هذه الملاحظات لتصل منها إلى فكرة أو قضية عامة لا تفسرها وحدها فحسب. بل تفسر ما عداها من ملاحظات وظواهر مشابهة. والفرض

العلمي هو "تفسير مؤقت لما لاحظه الباحث من ظواهر، أو هو إجابة مؤقتة لم تتأكد بعد لما طرحه من تساؤلات، أو هو حل مؤقت لمشكلة بحثه".

جـ- التحقق من الفروض:

لا يكون للفرض قيمة علمية ما لم تثبت صحته وما لم يؤكد الواقع صدقه. من هنا تبدو خطوة التحقق من الفروض هامة جداً. فكلما أن الفرض العلمي يثار في ذهن الباحث من خلال الملاحظة والتجربة فإن تحقيقه أيضاً يتم في حدود الواقع من خلال الملاحظة والتجربة، وهذا يقتضي من الباحث أن يرى ما إذا كانت فروضه تتفق مع الواقع فيأخذ به أم تتعارض معه فيعدل منها أو يتركها لغيرها وهكذا.

وتعتبر الطريقة الاستقرائية أكثر الطرق شيوعاً للتحقق من صحة الفروض، ويرجع الفضل في تطويرها إلى فرنسيس بيكون. ثم جاء ستيوارت مل فأدخل عليها بعض التعديلات، والذي يعنينا هنا هو أن هذه الطريقة الاستقرائية تنظر الى الفرض باعتباره علاقة سببية لم تتأكد بعد بين الظاهرة موضوع البحث وظاهرة أخرى تفسرها. ومن ثم تهدف هذه الطريقة إلى التحقق من صدق الفرض بالتحقق من هذه العلاقات المسببة بين الظواهر وهي بالتالي تقدم فائدة مزدوجة لأنها من ناحية وسيلة للبرهنة على صحة الفرض، وهي من ناحية أخرى وسيلة للكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر فتساعد على التفسير والتنبؤ في نفس الوقت.

د- التعميم:

العلم لا يكتفي بتفسير الحالات الجزئية أو الظواهر المفردة في صورة مستقلة بعضها عن البعض، وهنا تبدو أهمية الخطوة الرابعة والأخيرة من خطوات المنهج العلمي. إن موضوع العلم هو الكليات، كما أنه يهدف إلى التنبؤ بالمستقبل بقدر ما يهدف إلى تفسير الحاضر. فإذا ما قدر للعلم أن يفسر الظواهر الجزئية الراهنة بالكشف عن ارتباطاتها أو علاقاتها بعضها ببعض فإنه يستطيع أن

ينمي قدرته على التنبو بالوصول إلى القوانين التي تحكم هذه الظواهر والتي توجه أو تحدد علاقاتها وارتباطاتها للوصول الى القانون العلمي او التعميم.

فالتعميم هو غاية أي علم ومنتهى اي بحث او دراسة.

٣- إمكانية الدراسة العلمية للمجتمع:

بيد أن هذا الاندفاع في تطبيق المنهج الأخير الذى قامت عليه العلوم الطبيعية على الدراسات الاجتماعية قد تعرض لأنواع من التساؤلات والحذر في الاعتماد الكلي عليه أو مدى الدقة في التنبؤ في توقعاته وذلك للصعوبات الآتية:

وقد عارض الكثير من العلماء والفلاسفة إمكانية تطبيق المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية وكانوا يرون أن دراسة الظواهر الاجتماعية باتباع الأساليب العلمية الدقيقة أمر لا يمكن تحقيقه لما بين ظواهر العلوم الطبيعية والاجتماعية من اختلاف وفوارق جوهرية. وتتركز دعاوى هؤلاء المعارضين حول عدد من المسائل المتعلقة هي:

أ- صعوبة التنبؤ بالسلوك الإنساني:

فالدراسة العلمية للسلوك الإنساني ليست مثل الدراسة العلمية للظواهر الطبيعية والبيولوجية. فالسلوك الإنساني كثير التقلب غير منتظم وغير مستقر. بحيث لا نستطيع إخضاعه للدراسة العلمية والتجريب واستخلاص قوانين تتعلق بهذا السلوك فعالم الاجتماع لا يستطيع على وجه اليقين أن يتنبأ سلوك إنسان أو حياته في لحظة معينة من الزمن.

ب- تعقد السلوك الإنساني:

فالسلوك الإنساني سلوك معقد يرتبط بعديد من العوامل المتداخلة النفسية - الجسمية - البيئية والثقافية. ومن ثم فإن الباحث يجد صعوبة كبيرة في دراسة هذا السلوك وفي معرفة أسبابه ودوافعه. بل كثيرا ما نجد الإجابات المتعلقة بموضوعات شخصية لا تمثل الواقع تمثيلاً صادقاً. وذلك لأسباب متعددة مثل الخوف من الحسد أو الضرائب ... الخ.

إن الباحث الاجتماعي يجب أن يتجرد من آرائه الشخصية ووجهة نظره الخاصة حين يقوم بدراسته، إلا أن هذا المطلب عب التحقيق. فالموضوعية كما يذهب البعض ما هي لا وهم. فعالم الاجتماع هو نفسه نتاج الثقافة والبناء الاجتماعي الذي ينتمي اليه. كل هذا يجعل الدراسة متميزة نحو اتجاه معين.

ولقد طور علم الاجتماع مجموعة من المناهج الخاصة به مثل المنهج التاريخي والتجريبي والإحصائي، كذلك هناك العديد من الطرق التي تستخدم في البحوث الاجتماعية مثل الطريقة الإسقاطية، الطريقة السوسيومترية، طريقة تحليل المضمون، طريقة تحليل البيانات الجاهزة، طريقة دراسة الحالة، طريقة المسح الشامل، كما يستخدم علم الاجتماع أدوات خاصة به لجمع المعرفة والبيانات السوسيولوجية مثل الملاحظة البسيطة وبالمشاركة والمقابلة والاستبيان.

والمطلع على البحوث الاجتماعية الآن يجد أن الأدوات والمفاهيم الاحصائية قد دخلت في العديد عدد من الدراسات. بيد أن هذه الأدوات الاحصائية كما لا ايجابيات. فان لها كذلك سلبيات.

جـ- تعقد المواقف الاجتماعية:

فالحياة الاجتماعية تخضع لعدد كبير من المؤثرات النفسية والطبيعية والثقافية والاجتماعية، ولذلك فالظواهر الاجتماعية غاية في التعقيد ويصعب فهمها واكتشاف القوانين التي تحكمها.

غير أننا نرى أن هذا القول لا ينبغي التسليم به والموافقة عليه كلية، فالظواهر الاجتماعية بسيطة في جوهرها ولا تختلف عن الظواهر الطبيعية، فالظواهر الطبيعية كانت في غاية التعقيد والغموض قبل الخوض فيها وسير أغوارها، أيضاً الظواهر الاجتماعية تعتبر معقدة طالما لم نحاول فهمها وإدراك حقيقتها وعندما نصل إلى فهم لها تصبح بسيطة. فالتعقيد ناشئ عن الجهل بها وعدم فهمها.

د- استحالة إجراء التجارب في العلوم الاجتماعية:

يرى المعارضون أن تطبيق المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية وإجراء التجارب أمر مستحيل، فالإنسان ليس حقلا للتجارب كالحديد أو الماء مثلاً.

ونحن نرى أنه ليست كل تجارب العلوم الطبيعية تجارب معملية. فهناك تجارب تخلقها الطبيعة ولا يسعى الإنسان لتهيئتها أو خلق الظروف اللازمة لها. ثم إن التاريخ حافل بكثير من الحالات التي يستطيع الباحث دراستها. فالثورات الاجتماعية مثلاً يمكن أن تكون مجالاً خصباً لكثير من التجارب التي لا تقل في أهميتها عن تجارب العالم الطبيعي ومن الممكن أن يلجأ الباحث إلى المقارنة بين الثورات مثلاً. مما يتيح له بدءاً جديداً في دراسته.

هـ- تعذر الوصول إلى قوانين اجتماعية:

يرى المعارضون أن الوصول إلى قوانين اجتماعية تشبه في دقتها قوانين العلوم الطبيعية أمر بعيد المنال لأسباب منها أن الظاهرة الاجتماعية خاضعة للتغير المستمر، كما أنها لا تخضع للحتمية وذلك بسبب الحرية التي يتمتع بها الإنسان، فالإنسان قادر على صنع ظروفه بعكس الحال في العلوم، ونرد على ذلك بأن التغير الاجتماعي لا يتعارض مع كون الظواهر الاجتماعية تسير وفق قوانين ثابتة من الممكن اكتشافها والوصول إليها. وأما عن مبدأ الحتمية فنرى أنه موجود في الميدان الاجتماعي، فالإنسان في حياته وسلوكياته يخضع لقوانين تحتم عليه السير في سلوك معين. فالريفي مثلاً يخضع لتأثيرات تحدد سلوكه وتضعه في قالب محدد بعكس الفرد المتحضر.

و- بعد الظواهر الاجتماعية عن الموضوعية:

حيث يرى المعارضون أن لارتباط الظواهر الاجتماعية بالجانب الذاتي للإنسان أمر جعل دراستها بموضوعية غير ممكن. كما أن آراء الباحثين (باعتبارهم أعضاء في المجتمع المدروس) ستتأثر بمصالحهم وأوضاعهم

الاجتماعية، وبسمات العصر الذى يعيشون فيه. ولذلك فمن العسير الوصول إلى الموضوعية فى الدراسات الاجتماعية.

ونرى أن الموضوعية. وإن كانت أمراً صعبا. إلا أنها ممكنة. فتقدير أثر العوامل الذاتية أمر بالغ فيه المعارضون بشدة.

أما عن تأثر البحوث باتجاهات الباحث ومصالحه فإن ذلك راجع إلى ضمير الباحث ورغبته فى قول الحقيقة دون تحيز. ويمكن علاج ذلك بتكليف أكثر من باحث فى دراسة الظاهرة وبذلك نقضى على الفكر والاتجاه الواحد.

ز- عدم دقة المقاييس الاجتماعية:

فالعلوم الطبيعية تخضع لمقاييس كمية تساعد على التنبؤ الدقيق، أما العلوم الاجتماعية فيغلب عليها الطابع الكيفى.

غير أننا نرى أن هذه الصعوبة ليست ذات خطر فالطابع الكيفى أو الكمى ليس أصيلا فى الظواهر. وإنما توصف الطرق التى تستخدم فى وصف الظواهر أو قياسها بأنها كيفية أو كمية. وأى علم وصل إلى المرحلة الكمية مر على المرحلة الكيفية. وبتقدم العلوم الاجتماعية سيصبح من المستطاع إخضاع جميع الظواهر الاجتماعية المقياس الكمى الدقيق (1).

إذا رددنا على هذه الادعاءات لا يعنى أننا نغفل أهميتها - ولكننا نرى أن الأمر ليس مستحيلاً ولكنه ممكن - فإذا كان العلم هو إجراء معرفى يهتم بالواقع ويبتعد عن الأحكام القيمية والأخلاقية ويسعى إلى التجريد والتعميم والموضوعية فإننا نرى أن علم الاجتماع يتخطى نحو تحقيق هذه الأهداف بقدر المستطاع. وهناك العديد من المحاولات التى استطاعت أن تفسر لنا العديد من الأحداث والظواهر الاجتماعية على نحو أمكن معه صياغة نظريات اجتماعية احتمالية الصدق إلى حد بعيد. صحيح أن التعميمات السوسيولوجية تصف لنا الاتجاهات العامة أو الميول بصفة عامة ولكن عندما تستخدم هذه

---

(1) انظر فى ذلك: د. عبد الباسط حسن. أصول البحث الاجتماعى. مكتبة وهبة. القاهرة ١٩٧٦، ص١٠٢ - ١١١.

التعميمات في دراسة حالات خاصة فهي تحتاج بالضرورة إلى أن تستكمل ببحث تاريخي مفصل يكشف عن الملامح الفريدة التي تتصل بموقف معين بالذات.

إن تطبيق المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية إذا كان البحث يعتبره امر غاية في الصعوبة إلا أننا نراه أمرا ممكنا.

٤- المناهج والطرق والأدوات المستخدمة في البحوث الاجتماعية:

هناك فرق بين المنهج والطريقة والإدارة المستخدمة في البحوث الاجتماعية. وسنوضح في السطور القادمة الفرق بينهما، وأنواع كل منهما.

أ- أنواع المناهج:

هناك العديد من المناهج المستخدمة في البحوث الاجتماعية. وسنقتصر هنا بثلاثة من هذه المناهج هي المنهج التاريخي والتجريبي والمقارن. حيث نرى أن هذه المناهج أهم من غيرها. وبادئ ذي بدء أحب أن أكرر بأن تعريف المنهج هو "أسلوب يسير عليه الباحث لكي يحقق الهدف مَن بحثه" أي الاسس والقواعد والخطوات التي يستعين بها الباحث في تنظيم النشاط الإنساني الذي يقوم به من أجل تقصي الحقائق العلمية أو الفحص الدقيق لها.

١- المنهج التاريخي:

التاريخ سلسلة متصلة الحلقات، تتلاحق فيها النتائج بالمقدمات، ويرتبط فيها الماضي بالحاضر والمستقبل. والظواهر الاجتماعية كالظاهرة التاريخية زمانية في أغلب الاحوال - وإن كان أغلب الاجتماعيين يميلون إلى سلب الظواهر الاجتماعية صفة الزمانية - إلا أنها ولاشك ترتبط ارتباطاً وثيقا بواقع المجتمع الماضية. تأثرت بها في نشأتها ونموها، كما تدين إليها بوجودها الحالي. ولذا فلابد للباحث الاجتماعي من الرجوع إلى الماضي لتعقب الظاهرة منذ نشأتها. والوقوف على عوامل تغيرها وانتقالها من حال إلى حال.

وإذا كان التاريخ يستخدم المنهج التاريخي في سرد الوقائع التاريخية خطوة بخطوة. إلا أن علم الاجتماع يستخدم المنهج التاريخي للوصول إلى

المبادئ والقوانين العامة وذلك بالبحث في أحداث التاريخ الماضية وتحليل الحقائق المتعلقة بالمشكلات الإنسانية والقوى الاجتماعية التي شكلت الحاضر. فليس يهمنا كاجتماعيين الحوادث الفردية ولا نهدف إلى تصوير الأحداث والشخصيات الماضية بصورة تبعث فيها الحياة من جديد. ولكن نحاول أن نحدد الظروف التي أحاطت بجماعة من الجماعات أو ظاهرة من الظواهر منذ نشأتها لمعرفة طبيعتها وما تخضع له من قوانين.

ويمر البحث التاريخي بخطوات رئيسية هي:

١- تحديد مشكلة البحث.

٢- جمع الحقائق المتعلقة بالمشكلة.

٣- تصنيف الحقائق وتحليلها ومحاولة الربط بينها.

٤- عرض النتائج (١).

٢- المنهج التجريبي:

رأينا في عرضنا السابق لخطوات المنهج العلمي أو المنهج العلمي التجريبي هو المنهج الذي تتمثل فيه معالم الطريقة العلمية بصورة جلية واضحة. فهو يبدا بملاحظة الوقائع الخارجية عن العقل، ويتلوها بالفرض، ويتبعها بتحقيق الفرض بواسطة التجربة، ثم يصل عن طريق هذه الخطوات إلى معرفة القوانين التي تكشف عن العلاقات القائمة بين الظواهر.

وللتجارب العلمية تصنيفات منها:

١- التجارب الصناعية والطبيعية: ويقصد بالأولى تلك التي تجرى في المختبر العلمي وتعتمد على تحكم الباحث في جميع المتغيرات، أما الثانية فهي التي يتم فيها التحكم من جانب الطبيعة لا من جانب الباحث.

---

(١) د. عبد الباسط حسن. مرجع سابق. ص٢٨٥ - ٢٩٠.

٢- التجارب ذات المدى الطويل التى تستلزم فترة طويلة لإجرائها.
التجارب ذات المدى القصير التي تستخدم فيها مجموعة واحدة من الأفراد.
لتجارب التى تستخدم فيها أكثر من مجموعة.

هذا. ولقد وضع جون ستيوارت مل عدة طرق لتحقيق الفروض أهمها:

أ- طريقة الاتفاق: وتقوم على أساس أنه إذا وجدت حالات كثيرة متصفة ظاهرة معينة وكان هناك عنصر واحد ثابت في جميع الحالات فى الوقت الذى تغير فيه بقية العناصر، فإننا نستنتج أن هذا العنصر الثابت هو السبب فى حدوث لظاهرة.

ب- طريقة الاختلاف: وتقوم على أساس أن النتيجة ترتبط بالسبب وجوداً .عدماً. فإذا وجد السبب وجدت النتيجة. وإذا غاب السبب غابت النتيجة.

جـ- طريقة التلازم فى التغير: وتقوم على أساس أنه إذا وجدت سلسلتان من الظواهر فيها مقدمات ونتائج وكان التغير فى المقدمات فى كلتا السلسلتين ينتج تغيرا فى النتائج فى كلتا السلسلتين كذلك، وبنسبة معينة، فلابد أن تكون هناك علاقة سببية بين المقدمات والنتائج.

وتستخدم عدة أنواع من التجارب منها: التجربة القبلية - البعدية التى ستخدم فيها مجموعة واحدة من الافراد تقاس قبل إدخال المتغير التجريبى بعده، ثم يحسب التغير الناتج. والتجربة البعدية التى تستخدم فيها مجموعتان حداهما تجريبية والأخرى ضابطة. ويتم القياس فيها بعد التجربة ويحسب الفرق بين المجموعتين. والتجربة القبلية - البعدية التى تستخدم فيها مجموعتان يجرى عليها القياس بالتبادل، والتجربة القبلية - البعدية التى تستخدم فيها مجموعتان إحدهما ضابطة والأخرى تجريبية، والتجربة القبلية - البعدية باستخدام مجموعة تجريبية ومجموعتين ضابطتين إلى غير ذلك من تضميمات.

ولما كان من الضرورى فى البحوث التجريبية وجود عينات تجريبية وأخرى ضابطة، فقد بذل الباحثون جهوداً كثيرة فى إيجاد طرق علمية دقيقة يستعان بها فى تكوين مجموعات متكافئة. من بين تلك الطرق محاولة المزاوجة

بين أفراد المجموعتين. وذلك بالتأكد من أن كل فرد في إحدى المجموعتين يعادل تماما مع فرد آخر في المجموعة الثانية. ومحاولة المزاوجة بين المجموعات على أساس التوزيع التكراري واستخدام المعاملات الإحصائية. والاستعانة بمبدأ الاختيار العشوائي لتوزيع الأفراد بطريقة تضمن تحقيق الفرص المتكافئة لكل فرد من أفراد المجتمع (١).

هذا بشكل عام وسريع المنهج التجريبي وتصنيفات تجاربه.

٣- المنهج المقارن:

يمكن القول إن المنهج المقارن ينطبق على علم الاجتماع بكل فروعه ومجالات دراسته، ذلك أن أي بحث سوسيولوجي ينطوي بالضرورة على مقارنات بين بعض المتغيرات، لكن بالإضافة إلى هذه القضية العامة نلاحظ أن مصطلح "منهج المقارنة" يكتسب دلالة خاصة في البحث الاجتماعي، فهو يقصد به عادة دراسة توزيع الظواهر الاجتماعية في مجتمعات مختلفة. أو أنماط محددة من المجتمعات، أو حتى مقارنة مجتمعات كلية بعضها ببعض. أو مقارنة النظم الاجتماعية الرئيسية من حيث استمرارها، وتطورها، والتغير الذي يطرأ عليها.

وإذا أردنا أن نضرب مثالاً على استخدام منهج المقارنة في الدراسات الاجتماعية نجد أن أفضل هذه الأمثلة كان في استخدام ماكس فيبر لهذا المنهج. فماكس فيبر بدلا من أن يفترض وجود اتجاه مجتمعي عام للتطور في كافة المجتمعات البشرية نجده يستخدم الطريقة المقارنة لكي يكشف عن وجود اتجاه محدد يسود في مجتمع معين بالذات، في مجموعة مجتمعات تشترك معاً في خاصية واحدة، وهو حينما يحلل هذا الاتجاه يستطيع أن يلقي بعض الضوء على الاتجاهات المشابهة أو المتعارضة التي تظهر في مجتمعات أخرى أو تحت ظروف مختلفة. مثال ذلك أن فيبر استعان بالتحليل المقارن في دراساته عن الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية لكي يثبت أن هناك علاقة بين التوجيه

---

(١) لمزيد من التفصيل يراجع: عبد الباسط حسن. مرجع سابق. ص١٣٠١ - ٣١٧.

.لاقتصادي والنزعة الدينية. كما استخدم أيضا نفس التحليل في دراساته عن .لبيروقراطية والعوامل التي تؤدي إلى نموها في المجتمعات الغربية.

وهناك مجالات رئيسية في علم الاجتماع يمكن إخضاعها للبحث المقارن منها:

١- دراسة أوجه الشبه والاختلاف بين الانماط الرئيسية للسلوك الإنساني كالسلوك السياسي والإجرامي.

٢- دراسة نمو وتطور مختلف أنماط الشخصية أو الأنماط الدافعية الاجتماعية في مجتمعات مختلفة.

٣- دراسة النماذج المختلفة من التنظيمات وعلى الأخص التنظيمات البيروقراطية مثل نقابات العمال أو التنظيمات السياسية والتنظيمات الصناعية في مجتمعات مختلفة.

٤- دراسة النظم الاجتماعية في مجتمعات مختلفة.

٥- تحليل مجتمعات كلية. وعادة ما تتم المقارنة بين المجتمعات وفقاً للنمط الرئيسي السائد للنظم أو التوجيهات الثقافية فيها (١).

ب- أنواع الطرق المستخدمة في علم الاجتماع:

قبل الشروع في معرفة أنواع الطرق المستخدمة في بحوث علم الاجتماع يجب علينا أن نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها في معزل عن كلامنا السابق عن المنهج. فإذا كنا نعتبر المنهج استراتيجية فإن الطرق تعتبر تكتيكاً حيث أنها تفيد المنهج في الوصف أو القياس مثلاً. فإذا كان المنهج التجريبي كاستراتيجية يستخدم التجربة في عملية التنقيب ويستند على القياس في تناول المتغيرات أو الظواهر موضوع التجربة. إذن فالمنهج تجريبي والطريقة هي القياس.

---

(١) يمكن الرجوع في ذلك إلى: د. محمد علي محمد. علم الاجتماع والمنهج العلمي. مرجع سابق. ص٢١٣ وما بعدها.

وسنعرض فيما يلى لأنواع الطرق المستخدمة فى البحوث فى علم الاجتماع:

١ - الطريقة الإسقاطية:

يمكن استخدام هذه الطريقة اذا كان هناك صعوبات تمنع المبحوث مباشرة فى التعاون مع الباحث لخوفه أو حرجه أو لعدم قدرته على التعبير. والأسلوب الإسقاطى يعنى تقديم موقف مثير ومنبه للفرد. ومن خلال إجابات الفرد تتضح جوانب شخصيته واتجاهاته ومشاعره وقيمه. ويعتمد هذا الأسلوب على فرض مؤداه أن تنظيم الفرد لموقف غامض غير محدد البناء نسبياً يدل على إدراكه للعالم وعلى استجابته له.

٢- الطريقة السوسيومترية:

والسوسيومترية تعطى معنى متغير ومحدد لقوانين التطور الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية. كما أنها تفسر فى ضوء بناء الجماعات الاجتماعية الداخلى ودراسة الأشكال المعقدة الناجمة عن قوى التجاذب والتنافر بين أعضاء الجماعة. ويقال أن السوسيومترية تدرس الجامعة الإنسانية كوحدة كلية كما يؤخذ فى اعتبارها كل جزء فى علاقته بالكل، وينظر إلى الكل فى علاقته بكل جزء على حدة، بيد أن السوسيومترية تركز على العلاقات بين الأفراد من وجهة نظر علم النفس وعلم النفس الاجتماعى. ونرى وجوب إدخال السوسيومترية كوسيلة فنية تساعد على دراسة تماسك بناء الجماعة فى علم الاجتماع من ناحية، ومن ناحية أخرى تساعد على فهم العمليات التفاعلية داخل البناء والعلاقات الفعلية بين أعضاء الجماعة. والهدف من دارسة سوسيومترية الجماعات هو تنظيم الجماعة أو إعادة تنظيمها على أسس نفسية واجتماعية سليمة، والجمع بين إعادة أعضاءها على أساس اختيار بعضهم بعضاً لا على أساس إلزام بعضهم العمل مع بعض أى أن هذه الطريقة تساعد على تحسين العلاقات بين أعضاء الجماعة أو بين الجماعات بعضها وبعض.

٣- طريقة تحليل المضمون:

وتحليل المضمون أسلوب في البحث يهدف إلى الوصف الكمي الموضوعي المنظم للمضمون الظاهر أو الواضح للاتصال. ويفيد هذا الأسلوب في دراسة كثيرة من أبعاد الواقع الاجتماعي، فمثلا يستخدم في دراسة التفاعل الاجتماعي، والقيم الاجتماعية، والحالة السيكولوجية للقائم بالاتصال وبعض الملامح الثقافية للمجتمعات الإنسانية ودراسة وسائل الاتصال الجمعي وتحليل الأعمال الأدبية والإنتاج المكتوب. كما يفيد في تحليل بعض البيانات المكتوبة التي تفيد في البحث الاجتماعي كالوثائق التاريخية والوثائق الشخصية والسجلات الرسمية واليوميات والخطابات.

٤- طريقة التحليل الثانوي:

ويقصد بالتحليل الثانوي أن الباحث يمكن أن يختبر فروضه أو يستكمل بعض أجزاء بحثه من خلال بيانات جاهزة سبق أن جمعت وحللت لأغراض بحثية أخرى. وهذا النوع من التحليل يعد مصدراً أو طريقة لجمع البيانات في وقت واحد. لأنه لا يلزم الباحث بجمع بيانات من المصادر الميدانية. مثل ذلك أن الباحث يمكن أن يستعين ببعض البيانات الرسمية المحلية والعالمية التي تهتم بها الهيئات والمراكز البحثية. ونظراً لأن بعض هذه البيانات تعتمد على المجموع الكلي للسكان - الحصر الشامل - وليس على العينات، فإن هذا يضفي عليها بعض الأهمية لتحقيق بعض أغراض التفسير والتعميم.

٥- دراسة الحالة:

يلجأ الباحث إلى هذه الطريقة لكي يحصل على المادة العلمية التي تمكنه من وضع الفروض أو تحديد أبعاد مشكلة معينة. لذلك من الممكن أن تكون الحال موضوع الدراسة فرداً واحداً أو أسرة أو جماعة أو مؤسسة أو مشروع أو وحدة إدارية. ومن أهم خصائص هذه الطريقة أنها تستخدم لتحديد أبعاد مشكلة معينة لحالة فردية. وعلى ذلك فلا

يجوز التعميم عن طريقها. إلا أنها تهئ الظروف لإجراء بحث أكثر شمولاً. وأهم عيوب هذه الطريقة التحيز التخصصي الذي من الممكن أن يقع فيه الباحث وأيضا التخلف الثقافي حيث يتعذر إجراء هذه الطريقة مع الجماعات المتخلفة ثقافياً.

٦- المسح الاجتماعي:

المسح الاجتماعي هو محاولة منظمة لتحليل وتأويل وتسجيل الوضع الراهن لنظام اجتماعي أو جماعة أو منظمة. ويركز المسح على قطاع عرض من الحاضر، ولفترة من الزمن كافية للدراسة، والهدف منه الحصول على مجموعات من البيانات المصنفة وتأويلها والتعميم منها، كما يهدف إلى ترشيد التطبيق العلمي في المستقبل القريب.

وهناك العديد من المسوح منها مسوح مصنفة وفقاً لمجالها حيث توجد مسوح عامة ومسوح متخصصة ومسوح مصنفة وفقاً لمدى التعمق في الدراسة حيث نجد مسوح تعتمد على الوصف فقط ومسوح تهتم بالتفسير. وأيضاً مسوح مصنفة وفق حجم جمهور البحث فنجد مسوح شاملة ومسوح بالعينة.

وأهم عيوب استخدام المسح الاجتماعي خطأ التحيز وكثرة الجهود والنفقات المستخدمة فيها (١).

جـ- أنواع الأدوات المستخدمة في بحوث علم الاجتماع:

إذا قلنا إن المنهج هو الاستراتيجية وأن الطريقة تفيده في الوصف والقياس مثلاً، فإن الأدوات هي الوسائل التي بها يلجأ الباحث للحصول على المعلومات والبيانات التي يتطلبها موضوع بحثه. وأهم أنواع هذه الأدوات:

---

(١) يراجع في ذلك: د. غريب سيد محمد، د. عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، الجزء الثاني، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٥، ص٨٩ وما بعدها.

١ - الملاحظة:

الملاحظة هي معاينة مباشرة لأشكال السلوك الذي ندرسه، وهناك العديد من الملاحظات منها:

أ- الملاحظة البسيطة: ويقصد بها معاينة الظاهرات كما تحدث تلقائياً وفي ظروفها العادية دون إخضاعها للضبط العلمي أو استخدام أي أدوات أو أساليب من شأنها أن تقنن إجراء الملاحظة والبيانات التي يتم التوصل إليها بواسطتها. ويحتوي هذا النوع من الملاحظة على كل من الملاحظة بدون مشاركة والملاحظة بالمشاركة.

ب- الملاحظة المنتظمة: وهي تختلف عن البسيطة في أنها تخضع للضبط العلمي الذي قد يأخذ صورة أو أكثر من صور الضبط لمكونات الملاحظة وعناصرها فالضبط قد يكون للملاحظ أو للتي الملاحظ بما في ذلك الأفراد والجماعات المكونة للموقف الاجتماعي موضوع الملاحظة.وتتم هذه الملاحظة المنتظمة من خلال تخطيط وتحديد مسبقين لإجرائها.

ويمكن القول بأن الاعتبارات المشار إليها عن الملاحظات تتطلب من الباحث أن يكون مدربا بشكل جيد حتى يتمكن أن ينجح في الملاحظات، وتكتسب هذه الملاحظات الدقة والغاية منها.

وهناك بعض الحدود لاستخدام الملاحظة هي:

١ - إن الملاحظة أيا كان نوعها تصلح في دراسة الجماعات المحدودة الحجم كالجماعات الصغيرة.

٢ - يتباين استخدام أنواع الملاحظة - فرداً أو جماعة - وحالتها العامة. فمثلاً الملاحظة بالمشاركة لا تصلح مع المرضى بأمراض معينة.

٣- لا تساعد الباحث في دراسة بعض الصور الخاصة للتفاعل الاجتماعي كالتفاعلات العائلية بين الأزواج والتفاعلات بين بعض عصابات المجرمين أثناء تاديتهم لانشطتهم.

٤- ينحصر دور الملاحظة في اللحظات التي يقع فيها موضوع الملاحظه الآن وليس ما وقع في الماضي أو سيقع في المستقبل.

٥- قد تؤثر بعض جوانب الضبط التي تستخدم في الملاحظة المنتظمة في تلقائية المواقف الاجتماعية.

٢- المقابلة:

يعرف ماكوبي المقابلة بأنها تفاعل لفظي يتم بين فردين في موقف مواجهة. حيث يحاول واحد منهما أن يستثير بعض المعلومات أو التعبيرات لدى الآخر والتي تدور حول خبراته أو آرائه أو معتقداته.

١- المقابلة غير المقننة: وتستخدم في المراحل الاستطلاعية وتنقسم إلى:

أ- المقابلة غير الموجهة أو الحرة.

ب- المقابلة نصف المقننة.

٢- المقابلة المقننة: وهي نوع من المقابلة تتحدد فيها عناصر المقابلة وكذلك الشروط أو الظروف المحيطة بموقفها تحديداً مسبقا ودقيقاً.

ومن أهم مميزات استخدام المقابلة أنها تغطي قطاعاً عريضاً من المبحوثين وبغض النظر عن تبايناتهم الاجتماعية والثقافية نتيجة لصلاحية استخدامها مع الاميين. وأيضا إن المبحوث إذا كان هناك أمر لا يفهمه في أسئلة الباحث يمكن للباحث ان يوضح له ذلك أثناء المقابلة.

١- إن المقابلة تقع في أخطاء التحيزات خاصة من قبل الباحث.

٢- هناك بعض الأخطاء قد تنتج عن طبيعة المبحوث نفسه كعدم إدلائه ببيانات دقيقة أو ضعف قدرته على تذكر أحداث مضت أو ما شابه ذلك.

٣- إن المقابلة تحتاج لجهد كبير وتدريب خاصة للباحثين الأمر الذي يتكلف كثيراً. وأيضاً لوقت طويل في جمع البيانات.

٣- الاستبيان:

الاستبيان هو أداة لفظيـة بسيطة ومباشرة تهدف إلى التعرف على ملامح خبرات المبحوثين واتجاهاتهم نحو موضوع معين ومن خلال توجيه أسئلة قريبة من التقنين في الترتيب والصياغة وما شابه ذلك إليهم حول هذه الخبرات وتلك الاتجاهات.

وهناك أنواع عديدة من الاستبيان:

منها ذلك الاستبيان المقنن والآخر الأقل تقنيناً.

ومنها الاستبيان المدار ذاتياً من قبل المبحوث أو المرسـل بالبريد أو عبر أجهزة الاتصال.

ومن أهم مميزات الاستبيان:

١- قلة التكلفة والوقت والجهد المبذول في استخدامه وإدارته.

٢- لا يتعرض المبحوث للحرج.

٣- الوصول إلى فئات اجتماعية متباينة بتطبيق الاستبيان بالبريد.

٤- لا يلح على المبحوث الإجابة بسرعة على كل سؤال كما في المقابلة.

٥- يعطي المبحوث إحساساً بالخصوصية.

٦- يساعد على الحصول على البيانات الحساسة.

وعن حدود استخدام الاستبيان كأداة لجمع البيانات:

١- امتناع عدد كبير من المبحوثين على الرد على استمارات الاستبيان.

٢- تتأثر عينة الاستبيان - المدار ذاتياً - بنوع من التحيز ينتج عن طبيعة من يطبقون الاستبيان ويعيدونه من المبحوثين.

٣- لا يوجد في الاستبيان المدار ذاتياً من يشرح أو يفسر للمبحوث بعض الامور التي قد تصعب عليه أو تساعده في التعبير عن نفسه.

٤- إن الاستبيان يحرم الباحث عن خاصية ملاحظة بعض ردود الأفعال والاستجابات التي قد تعمق فهم الباحث لموضوع بحثه.

٥- لا يصلح الاستبيان مع مبحوثين أميين خاصة الاستبيان المرسل بالبريد [1].

---

(1) المرجع السابق، ص١٧١.

الباب الثانى

ميكانيزمات التفاعل بين الفرد والمجتمع

* تمهيد: الفرد والمجتمع.
  ١- اجتماعية الإنسان.
  ٢- ثنائية الفرد والمجتمع.

الفصل الثالث : التفاعل والعمليات السوسيوثقافية.

الفصل الرابع : سوسيولوجية الثقافة: طبيعة وخصائص الثقافة.

الفصل الخامس: سوسيولوجيا الشخصية.

الفصل السادس: الشخصية القومية.



ميكانيزمات التفاعل بين الفرد والمجتمع

تمهيد: الفرد والمجتمع

١ - اجتماعية الإنسان:

قديماً عبر أرسطو عن اجتماعية الإنسان بقوله إن الإنسان حيوان اجتماعي. وكان يعني بذلك أن الشخص الذي يعجز عن أن يسهم بنصيب في الحياة الاجتماعية أي الحياة المشتركة بين أعضاء الجماعة - مثل هذا الشخص إما أن يكون دون الإنسانية أو فوقها. كل هذا يوضح لنا مسلمة أن الإنسان يعتمد على المجتمع لحمايته وراحته وتربيته وكسب القيم والمعايير التي تشكل موجهات سلوكه وحتى تشكل مضمون خيالاته وأهدافه. ولقد كشفت الدراسات التي تمت لاطفال ولدوا في غابات ونشأوا مع الذئاب أنه من الصعوبة بمكان أن يتكيفوا مع المجتمع الإنساني. فمولد الإنسان في المجتمع يحمل معه فكرة حاجته الأساسية له ولا يوجد إنسان يستطيع أن يسمي نفسه إنساناً ويعيش دون حاجته إلى المجتمع وهذا يرجع إلى طبيعة الإنسان الاجتماعية.

ويثير ماكيفر وبيج التساؤلات الآتية حول اجتماعية الإنسان بأي معنى يعتبر[1] الإنسان حيواناً اجتماعياً؟ وبأي معنى ننتمي إلى المجتمع؟ وكيف ينتمي المجتمع إلينا؟ وما طبيعة توقف حياتنا عليه؟ وكيف نفسر وحدة المجموع التي ترتبط بها حياة الأفراد؟.

هذه الاسئلة في نظر ماكيفروبيج - تمثل جوانب مختلفة لمسألة أساسية هي علاقة الفرد بالنسق الاجتماعي الذي يعيش بداخله.

والحق أن هناك نظريتان أساسيتان حاولتا الإجابة على الأسئلة السابقة وهما نظرية العقد الاجتماعي ونظرية الكائن العضوي الاجتماعي.

---

(١) ماكيفروبيج. المجتمع. ترجمة د. علي عيسى. ج١. ص٧٧، ٤٥.

أ- نظرية التعاقد مع المجتمع:

وهي ترى - كما ذهب أشهر المدافعين عنها توماس هوبز T Hobbes أن المجتمع ليس إلا وسيلة لحماية الناس من شرور طبائعهم الجامحة. فالمجتمع - كما يزعم آدم سميث ما هو إلا ابتكار مصطنع لتحقيق الاقتصاد المتبادل. فالإنسان ولد حرا من المرحلة التي عاش فيها على الفطرة. وإن ما أبرمه من عقد انضمامه لم يكن إلا لسد حاجاته الاجتماعية المتعلقة بانتظار الحياة في المجتمع وحمايته.

كل هذه النظريات تنظر إلى المجتمع كما لو كان قائماً على نوع من التعاقد الحقيقي بين الأفراد. الحق أن هذا الاعتقاد قد فقد قوته وتأثيره وذلك راجع إلى استناده على زعم خاطئ - وهو أن المجتمع شئ قد استخدمه الناس في وقت ما وشهدوا على قيامه نقول إن هذا زعم خاطئ يقوم عليه هذا الاعتقاد وهو أن الناس هم الناس يستطيعون أن يكونوا كذلك خارج حظيرة المجتمع ومنفصلة عنه. ولهذا نصحح هذا الاعتقاد بقولنا بعدم انفصال الفرد والمجتمع أحدهما عن الآخر وليس لأحدهما أية أسبقية على الآخر في التاريخ الإنساني.

ب- النظرية العضوية للمجتمع:

ينظر أصحاب النظرية إلى المجتمع أو أي جزء منه على أنه نوعاً من الكائن العضوي أي ينظر إلى المجتمع كنسق بيولوجي أو كائن أكبر ويشبه في تركيبه ووظائفه وفي أجزاءه جسم الإنسان أو الفرد ويتعرض بقوانين مشابه في نموه واضمحلاله. إن خلايا المجتمع هم أفراده - كما يذكر أصحاب هذه النظرية - ولكن هذه النظرية لا تفرق بين تركيبات المجتمع أو تنظيماته وبين الأعضاء والنسق البيولوجي فاستخدام ألفاظ المقارنة بين المجتمع والكائن العضوي ما هي إلا تشبيهات لفظية. فالمجتمع هو وحده الذي يحيي ويتنفس من خلال أفراده وأن شعورنا ما هو إلا تعبيراً للشعور الاجتماعي بمعنى آخر لا يمكننا القول بأننا ننتمي إلى المجتمع كما تنتمي الأعضاء إلى الجسم.

٢- ثنائية الفرد والمجتمع:

يبدو جلياً مضمون هذه النظرية لتحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع، ولقد قدمت بعض الدراسات دلائل تشير إلى دلائل لها مغزى معين في تحديد هذه العلاقة وتشير هذه الدراسات إلى أن الاستعداد للحياة الاجتماعية ما هو إلا جانب من جوانب نمو الإحساس بالنفس والشخصية وأن الطفل ليس مجرد آلة تقلد الأساليب التي يتبعها الكبار خاصة بالنسبة لإشباع رغباته واللغة، ولكن تدريجاً يحس الطفل بنفسه ويكتشف ضمنياً أن للآخرين نفوساً متميزة، وكلما وضحت معالم فرديته يصبح بحق قادر على ممارسة العلاقات الاجتماعية. ويشير كولي إلى أن العملية الاطرادية لظهور القدرة على انسجام الطفل المستمر مع سلوك الآخرين، وهذا عاملاً ذا دلالة كبيرة في تكوين الشخصية. وهذا يتضمن أن الإحساس بالنفس لا يظهر إلا عند الشخص الذي يعيش في المجتمع.

والفرد الذي يعيش في مجتمع لا ينتمي إليه - كما تنتمي الحيوان أو النبات بالبيئة أو التربية، ولكن علاقة الفرد بالمجتمع هي علاقته بالميراث الاجتماعي. هذا التراث هو الذي يوجه الشخصية ويحدد قواعد السلوك والمسموحات والمحرمات. ومن ناحية أخرى نقول إن التراث الاجتماعي ينمو ويتغير تبعاً لمواقف الأفراد ومصالحهم المتغيرة. ويستمد النسق الاجتماعي أهميته من تأثره بغايات الأفراد أنفسهم وما يمكن أن يسهم به في هذا السبيل. هذا المبدأ يجعل التوافق بين الفرد والمجتمع ممكنا.

ومن المعروف أن الفردية أقل نمواً في المجتمعات البدائية بسبب العادات الجمعية عنها في المجتمعات المتمدينه. بمعنى آخر أن في المجتمعات الأكثر تعقيداً أو أرقى تنظيماً تجد الفردية في أعلى صورها ولقد أيدت الأبحاث هذه الحقيقة التي قدمها دور كايم والخاصة بأنه كلما زاد تقسيم العمل كلما زادت الفردية.

على أية حالة سوف نخصص التعليق التالي لمناقشة العلاقة بين الثقافة والشخصية ويرجع الفضل إلى الأنثروبولوجيين في استخدام مصطلح الثقافة

للدلالة على كل ما صنعه أي شعب من الشعوب أوجده لنفسه من مصنوعـات يدوية ونظم اجتماعية ساندة وأسـاليب فكرية. وباختصار كل ما صنعه الإنسان أينما وجد. بمعنى آخر فإن مصطلح الثقافة يعني عند الأنثربولوجيين مجمل التراث الاجتماعي للبشرية. بينما عبارة "ثقافة ما" تعني التراث الاجتماعي لشعب معين.

لقد أدركت الدراسات الأنثروبولوجية علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة نفسها وتتضمن العلاقة بين الثقافة والشخصية. التراث الاجتمـاعي الشامل المحيط بالفرد الذي يستجيب له - سواء بطريقة شعورية أو لا شعورية. والتوافـق بـين الثقافة والشخصية لا يعني التنوع ولكن - كما سوف نرى فيما يلي فهو راجع إلى وجود الثقافات الفرعية والعموميات والخصوصيات وقبل أن نشرع في ذلك يجب أ نقدم بفصل عن العمليات السوسيوثقافية والتي تعمل كمكانزمات بين الثقافة والشخصية.

الفصل الثالث

التفاعل والعمليات السوسيوثقافية

١ – تمهيد:

ناقشنا فيما سبق العناصر الأساسية للثقافة وشكلها ومحتواها، والآن سوف نهتم بمناقشة الأفراد والجماعات فى اتصالهم وتفاعلهم الدينامى مع بعضهم البعض، ويمكن وصف هذه العلاقات بأنها أشكال للعمليات الاجتماعية الثقافية Social-Cultural Process والتى تشير إلى كيف يتنافس الناس وكيف يتعاونون، أو أى شكل آخر من أشكال التفاعل، ونؤكد هنا، أن تحليل أى عامل دينامى فى الثقافة، يتضمن الإشارة إلى دراسة التغير والتعديلات أو تبديلات الأفراد والجماعات أو العناصر الثقافية خلال مجرى الزمن. ونحن نحاول أن نمثل هذا التحول فى ظرف معين وفى وقت معين بظرف آخر فى زمن لاحق. ومن ناحية أخرى فإن النظرة الاستاتيكية تفيد المقارنة فى ظرف معين وفى لحظة معينة. على أية حال سوف نناقش هنا التفاعل الاجتماعى كأساس للعمليات الاجتماعية – الثقافية، كذلك التعلم ومصادره الاجتماعية والثقافية، وأخيرا سوف نعطى قدرا من التفصيل للعمليات الاجتماعية – الثقافية مثل التعاون والصراع والتنشئة الاجتماعية الخ (١).

٢– التفاعل: أساس العمليات الاجتماعية – الثقافية:

لاشك أن "التفاعل" Interaction هو العامل الرئيسى فى كل أشكال الحياة الجمعية. ومن ثم، فإن هذا المصطلح (التفاعل) هو المشكل الهام لأى دراسة لديناميات المجتمع وثقافته. أكثر من هذا، فإن تكرار أشكال معينة من التفاعل يساعد على تشكيل قاعدة واحدة للاستمرارية والنظام فى عالمنا

(1) Young. K.. op. cit., p. 59.

الاجتماعي - الثقافي. ولعل من أهم العمليات التي يجب الإشارة لها هنا هو عمليـــة المعارضـــة Opposition والتعـــاون Co-Operation والتمايز Differentiation في الدور والمكانة. وهناك أيضاً عمليات أخرى متصلة بمو وتراكم الثقافة. على أية حال، سوف نناقش أولاً طبيعة التفاعل قبل أن ننتقل لمناقشة هذه العمليات السوسيو-ثقافية (١).

أ- التفاعل المباشر والرمزي:

يمكن أن يعرف التفاعل على أنه اتصال بين شخصين أو أكثر، ومن وجهة النظر السلوكية فإن التفاعل يتضمن إثارة واستجابة تبادلية. بمعنى أنه عندما يثير الشخص (أ) الشخص (ب) فإن معنى هذا ليس أن الشخص (أ) هو الذي فقط يثير ويؤثر في فكر ومشاعر الشخص (ب) ولكن الشخص (ب) بدوره مؤثر في فكر ومشاعر اتصال الشخص (أ). فالتفاعل، إذن، هو أساس فعل بين الأفراد. ولكن حينما يكون الأفراد متشابهين في الأهداف والأفعال فإننا يمكن اعتبارهم يتفاعلون كجسم واحد أو كجماعة أكثر من كونهم أفراد.

هذا النوع من الاحتكاك التبادلي، يمكن ملاحظته في العلاقات داخل وخارج الجماعة. وفي الحقيقة فإن الاحتكاكات الاجتماعية قد تأخذ ثلاثة اشكال:

(أ) هناك تفاعل من شخص لشخص Person to Person Interaction. فمثلاً عندما يحاول الطفل في بدايته أن يتعلم الطرق الخاصة بالتكيف مع توقعات الأم، أو عندما يكبر ويحاول تكوين صداقات مع الآخرين.

(ب) هناك علاقات من شخص لجماعة Person to Group أو من جماعة لشخص Group to Person مثل ما يحدث عندما يجد الفرد نفسه في معارضة القوانين الأخلاقية للمجتمع، أو عندما يضع نادي معين ضغوطاً على عضو معين لإجباره على الالتزام بقواعد النادي والامتثال لها.

---

(1) Ibid. pp. 59-60.

(حـ) هنالك تفاعل من جماعة لجماعة Group to Group، ويحدث هذا عندما يتعاون حزبين سياسيين لهزيمة حزب ثالث. أو عندما تكون هنالك حالة حرب بين دولتين.

والحق أنه لا يمكن تصور الحياة الاجتماعية بدون وجود صورة أو أخرى من صور التفاعل. فالتجاوز المادي للأفراد، رغم أنه غالباً ما ينشأ عنه نوعا من التفاعل، لا يخلق الوحدة الاجتماعية. فعندما نجد الأفراد يلعبون أو يعملون أو يتحدثون مع بعضهم البعض في إطار هدف معين، أو من ناحية أخرى، عندما يتنافسون أو يتشاجرون مع بعضهم البعض، فإنه يمكننا فقط أن نتحدث بحق عن شئ يسمى الحياة الاجتماعية [1].

على أية حال فإن التفاعل له شكلين: الأول مباشر Direct والآخر رمزي Symbolic، ويتكون النوع الأول (المباشر) من نشاط يتضمن حركة في مكان الشخص، ويمكن أن يلاحظ هذا النوع من التفاعل في سلوك الدفع، العراك، الخدش، الضرب، أو في الجهود المتصلة لإنهاء عمل أو إنهاء بعض الأعمال الترفيهية، أو في أي شكل من أشكال الاتصال الجسدي بما في ذلك الاتصال الجنسي. أما النوع الآخر، التفاعلي الرمزي أو الإيصالي، فيتكون من أصوات أو إشارات أخرى أو لغة حقيقية سواء كانت مكتوبة أو منطوقة. والرمز هو تمثيل لموضوع نوع أو فعل أو صفة أو علاقة معينة، ويعبر الرمز، من ناحية أخرى، عن بعض الاستجابات الواضحة سواء كانت ضمنية أو متوقعة.

ويمكن القول أن للاتصال أهمية كبرى في توضيح أي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية، وبصفة خاصة في عالمنا الحديث أو الإشارة المباشرة من شخص لشخص آخر أو الحديث من خلال وسيط لحدوث إيصال بعيد المدى، مثل الصفحة المطبوعة أو التليفون أو التلغراف أو الأفلام السينمائية أو التلفزيون.

---

(1) Ibid. pp 59-60· See also· Gillin, J.. L . and Gillin, J . P . Cultural Sociology. New York The NaCimillan Company. 1948.

ولاشك أنه في عالمنا المعاصر يلعب الاتصال بهذه الوسائل الآلية دورا هاما لإحداث التفاعل المطلوب بين بني البشر.

ب- المجالات الأساسية والثانوية للتفاعل:

من المعروف أن عملية غرس الأنماط السياسية للتفاعل تتم في الجماعات الأولية، ثم تنتقل بعد ذلك إلى الجماعات الثانوية الأخرى. فعلى سبيل المثال، نجد أن ردود أفعال الطفل نحو سلطة الأبوين تشكل قاعدة أساسية لاتجاهاته فيما بعد بالنسبة لطاعة القانون والقيادة في الحياة العامة. كذلك الحال بالنسبة للاهتمامات والقيم التي تحدد في المنزل والمجتمع المحلي بشكل قاطع القيم والمصالح الرئيسية التي قد يتبناها الأفراد فيما بعد. فالعادات السلوكية، سواء كانت عدائية أو تعاونية، كذلك الاتجاهات التي يتقبلها أعضاء الأسرة أثناء تفاعلهم أو عندما يحتكون في أي جماعة أخرى، غالباً ما تنتقل هذه الاتجاهات إلى الأنشطة الخاصة بالاتحادات التجارية والعلاقات بين أصحاب العمل والعمال وغيرها. وتعد هذه الأنماط السلوكية الجذور الأولى لاتجاهات الفرد في المجتمعات العامة والنوادي والجمعيات العامة وأخيراً فإن هذه الأنماط الخاصة بالجماعات الأولية، وما يستمد منها من جماعات ثانوية نظامية، تلعب دوراً هاماً في توجيه طبيعة مشاركة الفرد في المجتمع الكبير.ويلاحظ أن هناك تأكيد على اللاشخصية والتخصص والعقلانية والضغوط حول المصالح الذاتية في السلوك الخاص للحشد البشري، وعندما يميل العامة أو هذا الحشد إلى الالتفاف حول طبقة مسيطرة أو شكل نظامي فإن هذا يحقق لهم الاستقرار ويحدد بطريقة دائمة القيم والمصالح العامة والحق أنه بدون هذا التنظيم الذي قد يتخذ شكلا أو آخر. فإن المجتمع يعكس نوعا من عدم التماسك وانفعالية مفرطة في الافعال الاجتماعية. ولاشك أن شكل هذا التنظيم المطلوب هو أمر حيوي لنسق القيم نفسه [1].

(1) Young. K . op cit . p 60

جـ- التفاعل الشخصي - الاجتماعي والثقافي:

لعل جذور التفاعل قائمة أساسا في الطبيعة البيولوجية للإنسان كعضو في مملكة الكائنات الاجتماعية. فحاجة الطفل الملحة للطعام لا تشبع إلا عن طريق رضاعة الأم له. وهذا الشكل من التفاعل يعد في الحقيقة أول تفاعل مباشر. ولعله الأساس بالنسبة لكل التفاعلات الأخرى. وتظهر علاقة أخرى أساسية في حماية الأم لطفلها. وبالرغم من أن حاجة الطفل إلى الطعام والحماية تنتج من ظروفه الداخلية والخارجية. فإنه في عملية الحصول على الطعام أو الحماية المريحة فإن الطفل يبدأ في تعديل تفاعلاته، ومع هذه التعديلات تبدأ عملية التعلم. ويعد هذا النوع من التكيفات البيو-اجتماعية نوعاً من الانعكاسات قبل تأثره للظروف المحيطة به. لاشك أن للتعلم دورا في إحداث هذه التعديلات.

وعندما ينمو الطفل فإننا نجد أن لهذه الظروف أهمية متزايدة، وكثير ما يتعلمه الطفل نابع أساساً من الثقافة التي يتعلمها من الأب والأم والأخوة والأعضاء الآخرين في الأسرة وعندما يمتد نشاط أو تفاعل الطفل إلى زملاء اللعب وفيما بعد زملاء المدرسة والجماعات الأخرى. فإننا نلاحظ ان الطفل قد اكتسب عادات واتجاهات وأفكار مستمدة أساسا من الثقافة العامة لمجتمعه. فعلى سبيل المثال. فإن أمهات الطبقة الوسطى في المجتمع الأمريكي تعلمن إعداد الطعام لأطفالهن في موعد محدد كل أربع ساعات. هذا البرنامج في ذاته هو جزء من الثقافة الخاصة بالطبقة الوسطى في هذا المجتمع. كذلك. بالنسبة لوقت وطريقة الإخراج بالنسبة للطفل. كلها امور محددة ثقافيا. ومنذ بداية العام الثاني. فإن معظم الأطفال يبدأون الكلام والنطق وتركيب الجمل وبنائها. وهي أيضاً أمور تحدد مقدماً بواسطة الثقافة الخاصة أو المجتمع الكبير.

ومن الخطأ الاعتقاد بأن التعلم الاجتماعي في الطفولة. هو أمر محدد ثقافيا. فهناك ادلة كثيرة تظهر أن الامر عكس ذلك. خاصة فيما يتعلق بالاحتكاكات المبكرة للطفل مع أمه أو الأشخاص الآخرين. ولنعد إلى مثال جدول الأربع ساعات لا طعام الطفل في الثقافة الأمريكية، فبينما أن ذلك حدد

فى ثقافة الطبقة الوسطى، إلا أن طبيعة ومقدار حب الأم تجاه طفلها لم يحدد مسبقاً بواسطة المعايير الثقافية. فالعادات والاتجاهات التى تنشأ وتغرس فى الطفل من خلال التعلم هى أور تعلم اجتماعياً، ولا يمكن القول بأنها مكتسبة من الثقافة بطريقة قاطعة. كذلك الحال بالنسبة لأنماط السيطرة والخضوع التى تنبعث من اللعب مع الاطفال والألعاب الأخرى التى توحى بالحب والكره والأنماط الأخرى من الشخصية - كل هذا بالتأكيد له بعض مصادره فى المواقف الاجتماعية الغير ثقافية [1].

هذا النوع من التعلم الاجتماعى الغير ثقافى هو ما يطلق عليه K.Young اسم التعلم الشخصى – الاجتماعى Personal – Social وتشير كلمة "شخصى" إلى السمات الفردية، بينما تشير لفظة "اجتماعى" أنها تظهر فى موقف اجتماعى. ولعل التكيف الشخصى – الاجتماعى له تأثيراً واضحاً فى السنوات المبكرة لحياة الطفل. ولهذا السبب نقول أن له دوراً هاماً فى إخراج الشخصية على النحو الذى نأخذه فيما بعد. فكثير من الجوانب التى تجعل الأفراد يختلفون فيما بينهم يمكن ردها إلى التكيفات الشخصية – الاجتماعية، كذلك فإن كثيراً من الصفات المزاجية والقلق والأنماط العدوانية يمكن ردها أيضاً إلى تلك التكيفات الشخصية – الاجتماعية. ويمكن ملاحظة هذا فى دراسة بعض سمات الشخصية مثل إظهار الإنسان عكس ما يبطن، والتى لها مصدرها فى تلك التكيفات الشخصية – الاجتماعية.

ومن الواضح، أن معظم العلاقات الشخصية – الاجتماعية تعطى وتتأثر فيما بعد بالتأثيرات الثقافية، ولقد لاحظ بعض العلماء أنه رغم أن الأنماط الثقافية الخاصة بتعليم الطفل قد تختلف بدرجة كبيرة، إلا أن للتكيفات الشخصية الاجتماعية أهمية كبرى لدرجة أن تأثيرها ما يستمر حتى بعد السنة الأولى حيث تبدأ تأثيرات الثقافة على الطفل [2].

---

(1) Ibid.

(2) See Dennis. W., "Does Culture Appreciably Affect Patterns different Behavior" A Social Psychology. Vol. 12 (1940). p. 516.

والحق، انه من الصعوبة بمكان، أن نحدد أين ينتهي تأثير التكيفات الشخصية - الاجتماعية وأين يبدأ تأثيرات الثقافة، فالتفرقة بين شكلين من التعلم يشكل صعوبة بالغة وذلك لانهما من نفس الدرجة على أية حال، فإنه من أجل الدراسة والتحليل، فاننا يجب أن ننظر إليهما على أنهما عمليتان منفصلتان، خاصة وأن البعض يحاول اعتبار عملية التعلم الاجتماعي هي عملية تعلم ثقافي في نفس الوقت. ولاشك أن للثقافة أهمية كبرى في تشكيل سلوك الفرد والجماعة. ولكنها ليست قاطعة كما يدعي البعض. وهناك تفرقة أخرى هامة يمكن أن نوردها هنا، وهي أن التكيف الشخصي - الاجتماعي يظهر داخل الإطار العام لموقف ما ومحدد بطريقة أو بأخرى من الثقافة. فالتعلم الشخصي - الاجتماعي، في هذه الحالات، هو قريب لما يطلق عليه الأنثروبولوجيين "السلوك المسموح به" فبعض من أفعال الأم نحو طفلها في مجرى رعايته يمكن اعتبار هذا النوع من الافعال من هذا النوع المسموح به. أكثر من هذا، هناك مواقف اجتماعية لا تحدد مقدما من الثقافة على أنها مسموحات. الا أنه يلاحظ في هذه المواقف أن العوامل الشخصية - الاجتماعية تكون لها السيطرة على تفاعل الأفراد المتضمن في هذا الموقف. ولعل خير مثال على ذلك، هو لعب الأطفال التلقائي، وحتى في حالة الكبار تحت ظروف ضاغطة مثل الفيضانات والحرائق والزلازل والغارات الجوية. ففي هذه المواقف يجد الأفراد أنفسهم متحررين من التحديدات الثقافية ويتصرفون وفقا لردود الافعال الشخصية الاجتماعية.

على أية حال، فإن الحقيقة الثابتة هي أن في السنوات المبكرة للحياة فإن العناصر الشخصية - الاجتماعية لها مكانتها الهامة في العلاقات الإنسانية. ففي الأمثلة التي ذكرناها فيما سبق، نجد أن الأفراد في حالات الأزمات غالباً ما يفقدون مؤقتاً عاداتهم واتجاهاتهم الثقافية. ولا يعني ذلك أنهم يفقدون ذلك إلى الأبد. فالأفكار الثقافية المتنوعة والاتجاهات والعادات سوف يكون لها دورها في نفس المواقف المماثلة. وبطبيعة الحال، فإن هذه الأفكار والاتجاهات والقيم ليس بالضرورة أن تتصف "بالأخلاقية"، إلا أنها تظهر أثناء

الأزمات. ولكن الدراسات الخاصة بالسلوك لمثل هذه الأزمات، أثبتت أن الكبار ربما يعودوا إلى ردود الأفعال. التي هي إلى حد كبير نتاج للتكيف الشخصي – الاجتماعي في مرحلة الطفولة. وأخيرا فإن التكيف الشخصي – الاجتماعي يلعب دورا هاما في تنظيم الأنماط الثقافية الجديدة. فالأنماط الثقافية تظهر إلى حد كبير من عناصر خليطة من مكونات الثقافة المعروفة. ولكن بعض هذه الخصائص الخلاقة للأنماط الثقافية الجديدة تستمد دافعيتها ومحتواها من نتائج التعلم الشخصي – الاجتماعي [1].

د- مصادر التعلم الشخصي – الاجتماعي والثقافي:

يعتمد كل من الشخصي – الاجتماعي والتكيف الثقافي على مصدرين أساسين هما: البناء العضوى للفرد، وطبيعة التفاعل. فبالنسبة للعامل الأول، فإن هناك اختلافات فردية في التركيب الجسماني والذكاء الفطري والقدرة على التعلم وفي الحالات المزاجية والانفعالية. وينعكس مثل هذا التنوع في قوة وسرعة وفاعلية التعلم. وترجع أهمية التكيف الشخصي – الاجتماعي في بيان أن التعلم يمثل المستوى الأول للتفاعل وكذلك في تشكيله جزءاً من القاعدة التي سوف يقام عليها، فيما بعد، التكيف الثقافي.

ومن ناحية أخرى، فإن طبيعة التفاعل تؤثر في التعلم الاجتماعي. فكثير من التكيفات الغير ثقافية لها طبيعة أولية وانفعالية، وتتميز كذلك بكونها عرضية بعكس معظم التكيفات الثقافية فجوهر الثقافة هو القبول والتوقع. هذا يعني أن الثقافة توجه الأشكال التي يتخذها التفاعل سواء كان علاقة شخصية أو علاقة شخص لجماعة أو جماعة لجماعة وأحياناً فإن هذه النمطية الثقافية للسلوك تكون على درجة عالية من الثبات، كما هو الحال في الشعائر الاجتماعية والتعليم العسكري والمتطلبات الصارمة للقانون؛ وأحياناً أخرى تكون هذه الأنماط الثقافية أكثر مرونة مثل حالات الاختيارات البديلة المسموح بها.

---

(1) Young. K . op cit . pp 60-62

وبمقارنة هذا النوع من التكيف الشخصي - الاجتماعي بالنسبة للثقافة نجد أن الثقافة ككل. تعمل في الفرد بطريقة محددة لما هو مقبول ومتوقع. ويؤدي غالبا الفشل في التماثل إلى نوعا من العقاب على أيدي الذين يقومون بعملية نقل الأنماط الثقافية للطفل. فقد تعاقب الأم، على سبيل المثال، طفلها لاستخدامه ألفاظا غير مقبولة. ومن ناحية أخرى فقد تقدم نوعاً من المكافآت للذين يتقبلون ويكسبون الطرق الثقافية بسرعة. فالطفل الذي يظهر استعدادات وقدرة على التعلم السريع للأنماط الثقافية غالبا ما يثاب على هذا سواء في شكل لعبة أو نقود أو أمور ترفيهية. كذلك الحال بالنسبة للطالب المتفوق ورجل الأعمال الناجح. على أية حال، أنه بالرغم من أن الثقافة تلعب دوراً هاماً في نمو وتطور الشخصية الإنسانية، إلا أن الفرد ليس كلية مخلوق هذه الثقافة (١).

٣- العمليات الاجتماعية الأساسية:

أ- تمهيد:

عولج موضوع العمليات الاجتماعية من كثير من العلوم الاجتماعية خاصة علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وما يهمنا هنا أن علم الاجتماع مازال علماً متطوراً. ولهذا فهو لا يستطيع أن يقرر أي حكم نهائي على الطبيعة الخاصة والدقيقة للعمليات الاجتماعية على أية حال، فإنه من المعترف به أن هناك عدداً من العمليات الهامة والمتميزة التي لها دورها الهام في الحياة الاجتماعية فعلى سبيل المثال، نحن نحتاج إلى مفهوم يصف الحقيقة الخاصة بأن الطفل حديث الولادة يقدم للمجتمع ويتكيف ثقافيا على أيدي الآخرين الذين وجدوا قبله واكتسبوا هذه الطرق الإنسانية. وبالرغم من أن هذا التدريب يبدأ في الطفولة، إلا أنه يستمر طوال دورة الحياة. مثل هذه العملية هي ما نطلق عليه اسم التنشئة الاجتماعية (٢).

---

(1) Young. K.. op. cit.. pp 62-63

(2) Young. K.. op cit.. pp. 63.

أيضاً من الضروري بمكان لبقاء الإنسان أن يكافح ويناضل للحصول على الأشكال المادية وأنواع المكافآت التي تعد ثقافياً أمور مرغوب فيها. ولعل الاشياء الرئيسية للمعارضة Opposition هو ما يطلق عليه التنافس Competition والصراع Conflict ولا يعني هذا أن كل مجالات الحياة قائمة على أساس النضال أو الصراع ضد أو مع الأفراد أو العالم الطبيعي الخارجي فقد يتحد الناس لتحقيق هدف أو غاية، وهذا ما نسميه بالتعاون Co-operation أو العون المتبادل. ويكتسب الأفراد أيضا العديد من الاستجابات المتميزة والتي تجعلهم مختلفين أو متمايزين بعضهم عن بعض، وذلك من خلال متغيرات العمر أو النوع أو المهنة؟ وهذه العملية من نطلق عليه بالتمايز Differentiation، وهي مستمدة إلى حد كبير من علاقات المعارضة والتعاون بين الأفراد والجماعات. ولاشك أن المعارضة والتعاون والتمايز تضع القاعدة التي ينبثق منها أشكال متخصصة من العمليات الاجتماعية مثل الملائمة والتماثيل وغيرها. وبالرغم من أننا قد نجد عناصر هذه العمليات في الأنواع المختلفة من الكائنات الحية، إلا أنه بالنسبة للإنسان. فإن مثل هذه العمليات تكون أكثر تعقيداً، خاصة أنها تنمو وتتطور في الثقافة. والحق، أن الثقافة باستمرار توجه وتعمق وكذلك تحدد المعنى الاجتماعي لهذه العمليات الاجتماعية.

وقد قدم بعض العلماء الأنثروبولوجيين عدداً من المفاهيم الخاصة بالعمليات الاجتماعية كمفاهيم مساعدة في معالجة البيانات في إطار مرجعي دينامي. فعلى سبيل المثال، ألفاظ مثل الانتشار، والتقارب والاكتساب الثقافي لها معان خاصة في الدراسات الأنثروبولوجية. ونشير هنا إلى أننا قد نجد بعض من البيانات، المصنفة والمحللة من خلال هذه المصطلحات، مستخدمه في علم الاجتماع تحت مفاهيم أخرى مختلفة.على أية حال، سوف نختبر الآن المفاهيم الوصفية العامة التي تشير إلى الطريقة التي من خلالها يصبح الفرد عضواً في

المجتمع وفي ثقافته. وسوف نناقش فيما بعد ثلاثة عمليات رئيسية وهي التعارض والتعاون والتمايز (1).

ب- التنشية الاجتماعية والتطبيع الاجتماعي:

يمكن تعريف التنشئة الاجتماعية Socialization على أنها علاقة تفاعلية بواسطتها يتعلم الشخص المتطلبات الاجتماعية والثقافية التي تجعل منه عضوا فعالا في المجتمع. وتتضمن هذه العلاقات من الناحية النفسية العادات والسمات والأفكار والاتجاهات والقيم. ومن وجهة النظر السوسيولوجية، فإن التنشئة الاجتماعية تعني أن الفرد يتماثل مع الأشياء المسموحة بها في الثقافة والتوقعات الثقافية التي يعبر عنها في ألفاظ مثل الطرائق الشعبيةFolkways والتقاليد Tradition والطرق الأخرى الخاصة بالحياة الاجتماعية. وقد تعني التنشئة الاجتماعية أيضا أن الفرد ينمي إحساساً بالاتحاد أو التوحيد ويأخذ أدوارا ومكانات بين الجماعات المنتمي لها، وبهذا يكتسب ويتعلم الفرد الاتجاه المضاد لأي جماعة معارضة خارجة عنه والتي قد يكون للجماعات التي ينتمي إليها اتصال بها. وباختصار، فإن التنشئة الاجتماعية تحدث في السنوات المبكرة للحياة، ومن وجهة النظر الخاصة بالتفرقة بين المجتمع والثقافة من ناحية وبين التكيف الشخصي - الاجتماعي والتكيف الثقافي من ناحية أخرى. فإن مفهوم التنشئة الاجتماعية غير كاف لوصف هذه العملية، وبالتأكيد فإن مفهوم التنشئة الاجتماعية غير كاف لوصف هذه العملية، وبالتأكيد فإن المفهوم يستخدم ويشير إلى الجوانب الاجتماعية للتعليم سواء كانت ثقافية أو غير ثقافية. وإذا قبلنا هذا

---

(1) See: Cooley C H., Social Process. New York: Charles Scribersson‹ 1918
- Ogburn. W. F., Nimkoff, M F Sociolofy Boston Houghton Mifflin Company, 1940.
- Park, R., E., and Burgess, E.W. Introduction to the Science of Sociology. Chicago: Uni of chicago Press, 1921.
- Sutheralnd, R. L., and Woodwaral, J., L., Introducatory Sociology. Phila. J.B. Lippincott Company, 1948.

التفسير فإن المصطلح على هذا النحو لا غبار عليه ولا يوجد على استخدامه كمصطلح عام ومتسع في علم الاجتماع (١).

ولقد قدم هيرسكوفتس M. H. Herskovits مصطلحاً آخر وهو التطبيع الثقافي enculturation ليغطي الجوانب الخاصة بالتكيف الثقافي والتي لا يشملها مفهوم التنشئة الاجتماعية (٢). فمصطلح التنشئة الاجتماعية. كما يذهب هيرسكوفتس إلى أن مصطلح التنشئة الاجتماعية لا يغطي سوى جانباً واحداً من العملية الكبرى للتطبيع والتي قد تشتمل على التكيفات الثقافية سواء كانت شعورية أو لا شعورية، ولا يشتمل هذا بالطبع على أمور أخرى مثل تعلم الأنساق الأساسية للضبط الاجتماعي والأدوار والمراكز، بل أيضاً الفن والدين والأنماط التعبدية الأخرى. كذلك تشتمل هذه العملية، التطبيع، الاستجابات التخيلية والخلاقة.

على أية حال، فإنه يمكن استخدام مفهوم التنشئة الاجتماعية بمعناه الواسع أي تكيف الفرد لمكانه في عالمه الاجتماعي - الثقافي. وكما أشرنا فإن الأشكال الأولى لعملية التنشئة الاجتماعية تحدث منذ الاحتكاكات الأولى للطفل مع أمه. ثم في علاقته مع زملائه. وفيما بعد عن طريق الأصدقاء وزملاء اللعب، وفي الحقيقة أن الفرد خلال حياته يستمر في الشعور بأثر مجتمعه وثقافته عليه.

والآن ننتقل لمناقشة أول هذه العمليات الأساسية وهي المعارضة والتي تتخذ شكلين هما التنافس والصراع.

جـ- العمليات المعارضة:

بالرغم من أن المعارضة والتعاون يظهران في كل مجتمع، إلا أن شكل واتجاه كل منهما قد يتشكل ويختلف بثقافة وظروف المكان والزمان، ويمكن

---

(1) Young, K., op. cit., pp.63-64.

(2) See: Herskovits, M.J., Man and his works: The Science of Cultural Anthropology, New York, Alfred A. Knopf, 1948.

تعريف المعارضة Opposition على أنها نضال ضد آخر أو آخرين لتحقيق هدف أو قيمة. ومن ناحية أخرى يمكن تعريف التعاون Co-operation على أنه السعي المشترك مع آخر أو آخرين لتحقيق خيراً أو هدف أو قيمة معينة. فالإحساس بالفوز أو الرغبة في الخير أو أي قيمة سواء مادية أو معنوية الخ هو الأساس لكل من المعارضة والتعاون. ولاشك أن هذا الإحساس ليس وظيفته بالضرورة أن يكون ملبيا الحاجات البيولوجية للاب ولكنه يحدد حسب الانساق الثقافية في المجتمع. ومن ثم فإنه ما يحارب الناس من أجله أو يتعاونون لأجله محدد بدرجة كبيرة بتكيفاتهم الثقافية [1].

ومن أجل التحليل فإن المعارض يمكن أن تقسم إلى شكلين: التنافس والصراع. وتعد المنافسة Competition أقل أشكال المعارضة عنفا. وفيها يناضل شخص أو أكثر أو جماعة من أجل بعض الغايات والأهداف. ويكون محور الاهتمام للشخص أو الجماعة المتنافسة هو تحقيق المكافأة أكثر من التنافس في حد ذاته. وفي الصراع. من ناحية أخرى، فإن الشخص أو الجماعة تحاول إحباط أو تدمير الخصم من أجل ضمان الهدف المنشود أو المكافأة بمعنى آخر أن هدف الصراع هو أولا موجه نحو توتر الفرد أو الجماعة المتصارعة. وثانيا تحقق الهدف المنشود. وفي الواقع نجد أن المنافسة بالتدريج تنقلب إلى صراع. على أية حال، يمكن أن نوضح مصدر وطبيعة عمليات المعارضة لو بدأنا في بيان كيف أن النضال هو شكل من أشكال التكيف البيولوجي مع البيئة، وثانياً من خلال بيان العلاقة بين التفاعل والدافعية مع المنافسة والصراع الإنساني الأساسي، وأخيراً في بيان تأثير الثقافة في تحديد شكل ومحتوى المنافسة [2].

(1) Young. K.. op. cit.. pp 64-65.

(2) Ibid. p 65.

١- النضال من أجل الوجود في العالم الطبيعي:

تتطلب الحاجة إلى الطعام والمكان والعوامل الأساسية الأخرى للحياة نوعا من التفاعل التعاوني أو المعارض والذي يعد ضروريا في كل من الطبيعة والمجتمع الإنساني. هذا النوع من المعارضة هو ما يطلق عليه "النضال من أجل الوجود Struggle for existence".

ولعل مصطلح "النضال من أجل الوجود" قد ظل مفهوماً غير واضحاً، أو على الاقل لم يفهم مدلوله الحقيقي. فلقد تصور الكثير من الناس أن المصطلح يشير فقط إلى الصراع العنيف بين الحيوانات أو بين بني الإنسان من أجل الحصول على الطعام أو الأقران. ويعد تشارلز دارون C. Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢) هو الذي جعل هذا المصطلح شائعاً، فلقد بين بوضوح كيف أن هذا المصطلح يشتمل ليس فقط على المعارضة - الصراع والمنافسة - ولكن أيضاً على النتائج المترتبة على التدخل بين الأفراد والأنواع الأخرى والتوازن في العلاقات المتنوعة والمرتبطة بالتعاون والتمايز. وكما يشير دارون بنفسه إلى أن استخدامه لمصطلح النضال من أجل الوجود في عمومه وفي معناه المجازي "يشتمل ويشير إلى اعتماد أي كائن على الآخر، كذلك يشتمل ليس فقط حياة الفرد، والتي لها أهمية كبرى، بل أيضاً النجاح في جعل الحياة متعاقبة" (١).

وطالما أن الحيوانات تميل إلى التكاثر في معدلات رياضية فإن هناك دائماً نضال من أجل الطعام والمكان. على أية حال قد يأخذ النضال من أجل الوجود ثلاثة اتجاهات رئيسية: ١- النضال ضد أعضاء من نفس النوع. ٢- النضال ضد أعضاء من نوع آخر. ٣- النضال ضد الظروف الطبيعية، ويوضح مفهوم النضال من النوع الأول بالإشارة إلى المنافسة حول الطعام بين الناس، فكل منهم يسعى للبقاء والاستمرار حتى وول على حساب الآخرين. أما النضال من النوع الثاني، فنشاهد أمثلة له في نضال الحيوانات ضد بعضها البعض.

---

(1) See. Darwin. C., The Origin of Species by Means of Natural Selecection or the Preservation of Faroured Race in The Struggle for life. New York Oxford Univ. Press 1902. p. 58

وأخيراً نشاهد النضال من النوع الثالث في ظروف المناخ والظروف الجغرافية التي يصل ويناضل ضدها النبات والحيوانات والإنسان.

ويشاهد تداخل الأفراد والأنواع الأخرى بوضوح عندما يكونوا غير متصلين عن قرب بعضهم البعض في سلم الطبيعة. ومن خلال هذا التبادل يقام نظام وترتيبات ثابتة. ولهذا فإن النضال من أجل البقاء - والمتضمن للمنافسة والصراع - موجود وكامن في نظامنا الاجتماعي والإنساني ولاشك أن هذا النضال يؤثر أيضا على التمايز وتقسيم العمل وتشكيل الطبقات والمواءمة والتماثل وتطور الأنظمة والأشكال المختلفة للضبط الاجتماعي داخل المجتمع الإنساني [1].

٢- الدوافع والتفاعل المعارض:

بالرغم من أن مكانة النضال في العمليات الكبرى في العالم الطبيعي شئ معترف به، إلا أنه عندما نحاول فحص المعارضة بين البشر في المجتمع الإنساني فإننا نواجه بعدد من الصعوبات. فلو أننا اعتبرنا أن العمليات هي الأساس العام والشائع لكل الأشكال الاجتماعية والثقافية، فإننا يجب لذلك أن نحاول ربط هذه العمليات بالدافعية Motivation من ناحية وإلى الجزاءات والأهداف من ناحية أخرى.

ولعل أول مظهر من مظاهر هذه العلاقة هو ما يمكن ملاحظته في الأنواع المختلفة من الأنشطة والتي لها علاقة مع دوائر الجزاءات المتعلقة بالضروريات والحماية والجنس، وفيما بعد في الدوافع الموجهة للأمن والمكانة والمصاحبة والمعرفة الخ، ويدخل بعض الأشخاص - سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، معظم دوائر الأنشطة هذه. ولاشك أن الفعل الاجتماعي، وهو ما يهمنا في العلوم الاجتماعية شئ أساسي لهذه العلاقات. وقد تأخذ هذه العلاقات الاجتماعية شكل المعارضة (المنافسة والصراع) أو التعاون. وليس بالضرورة أن يأخذ الصراع الشكل التقليدي أو البيولوجي عند الإنسان، بل على العكس قد تجد أن مصدر

(1) Young. K., op cit., p 66

هذه العمليات الأساسية راجع في المحل إلى الدوائر العضوية - الاجتماعية والتي تدور حول الدوافع وكيفية إشباعها [1].

٣- الإحباط والمعارضة:

يمكن القول. بأن مصدر المنافسة والصراع يبدو وكأنه متضمنه في الإحباط Frustration أو التداخل الذي يحدث بين الدوافع وطريقة تحقيقها، ومن المعروف أنه ليس كل الدوافع مصحوبة بنوعاً من الانفعالات، ولكن إقامة الحواجز أمام هذه الدوافع هو ما يؤدي إلى مشاعر انفعالية مكثفة هي التي تؤدي بدورها إلى إثارة الفرد لتحقيق هدفه وإشباع رغباته ودوافعه. فالغضب والخوف والحب هي دائما المشاعر المصاحبة لجهد للحصول على ما يريد (٢).

ومن الملاحظ أن للفرد لو لم يكتب له النجاح في تحقيق ما يريد، لو أحبط الفرد في مجهوداته لتحقيق ما يريد، فإنه يسلك طرقاً مختلفة لتجنب ما حدث أو لإعادة الكرة مرة أخرى أو إيجاد حيل بديلة لتجنب ما حدث له. ولعل أهم هذه الطرق التي يتخذها الإنسان في هذا الموقف هي:

أ- قد يقوم الفرد بهجوم انفعالي مباشر ضد الموضوع أو الموقف الذي أعاق طريقه.

ب- ولو فشل الفرد في ذلك، فإنه ربما يحاول اكتساب المهارة والمعرفة اللازمة لتحقيق هدفه. وفي تعلمه لهذا فإنه ربما يطلب مساعدة الآخرين.

جـ- ولو فشل الفرد في تعلم الطرق اللازمة، أو لم يحاول اكتسابها، فإنها ربما يجد بديلاً لهدفه الأصلي. وهذا واضح في محاولات التعويض مثل أحلام اليقظة dayream أو الأوهام fontasy.

---

(1) Ibid., p. 66.

(2) Young. K . op cit . p 66

د- وربما يترك الفرد كلية الجهود الخاصة لتحقيق هدفه الاصلي أو البديل لها. فقد يحاول الفرد تجنيب الموقف كلية. وهذا دائما مرتبط بنوع من النكوص لردود الأفعال الطفولية [1].

ويلاحظ أنه على الأقل في هذه الطرق الثلاثة الأولى من هذه الطرق الاربعة ان الإحباط والفشل غالبا ما يصاحبا بنوع من التعدى أو المقاومة الشديد للجهد. وعندما يصاحب بنوع من الانفعالات خاصة الغضب والخوف. فإن ذلك هو ما نطلق عليه اسم العدوان الظاهر Overt aggression وهذا سمة أساسية من سمات الصراع. وإذا اتسمت جهود الفرد بالاعتدال والمشاعر الهادئة وعدم الانفعال. فإن هذا ما نسميه بالعدوان المتساميSulilimated aggression.

على أية حال. فإن طبيعة معالجة الإحباطات ليست منفصلة عن طبيعة الدوافع نفسها. فبدرجة قوة الدافع. فإن الفرد يكون أكثر إصراراً على إرضاء الدوافع سواء بطريقة مباشرة أو عن طريق البدائل. ولاشك أن أهم الدوافع هي الخاصة بالطعام والحماية والجنس، والتي هي أساسيات للالتزامات الثقافية. وسواء ارتبطت المعارضة بالدوافع الملحة أو بالدوافع الثانوية. والتي يتعلمها الشخص. فإن المعارضة لها جذورها في البيئة الإجماعية. ففي المجتمع الإنساني غالبا ما نجد أن الدوافع والتفاعلات مغطاة بالتكيفات الثقافية. ولهذا ليس من السهل بمكان أن تنصف الدوافع الأولية والأفعال الاجتماعية الأولى للمعارضة.

وبالرغم من أن درجة التوتر التي يخبرها الأطفال الصغار تختلف من مجتمع لآخر. فإنه هناك نسبة ضئيلة من الشك بان الشعور بالحاجة في الشهور الأولى. بالإشارة إلى الأساسيات أو المشاعر أو كلاهما. هو الذي يؤدى إلى ظهور أنماط معينة هي التي تفرض عليها التكيف الثقافي فيما بعد. بكلمات أخرى، فإن التكيف الشخصي - الاجتماعي هو الاساس. أولا. للاعتماد على

(1) Ibid. p. 66.

مقاومة سلطة الأبوين. وثانيا السيطرة. وثالثا، المنافسة الأخوية ويلاحظ أنه في مرحلة الشباب والرجولة أن اتجاه ومعنى التنافس والصراع قد يحدد ثقافياً. ولكنه رغم ذلك فإن الشكل الرئيسي للمنافسة والصراع في كل مكان تنبع أساساً من التعلم الاجتماعي وليس الثقافي [1].

٤- الثقافة والمنافسة:

وبينما أن الثقافة نفسها متأصلة في طبيعة دوافع وتفاعلات الإنسان. إلا أن الأشياء الخاصة - سواء مادية أو غير مادية - والتي يعاني من أجل الحصول عليها الكثير، هذه الأشياء ترجع أهميتها إلى عوامل عديدة منها التاريخي والصدفة وظروف الزمان والمكان. والتكيف المحلي مع البيئة الخارجية. وفي مجتمعنا الإنساني فإننا نأخذ المنافسة والصراع على أنهما مسلمات لابد منها، ولهذا فإننا لا يمكن أن نتصور أن هناك قبيلة أو دولة بدون أن يكون بينها نوعاً من العمليات الخاصة بالمعارضة أو المنافسة أو الصراع، على الأقل بما له علاقة بالاهتمامات الكبرى لهذه الجماعة سواء كانت قبيلة أو دولة (٢).

والحق أن الفحص العميق للثقافات المتنوعة يؤدي إلى الاعتقاد بأن كل المجتمعات الإنسانية ربما تصبح محكومة بأشكال الاقتصاد والحياة الجمعية التي قد تكون تعاونية أو تنافسية والتي تعتمد على روح المجتمع أو نسقه القيمي. ولقد قدمت لنا مرجريت ميد M.mead توضيحاً هاماً لهذا التنوع. فلقد وجدت في بحثها ثلاثة عشر قبيلة منفصلة عن بعضها. إن التقسيم المقترح للأنساق الاجتماعية على أنها إما تعاونية أو تنافسية، هذا التقسيم لا وجود له بين هذه القبائل [3]. ويؤكد ينج Young أن المنافسة والصراع ليست مفتقدة تماماً في أي

---

(1) Young. K., op. cit., p. 66.

(2) Young. K . op. cit . p 67.

(3) See Mead. M . (ed.) Co-operation and Competition Among premitive peoples. New York McGraw-Hill Book Company 1937. See also May. M . A., and Doob. L.. W.. Competition and Co-operation. Social Science Research council bulletion No 25. 1937
- Housltion. W . H.. "Competition". Encyclo of the Social Science Vol. 4. pp 141-147.

من هذه القبائل. هاتان العمليتان الأساسيتان. كما يذكر ينج هما في علاقة تبادلية. وكما ذهب بعض الاقتصاديين من قبلن بأن المنافسة تقوم أساساً على اساس من الاتفاقات الضمنية، بينمـا تتبع الاتجاهات التعاونية القواعد في العلاقات التنافسية. فعندما يميل التنظيم الثقافي – الاجتماعي للتأكيد على أحد هاتين العمليتين. فإن العملية الأخرى قد تكون موجودة بطريقة أقل تنظيما وأقل اعترافاً. ولا يعني هذا غيابها كلية من هذا التنظيم. والخلاصة. أنه ليس هناك أي ثقافة دون أن يكون هناك نوعاً من المنافسة والصراع، ولكن تختلف أشكالهما باختلاف مكونات الثقافة والقوانين والقيم الأخلاقية. وتحت تأثير الغزو الثقافي أو الثورات السياسية فإننا قد نلاحظ تغيرات في القاعدة الاقتصادية ويتبعها تغيرات في هذه العمليات الأساسية [1].

٥- الصراع:

سبق أن عرفنا الصراع بأنه شكل من أشكال المعارضة العنيفة والتي تتميز بنوع من الانفعال. والذي يكون الهدف الرئيسي للفاعل هو التغلب على الخصم كوسيلة لتأمين الحصول على هدف خاص أو مكافأة معينة. وبالمقارنة. فإن المنافسة. على الأقل في جوانبها اللاشخصية. غالبا ما تكون لا شعورية وبطريقه او باخرى فهي عملية مستمرة، إلا أن الصراع بالمقارنة. هو عملية مؤقتة وتميز بوعي الشخص المتصارع. وبطبيعة الحال فإنه في كثير من الحالات والمواقف فإن المنافسة والصراع غالباً ما يكونان متلازمان، ويظهر الصراع غالباً في الأوقات الحرجة في عملية المنافسة الممتدة [2].

وتكمن مصادر الصراع في الإحباطات التي يمر بها الفرد في معاملته في جماعته الأولية. وعندما يكبر الطفل فإن نموذج المشاجرة ربما يتحول بواسطة التحديات الثقافية – إلى مواقف واسعة النطاق. بمعنى آخر، فإن الصراع ربما يتأثر بطبيعة الجماعة وثقافتها الخاصة. وربما يكون موضوعات الصراع: الملكية،

(1) Young. K.. op. cit.. p. 69.

(2) Young. K.. op. cit.. p. 68.

القوة، المكانة، الحرية – حرية الفعل والفكر – أو له شئ ذو قيمة. وفي المجتمعات التي تتميز بالصبغة العسكرية فإن الحروب تعتبر نوعاً من الوجود المرغوب فيه. ونجد في المجتمعات – التي تتنوع فيها المصالح الاقتصادية – حيث الكثير من الأفراد والجماعات التي تعاني من افتقاد الأشياء المادية – فإننا نلاحظ أن صراع المصالح الاقتصادية غالباً ما يميز العمليات التنافسية. كذلك الحال، لو انتشرت الفرق الدينية. فإن الصراع سوف يتخذ الشكل الديني. وباختصار، فإن نسق القيم المحدد ثقافياً هو المسئول عن تحديد نوعية الصراع في ذلك المجتمع [1].

أكثر من هذا فإنه ليس شكل الصراع فقط هو الذي يعدل بواسطة النظام الاجتماعي والثقافة. ولكن نلاحظ أنه في كل مكان هناك نوعاً من التنظيمات التي تحكم الصراع وتضع له الضوابط اللازمة. فنظام "الدية" – على سبيل المثال – هناك تحديد من المجتمع للطرق المقبولة الخاصة بقتل شخص لآخر. كذلك الحال بالنسبة لإعدام أي شخص في أي قبيلة أو مجتمع. وعندما يكون الصراع واضحاً، وعندما لا يكون هناك طرقاً مناسبة لمقابلة ذلك، فإن العنف وأنواع غير متوقعة من الصراع هي أمور يمكن ملاحظتها بسهولة كما هو الحال في الصراع العنصري. وباختصار فإن الصراع يوجه أساساً لتدمير الشخص الآخر وفي المجتمعات الإنسانية، نجد أن معظم أنواع الصراع غالباً ما تنتهي بشئ من الاتفاقات أو توفيقات أو في اندماج عنصرين متعارضين. وتمر عملية الصراع بالطريقة الآتية:

أ- شعور بالحاجة لشئ ما يعتبر محدود في وسائله.

ب- النضال مع الآخرين للحصول على هذا الشئ.

---

(1) Ibid.

جـ- حل هذا الصراع إما بتدمير الخصم أو بتوفيقات مع الآخرين أو تبني طرق أخرى للتكيف. ولاشك أن بناء المجتمع يتأثر بعمق بالتوازن بين هذه القوى المتعارضة (١).

د- التعاون والتمايز:

كما أشرنا فيما سبق، أن التعاون والمعارضة هما سمتان أساسيتان للتعامل الإنساني، وكما يبدو أن هذين النمطين - التعاون والمعارضة يشكلان الأسس لكل العمليات الاجتماعية الأخرى. كما يشير البيون سمول Albion W Small إلى أن الصراع والتعاون عمليتان متلازمتان في كل موقف. وإذا فإما أن تكون المصالح متفقة أو متعارضة (٢). ويميل البعض إلى اعتبار المعارضة هي أساس التفاعل الإنساني، ومن ناحية أخرى يميل البعض الآخر إلى اعتبار التعاون هو أساس لكل العمليات الاجتماعية. فعلى سبيل المثال، يذهب أنصار هذا الاتجاه إلى أن التعاون هو أساس كل العلاقات الاجتماعية فالخصوم المتصارعة لابد أن "يتعاونوا من أجل تبادل الهجمات، كذلك الحال بالنسبة لرجال الأعمال لابد أن "يتعاونوا" في علاقات السوق. كذلك لابد للتوافق بين العمال وممثلي أصحاب العمل وهكذا. والحق أن هذا الاستخدام، جعل مفهوم التعاون متسعاً لدرجة أنه يفقده معناه الاجتماعي والتفاعلي. ونحن نجد استخدام مصطلح التعاون بالجوانب المحددة بالاتصال الإنساني والذي له علاقة بالتعاون المتبادل للأشخاص أو الجماعات من أجل هدف عام وشائع. وباختصار فإن التعاون ليس فعلاً معارضاً ولكنه فعلا مشترك وموحد من الجميع (٣).

---

(1) Young. K., op cit p 69. See also: Lasswell, H., D., "Social Conflict." Encyclo of Social Science Vol 4, pp 194-196; Simmel, G., Conflict and the web of Group-Affiliations Trans. by K H wolff and R Bendix. New York, The Free Press 1955

- Coser, L. The Function of Social Conflict New York. The Free Press. 1964

- Caver, T.N., "The Basic of Social Conflict." A.J.S. Vol 13 (1908), pp. 623-37

(2) See: Small, A., W., General Sociology Chicago univ. of Chicago Press, 1405, pp 357-203.

(3) Young. K., op cit p 70

وترجع جذور التعاون، كما هو الحال بالنسبة للمعارضة، في الطبيعة. وبالرغم من أن دارون هو الذى أشار إلى أن كلا العمليتان - المعارضة والتعاون - أساسان بالنسبة للنبات والحيوان من أجل النضال من أجل الاستمرار في التعاون فإن كروبتكين P. A. Kropotkin هو أول من أكد على مكانة التعاون المتبادل كعملية عامة في الطبيعة وفي المجتمع الإنساني [1]. ويعتمد علم الاجتماع في مفهوم التعاون على بعض العلوم الطبيعية الأخرى مثل النبات والحيوان. فمفهوم التعاون يشير إلى التعاون المتبادل الذى ينمو عندما يعيش أنواع معينة في مكان معين، كذلك يشير المفهوم إلى التعاون المتبادل أو المساعدة بين أعضاء نفس النوع. ولعل الأمثلة كثيرة من علم النبات والحيوان لمثل هذه الأنواع من التعاون من أجل الحماية والطعام [2].

ولعل الاعتماد والحب هما الأساس الذى بدونه لا يمكن أن يكون هناك تعاوناً ومن ناحية أخرى فإن الاختلافات الفردية في القدرات والتى تظهر في مواجهة الموقف والأدوار المتنوعة. هذا الاختلاف هو الأساس لتقسيم العمل الذى يؤدى بدوره الى وجود الوظائف التى تعتمد على بعضها البعض. ومن ثم يصبح التعاون ممكنا. فلا يمكننا أن يكون لدينا تعاون بدون أن نطور ما يسمى بالمشاركة الوجدانية Sympathy وتعتمد المشاركة الوجدانية على قدرة الشخص لأن يضع نفسه مكان الآخرين. فالتعاون ينشأ أصلاً من تواجد شخص مع الآخر وينظر نحو نفس أهداف الآخرين بعين الرضى. في هذه الحالة نجد أن الذات تتسع لتشمل الآخرين بداخلها. وهذا يعنى إخفاء الذاتية حسب متطلبات الموقف من أجل المساعدة المتبادلة. وهذا بلا شك يؤدى إلى تشابه في العقول ومن ثم في الأهداف والخطط [3].

---

(1) See: Kropotkin P. A. Mutual Aid: a Factor in Evolution. New York Alfred A. Kropf. 1917

(2) Young. K.

(3) Young. K.. op. cit.. p. 72

ويتخذ شكل التعاون خطوات أولها أن يكون موجهاً بدافعية عالية نحو تحقيق هدف مشترك بين الجميع. ثانياً يجب أن يكتسب هؤلاء الأشخاص نوعاً من المعرفة النافعة لتحقيق هذا النشاط والهدف المنشود ولهذا يعتبر التعليم أمراً أساسياً من متطلبات التعاون. ثالثاً يجب أن ينمى هؤلاء الأشخاص اتجاهات إيجابية نحو مشاركة العمل والمكافآت المتوقعة من إنجازه. وأخيراً يجب أن يتعلم هؤلاء الاشخاص المهارات الضرورية حتى يتحقق لهذا التعاون النجاح [1].
وكما هو الحال بالنسبة للمعارضة. فإن التعاون يظهر داخل وخارج الجماعة. وبالرغم من أن الصراع قد ينشأ داخل الجماعة، إلا أن الجماعة لا يمكن أن تستمر بدون أن يكون هناك قدراً من التعاون. فالتضامن بين الجماعة يبدأ عنه في أشكال مختلفة مثل التعاون المتبادل. المساعدة، الولاء للرموز المعترف بها من الجماعة. هذا النوع من التعاون يبدو واضحاً عندما تواجه الجماعة نوعاً من المعارضة من أشخاص أو جماعة أخرى خارجة عنها. ففي هذه الحالة ينمو شعور بالهوية الجمعية ويوجه نحو الجماعة المعارضة.

ومن ناحية أخرى فإن التعاون يفرض نوعاً من الالتزام على الأشخاص المشاركين فيه. فالذات ليس لها حرية إرادة أن تتعاون مع ذوات أخرى. وعدم وجود مثل هذا الالتزام يؤدى في نهاية الأمر إلى إحلال الصراع بدلاً من التعاون. فالتعاون يفترض إنكارا للذات وكل الدوافع المتعلقة بتحقيق الذات. وعندما يتطور التنظيم الاجتماعى فإننا نجد المبادئ الأخلاقية هى التى تقوم بهذه المهمة والتى تقف فى مواجهة الاتجاهات الأنانية والتى تؤدى إلى الصراع. وباختصار، فإن وظيفة التعاون يمكن تلخيصها فى كلمات كولى C.H. Cooley على النحو التالي: "يظهر التعاون عندما يرى الناس أن لديهم هدفاً مشترك ويكون لديهم فى نفس الوقت الذكاء الكافى والتحكم الذاتى لتحقيق الهدف من خلال الفعل المشترك .." [2].

---

(1) See: May. M. A. and Doob. L.W. Competition and Co-operation. op cit.

(2) See: Cooley. C. H.. Sociological Theory and Social Resources. New York. Henry Holt Company. 1930. p 176.

ولاشك أن الاسرة هي المكـان الاول الـذي يتعلـم فيـه الفرد أسـاليب التعاون وحب الآخرين. ولعل الجماعات الثانوية الأخرى، مثـل جماعـات اللعب والأصدقاء والدراسة كلها تدعو إلى شكل أو آخر من أشكال التعاون. فالتعاون الإنساني شكلاً من أشكال التفاعل بين شخص أو أكثر أو جماعات تحاول تحقيق هدفاً معينا قد يكون هدفاً مادياً أو معنوياً. إلا أننا نؤكد هنـا أن الثقافة هي التي تحدد الأهداف المنشودة التي يسعى الأفراد للتعاون عليها. والملاحظـة، أن المجتمع الحديث يؤكد على اتجاهات المنافسة والصراع أكثر من التعاون. ولا يعني هذا أن المجتمع الحديث يتميز كلية بالفردية، فإننـا نجـد فـي داخـل الطبقات والفرق الرياضية والاتحادات النقابية والجماعـات الدينية تعاون تبادلي وأشكالاً متنوعة أخرى من أشكال التعاون. على أية حال، نؤكد أن نسـق القيم في المجتمع هـو الـذي يحـدد درجـة وأهميـة التعـاون أو المعارضـة لتحقيـق الأهداف المنشودة [1].

٢- التمايز:

ومن ناحية أخرى يعتبر التمايز differentiation أحد العمليات الكبرى في الحياة الاجتماعية ويظهر التمايز عندما تكـون هنـاك وظـائف معينـة نابعة من الاختلافات الخاصة بالعمر، الجنس، المهنة.. الخ، ولكن يلاحظ أن مصدر التمايز يكمن في المعارضة والتعاون. ونجد أشـكالاً مـن التمـايز فـي المملكـة الحيوانيـة. فالأعمال التي يقوم بها الفرد، على سبيل المثال، تختلف حسب فئات العمر، كذلك السلوك الجنسي يختلف حسب النـوع، حيـث يتميز الذكـر بالعدوانيـة والانثى بالاستسلام [2].

ويظهر المجتمع الإنساني تنوعـاً كبيـراً فـي السـلوك، خاصـة فيمـا يتعلـق بالأدوار والمكانة. ويرجع هذا التنوع إلى اختلافـات فـي العمر، النوع، الذكـاء، المهنة، القدرة على السيطرة أو القيادة. وبالرغم من أن الوظيفة الخاصة للفرد

---

(1) Young. K.. op. cit.. pp 72-73.

(2) Ibid.. pp. 73-74

في خلال سنوات حياته تتنوع بشدة. إلا ان كل المجتمعات تعطي للطفل مكانا مختلفا عن ذلك الذي يخصص للشباب أو المسنين. كذلك الحال بالنسبة للمرأة فهي دائماً مخصصة لرعاية الطفل والاهتمام بشئون المنزل بينما نجد الآباء والأزواج يتحملوا العمل خارج المنزل. وفي كل مكان نجد بعض الأشخاص الذين لديهم القدرة على السيطرة على الآخرين. وباختصار فانه في كل مجتمع هناك شكلا او اخر من أشكال تقسيم العمل [1].

٣- التدرج والمواءمة والتماثل:

ويحاول المجتمع الإنساني بكل أعضاؤه وجماعاته التكيف مع بعضهم البعض من ناحية، والتكيف مع البيئة الطبيعية من ناحية أخرى. فالصراع لا يمكن أن يدوم طويلاً، حتى المنافسة. فإنها قد تؤدي في النهاية إلى نوعا من أنواع علاقات التعاون. وتعد المواءمة Accommodation شكلا آخر من أشكال الإجراءات العملية التي تظهر بين الأشخاص أو الجماعات المتعارضة. وقد يؤدي وجود التمايز والمواءمة إلى ظهور نوعاً من البناء الطبقي المتمايز. وفي حالات المعارضة، غالباً ما نجد أن هناك محاولات للتوفيق بين العناصر الثقافية للجماعات التي كانت متصارعة أو يحدث نوعا من التماثل. وقد تعمل المواءمة والتماثل على خلق ما يطلق عليه الأنثروبولوجيين اسم التبادل الثقافي وحتى مع ظهور المواءمة والتماثل، فإن التعاون والتمايز لا يزال لهما مكانهما. والمواءمة باختصار، هي نوع من التعاون المفروض كذلك فإن بعض جوانب المواءمة والتمايز تتضمن اعتراف متبادل بالاختلاف في الوظائف [2].

ولا يؤثر التمايز فقط من حيث العمر، والجنس والذكاء على تقسيم العمل ولكن أيضاً على التجمعات من خلال مكانتها على سلم الحقوق والامتيازات والتي توجد في كل المجتمعات الإنسانية. هذا المقياس لتدرج الناس إلى ما هو نطلق عليه التدرج الاجتماعي Stratification. ويشير المصطلح إلى كل

---

(1) Young. K . op. cit., p. 74

(2) Ibid., pp 73-74.

من: العملية التى يوضع الناس بها على سلم المكانة، والأنظمة التى تنتج عن هذا التدرج. وكعملية فإن التدرج يتعامل مع التفاعل المتبادل بين علاقات المكانة والتى نطلق عليها الطريقة. وعندما ينظر إلى التدرج من الجانب النظامى. فإننا نهتم بالخصائص والوظائف الهامة المرتبطة بالبناء الطبقى. ولاشك أن هذا يتضمن اللوائح والقواعد والحقوق والواجبات والأساطير الاجتماعية والرموز الخاصة بالتوحد والتمايز والتى تعبر عن المكانة [1].

وتستخدم المواءمة accommodation بمعنيين: الأول كشرط للترتيبات النظامية والثانى عملية اجتماعية وعندما تستخدم كشرط للترتيبات النظامية. فإنها تشير إلى حقيقة التوازن بين الأفراد والجماعات وبين قواعد اللعبة التى يلعبونها، فالأسلوب المناسب، والاتفاقات التى تتطور بين الجماعات الاقتصادية المتصارعة كل هذا شكل من أشكال المواءمة. وعندما تستخدم المواءمة كعملية فإنها تشير إلى الجهود الواعية للناس من أجل تطوير ترتيبات فعالة يهتم بها والتى تؤدى على الأقل مؤقتاً. إلى تخفيض حدة الصراع وتجعل علاقتهم أكثر تسامحاً وتجنبهم بذل الجهد الضائع. بمعنى آخر أن المواءمة كعملية تسعى إلى حل الصراع بدون تدمير الخصم أو فقدانه لذاتيته السابقة. وكعملية فهى غالباً ما تكون شعورية. إلا أنها ليست عقلية بالضرورة، كذلك. فهى تتوصل إلى ترتيبات وقواعد خارجة ورسمية، ولعل من أهم وظائف الموائمة الآتى:

١- أنها تعمل على تقليل حدة الصراع بين الأشخاص أو الجماعات المتصارعة كخطوة ضرورية للوصول إلى اتفاقات من نوع جديد والتى قد تؤدى إلى التماثل.

٢- أنها قد تؤدى إلى تأجيل الصراع إلى مرحلة أخرى، مثل ما يحدث فى المعاهدات بين الدول المتصارعة.

٣- أنها تحاول أن تسمح للجماعات التى تميز بالتباعد الحاد بين بعضها البعض بالتقارب.

(1) Young K. op cit p 74

٤- وأخيراً أنها قد تمنع ما ينظر إليه من خلال المعايير الثقافية بالاندماج الغير مرغوب فيه لجماعتين وما ينتج عن ذلك من تماثل [1].

وقد تتطلب المواءمة أن تكون الترتيبات مفروضة على أحد الجماعتين المتصارعتين وقد يرجع هذا إلى مكانتها أو لقوتها. ولاشك أن العوامل الثقافية للقبول والتوقعات تلعب دوراً رئيسياً لتقبل المواءمة أو رفضها في البناء الفوقي للمجتمع. وبالرغم من أن المواءمة تحقق نوعاً من التوازن بين المصالح المتعارضة في البناء الاجتماعي، إلا أن الصراع يظل كامناً. ويظهر من وقت لآخر. وتقوم بهذه المهمة الأساطير والعناصر الثقافية كعناصر مقاومة لقبول المواءمة. ويلاحظ أن الأزمات والمواقف الجديدة هي من أهم الأسباب التي تؤدي إلى إشعال نار الصراع القديم الذي حاولت المواءمة تخفيض حدته في الماضي. على أية حال، هناك العديد من أشكال المواءمة مثل القهر، التوافق، التحكيم، التوسط، التسامح وغيرها [2].

وعندما يحدث نوعاً من المواءمة بين شخص وآخر أو بين جماعة وأخرى، وتظل العلاقة بينهما على مستوى المواءمة، فإن هذا يعني عدم الإخلال ببناء الحماية ونسقها الثقافي. ويقصد بالتماثل Assimilation ذلك الخلط المشترك والمشاركة في الطرائق الشعبية والمعايير والقوانين وطرق الحياة لجماعتين أو اكثر او مجتمعات كانت تتميز فيما سبق بأنماط ثقافية متمايزة. ويشترط لحدوث التماثل وجود قدر من الاتصال المباشر والمستمر. وبالرغم من أن التماثل بين العديد من الثقافات المؤتلفة. ولعل خير مثال على ذلك، هو ما حدث في انجلترا من تماثل بين الثقافة الأنجلو-سكسونية والنورمانية Norman والتي حدثت نتيجة للغزو الروماني لإنجلترا عام ١٠٦٦ والذي استمر لقرنين من

(1) See: Vincent. M.. J.. The Accommodation Process in Industry Los Angeles: Univ of Southen California Press. 1930, p. 4.

(2) Young. K.. op. cit.. pp 74-75.

الزمان. كذلك الحال بالنسبة لأمريكا. حيث أن عملية التماثل ما زالت مستمرة بين الثقافات التي حملتها إليها العناصر المهاجرة الجديدة.

ويلاحظ أن عملية التماثل لا تحدث بنفس الدرجة في كل المجتمعات، فعامل الوقت والعناصر الثقافية لها تأثير كبير في هذا الشأن. ومن ناحية أخرى، قد تتأثر عملية التماثل بعدة عوامل من أهمها الخصائص العنصرية والتراث الاجتماعي وثقافة المهاجرين والثقافة الأصلية كذلك طبيعة المجتمع المستقبل لهذه الثقافات، ودرجة التماسك والصراع داخل هذا المجتمع. على أية حال، فإن التماثل، على العكس من المواءمة، يتم بطريقة لاشعورية ويتغلغل في بناء الشخصية ويمس القيم الأساسية والاتجاهات المتوارثة [1]. ولعل أهم أشكال التماثل هو ما يسمى بالاندماج Amalgamation والذى يعنى التزاوج بين أعضاء من ثقافتين مختلفتين. وهذا ما يحدث في الغزوات العسكرية وفي المجتمعات الجديدة والمستخدمة، حيث يظهر الجيل الأول من الأطفال يحمل ثقافة كل من الأب والأم. وغالباً ما يحدث صراع للنسق القيمي للفرد، وفيما بعد تقل حدة هذه الصراعات القيمية نظراً لأن عملية الاندماج التي تحدث بين البيض والملونين في أمريكا رغم أن البناء الطبقي يعوق إتمام هذه العملية. كذلك تستخدم لفظة مصطلح التبادل الثقافي acculturation لوصف الجهود التي تبذل لتفاعلات ثقافية أو أكثر. وتتضمن هذه العملية امتصاص أحد هاتين الثقافتين للأخرى، أو على الأقل الاندماج المتعادل للعناصر الثقافية لكل منهما [2]. والحق أن هناك عدداً من العمليات الأخرى والتي لها علاقة بتطور وتراكم الثقافة كذلك تغيرها. وهذا ما سوف نبحثه في فصول لاحقة بإذن الله.

---

(1) Young. K . op cit.. pp 77-78

(2) See Linton. R . (ed.) Acculturation in Seven American Indion Tribes. New York. Appleton – Century – Crafts. 1940. p 470.

الفصل الرابع

سوسيولوجية الثقافة: طبيعة وخصائص الثقافة

١ – تمهيد.

٢– المعالجة الأنثروبولوجية والسوسيولوجية للثقافة.

أ– الأنثروبولوجيا الثقافية.

ب– علم الاجتماع والثقافة.

٣– مفهوم الثقافة.

٤– الخصائص الأساسية للثقافة.

٥– شكل ومحتوى الثقافة.

أ– السمات الثقافية.

ب– الأنماط الثقافية.

جـ– الأنماط العامة.

د– الأنساق الثقافية الكبرى.

هـ– الثقافة الفرعية والاختلافات والمشاركة.

٦– خاتمة.



الفصل الرابع

سوسيولوجية الثقافة: طبيعة وخصائص الثقافة

١ - تمهيد:

الثقافة هي أسلوب الحياة في المجتمع، وهي - الثقافة - التي جعلت المجتمع البشري يتميز عن غيره من المجتمعات الحيوانية: فالعادات والتقاليد والأفكار التي يشارك فيها أفراد المجتمع الواحد، كذلك التجارب والخبرات التي يمر بها الإنسان فتستقر في أعماقه وتشكل اتجاهاته - كل هذه الأمور يتسم بها الجنس البشري ويستخدمها المجتمع الإنساني عبر التاريخ جيلاً بعد جيل وتتناقلها الأجيال كتراث اجتماعي [1].

ولكل مجتمع ثقافته الخاصة التي يتسم بها ويعيش فيها، كما أن لكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها. وكما هو معروف، فإن للثقافة مقومات مادية ومقومات معنوية: فأما المادية فتتألف من طرائق المعيشة والأدوات التي يستخدمها أفراد المجتمع في قضاء حوائجهم والأساليب التي يصطنعونها لاستخدام هذه الأدوات. ولهذا نقول، بأن أدوات الصيد والزراعة والقتال هي أدوات ثقافية، كذلك الأزياء وأسلوب الترفيه والتكنولوجيا كل هذه أمور تشتملها الثقافة المادية. أما المقومات المعنوية للثقافة، فهي مجموعة العادات والتقاليد التي تسود المجتمع والتي يتوارثها أفراده جيلاً بعد جيل. مثل القانون والعرف والقيم والدين والأدب والعادات والتقاليد التي تسود المجتمع وتحدد علاقة أفراده بعضهم ببعض.

ويمكن القول أن المفهوم الحقيقي للثقافة وهو كما نرى أوسع مما تعود الناس فهمه من كلمة "ثقافة" بل إنه يغاير في بعض الوجوه المعنى المألوف

---

(1) See: Verene, D. et. al. Man and Culture. New York: Dell Publishing Co. 1970.

الذى توحيه لفظتنا "ثقافة" و"تثقيف". فالثقافة إذن، هى السلوك المكتسب، وهى لذلك تتضمن كل الأساليب أو الطرز المألوفة وهى كل الأفكار والقيم التى يمارسها الناس ويحرصون عليها ويعتزون بها ويؤثرونها على غيرها كأعضاء فى مجتمع منظم أو موحد. وباختصار فالثقافة هى: كل ما يكتسبه الإنسان بكونه عضواً فى المجتمع وتجعل منه ومن مجتمعه "إنساناً".

والثقافة بطبيعتها لا تتجلى لنا كظاهرة إلا بعد إدراك تأثيرها. فمنذ الطفولة تتشكل الثقافة فى أنواع معينة من السلوك، نعاقب إذا انصرفنا عنها ونثاب إذا ما فعلنا والتزمنا بما نؤمر به. كذلك يكتسب الفرد بالتعلم ما يعتبره أهدافاً وغايات، يشارك فيها مع باقى أعضاء المجتمع. فالثقافة، إذن، هى مثل الهواء الذى نستنشقه ونسلم به تسليماً ولا نكاد ندرك ذلك. والثقافة مثل الهواء أيضاً إذا ما خالطه "الضباب" فإنها تتخذ صورة غير واضحة لا يمكن تجاهلها. والملاحظ، أن الأفراد المنتمين لثقافات متنوعة من السهل أن يميزوا الطرق غير المألوفة والغير شائعة عندهم، وغالباً ما يصفون هذا السلوك بالغرابة والشذوذ.والدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية تزودنا بأمثلة واضحة عن اختلاف معايير السلوك عبر التاريخ الإنسانية [١].

وفضلاً عن ذلك، فإن الثقافة لا تضم فحسب أشكال التنظيمات الاجتماعية وأشكال السلوك المكتسب التى تنبثق منها، بل تضم أيضاً "القوة الخلاقة" التى تمكن المفكر من إنتاج شئ جديد يتميز بالحداثة فى نطاق الأشكال والأنماط التى تحقق التكامل داخل المجتمع. كذلك تحتوى الثقافة على تلك القوى "المحافظة على الهوية" وهى التى تمكن المفكر والفيلسوف ورجل الدين والأديب والفنان من التوفيق بين متطلبات المعايير الدينية والأخلاقية وبين الواقع المتغير. كذلك تحتوى الثقافة على تلك القوى "الدافعة الدينامية" وهى التى تمكن العالم من إدخال تغيرات تكنولوجية تستند إلى المعارف السابقة.

---

(١) وليم باسكوم وميكلهيرسكوفتز. الثقافة الإفريقية: دراسة فى عناصر الاستمرار والتغير (ترجمة عبد الله الناشف) بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٦٦.

فالثقافة قوة خلاقة تدفع الإنسان والمجتمع إلى اكتساب ما هو جديد. شريطة ألا يتعارض ذلك مع تراث وهوية المجتمع (١).

٢- المعالجة الأنثروبولوجية والسوسيولوجية للثقافة:

لا يقتصر مجال العلوم الاجتماعية المعنية بدراسة الثقافة على دراسة الثقافة في ردود أفعال الإنسان تجاه أقرانه، وإنما تحاول هذه العلوم أيضاً دراسة أوجه السلوك الإنساني الخارجة عن نطاق التنظيمات الاجتماعية مثل اللغة والعلاقة بين اللغة والسلوك والعلاقة بين الثقافة والشخصية.

وكثيراً ما تعنى الدراسات الاجتماعية المقارنة بتحليل المادة العلمية لثقافة في فترة زمنية واحدة، غير أن النظريات والمفهومات العامة التي تستند إليها الأبحاث الثقافية ترى أن البعد التاريخي للثقافة لا يقل أهمية عن العوامل الأخرى وإنه لا غنى عنه إذا أردنا أن نتوصل إلى فهم صحيح مرضى للسلوك الإنساني. فمع أن الأبحاث التي تتناول الأنساق الثقافية الراهنة تفيد في فهم العلاقات الحالية، إلا أن إسقاط عامل الزمن في الحسبان، قد يجعلنا نهمل عدداً من العلل التي تفسر الظواهر الثقافية. ولا يمكننا أن نرفض العنصر التاريخي في تركيب الثقافة لمجرد أن الوثائق غير متوافرة. فالماضي لا يزال له تأثيراً مباشراً على الحاضر، ويشكل تحديداً مستمراً لابد من مقابلته. كذلك يجب أن نسلم بأن عامل القوى الدينامية يشكل أحد العناصر الأساسية التي تعتمد عليها طريقة المعالجة الثقافية وهذا يتطلب دراسة الثقافة في استقرارها وتغيرها. فالثقافة مثل القوانين الاجتماعية لابد من أن تدرس من خلال عاملي الزمن والمكان (٢).

ويتناول علم الاجتماع ثلاثة متغيرات أساسية هي المجتمع Society والثقافة Culture والشخصية Personality وتشير لفظة المجتمع - عامة - إلى التفاعلات بين الأشخاص والجماعات وبين الفرد والجماعة أو الجماعات

---

(1) See: Shapiro. H., (et. al.) Man, Culture and Society. New York: Oxford Univ Press. 1956

(2) See: Schneider. L. and bonjean. c., (eds) The Idea of culture in the social scinces. cambridage univ. press. 1973.

الأخرى. أما الثقافة، فهي تستخدم لتشير إلى الأساليب التي يستخدمها الإنسان، كذلك عاداته وتقاليده وأنظمته وقيمة والطرق التي يفسر بها العالم الطبيعي والإنسان. وتتعلق الشخصية بدراسة ووصف وتحليل الانفعالات والعادات والاتجاهات وأفكار الفرد بالنسبة لنفسه وبالنسبة للآخرين [1].

وبطبيعة الحال، فإن هذه الموضوعات (المجتمع - الثقافة - الشخصية) هي أيضاً من اهتمام الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس والعلوم الاجتماعية الأخرى. وقد جرت العادة على أن علم الاجتماع يتناول المجتمع. أما الأنثروبولوجيا الثقافية فهي تختص بالثقافة، وعلم النفس يهتم اساسا بدراسة الشخصية، أبعادها ومقوماتها الوراثية والاجتماعية. وبالرغم من أن هذا التخصص ليس واضحاً في المعالجات الحديثة. إلا أننا هنا نؤكد على أن علم الاجتماع الثقافي يهتم أساساً بالعلاقات المتبادلة بين هذه العناصر الثلاثة (المجتمع - الثقافة - الشخصية). وسوف نناقش هنا باختصار كيفية معالجة الثقافة في كل من الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع.

أ- الأنثروبولوجيا والثقافة:

كما هو معروف تنقسم الأنثروبولوجيا إلى قسمين رئيسين: هما الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو البيولوجية والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية [2]. وينصب الاهتمام في مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية على دراسة تطور الإنسان خاصة ما هو متعلق بخصائصه البيولوجية التي تشير إلى تباين الإنسان من مكان لآخر. أما القسم الثاني من الأنثروبولوجيا - الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية فإن مدار البحث فيها هو البحث عن أصول المجتمعات والثقافات الإنسانية وتاريخها، وتتبع نموها وتطورها وتدرس بناء ووظائف الثقافات في المجتمعات

---

(1) Young. K. sooociology: A Study of Society and Culture. New York. American Book Company 1949. p. 32.

(٢) المعنى اللفظي المشتق من كلمة "الانثربولوجيا" هو دراسة الإنسان ولهذا يميل علماء الأنثروبولوجيا إلى أخذ هذا التعريف اللفظي لعملهم مأخذ الجد محاولين دراسة الإنسان بكل أنشطته المتنوعة بما في ذلك الجوانب الثقافية.

الإنسانية سواء في الماضي أو الحاضر. بمعنى آخر. أن الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة في ذاتها سواء كانت ثقافة الإسلاف أو ثقافة المعاصرين.

وعالم الأنثروبولوجيا في اهتمامه بالثقافة يحاول الوصول إلى مجموعة المبادئ التي تحكم تطور الإنسان من الناحية الثقافية، ولهذا يثير العديد من التساؤلات عن أسباب التنوع الثقافي واللغوي. عند الإنسان؟ وما هي طبيعة الثقافة وكيف تتغير الثقافات؟ وكيف يستجيب الأفراد للقيم والمثل والمعايير والأهداف التي تحددها لهم الثقافات؟ وما هي العلاقة بين الثقافة والشخصية؟ ... الخ. وقد يأخذ شكل الاهتمام بالثقافة جانبين: الأول، الدراسة المتزامنة أي دراسة المجتمعات والثقافات في نقطة معينة من تاريخها، والجانب الآخر، هو الدراسة التتبعية أو التاريخية. أي دراسة المجتمعات والثقافات عبر التاريخ (١). والجانب الأول هو محور الاهتمام في علم الآثار (الأركيولوجيا). وقد يعتمد الباحث في هذا المجال على الوثائق التاريخية المتاحة أو على الشواهد غير المباشرة مثل المخلفات المادية لمثل هذه الثقافات مثل السكن، الأواني، النقوش، المعابد.. الخ. ويحاول الباحث هنا إعادة السياق الزمني للحوادث وربط بعضها ببعض على نحو منظم. كذلك يحاول الباحث وصف جانب من الثقافة القديمة وربطها بالبيئة الطبيعية التي عاش فيها الإنسان. وكيفية تكيفه مع هذه البيئة والجهود التي بذلها في التعامل مع المجهول ومع كل ما هو فرق طبيعي وما ينتج عن ذلك من فنون وآداب وأديان [٢].

وبذلك يسهم الباحث هنا بنصيب أساسي في معرفة أين ومتى اكتسب الإنسان الثقافة لأول مرة، كذلك نستطيع من خلال علم الآثار أن نتوصل إلى قدر من المعرفة حول تطور الثقافات البشرية وكل ما ينتج عنها من أنماط

---

(١) انظر: أحمد أبو هلال. مقدمة إلى الأنثروبولوجيا التربوية. بيروت. كذلك كتابة مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة. خاصة الفصل الأول من ص٩– ٣٧.

(2) See Boas F. Anthropology and modern life New W W norton Company 1932

ومركبات ثقافية. فالبحوث الأيكولوجية تساعد على فهم الطرق التي تغيرت من خلالها الثقافات الإنسانية. كذلك العوامل التي أدت إلى إحداث التغير الثقافي.

أما علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية فيهتمون بدراسة ووصف الثقافات المختلفة أينما وجدت. وهم هنا يهتمون - باختصار - بأساليب الحياة في المجتمعات الإنسانية (1). وتتضمن دراستهم أساليب الحياة، على سبيل المثال لا الحصر. طرق التنشئة الاجتماعية، طرق العيش داخل الأسرة، شبكة العلاقات الاجتماعية. أساليب التعبير عن خيال الإنسان ومعاناته. والركيزة الأساسية التي يحاول علماء الأنثروبولوجيا تأكيدها هنا هي إنه بالرغم من أن المجتمع الإنساني يشارك بعض المجتمعات الحيوانية بعضاً من الصفات الاجتماعية، إلا أنه يختلف عنها في أمور هامة يطلق عليها اسم " الثقافة" والتي تعتبر أهم إنجاز للإنسان عبر تاريخه السحيق. هذه الثقافة كما يذهب علماء الأنثروبولوجيا الثقافية هي التي تقوم بتسيير الفرد فتملي عليه سلوكاً معيناً وتلزمه بمعايير خاصة يضعها المجتمع لضبط سلوك أفراده، ويكون هذا الالتزام طبيعياً بالنسبة للإنسان. هذا الالتزام هو الذي يؤدي بالفرد إلى كسب شخصية معينة يكون المركب الرئيسي فيها ممثلاً للثقافة.

وتعد دراسة اللغويات من أهم الميادين العامة التي تحظى باهتمام الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. بالإضافة إلى الاهتمام بالمراحل التاريخية للأسر اللغوية. فإن الباحث الأنثروبولوجي يعطي اهتمام للعلاقة بين اللغة وجوانب الثقافة الأخرى - مثل التنظيم الاجتماعي - كذلك الدور الذي تلعبه في المجتمع - بمعنى آخر. أن اهتمام الأنثروبولوجي باللغة، هو اهتمام بصلاتها بالبيئة الاجتماعية والثقافية التي تحتويها. وهكذا يمكن أن يدرس الباحث الكيفية التي ترتبط بها لغة جماعة معينة بمكانة تلك الجماعة أو وضعها الاجتماعي، والرموز اللغوية المستخدمة في الشعائر والاحتفالات الدينية، وكيف أن هذه الرموز تختلف عن الكلام اليومي العادي؟ وكيف يعكس تغير الحصيلة

---

(1) See: Goldenweiser. A.Anthropology: an Introduction to Primitive Culture. New York: Applitoncentury. 1937.

اللغوية فى إحدى اللغات الثقافية المتغيرة للشعب الذى يتملكها، وكذلك العمليات التى تنتقل بواسطتها اللغة من جيل إلى جيل آخر، وكيف تساعد تلك العمليات على نقل المعتقدات والمثل العليا، والتقاليد إلى الأجيال التالية [1].

ومن ناحية أخرى، فإن الأنثروبولوجيا الثقافية تنظر إلى الثقافة على إنها شئ متغير ونسبى. فالثقافات البشرية تختلف من إقليم لآخر تماماً كما تختلف من عصر لآخر. فلكل مجتمع ثقافة متميزة خاصة به. كذلك فإن هناك داخل كل مجتمع ثقافات فرعية لا تتطابق تمام التطابق مع الثقافة الكلية للمجتمع. أكثر من هذا فإننا قد نجد أنه داخل كل إقليم تتميز كل جماعة محلية بملامح ثقافية متميزة. ولكن بالرغم من التفرع الثقافى للمجتمعات الإنسانية، فهناك كثيراً من أوجه التشابه بين ثقافات الشعوب التى قد تعيش على مسافات بعيدة بعضها عن بعض، خاصة فيما يتعلق بميادين الكتابة وطرق التقويم والعمارة.. الخ.

وتاريخياً، لم تظهر الأنثروبولوجيا الثقافية كميدان له أهمية. إلا بعد الحرب العالمية الثانية. فالكتابات التى جمعها الرحالة وغيرهم لم تشكل أهمية كبرى من الناحية النظرية أو حتى من الناحية العملية. فقد كان الهدف الرئيسى من جمع تلك العملية هو مساعدة المبشرين الذين يعيشون مع تلك الشعوب لبث تعاليمهم بينهم، لهذا غاب على معظم الدراسات الأنثروبولوجية المبكرة التركيز على الماضى وعلى المجتمعات والثقافات التى يطلق عليها اسم بدائية؟ إلا أنه بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد بروز أمريكا كقوة عظمى لها دور فى السياسة الدولية. حيث بدأت الحكومة الأمريكية ترصد الأموال للقيام بدراسات عن الثقافات الأخرى أيا كان نوعها خاصة المجتمعات النامية وثقافاتها التقليدية. وفى أمريكا بالذات هناك مراكز تدريب وتخرج المتخصصين فى الثقافات الأخرى المختلفة. يوجد الآن فى أمريكا متخصصون فى الثقافة العربية والأفريقية ..الخ، بل هناك أيضاً اهتمام بالثقافات الفرعية داخل الثقافة الكلية

---

(1) احمد أبو هلال. المرجع السابق.

ومن ناحية أخرى وسع الأنثروبولوجيون دائرة دراستهم الاجتماعية والثقافية بحيث تشمل الثقافات القروية والحضرية وغيرها [1].

ولقد ظهر في الأنثروبولوجيا الثقافية ثلاثة مدارس رئيسية: فالمدرسة الوظيفية، تنظر إلى الثقافة نظرة كلية، فأجزاء الثقافة وعناصرها مثل أجزاء جسم الإنسان يعمل بعضها مع بعض بشكل منظم ويكون بينها تأثير متبادل. ولا يمكن واحد منا أن يقوم بوظيفته بمفرده. أما المدرسة المقارنة، فهي تهتم بمقارنة الثقافات المختلفة بعضها مع بعض وتصنيفها في مجموعات ثقافية حسب تشابهها أو اختلافها أو تشابه عناصر معينة فيها. وهذا ما يطلق عليه المركبات الثقافية أو الأنماط الثقافية. وأخيراً، فإن المدرسة التطورية والانتشارية ترى أن هناك تشابه بين الثقافات الإنسانية، وذلك راجع، كما يذهب التطوريين، إلى أن الثقافة بوصفها الحاضر مرحلة من مراحل تاريخية، ويتوقعون إنها دائماً تسير في سياق التغير فتدخل في مرحلة تالية لتشابه مع تلك الثقافات التي هي من نفس المرحلة وهكذا. أما أصحاب المدرسة الانتشارية، فيفسرون هذا التشابه بفكرة الانتشار الثقافي، حيث ينتقل بعض العناصر الثقافية من ثقافة معينة إلى ثقافة أخرى. فتتبنى الثقافة المستقلة تلك العناصر الجديدة وتتكامل مع العناصر الثقافية الأخرى. على أية حال، فإن هناك رابطة أساسية بين تلك الدراسات التي تقوم بها الأنثروبولوجيا الثقافية مثل الثقافة والشخصية عند "النافوهو" Navaho وثقافة "النوير" Nuer في أفريقيا والدراسات الخاصة بالسلالات وغيرها. فالباحث المدقق يدرك تماماً أن هناك خطأ مشترك يربط هذه الدراسات وهو الكشف عن ملامح الثقافة الإنسانية في تباينها وتغيرها.

وكما سوف نعرض فيما بعد، فإن المعالجة الأساسية للثقافة في كل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع تصل إلى درجة من التشابه تجعل من المحتم في النهاية أن تصل إلى نظرية متشابهة، إن لم تكن واحدة. فلقد تبنى علماء الانثروبولوجيا مفهوم الثقافة بعد أن ثبت أنه أداة هامة ومفيدة للتحليل

---

(1) See: williams. T.. R. field Methods in the Study of Culture. New York Halt. Rinchart: and Winston. 1967.

والتفسير. وتركز الأنثروبولوجيا اهتمامها على المشكلات العامة والكلية وخاصة خلال مفهوم الثقافة فعالم الأنثروبولوجيا يعطي اهتماماً لبناء الثقافة، ويحاول إدراك علاقة التفاعل بين جوانب الثقافة والنظم الأخرى. كذلك ساهمت الانثروبولوجيا من خلال دراستها للثقافة بإمدادنا بنظرة موضوعية في آن واحد. فمن خلال الدراسات المتنوعة عن الثقافات الأخرى، والتي قد تختلف عن الثقافات الغربية الأخرى، أصبح من الممكن رؤية الجوانب الغير عقلية في الثقافات الغربية الأخرى، أصبح من الممكن رؤية الجوانب الغير عقلية في الثقافات الغربية. كذلك بات واضحاً، أن هذه الأنماط السلوكية لا تعد أقل تقدماً من الأنماط الثقافية الغربية. بل ينظر إليها على أنها صوراً بديلة لمشكلات إنسانية عامة – فهي – أي الأنماط السلوكية الخاصة بأي ثقافة، استجابات لا مفر منها من التأثير الثقافي في الأفراد [1].

ب– علم الاجتماع والثقافة:

وإذا كانت الأنثروبولوجيا تنظر إلى الثقافة على أنها أساليب الحياة في كل المجتمعات البسيطة منها والمعقدة، فإن علم الاجتماع يرى أن الإنسان كائن اجتماعي ولهذا فهو في كل مكان وفي كل زمان يعيش حياته في اتصالات مباشرة وغير مباشرة مع أقرانه، ولا يمكن للإنسان أن يعيش دون الاعتماد على الآخرين. فكل منا له علاقاته الأسرية، فالرجل البدائي – مثلاً – مرتبط ببدنته أو الجماعة القرابية التي ينتمي إليها، وكذلك يسعى كل فرد أن يكون أسرة جديدة، بالإضافة إلى أن كل أفراد المجتمع سواء كانوا أطفالاً أو شباباً أو مسنين ينتمون بطريقة أو بأخرى إلى جماعة سواء كانت مدرسية أو مهنية أو خيرية. والملاحظ أن الكثيرين من أعضاء المجتمع الحديث ينتمون إلى جماعات أو أندية أو تنظيمات مختلفة سواء كانت تحتل الطابع السياسي أو

---

(1) See Gillin. J The Ways of Man an Introduction to Anthropology New York appleton- Century- grafts. 1948., Kluckohn. C . Mirror of men. the Relation of Anthropology to Modern life New York McGraw Hill Book Company 1949

الديني أو الترفيهي.. الخ وبطريقة أو بأخرى، فالأفراد على اتصال دائم بالمجتمع الكلي سواء عن طريق وسائل الإعلام أو الاتصال المباشر.

هذا كله بين حقيقة أساسية مؤداها، أن أساس الحياة الاجتماعية هو التفاعل بين الأفراد حول ما هو شائع أو ما هو متشابه حتى مع المصالح المتعارضة. وما يفعله الفرد، أعني الأدوار التي يلعبها بالنسبة للآخرين، تختلف وتتنوع بشدة حسب الموقف الاجتماعي والأدوار وتوقعاتها. فسلوك الأب – على سبيل المثال – في العمل يختلف عن سلوكه مع أسرته، كذلك فإن سلوك المرأة التي هي عضوة في نادي رياضي وتلعب دوراً بارزاً (رئيساً مثلاً) ليس له علاقة بوظيفتها كأم وزوجة في أسرة [1].

ومن المعروف أن كل جماعة في كل قاطعات المجتمع، تحاول وضع الإطار الفكري والسلوكي لأعضائها، وغالباً ما يتخذ شكل القوانين واللوائح والعرف، ومن خلال هذا الإطار أو النظام ينظر إلينا على أننا أشخاص في ثقافة أو جماعة معينة. وبكلمات أخرى، فإن كل شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي يعبر عن طرق مقبولة من السلوك. وهذه الطرق العامة في المجتمع تسمى "ثقافة".

وفي معالجة للجذور الأولى لعلم الاجتماع الثقافي ذهب "دون مارتينال" Don Martindal بأن أهم سمة من سمات التفكير السوسيولوجي خاصة الاتجاه الوضعي في القرن التاسع عشر. هو أن معالجة التجمع الإنساني على أنه السبب الأساسي لتفسير كل ما يحدث بداخله. ولهذا ليس هناك خط واضح يفصل بين الثقافة والمجتمع أو بين الصفة الشخصية والأشكال الأجتماعية المتطلبة أو بين الأدوات والأفكار. فكرة دوركيم عن التمثيلات الجمعية أو العقل الجمعي، كذلك فكرة دلثي Dilthy عن الأشكال الخاصة بالعقل الموضوعي Objective mind هي موضوعات في الثقافة فكلا المفهومين أعتبر أساس للحياة الاجتماعية. إلا أن دور كيم ودلثي لم يقدما تفرقة واضحة بين المشاكل المتعلقة

---

(1) Youg. K., Op. Cit., p. 32.

بموضوعات السلوك والثقافة - والتي تنعكس في السلوك الإنساني - والتي تمكننا من أن نفصل بينهما. ولهذا واجه علم الاجتماع الوضعي مشاكل كثيرة خاصة قانون كونت عن المراحل الثلاثة، وما يماثلها في تطور الأنظمة الاجتماعية والإنسان. المطابقة لها من المعرفة والأخلاق والفنون [1].

ولعل الاتجاهات النقدية التي جذبت الفكر الوضعي نحو التجريد من ناحية ونحو النسبية من ناحية أخرى - هذه الاتجاهات سرعان ما أدت إلى قبول الحقيقة القائلة بأن العلاقة بين المجتمع والمفضلات الأساسية للثقافة، أعني الأنساق الفكرية والأخلاقية - هذه العلاقة تزداد تعقيداً في المجتمع الحديث. ولهذا فإن علم الاجتماع الوضعي قد استبدل البحث عن المراحل التاريخية التي يمر بها المجتمع بالبحث الدقيق في العلاقة بين الأنظمة الاجتماعية مثل الجماعات الضاغطة، والطبقات الثقافية المختلفة [2].

على أية حال، فإن المجالات المتنوعة للثقافة كالفنون والآداب والترفيه - هذه المجالات تستمد أساساً من تفضيلات الإنسان، ولهذا فهي تختلف عن المبادئ التعليمية والتي تحكم عليها بالصواب أو الخطأ. ذلك لأن المبادئ التعليمية لا يمكن أن تستمد من الوقائع الأمبريقية فهي مبادئ حرة مستقلة يستخدمها الناس ليؤمنوا أنفسهم بمبادئ معينة ويمكن للإنسان أن يبحث تنوع العلاقات من الأوجه الثقافية ومبادئها التعليمية مع الأشكال الثقافية أن يقع فريسة للتجريد أو التورط في النسبية.

ولعل أحد النتائج الهامة من كل هذا هو إقامة علم اجتماع ثقافي كمجال للبحث في العلوم الاجتماعية. ومن المشاكل التي لم تحسم في هذا الميدان هو العلاقة بين الفروع المتنوعة الخاصة بعلم الاجتماع الثقافي وعلاقة بعضها بالعلوم الاجتماعية الأخرى خاصة الأنثروبولوجيا الثقافية (٣). والحقيقة

---

(1) Martındale. D Socıolgıcal theory and the problem of Values ohio charles E inerrilll publishıng Co 1974

(2) Ibid

(3) Ihid

أنه في القرن العشرين فقط بدأ بعض العلماء في وضع التراث الاجتماعي للإنسان أو ثقافته داخل مجال البحث العلمي.

٣- مفهوم الثقافة:

قبل الخوض في تعريفات الثقافة المختلفة، يجدر بنا أن نناقش التفرقة بين مفهومي الثقافة والحضارة كمفهومين أساسيين في علم الاجتماع الثقافي. عامة تشير لفظة "حضارة" Civilzation إلى نوع متقدم من المجتمعات والتي تتميز بدرجة متقدمة من الفنون والعلوم والدين والتنظيمات الاجتماعية. ومن الجدير بالذكر هنا، إنه لم تستخدم هذه اللفظة إلا حديثاً فقط، فحتى عام ١٨٧٢ لم يشر إليها إلا في القواميس العلمية. على أية حال، فإنه مع تزايد الاتصالات بين المجتمعات الأوربية والأنظمة الاجتماعية الأقل منها تعقيداً، فإن لفظة حضارة بدأ استخدامها في القرن التاسع عشر. وقد يرجع هذا أيضاً إلى أن بعد ما توفرت المعلومات عن ما يسمى "بالشعوب البدائية" أو "المتخلفة" فإن بعض الأنثروبولوجيين ذهبوا إلى أنه بالرغم من أن كثيراً من الشعوب لا يوجد بها مراكز حضارية أو مدن حضارية، إلا أن هذه الشعوب تتميز بحضارة عالية، ونتيجة لهذا فإنه بجانب ذلك المعنى القديم للحضارة - أي أنها الحالة التقدمية للمجتمع - ظهر مصطلح آخر وهو النوع المميز "لثقافة" Culture شعب معين بالذات [1].

وبعد تداول مصطلح "الثقافة" في الاستخدام العام، فإن الحاجة أصبحت ماسة للتفرقة بين المصطلحين. فلقد مال بعض الكتاب الألمان إلى إطلاق لفظة "حضارة" على الأجهزة الفنية للمجتمع مثل العلم والتكنولوجيا والإمكانيات المادية، بينما تطلق لفظة "ثقافية" على الأجهزة غير المادية في المجتمع مثل الفن والدين والفلسفة .. الخ. ولكن لم يكتب لهذا الاستخدام الانتشار العالمي. ولقد ذهب البعض الآخر من الكتاب إلى إلصاق لفظة "ثقافة" بالأشكال

---

(1) See: Benedict. R. pattern of culture. Boston Houghten Mifflin Company, 1959.

الاجتماعية للشعوب الغير متعلقة، بينما استخدمت لفظة "حضارة" لتصف الأشكال الاجتماعية للشعوب المتعلقة. ونجد هذا الاستخدام شائعاً خاصة في كتاب "شبنجلر" Spengler و"توينبي" Toynbee وغيرهم من كتاب فلسفة التاريخ.

ويمكننا عامة أن نحدد الفارق بين اللفظين على النحو التالي: إن لفظة "ثقافة" تعني المحصلة الكلية للتراث الإنساني والاجتماعي سواء كان هذا التراث مادياً أو غير مادياً، بينما تستخدم لفظة "حضارة" لتشير إلى نسق خاص منظم من الثقافة تتميز بالشمول والاستمرارية - لا يحدد الشعب أو سلالة أو إقليم معين. "فالحضارة" أشمل وأعم إذن من "الثقافة" فيمكننا أن نتحدث عن الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية والحضارة الأمريكية ... الخ، ذلك لأنها تتميز بالاستمرارية والشمول واحتوائها لأكثر من بقعة وجنس معين. ومن ناحية أخرى نقول ثقافة مصرية، وثقافة فرنسية.. الخ. ويقصد هنا أسلوب الحياة الفكرى والمادى الذى يكتسبه الإنسان فى هذا المجتمع أو ذاك [1].

ولعل تعريف تايلور E B. Tyllor (١٨٣٢ - ١٩١٧) من أهم التعريفات التى تناولت بطريقة كلية تعريف هذا المصطلح. "فالثقافة" تعرف على أنها "ذلك الكل المركب الذى يحتوى على المعرفة والاعتقاد والفن والأخلاق والقانون والعادات والتقاليد وأى قدرات أخرى تكتسب بواسطة الإنسان باعتباره عضواً فى المجتمع" [2].

على أية حال فإن الثقافة تحتوى الأفكار والاتجاهات العامة المقبولة والمتوقعة التى يتعلمها الإنسان من اتصاله بالواقع الاجتماعى. فبالنسبة للفرد فى سنواته الأولى من حياته، فإن الثقافة تلعب دوراً هاماً فى إعداده ليكون أكثر فاعلية فى محيطه الاجتماعى. كذلك فإن كل جيل جديد ليس مطالباً بأن يبدأ من فراغ، ولكن عليه أن يستفيد ممن حوله، ويتعلم كيف يتكيف مع العالم

---

(1) Young. K., Op. Cit.

(2) See. E.B. Tylor. Primitive Culture. (7th eal) New York. Brentano's . p. 1

الطبيعي والاجتماعي المحيط به. وفيما بعد، فإن هذا الكل - أعضاء المجتمع - مطالبون أن ينقلوا التراث إلى الأجيال القادمة، وينقلوا لهم ما تعلموه من الماضي وما أضافوه بأنفسهم إلى هذا الكل الثقافي [1].

وجدير بالذكر هنا، أن هذه الطرق الثقافية في الأفعال أو التفكير لها اتصال مباشر بالحاجات الأساسية للإنسان مثل حاجته للطعام، والشراب، والحماية الجسمية - وحفظ النوع. والصداقة مع الآخرين. والضبط الاجتماعي. ويطلق مالينوفسكي B Molinowski (١٨٨٤ - ١٩٤٢) على هذه الحاجات "الالزامات الأساسية للثقافة"، ذلك لأنها تلبي حاجات عضوية - اجتماعية سياسية [2] والإنسان لا يعيش فقط بحاجاته البيولوجية أو فقط من أجل الحماية أو العلاقات المجتمعية، ففي كل مكان نجد أن الإنسان يحاول أن يطور نوعاً من وجهة النظر الفلسفية عن مكانه في هذا العالم، كل هذا يعبر عن محتوى الثقافة التي يخلقها الإنسان ويعبر عنها في كل أفعاله.

وسوف يتضح لنا معنى الثقافة، لو أننا قارنا البيئة الطبيعية للإنسان والمتمثلة في العالم الطبيعي الذي حوله - والذي يتعامل معه الإنسان كحيوان - والبيئة الثقافية التي يخلقها الإنسان ويمضي فيها أوقاته ككائن إنساني - فالبيئة الطبيعية هي ما يجده الإنسان في العالم الطبيعي والكيميائي من أرض وماء وسحب وأمطار ونبات وحيوان - باختصار كل ما في الطبيعة سواء عضوياً أو لا عضوياً، بينما تمثل البيئة الثقافية التي هي خلق الإنسان - محاولته كيف يتكيف ويحقق التوازن بين نفسه وبين العالم الطبيعي ولقد أطلق هوبرت سبنسر H Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) على هذا العالم الثقافي اسم العالم الفوق عضوي Super or- ganic وبالرغم من اعتراض بعض علماء العلوم الاجتماعية على هذا المصطلح. فإن كروبر A.L. Kroeber يذهب إلى "أن هذا لا يعني أن

---

(1) Young. K., Op. Cit. P. 31

(2) Malinowski. B., "culture" Ency. of the Social Science New York. the Macmillan Company. 1931. vol. 4 pp. 621-646.

الثقافة في كليتها ليست عضوية، أي إنها مستقلة كلية عن الإنسان أو إنها تعمل خارج نطاق قوانين المادة والطاقة [1].

والحقيقة أن الثقافة هي محصلة إنتاج الإنسانية والتي يمكن دراستها من ناحية على أنها ذلك الهيكل الخاص بالأنظمة وأشكال السلوك التي لها صفة الاستمرارية والتغير دون أن يرتبط هذا دائماً بمجتمع أو أفراد معينة. ومن ناحية أخرى، يمكن النظر إلى الثقافة من وجهة نظر تفاعل الأفراد أو الجماعات، على أنها الإنتاج النفسي الذي يتعلم وينتقل إلى الآخرين ليس عن طريق الوراثة الميكانيكية، بل عن طريق التعلم الإنساني. وبالرغم من أن هناك مؤسسات تقوم بهذه المهمة مثل الأسرة والمدرسة وجماعات اللعب والمحليات فإن الطرق التي يفكر بها الإنسان، ويسلكها حيال هذه المجموعات الأولية، هي في حقيقتها أمر مكتسب من الثقافة [2].

٤- الخصائص الأساسية للثقافة:

يمكننا أن نميز بعض الخصائص العامة في الثقافة بأنها [3]:

أ- أي ثقافة تنشأ في مجتمع ما، ويظهر هذا جلياً في أفعال أعضاءه التي تتأثر بذلك.

ب- تنظيم الثقافة وتوجه المطالب الأساسية مثل السلوك الجنسي، الحماية، المصاحبة، النظام والضبط الاجتماعي. وبعض الرغبات الأخرى المتصلة باللعب، والفنون والدين والفلسفة، والفكر الفلسفي ومظاهر التعبير الأخرى.

---

(1) See Kroeber, Al., Anthropology, Race, Language, Culture, Psychology, Prehistory, New York, Harcourt, Brace & Company, 1940 pp. 253

(2) Young, K., Op. Cit. p. 32

(3) Ibid. p. 23.

جـ- تتخذ بعض هذه التوجيهات والأفعال الشكل الرسمي، وتتمثل في أنماط سلوكية معترف بها وتعد مقبولة، ويعد الخروج عليها خروج على تقاليد وقيم المجتمع.

د- هذا بدوره يعطي الثقافة صفة الاستمرارية، وفي تطورها يجب أن نلاحظ إلى أن الثقافة تميل إلى أن تكون تراكمية.

هـ- إن الثقافة بالرغم من استمراريتها، إلا أن تتغير في الشكل والمحتوى رغم الاتفاقات الخاصة بالحاجات العضوية والاجتماعية.

و- ان الثقافة تمثل مقاومة تختلف شدتها من مجتمع لآخر ومن عصر لآخر إلا أنها في عمومها تواجه تيار التغير الذي يواجهه المجتمع[1].

وفي تحليل للخصائص الأساسية للثقافة، يذهب جورج ميردك G.P Murdock إلى أن الدراسات المقارنة تكشف حقيقة هامة وهي أن الثقافات الإنسانية رغم تنوعها إلا أنها تشارك في خصائص مشتركة للتحليل العلمي. ويمكن التعبير عن هذه الخصائص المشتركة في سلسلة من سبع افتراضات أساسية. وليس هناك أدنى إدعاء بأن هذه الافتراضات السبع جديدة كلية، ذلك لأن بعضها يشارك فيه كل العلماء الاجتماعيين، بينما يشارك الجميع في معظمها. وهذه الخصائص الأساسية للثقافة هي [2]:

---

(1) See. Eisenstadt. S.N . From Generation to Generation.. New York: The Free Press. 1971.
See: also: Arensberg. c . and Kimball. S.. T . Culture and New York Harcourt. Brace & Wntch Inc . 1965.
Bauman, z., Culture as Prais. London: Routledge & Kegan Paul. 1973
Barnett. H. G., Innovation: The Basis of Culture Change. New York Mc Graw-Hill Book Company. 1952.
Down. J., cultures in crisis California. Beverly Hills. 1971.
Rosnber. B., and white. D., D.. (eds.) Mass culture. The Proular Artsinn America. New York: The Free Press. 1971.

(2) Murdock. G P.. Cultural society. op cit . p 80

١- الثقافة شئ قابل للتعلم: فالثقافة كما يذهب ميردوك ليست شيئاً غريزياً، أو فطرياً أو ينتقل بيولوجياً، ولكنها مكونة من عادات أعني اتجاهات مكتسبة للتفاعل يكتسبها كل فرد خلال خبرته الذاتية بعد الولادة ويتفق مع هذا الافتراض معظم علماء الأنثروبولوجيا، إلا أن هناك بعض أوجه النقد حول هذا الافتراض. فلقد ذهب البعض إلى أنه إذا كانت الثقافة أمر يمكن تعلمه، فإنها يجب أن تخضع إذن لقوانين – التعلم – تلك القوانين التى يعرضها الآن علماء النفس بإسهاب شديد. وكما هو معروف أن مبادئ التعلم واحدة فى أساسها، ليس فقط للجنس الإنسانى بل تنطبق أيضاً على كل "الأنواع الثديية"، ومن ثم فإننا نتوقع أن كل الثقافات نظراً لكونها تنتقل بالتعلم تكشف عن تشابهات معينة والتى تعكس العامل المشترك بينها [1].

٢- الثقافة شئ قابل للتناقل: بالرغم من أن كل الحيوانات لديها القدرة على التعلم. إلا أن الإنسان هو الوحيد الذى يبدو قادراً – بدرجة كبيرة – على أن ينقل ما اكتسب من عادات لأقرانه. فقد نستطيع مثلاً أن ندرب كلباً على القيام بأنماط معينة من السلوك، إلا أنه غير قادر على أن ينقل هذا إلى أقرانه. فكل ما ينقله الحيوان لأقرانه، هو فقط الوراثة البيولوجية لنوعه مضافاً إليها العادات على أساس خبرته الذاتية. وتعد اللغة عاملاً أساسياً لقدرة الإنسان فى هذا المجال. على أية حال، فإن كل العادات التى تعلم للكائنات الإنسانية تنتقل من الوالدين للطفل مروراً بأجيال متعاقبة ومن خلال عملية تهذيب مستمرة. هذا الافتراض مقبولة من معظم الأنثروبولوجيين أيضاً، إلا أن هناك أيضا بعض الاعتراضات من حيث أنه لو كانت الثقافة شئ قابل للتناقل فإن هذا يعنى أن كل الثقافات يجب أن تظهر بعض التأثيرات العامة لعملية التناقل نفسها. فعملية التناقل لا تتضمن فقط الإجراءات والمعرفة، بل تتضمن أيضاً تهذيب الدوافع الغريزية خلال السنوات الأولى من عمره. هذه التوجيهات واضحة من

---

(1) Murdock. G P . Cultural society. op cit.. pp. 80-81.

الأدلة التي يسوقها علماء التحليل النفسي مثل عمومية تحريم "الاتصال الجنسي ببعض الأقارب" [1].

٣- الثقافة شئ اجتماعي : فالعادات الخاصة بالنظام الثقافي ليس فقط شئ قابل للانتقال ويستمر خلال الزمن، فهي أيضاً أمور اجتماعية، أي أنها أشياء يشارك فيها كل الكائنات الإنسانية التي تعيش داخل تجمعات منظمة أو جماعات تحتفظ بالامتثال والتطبيق النسبي تحت وطأة الضغوط الاجتماعية. هذه العادات، هي - باختصار - عادات جمعية، هذه العادات التي يشارك فيها أعضاء جماعة اجتماعية كل منهما الآخر تشكل "ثقافة" هذه الجماعة. وبالرغم من قبول بعض العلماء لهذا الافتراض، إلا أن بعضهم يرى أن الثقافة تمثل وحدة وأن هناك فقط وحدة طبيعية واحدة هي الثقافة لكل الإنسانية في كل الفترات وفي كل الأمكنة. ويرى ميردوك أن هذا أمر لا يمكن قبوله. فالعادات المشتركة والجمعية للجماعة الاجتماعية، كما يذكر ميردوك، سواء كانت أسرة أو قرية أو طبقة أو قبيلة تمثل وحدة طبيعية لأي ثقافة فرعية. ولو افترضنا أن الثقافة شئ اجتماعي، فإن مصيرها يعتمد على مصير المجتمع الذي يحملها، وكل الثقافات التي استمرت تعكس بعض التماثلات نظراً لأنها تعمل على الاستمرار المجمتعي، ومن بين هذه العموميات الثقافية يمكن ذكر أمور مثل المشاعر الخاصة فالتماسك الاجتماعي، ميكانزمات الضبط الاجتماعي، تنظيم الدفاع ضد الجيران الأعداء... الخ [2].

٤- الثقافة شئ مثالي: يمكن القول بأنه إلى درجة كبيرة فإن عادات الجماعة والتي تتكون منها الثقافة توضع في معايير مثالية أو أنماط سلوك مثالية. وباستثناء قواعد اللغة - رغم كونها أمر ثقافي - إلا أن تكوينها غالباً ما يدرك شعورياً، فإن هناك دائماً درجة ما من الوعي لأفراد المجتمع بمعايير ثقافتهم، وهذه القدرة تجعلهم يستطيعون التمييز بين هذه المعايير وعاداتهم الفردية،

---

(1) Ibid., p. 81.

(2) Murdock, G.P., Cultural society, op cit., pp. 81-82.

كذلك يعكس هذا إمكانية تصورهم بالتفصيل بينما في ذلك الظروف التي يستخدم فيها كل هذه المعايير والجزاء المتوقع في حالة عدم الامتثال لها.

ولهذا فإنه من المفيد أن ننظر إلى الثقافة على أنها مثالية، وأن ننظر إلى أي عنصر في الثقافة على أنه فكرة مقبولة بطريقة تقليدية من أعضاء الجماعة، أو الجماعة الفرعية وأن ننظر إلى نوعاً معيناً من السلوك على أنه يجب أن يتطابق مع المعايير القائمة. ويجب هنا أن نميز بين المعايير المثالية وبين السلوك الواقعي. ففي أي موقف معين، نجد أن الفرد يتصرف وفقاً لاستجابة حالته ككائن عضوي، أي وفقاً لدوافعه في هذه اللحظة، ووفقاً لإدراكه للموقف الكلي الذي يجد نفسه فيه. وعندما يفعل الفرد هذا، يميل، طبيعياً، إلى أن يتبع عاداته المقدرة، بما في ذلك ثقافته، ويعني هذا أن لدوافعه أو لطبيعة الظروف المحيطة به تأثير في انحراف الفرد عن معاييره. ولهذا نقول أن السلوك لا يتبع الثقافة بطريقة آلية، وبالرغم من أن الثقافة أحد محدداته الرئيسية. وبطبيعة الحال، هناك معايير للسلوك والثقافة، ولكن على العكس الثقافة، فإن المعايير الخاصة بالسلوك، يمكن أن تقرر فقط بواسطة الوسائل الإحصائية، وهناك اختلافاً بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا حول هذا الموضوع. فالأنثروبولوجيون حتى وقت حديث، يهتمون بالمعايير المثالية أو الأنماط. بينما يفترض عالم الاجتماع معرفة بالثقافة ويذكر عامة المعايير الإحصائية للسلوك الواقعي. فبالحد الذي يمكن أن ننظر إلى الثقافة على أنها شئ مثالي، فإننا يمكن أن نخلص أن كل الثقافات يجب أن تكشف عن بعض التشابهات المنبثقة من القوانين العامة التي تحكم العمليات العقلية الرمزية [1].

٥– الثقافة لها وظيفة الإشباع: الثقافة دائماً وبالضرورة تشبع الحاجات البيولوجية الأساسية والحاجات الثانوية المنبثقة عنها. فعناصر الثقافة وسائل مجرية لإشباع الدوافع الإنسانية في تفاعل الإنسان بعالمه الخارجي بالطبيعة أو أقرانه. ويستمد هذا الافتراض قوته من دراسات علم النفس حول البواعث

(1) Murdock, G.P., Cultural society, op. cit., pp. 82-83

والاستجابات. فلقد أبان علم النفس أن الثقافة تتكون من مجموعة من العادات، وأن هذه العادات لا تستمر في البقاء إلا إذا أجلبت إشباعاً، والإشباع يدعم العادات ويقويها، بينما افتقار الإشباع يؤدى إلى اختفائهم. وتستمر عناصر الثقافة فقط عندما يتضمن لأفراد المجتمع حداً أدنى من الإشباع أو توازن معقول بين اللذة والألم. وبالرغم من قبول البعض لهذا الافتراض، فإن الانتقاد الذى يوجه له هو أنه طالما أن الثقافة تتميز بخاصة الإشباع، فإننا نتوقع تشابهاً على نطاق واسع فى كل الثقافات وذلك لتشابه الدوافع الإنسانية الأساسية.

٦- الثقافة لها وظيفة التوافق: تتغير الثقافة، وعملية التغير التى تأخذ الطابع التوفيقى. فالثقافة تحاول خلال الفترات الزمنية أن تتوافق مع البيئة الجغرافية. رغم تأثيرها (البيئة الجغرافية) الضعيف فى التطور الثقافى كذلك تتوافق الثقافة من خلال الاستعارة والتنظيم للبيئة الاجتماعية للشعوب المحيطة بها. وأخيراً فإن الثقافة تميل إلى التوافق مع المطالب السيكولوجية والبيولوجية للكائن البشرى. ومن ناحية أخرى فإن تغير ظروف الحياة يعنى إلغاء بعض الأشكال التقليدية التى كانت تستخدم لتحقيق الإشباع المطلوب، وهذا يعنى أيضاً ظهور حاجات جديدة تتطلب توافقات ثقافية جديدة. ويقوم هذا الافتراض على دعوى التقدم أو الحالات التطورية، والنقد الذى يوجه إليه هو نفس النقد الذى يوجه لفكرة التغير الثقافى كحصيلة توافقية أو كونه عملية تاريخية (١).

٧- الثقافة لها وظيفة التكامل: وكأحد النتائج لعملية التوافق السابقة فإن عناصر الثقافة "تميل" إلى أن تشكل كلاً متكاملاً، واستخدام لفظة "تميل" كما يذكر ميردوك، يجنب الباحث الوقوع فى وجهة النظر الوظيفية المتطرفة التى تنظر إلى الثقافة على أنها فى الواقع نسق تكاملى، على أية حال، فإن التكامل يحتاج لفترة زمنية، وإنه غالباً ما يحدث فجوة ثقافية، كما ذهب أوجبرن فى

(1) Murdock, G.p., Cultural society, op. cit., pp. 84-86.

تفسيره لعمليات التغير الاجتماعي والثقافي، فلحدوث التكامل الثقافي لابد من أن يحدث ترابط بين السمات الثقافية المتشابهة [1].

ولقد تحققنا أن هذه الافتراضات الأساسية السابقة، أو على الأقل بعض منها، صادق، فإن هذا يتضمن بالضرورة الثقافات الإنسانية في عمومها، رغم تنوعاتها التاريخية. تظهر نوعاً من الاتفاقات التي تخضع للتحليل العلمي، ومن خلال مثل هذا التحليل يمكننا التوصل إلى التعميمات العلمية. وهذا هو هدف الدراسات المقارنة- أعني تكوين واختيار تعميمات من هذا القبيل [2].

٥- شكل ومحتوى الثقافة:

من أجل وصف وتحليل الثقافة، فإنه من الممكن أن نفحص الثقافة إما من خلال سماتها والأنماط الخاصة ببعض الخصائص العامة أو من خلال الأنساق أو الأنظمة الكلية لأنماط خاصة من المجتمعات كما ظهرت في التاريخ الإنساني وسوف نناقش هنا هذه المفاهيم بالتفصيل (٣).

أ- السمات الثقافية:

يميل بعض الأنثروبولوجيين إلى تفتيت الكليات الكبرى للثقافة إلى وحدات تسمى السمات الثقافية Culture Traits وتعني بهذه السمات امتزاج الأفعال والأفكار الخاصة بحاجة أو موقف معين. فيمكن النظر، على سبيل المثال، إلى إشعال النار على أنه سمة ثقافية تحتاج إلى استخدام أدوات معينة وتحتاج إلى مهارة ضرورية. فالرجل الغير متحضر يمكن أن يستنبط النار من احتكاك قطعتين من الحجر واستخدام الحطب لإشعال النار، أما الرجل

---

(1) Ibid., p. 86.

(2) Ibid .

(3) See: Bendict. R.. op cit.. See also: Kroeber. A.. L . Anthropology Culture Patterns and Process. New York Aharbinger Book. 1963
- Genrter. C . The Interpretation of Culture. London: Hutchinson 1957.
Murdock. G. op cit.

المتحضر فإنه قد يلجأ إلى استخدام الثقاب أو القداحة أو معدات تكنولوجية متنوعة. كذلك الحال بالنسبة لتحية شخص لآخر كأن يرفع الرجل قبعته عندما يحيي سيدة في بعض المجتمعات أو كأسلوب للتعظيم أو جزء من طقس ديني - يعد هذا ثمة ثقافية مفردة.

وبالرغم من أن هذه الطريقة تفسر بعض السمات المادية أو اللامادية في الثقافة إلا أن تحليل الثقافة عن طريق فحص سماتها - معرض لأوجه النقد التي توجه لو حاول أحد منا أن يفهم شخص ما بواسطة وضع قائمة من سمات شخصيته مثل اللباقة، الأمانة ... الخ، وبالرغم من أن هذه الطريقة مفيدة، إلا أنها تفشل في دراسة كل من الثقافة والشخصية لأنها لا تأخذ في الاعتبار أن كل من الثقافة والشخصية يعملان ككليات من اتحادات كبرى يطلق عليها الأنماط الثقافية.

ب- النمط الثقافي:

هو إذن مجموعة من السمات أو العناصر إلى تعمل ككل بالنسبة لبعض المواقف. فدائرة الأفعال التي يقوم بها الفلاحون في الزراعة وطرقهم في الحصاد وتخزين المحصول وطرق إعداد الطعام - كل هذا يمثل نمطاً ثقافياً. كذلك فإن استخدام الحيوان أو الآلة في الزراعة ونوع النبات والسماد كل هذا أيضاً مجموعة من الأنشطة تعبر عن نمط ثقافي معين يدل على التقدم الاقتصادي والتكنولوجي في ذلك المجتمع. ومن ناحية أخرى، فإن الاعتقاد بوجود إله أو آلهة يمثل نمطاً معقداً من أفكار معينة ومن شعائر وطقوس سواء في المجتمع المتحضر أو البدائي. أيضاً فإن النظام التبادلي أو ما يطلق عليه الاقتصاديون اسم "السوق" يمثل نوعاً -أمنظماً من الأنماط التي لها أفعال خاصة متعلقة بها. وبالرغم من أن هذه الأنماط الثقافية يبدو أن لها أساس منطقي ثابت في المجتمع، إلا أن الكثير منها يبدو وكأنه جاء نتيجة للمصادفة التاريخية[1].

---

(1) Young, K.: op. cit. pp. 33-34

جـ- الأنماط العامة:

ومن الملاحظ، أنه داخل الأنماط الثقافية المتنوعة هناك بعض المتشابهات أو المماثلات. هذه الصيغ الشائعة للفكر والفعل، هو ما نطلق عليه الأنماط العامة للثقافة Universal Patterns of Culture ويمكن توقع هذا التشابه ذلك لأن الأهداف الأساسية للثقافة واحدة في كل مكان، أعني أنها تساعد على إرضاء حاجاتهم، فالإنسان في كل مكان متشابه في حاجاته وأهدافه وقدراته وطرق استجاباته. وهناك ما هو أساس بالنسبة له مثل الطعام والجنس والأمن. ومن تلك الحاجات الأساسية يستمد أو يتعلم تكوين الدوافع والوسائل والغايات مثل تلك التي تتعلق باللعب والفن والدين والفولكلور وفي الحقيقة، فإن هذه الدوافع الأساسية سرعان ما تغطى بمحددات ثقافية واجتماعية والأخرى المستمدة منها، على أية حال، فإنه بالرغم من أن هناك تشابهاً في أنساق الثقافة، إلا أن هناك أيضاً اختلافات وتنوعات بالنسبة لما له من أولوية وأهمية، كذلك في محتوى الفكر والسلوك [1].

د- الأنساق الثقافية الكبرى:

بالرغم من أنه يبدو أن كل المجتمعات تحتوى على الخصائص الأساسية للأنماط العامة، إلا أن الطريقة التي تفسر وتنظم بها هذه الأنماط تختلف من مجتمع لآخر. فأى إنسان يقرأ التاريخ بعمق، أو يدرس القبائل غير المتحضرة أو يسافر خارج وطنه يدرك بسهولة أن كل مجتمع يختلف عن الآخر. ولقد أدرك R. Kipling هذه الاختلافات في أنساق الثقافة الكلية في الشرق والغرب عندما قال "إن الشرق هو الشرق والغرب هو الغرب ولا يمكن للاثنين أن يلتقيا". وقد ترجع هذه الاختلافات إلى تفاوت التطور التاريخي أو للعزلة الجغرافية أو للعناصر المفاجأة للزمان والمكان، ولا يمكننا أن نحدد أى منها يعد السبب المباشر في إحداث هذه التنوعات الثقافية [2].

---

(1) Ibid., p. 34.

(2) Young K., op. cit. p. 34.

على أية حال، فإن هذه الأنماط من الثقافة في مجتمع معين والتي تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى هو ما يطلق عليه أسم روح المجتمع Ethos أو السمة القومية National Character. ولقد عرف سمنر Summer (١٨٤٠ – ١٩٠٠) روح المجتمع "بأنها مجموعة من الخصائص أو السمات التي تتكون بها الجماعة أو المجتمع وتكون لها فرديتها وتميزها عن غيره من المجتمعات أو الجماعات الأخرى" [1] فالدول تختلف فيما بينها فمثلاً، الهند، والصين واليابان وأمريكا ودول أوروبا ودول أفريقيا تمثل أنماط ثقافية مختلفة. أكثر من هذا فإن هذه الروح أو السمة القومية، كما يذهب سمنر، هي التي تزود المجتمع بوجهة نظر معينة والتي من خلالها ينتقد هذا المجتمع الطرق والأنماط الثقافية للمجتمعات الأخرى [2].

ونتيجة للنمو الصناعي في الفترة من ١٨٧٠ – ١٩٣٠ فإن الثقافة الأمريكية، على سبيل المثال، قد تميزت بمجموعة من الخصائص الخاصة أهمها:

١- الاعتقاد في النجاح المادي الفردي والتقدم القومي العام.

٢- الاعتقاد الراسخ في التعليم والعلم كوسيلة لحل المشكلات الاجتماعية والشخصية.

٣- الاعتقاد بالامتداد المكاني، بمعنى إنشاء المشروعات والمباني الضخمة مثل ناطحات السحاب والمصانع الكبرى.

٤- الحركة السريعة خلال المكان، والتي تعني التنقل الاجتماعي للسكان والتي تتضمن بدورها زيادة وسائل الاتصال والنقل.

٥- الاستجابة لكل ماهو جديد ومثير وأخيراً.

٦- الشعور بالقوة على أنها القوة المسيطرة في كل مظاهر الحياة العامة [3].

---

(1) See W.G. Summer folkways, Boston: Ginn and Company 1907, p. 70

(2) Ibid. p 73 .

(3) Young, K . op cit. pp 37-38

وفى مقابل هذا نجد أن المجتمعات الشرقية على الأقل – قبل أن تغزو الحضارة والقيم الغربية – هذه المجتمعات تمثل أنماط ثقافية مختلفة تماماً عما فى المجتمعات الغربية تتحكم فى فكر وسلوك الأفراد بها. فليس هناك اعتقاد فى التقدم، كذلك ليس هناك قيمة للامتداد المكانى وليس هناك قيمة للحركة السريعة. ففى الهند على سبيل المثال نجد أنه ليس هناك قيمة للكسب المادى الشخصى، بل على العكس نجد هناك إنكاراً للذات وانسحاب من الحياة العامة. وتتخذ أشكال التعبير عن الذات أشكالاً دينية تتخذ اتجاهات سلبية من الحياة[1]. وعندما تتقابل قيم الثقافة الغربية مع تلك القيم الشرقية فإننا نلاحظ الصراع فى القيم خاصة عندما تكون هناك محاولة لفرض أنساق ثقافية "مستوردة" على الأنساق "التقليدية". ولقد حدثت نهضة ثقافية فى الشرق وهناك محاولات لتعبئة وإحياء أنماط تقليدية أو تبنى أنماط ثقافية جديدة تمثل "روح مجتمعية جديدة"، ولاشك، أن دراسة هذه الروح – لأى شعب من أهم الموضوعات التى يهتم بها علم الاجتماع خاصة أولى الذين يهتمون بالتغير الثقافى محل الدراسة أن نتبنى وجهة نظر نسبية وليست مطلقة، وإلا سوف سنلقى مشكلات المجتمع العالمى بعيدة عن تناول البحث العلمى.

هـ- الثقافات الفرعية والاختلافات والمشاركة:

كما سبق أن أشرنا، أن الثقافة يمكن أن تدرس من خلال سماتها وأنماطها، وهذا ما قدمناه فى السطور السابقة، إلا أن هناك اتجاهاً آخر يحاول دراسة الثقافة من خلال الأنساق الثقافية الكلية. فعندما ندرس مكانة الثقافة فى حياة الفرد أو فى حياة جماعة من الأفراد فإنه يبدو واضحاً أن هناك اختلافاً

---

(1) See Spengler. O. Decline of the West (2 Vols). New York. Alfred A Knopf, 1928
- Sorokln, P., A Social" and Culture Dynamics (4 Vols). New York. American Book Company, 1937 - 1941
- Somberveil. D., C. A study of History. New York. Oxford Univ Press. 1947.
- Nothnop. F., C.. The Metting of East and West New York. The Macmillan Company, 1947.
- Kroeber. A L. Configuration of culture Growth, Berkeley California Press 1944

واسعاً في درجة المشاركة الثقافية. ففي الأنماط الثقافية التي تتميز بالبساطة نجد أن الشخص قد يشارك في كل الأنشطة الثقافية. أو على الأقل يكون ملماً بها، ولكن حتى في الثقافات البسيطة فإننا نلاحظ وجود الاختلافات في الفكر والسلوك، وقد ترجع هذه الاختلافات إلى السن، الجنس، والمهنة، ومن المستحيل في المجتمع الصناعي، الذي يتسم بالتعقيد، أن تجد شخصاً شارك تفاعلياً في كل أوجه الثقافة المتعددة. فشخص واحد لا يستطيع أن يقرأ أو يتعلم عن الثقافة الكلية إلا بطريقة سطحية. وتتنوع الطرق الخاصة بالقبول الثقافي والتوقعات للفرد حسب متطلبات نسق الثقافة الكلي [1].

وفي مناقشة لمستويات المشاركة وهذه المتطلبات ميز "رالف لنتون" R. Linton (٢) ثلاثة مستويات للتوقعات هي: العموميات والبدائل والخصوصيات. وتشير العموميات Universals إلى تلك الخصائص الجوهرية في الثقافة، والتي يتطلبها المجتمع مثل القوانين والإجراءات الحكومية والأنساق الاقتصادية والدينية، أما البدائل Alternatives هي تلك الأنواع من الأنشطة والتي يكون فيها للأفراد المعنيين اختيارات معينة أو حين يكون هناك أنشطة معينة مسموح بها. فالعموميات، على سبيل المثال، تتطلب أن يكون هناك في المجتمعات الشرقية زواجاً شرعياً بين الرجل والمرأة تحت رعاية القانون. أما كيفية الاحتفال بالزواج سواء في حفلة عامة أو خاصة كل ذلك متروك للفرد واختياراته أو حسب الطبقة التي ينتمي إليها، وهذا هو ما نقصده بالبدائل الثقافية المتاحة أمام الفرد.

وأخيراً فإن الخصوصيات Specialities فهي تلك الخصائص لأدوار وظائف معينة. فالطبيعي – مثلاً – ليس لديه فقط معرفة ومهارات خاصة، بل لديه أيضاً لغة ومصطلحات ونسق قيمي خاص يجعله ويجعل نهضته تختلف عن الآخرين. ويختلف تنظيم هذه المتطلبات الثقافية حسب التجمعات الخاصة

---

(1) Young. K . op. cit.. pp. 37-38.

(2) See Linton. R.. The Study of Man. New York Appletion Century Crafts. 1936 pp 272 274

بالبيئة والسن والجنس والمهنة والطريق والأشكال الأخرى للتنظيم الإنساني. ومن منظور نسق الثقافي الكلي، يمكننا أن نشير إلى مثل هذه الصيغ الخاصة على أنها ثقافات فرعية Subcultures ففي كل مكان، على سبيل المثال، هناك أدوار ومكانة للمرأة تختلف عن أدوار ومكانة الرجل. وبالتأكيد فإن الأطفال لا تشارك في الثقافة بنفس الدرجة التي يشارك بها الكبار. والحق أننا عندما نتحدث عن التفرقة بين الطبقات والفئات، فإننا نتحدث عن الخصائص المميزة للثقافات الفرعية، كذلك بالنسبة للفروق الريفية الحضرية هي فروق في الثقافات الفرعية[1].

٦- خاتمة:

وبالرغم من حقيقة أن الثقافات الفرعية لا تعني أن الفرد كلية تحت رحمة الثقافة الكلية، أو حتى الأجزاء الثقافية المكونة لها، فإن من الخطأ الجسيم أن ندعي أن الشخصية Personality هي الجانب الذاتي Subjective للثقافة كما يذهب البعض [2]. فمحاولة توحيد الشخص كلية بثقافته هو في الحقيقة محاول لتجاهل التأثيرات الوراثية البيولوجية في الدوافع الأساسية والقدرات العقلية والانفعالية وتأثيرات الظروف الاجتماعية - الشخصية، فالشخص ليس بمثابة قطعة من "الإسفنج" تمتص شئ يسمى "ثقافة". على العكس من ذلك يقوم الشخص بالاختيارات ويشارك في العالم الثقافي بطريقته الخاصة. وقد تكون بعض أوجه الطريقة التي يشارك بها الشخص متشابهة إلى درجة كبيرة مع الآخرين، وقد تكون بعض الأوجه الأخرى متميزة بدرجة كبيرة ومستقل عن الآخرين. وباختصار، فإن الشخصية الإنسانية هي محصلة تفاعل بين البناء البيولوجي للفرد ومتنوعة في انفعالاته ومشاعره وقدراته على التعلم وبين الدوافع التي تعمل في إطار الظروف الاجتماعية والثقافية والشخصية المحيطة به [3].

---

(1) Young. K.. op cit . pp. 38-39

(2) See Faris. E.. The Nature of Human Nature· New York: Mc Graw Hill Book Company. 1937.

(3) See: Wallace. A.. F.. Culture and Personality. New York· Random House. 1961

الفصل الخامس

سوسيولوجية الشخصية

١- مقدمة

٢- التعريف السيكولوجى للشخصية

٣- التعريف السوسيولوجى للشخصية

٤- بناء الشخصية

٥- العمليات الاجتماعية ودورها فى تطوير بناء الشخصية

٦- مقومات الشخصية

أ- المقومات الوراثية والبيولوجية

ب- البيئة الجغرافية وتكوين الشخصية

ج- البيئة الثقافية

د- البيئة الاجتماعية

الفصل الخامس

سوسيولوجية الشخصية

١ – مقدمة

لدراسة الشخصية أهمية كبرى في التحليل والفهم السوسيولوجي لأنها تعتبر إحدى المقومات الأساسية في بناء السلوك. لقد أشرنا من قبل إلى اهتمام علماء الاجتماع بدراسة أنماط السلوك الاجتماعي، ورأينا كيف أنهم في محاولتهم تحديد العوامل الرئيسية في بناء السلوك الاجتماعي يجمعون على ثلاثة مجموعات أساسية من العوامل المتضمنة في النماذج النظرية للسلوك وهي[1]:

أ- البناء الاجتماعي والثقافي كأنماط متوقعة أو تقاليد للسلوك.

ب- العوامل الموقفية، وتمثل الظروف الفيزيقية والاجتماعية التي تحيط بكل نسق اجتماعي، والتي يجب أن يتوافق لها.

ج- عوامل الشخصية، وهي تشير إلى مختلف العوامل البيولوجية والسيكولوجية والتي تؤثر في سلوك الأفراد.

وتعتبر عوامل "الشخصية" جزء متكامل في كل تنظيم اجتماعي، ذلك لأنه بدون معرفة هذه العوامل لا يمكن فهم وتفسير ما قد يحدث في النسق الاجتماعي من انحراف عن أنماط السلوك المقررة ثقافيا، كما لا يمكن فهم عمليات التنشئة الاجتماعية بحال من الأحوال. بعبارة أخرى، فإن "الصراع " أو "عدم التوافق "الذي قد يحدث بين البناء الثقافي والاجتماعي من ناحية وبين

---

(١) انظر :

١- عاطف غيث، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٤٨.

٢- السيد عبد العاطي وآخرون، الثقافة والشخصية، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧.

العوامل الموقفية وعوامل الشخصية من ناحية أخرى يقدم في النهاية أداة تصورية ملائمة لفهم ما حدث من اضطراب وتفكك بنائي في أي نسق، ومن ثم تصبح كل مجموعة من هذه العوامل وسائل حيوية وهامة في تفسير التفكك الاجتماعي والتغير الاجتماعي بل وأيضا في تفسير النظام الاجتماعي ذاته - وربما كان ذلك هو السبب الذي من أجله يعالج علماء الاجتماع موضوعات الشخصية والثقافة والوقت كجزء أساس في النظرية السوسيولوجية وذلك على اعتبار أن المجتمع بصفة عامة هو الوعاء الذي يحوي كل العلاقات الإنسانية والاجتماعية، وأن الثقافة هي الصورة التي تلون هذه العلاقة وتصبها في قولب محددة في الوقت الذي يمثل فيه"الفرد" مادة هذه العلاقات التي تتلقى تأثيرات المجتمع والثقافة ليصبح شخصا يشرب من وعاء المجتمع ويلبس رداء الثقافة، ومن هنا كانت "الشخصية" العماد الثالث الذي ترتكز عليه الحقيقة الاجتماعية.

تعريف الشخصية

سواء في علم النفس أو علم الاجتماع لا يزال موضوع "الشخصية " يحمل طابع الجدل والاختلاف بين الباحثين نظرا لما يتميز به من تعقد وتشابك وقد نواجه بأولى مظاهر هذا الجدل واختلاف وجهات النظر إذا حاولنا تعريف الشخصية حيث تكثر التعريفات وتتحدد بطريقة يصعب حصرها جميعا فقد وجد البورت-مثلا- ما يزيد على خمسين تعريفا لها في ميادين الدين والقانون والاجتماع وعلم النفس. منها ما يؤكد على المظاهر الخارجية لها ومنها ما يؤكد على طبيعة البشرية أو التكوين الداخلي للشخصية الإنسانية.ويحاول كلاكهون أن يبين مدى الصعوبات التي تواجه الباحث عند محاولته تعريف الشخصية وأن ىرز هذه الصعوبات على النحو التالي :

١- إن العمليات التي تتكون منها الشخصية تنتظم أو تتكامل بطريقة تجعلنا لا نستطيع قياسها أو تحديدها ونعجز بالتالي عن الوصول بطريقة موضوعية مقننة إلى نتائج عامة بصددها ولئن كان علماء النفس يتخذون من عمليات التأمل الباطني أو الاستبطان وسيلة للوصول إلى مثل هذه النتائج إلا أن

وسيلتهم هذه عملية تتسم بقدر كبير من الذاتية ولها فضلاً عن ذلك عيوبها كما أن لها مميزاتها وفوائدها.

٢- تتميز العمليات التى تتكون منها الشخصية بوقوعها أو حدوثها المستمر أو المتواصل فى حياة الفرد لتتوالى الواحدة بعد الأخرى بطريقة متشابكة ومعقدة يصعب معها - إن لم تستحل - أى محاولة للفصل بينها لأغراض البحث والتحليل وهى أيضاً فوق هذا كله لا تحدث بطريقة متواترة منتظمة أى لا تقع أو تتكرر بنفس الصورة، الأمر الذى يستحيل معه إمكانية الوصول إلى تعميمات تفضى إلى التنبؤ.

٣- إن الدوافع الأساسية التى تحرك الشخصية وتدفعها لسلوك معين دوافع معقدة منها ما هو شعورى يمكن التعرف عليه لا من جانبها وحدها، بل من جانب الشخص نفسه. ومنها ما هو لا شعورى ترسخ منذ عهد الطفولة بطريقة يصعب اكتشافها أو على الأقل تحتاج لجهد ووقت أكبر لمعرفتها وإظهارها على مستوى الشعور.

٤- إن الشخصية الفردية وحدة متكاملة ولا يمكن فرضها إلا على هذا النحو، هذه الوحدة وهذا التكامل تعنى انتظار العمليات النفسية كلها لا فى الموقف الواحد الذى يمارسه الفرد، بل وأيضاً فى مختلف مراحل النمو الفردى ولذلك يتضمن بحثها التعرض للعمليات المتسلسلة التى قد تشتمل تاريخ حياة الفرد كله.

إن الباحثين في الشخصية أنفسهم هم أولاً وأخيراً أفراداً لهم شخصياتهم ولكل منها عملياتها ومميزاتها ونقاط ضعفها وهذا كله ينعكس على طريقة كل منهم في النظرة إلى الموضوع ومحاولة فهمه وحتى تعرفه الأمر الذى أدى الى اختلاف وجهات النظر إلى الشخصية كموضوع للبحث وإلى تعدد التعاريف التى تمخضت عنها هذه المحاولات.

وبغض النظر عن الصعوبات التى تكشف محاولات فهم الشخصية وتعريفها على النحو الذى اوضحه كلاكهون. فإنه قد يبدو من المناسب أن نعرض لبعض

التعريفات التي قدمت في مجال علم النفس والاجتماع وذلك على النحو التالي:

١- التعريف السيكولوجي للشخصية

نستطيع بهدف تمييز التعريف السيكولوجي للشخصية عن غيره من تعريفات قدماه علماء وباحثون ومفكرون في مجالات أخرى للمدرسة غير علم النفس أن نتابع البورت في محاولته التي جمع فيها مختلف تعريفات الشخصية وصنفها في اتجاهين أساسيين :

الاتجاه الأول

وهو الذي يأخذ بالتعريف المظهري للشخصية والذي يتلخص في أن الشخصية هي محصلة أنواع النشاط المختلفة الذي يقوم بها الفرد والتي يمكن عن طريق ملاحظتها ملاحظة فعلية خارجية أن يتعرف على الفرد، أو هي بعبارة أخرى الناتج النهائي لمجموعة وأنماط عاداته التي تميزه عن غيره.

الاتجاه الثاني

وهو الذي يركز على جوهر الإنسان وطبيعته الداخلية على اعتبار أن الإنسان مجموعة من الحالات والعمليات والتكوينات الداخلية التي لابد من افتراض وجودها حتى يمكن فهم السلوك الظاهري الملاحظ لدى الفرد، وبعبارة أخرى ينظر هذا الاتجاه إلى الشخصية على أنها تنظيم يتضمن كل النواحي النفسية والعقلية والمزاجية والأخلاقية سواء كانت فطرية غريزية أو كانت مكتسبة عن طريق الخبرة كالاستعدادات والميول.

وإلى جانب هذين الاتجاهين الأساسيين لتعريف الشخصية أو النظر إليها يقدم البورت تصنيفاً آخر للتعريفات السيكولوجية للشخصية يقوم على أساس التمييز بين خمسة تعريفات أساسية هي :

١- تعريفات تعتبر الشخصية مجرد مجموعة الأجزاء أو وحدات من أنواع مختلفة دون أن يأخذ هذا المجموع شكل تنظيم معين، ويمثلها تعريف فالنتين للشخصية بأنها مجموعة استعدادات تقوم عليها عادات الفرد.

٢- تعريفات تنظر إلى الشخصية كمجموع أجزاء أو وحدات ولكنه تضيف له خاصية التنظيم بين العناصر المختلفة ولذلك تعرف بالتعريفات التكاملية أو التنظيمية ومن أمثلتها تعرف مكدوجال للشخصية والذى يمكن تلخيصه فى أن هناك استعدادات فطرية فى الإنسان تشكل المادة الأولية التى تنتظم فيما بينها لتكوين خلق الفرد وشخصيته المميزة.

٣- تعريفات تؤكد على جانب التوافق الاجتماعى بمعنى أن تساوى بين الشخصية وبين الناحية الاجتماعية فى الفرد أو قدرته على التوافق فنرى أن شخصية الفرد تتحدد على أساس استجابته للآخرين واستجابتهم له، بعبارة أخرى الشخصية هنا هى كل ما يظهره الفرد أثناء تفاعله مع الآخرين. ومن أمثلتها تعريف بورن للشخصية أنها "ميول ثابتة عن الفرد تنظم عملية التوافق بينه وبين البيئة".

٤- تعريفات تؤكد على الجوانب الكامنة فى الفرد على اعتبار أنه إلى جانب الناحية الظاهرية للشخصية هناك جانب آخر كامن يعبر عن سمات كامنة فى الفرد بغض النظر عن التقييم الاجتماعى لها. ومن أمثلتها تعريف البورت نفسه للشخصية بأنها "تنظيم دينامیكى يكمن بداخل الفرد ينظم كل الاجهزة النفسية والجسمية التى تطبع الفرد بطابع خاص ومميز فى التكيف مع البيئة".

٥- تعريفات تؤكد على الطابع المميز للشخصية بمعنى أن الشخصية هنا هى كل ما ينفرد به الشخص عن غيره، فهى تقابل التميز والفردية أو الانفراد والملاحظ على مثل هذه التعريفات أنها تقرر قيمة كبرى للفروق الفردية فى مقابل وجهات النظر التى جعلت من الشخصية نتاج لحضارة المجتمع. ومن أمثلة هذه التعريفات تعريف ماركيوس للشخصية على أنها كل ما به يفترق الفرد فى تصرفاته وسلوكه عن كل ما يحمله فى ذهنه من ميول حضارية

أساسية وذلك على اعتبار أن الفرد الذى يخلص فى الالتزام بالأوضاع الحضارية فى مجتمعه لن يكون له شخصية مميزة. ومن أمثلتها أيضاً تعريف وود ورث الذى يقرر فيه أنه لا يقصد بالشخصية أى نوع من أنواع النشاط كالتعلم أو التذكر أو التفكير أو الحب وإنما يستطيع الفرد أن يكشف عن شخصيته عن طريق الأسلوب الذى يتبعه فى أداء أى لون من ألوان النشاط.

غير أنه على الرغم من تعدد التعاريف التى قدمها علماء النفس للشخصية إلا أنه من الملاحظ أنها اتفقت فى نظرتها إلى الشخصية على أنها "وحدة كلية عضوية من خصائص فسيولوجية ونفسية من ناحية ولكنها وحدة ديناميـة أو وظيفة متفاعلة تحدد سلوك الفرد وتوافقاته مع البيئة. وكمثال لهذه النظرة نشير إلى تعريف أولبورث الذى يتخذ من الشخصية "نظاماً دينامياً فى الفرد للأجهزة النفسية - الفسيولوجية والذى يحدد توافقاته الأصلية مع بيئته".

فالشخصية من ناحية نظام دينامى يتميز عن مجموع عناصره بما يوجد من هذه العناصر من علاقة ارتباط متبادل ومتساند، إلى جانب أنها وحدة ديناميكية تخضع باستمرار للتغيير (نظرية الجشطلت).

وهى من ناحية "ثانية" شخصية لفرد "توضح اختلاف الفرد عن النمط العام من ناحية واختلافه أو تميزه عن أقرانه وجماعاته من ناحية أخرى".

والشخصية من ناحية "ثالثة" هى تنظيم لأجهزة فسيولوجية ونفسية. بمعنى أنها تشتمل فى ذاتها على وحدات منظمة لكل منها بناءه الخاص، هذه الوحدات وإن كانت تأخذ شكل وقائع ملموسة أو عينية إلا أنها تنطوى فى الوقت نفسه على دلالات نفسية.

وهى أى الشخصية من ناحية رابعة جواز يحدد سلوك الفرد وتصرفاته وأفعاله. ولو أن ذلك لا يعنى عدم تأثرها بآثار السلوك أو نتائجه وبمختلف التأثيرات التى تمارسها البيئة من حولها ولكنها مع ذلك حية تحدد سلوك الفرد وتعمل فى الوقت نفسه على تحديد "توافقاته" مع البيئة ليتخذ سلوك الفرد فى

هذا الصدد معنى أو دلالة وظيفية تحقق التكامل وتخفف من حدة التوترات وذلك على اعتبار أن الحياة ليست إلا سلسلة من محاولات إعادة التوافق أو من تعاقب حالات اختلال الاتزان ومحاولة إقامته من جديد وتتميز هذه التوقعات في نظر علماء النفس بأنها "أصلية" بمعنى أنها توافقات صادرة عن الشخص نفسه وفي ذلك ما يشير إلى أنه على الرغم من أن كل شخص يشبه غيره من أفراد المجتمع ومن حيث خضوعه لنفس المؤثرات البيئية والاجتماعية والثقافية إلا أنه يظل وفي نفس الوقت محتفظاً بتميزه عنهم على الأقل في استجابته لهذه المؤثرات المختلفة.

وأخيراً فإن الشخصية هي التى تحدد توافقات الفرد "للبيئة" والبيئة هنا ومن المنظور السيكولوجي هي الموقف الذى يعيشه الفرد أو يمر به. ولذلك نجد علماء النفس يفرقون بين البيئة الواقعية أو الجغرافية والبيئة السلوكية، والأخيرة هي المقصودة في تعريفهم للشخصية. ذلك على اعتبار أن الأولى قد تكون واحدة لجميع الأفراد. أما الثانية "البيئة السلوكية" فتمثل موقف له دلالة خاصة بالنسبة للفرد يستجيب له بطريقة تحدد إلى درجة كبيرة من خلال ما يتميز به من سمات شخصية متميزة، ولذلك يلاحظ أن الأفراد لا يجدون لمثير ما نفس القيمة أو الدلالات ومن ثم تختلف استجاباتهم له وفقاً لاختلاف سمات شخصياتهم.

٣- التعريف السوسيولوجي للشخصية

الملاحظ على التعريفات السوسيولوجية أنها تركز على الجانب الاجتماعي للشخصية سواء كان ذلك في شكل تأكيد على عمليات التنشئة الاجتماعية للفرد، ويوضح كيف تؤثر البيئة الاجتماعية والثقافية في تشكل الشخصية أو كان ذلك إبرازاً لأهمية التوافق الاجتماعي على اعتبار أن هذا التوافق هو نتاج لما لدى الفرد من سمات الشخصية المتميزة، ولنا ما نسرده من تعريفات مثالاً على ذلك.

١- تعريف بيسانز

يرى بيسانز أن لكل منا شخصية طالما أن كلاً منا مر بعمليات التنشئة الاجتماعية، لذلك فإن أفضل تعريف للشخصية في نظره أنها تنظيم يقوم على عادات الشخص وسماته، وتنبثق من خلال العوامل البيولوجية والاجتماعية والثقافية. وهو يعني بالتنظيم هنا تكامل العادات والاتجاهات والسمات كما ينظر إلى العادات على أنها طرق دائمة نسبياً يسير عليها الفرد في سلوكه وأفعاله بطريقة تمكن من التنبؤ بسلوكه في مواقف معينة.

٢- تعريف أجبرن ونيمكوف

الشخصية عند كل من أجبرن ونيمكوف عبارة عن "التكامل النفسي والاجتماعي للسلوك عند الكائن الإنساني معبراً عنه في عادات وشعور واتجاهات وآراء "وهي - أي الشخصية - تشتمل بذلك على القيم وكل نواحي السلوك ووجهاته كما يبدو الجانب الاجتماعي فيها من حقيقة نموها في "المواقف الاجتماعية" والتعبير عنها في تصرفات وأفعال تبدو في التفاعل الاجتماعي مع الآخرين.

٣- تعريف جرين

بعد أن يقوم جرين بتوضيح دور التنشئة الاجتماعية في تشكيل شخصية الفرد تلك العملية التي من خلالها يتحول الفرد من كتلة من الخصائص التشريحية والفسيولوجية والعصبية إلى كائن اجتماعي أو عضو فعال في جماعة يشترك فيها مجموعة من السمات الاجتماعية العامة بما يكتسبه من لغة ومركز ودور وانتماء وعادات ومعتقدات ومعايير وقيم، وعند هذا الحد تشتمل الشخصية في نظر جرين على جانبين الأول يتمثل في ما هو مشترك أو مشارك فيه مع الآخرين. أما الجانب الثاني فيتمثل فيما يتميز به كل شخص عن غيره من عادات واتجاهات وسمات وقيم ولا تجد في الحقيقة خلافاً كبيراً بين هذا التعريف والتعريف الذي يقدمه لندبرج حيث يعرف الشخصية بأنها كل ما يشير الى العادات والاتجاهات والسمات الاجتماعية التي تميز سلوك فرد معين أي

أنها تدل على أنساق السلوك التي تكتسب من خلال عمليات التعلم والتفاعل الاجتماعي لذلك فمن الخطأ في نظره أن نعتقد في استخدامنا لمفهوم الشخصية. إنها تشتمل على المظاهر الفيزيقية الخارجية أو الوظائف الداخلية للكائن كالتنفس وحفظ حرارة الجسم أو امتصاص الطعام . . . الخ.

٤- تعريف جون كيوبر

يقدم جون كيوبر تعريفاً محدداً للشخصية على أنها "المجموع الكلي لكل ما يلاحظ أو يمكن ملاحظته أو سمات لشخص ما "لذلك وفي ضوء هذا التعريف الشامل لا تشير الشخصية إلى السمات الفيزيقية فقط مثل لون العينين أو البشرة أو حجم الجمجمة أو طول القامة . . . الخ. بل تشتمل أيضاً على العادات والاتجاهات والقيم وأنماط التفاعل مع الآخرين.

٥- تعريف أرنولد جرين

يرى أن الإنسان لا يولد شخصاً، بل إنه يولد مزوداً بإمكانيات يمكن أن تجعله كذلك، والإنسان يصبح شخصاً نتيجة للمؤثرات الاجتماعية التي تؤثر في كيانه التشريحي والفسيولوجي والعصبي. ومن أجل أن يصبح الكائن شخصاً لابد أن يكتسب اللغة، فالتفكير ولذلك يكتسب إلى جانب هذا أغراضه وقيمه ولتوضيح ذلك يقول جرين أن الشخص يشارك في السمات الاجتماعية ذات الطبيعة العمومية في كل المجتمعات الإنسانية وهي اللغة والمركز والدور والانتماءات والمعتقدات والمعايير الخلقية وإذن تشتمل الشخصية على الشخص أي ما هو مشترك أو مشارك فيه مع الآخرين. ولكن الشخصية من جهة أخرى تشير الى ما يميز أي شخص وهي لذلك تعرف بأنها مجموعة قيم الشخص (موضوع كفاحه في الحياة كمثل والنفوذ والقوة والجنس وسماته غير الفيزيائية) "الطرق المعتادة في الفعل ورد الفعل".

بهذا يرى جرين أن الشخصية ليست مجرد القيم والسمات بل أن تعريفها يجب أن يتضمن صفة هامة فيها وهي التنظيم الدينامي لأن الشخصية تتخذ في

كثير من الاحيان طابع المرونة الذى بدونه قد تصبح الشخصية عاملا معوقا فى النمو والانتماء إلى جماعات متعددة فى المجتمع.

٦- تعريف لندبرج

يرى لندبرج أن اصطلاح الشخصية يشير إلى العادات والاتجاهات والسمات الاجتماعية الأخرى التى تميز سلوك فرد معين ولذلك تدل الشخصية على أنساق السلوك التى تكتسب من خلال عمليات التعلم والتفاعل الاجتماعى ومن أجل هذا لا يطبق اصطلاح الشخصية على المظاهر الفيزيائية الخارجية أو على الوظائف الداخلية للكائن كالتنفس وحفظ حرارة الجسم أو تنظيم المكونات الكيميائية للدم والخلايا أو الهضم أو امتصاص الطعام .. وغير ذلك.

ويكتسب الفرد الشخصية كنتيجة لمشاركته فى حياة الجماعة ومن المعروف ان أنساق السلوك والمهارات الرمزية يتعلمها الفرد عن طريق الاتصال الجماعى ولذلك تعرف التنشئة الاجتماعية بأنها عمليات التفاعل المركبة التى من خلالها يتعلم الفرد العادات والمهارات والمعتقدات ومستويات الحكم الضرورية لمشاركته الفعالة فى الجماعات والمجتمعات المحلية والتنشئة الاجتماعية، لهذا تدل على العمليات الاجتماعية والملزمات التى بواسطتها تأخذ معايير الجماعة ومستوياتها طريقها فى سلوك الأفراد ومعتقداتهم.

وكل طفل يولد فى بيئة اجتماعية تؤثر فيه منذ البداية كما يؤثر فيه الضوء والهواء والملابس والمهد الذى يوضع فيه وعلى الرغم من أن حواس الطفل الوليد تكون غير واضحة كبصره، إلا أنه من غير ذلك يستجيب منذ اللحظة الأولى للبيئة الطبيعية والاجتماعية ويتوقف بناء الطفل على العناية والعطف اللذين يتلقاهما مع الآخرين.

ويلاحظ أن هناك من لا يزال مشغولاً بالبحث عما يمكن اعتباره من الخصائص الوراثية للكائن الإنسانى. ومثال ذلك التساؤل عن وجود سمات أو خصائص تتعلق بالشخصية يحتويها التكوين البيولوجى للوالدين أو القول بأن اكتساب المهارات أو سمات الشخصية الأخرى مسألة وراثة فى الدرجة الأولى.

٧- تعريف سوروكين

يحاول سورو كين أن يبرز أهمية موضوع الشخصية في علم الاجتماع بقوله أن الأفراد هم المكونات التي لا غنى عنها في كل الأنساق الاجتماعية والثقافية فإذا كان الأمر كذلك فإن شخصياتهم كتنظيم عقولهم وسلوكهم تؤثر من غير شك في إطار الأنماط الثقافية والاجتماعية ولذلك يقول سوروكن أن قول هربرت سبنسر أن طابع الكل يحدده طابع الوحدات المكونة له "صحيح في هذه الحالة".

إن سوروكن لا ينكر أهمية الوراثة البيولوجية في الشخصية ولكن يعتقد أن الجانب الاجتماعي الثقافي من الشخصية لا يتحدد ولا يكتسب عن طريق هذه الوراثة لأنه يصاغ أو يصب في قالب معين من خلال الوسط الاجتماعي الثقافي.

إن معتقدات الإنسان وقيمه وتعبيراته الإرادية والغذائية والعاطفية وأفعاله التي تحمل معنى محدداً تقوم جميعاً وتنبعث عن الجماعات التي يتفاعل معها وليس هناك في الواقع أي مصدر آخر لخصائص الفرد الاجتماعية والثقافية وربما كان هناك نوع من الاختيار الهامشي للفرد فيما يتعلق بهذه القيم والمعاني لكنه لا يستطيع أن يختار أو يدع شيئاً منها إلا من المصادر التي تزوده بها بيئته الثقافية والاجتماعية.

هذا ويؤكد سوروكن على الاتصال المتبادل بين الفرد والثقافة والمجتمع فالفرد يمتص عالمه الثقافي والاجتماعي ويتمثله وينمو على تربيته والثقافة مرآة أعضائها وما يقيمونه من تنظيمات اجتماعية. أما البناء الاجتماعي فإنه يعكس مكوناته من الأفراد وأنماطهم الثقافية.

ومن أجل هذا يعتقد سوروكن أن التناقض بين المدرسة السوسيولوجية والمدرسة السيكولوجية لا محل له ذلك أن النظرية السوسيولوجية المتطرفة لا يمكن أن تستغني عن الفرد في تحليلها لأنه بدون الأفراد لا يمكن أن تكون هناك جماعة كما أن أي نظرية سيكولوجية لا يمكن أن تفسر أو تعالج الفرد إذا

أنكرت حقيقة أساسية وهي أن التفاعل الاجتماعي والثقافة يشكلان شخصية الفرد. ويبدو عدم إمكان الفصل بين ما هو فردي أو اجتماعي أو ثقافي من أن النمو الذي يتم للعقل الفردي يصاحب النمو في البناء الاجتماعي والاتصال الوثيق بين الأنا الفردية وبين بناء الجماعات التي ينتمي إليها الفرد. ويبدو عدم إمكان الفصل بين وجوه هذه الحقيقة المتمثلة الأطراف أيضاً في أن سلوك الفرد يتحدد بصورة فعالة عن طريق الجماعات التي يعيش فيها وكذلك في أن مضمون العقل الفردي ينطوي على قيمة العلمية والفلسفية والدينية والخلقية والجماعية، يتخذ صورة محددة عن طريق العامل الثقافي الذي يتحرك فيه.

إن النمو الفردي مستحيل بدون تنظيم اجتماعي ويترتب على ذلك أن الجانب الأكبر من الشخصية الإنسانية يتركز على دعائم المجتمع والثقافة. ويقول سوروكن أن هذا القول قد أكدته الدراسات المتعددة التي أجريت في ميادين علم نفس الطفل والتحليل النفسي وعلم الجريمة.

٨- تعريف بارسونز

تعتبر دراسة بناء الشخصية عند بارسونز عن ارتباط الفرد بنسق من أنساق الثقافة داخل البناء، حيث يشير مفهوم الشخصية عنده إلى العناصر المكونة لبناء الشخصية العادية في المجتمع، ولا يشير إلى بناء الشخصية الفريدة المميزة باعتبارها وحدة ملموسة محسوسة. وقد أكد بارسونز أن عملية التنشئة الاجتماعية هي العملية التي يكتسب بها المرء في طفولته عناصر الشخصية الأساسية. وهذه العناصر هي التي تكون لب الشخصية الأساسية وهي المتغيرات النمطية التي تبدو في توقعات الأدوار وتوجيهات القيم التي تعمل إلى حد كبير على بناء الأدوار الأساسية والقيم السائدة في البناء الاجتماعي كما تلعب هذه التوجيهات دوراً أساسياً في تعريف توقعات الأدوار وبناء الشخصية.

وقد أوضح بارسونز أن الطابع الاجتماعي للشخصية الأساسية توضع دعائمه في الطفولة الأولى فليست العناصر التي تكون الشخصية الأساسية عناصر فطرية جبلية بل هي عناصر اجتماعية.

بيد أن هذه العناصر ليست صلبة أو جامدة كما أنها في الوقت نفسه ليست طيعة مرنة يستطيع المرء أن يغيرها حسب إرادته، لكنها تتنوع محتفظة بالسمات الأساسية للشخصية بتغير تجارب المرء. فأهم ما يميز العناصر المكونة لبناء الشخصية هو استقرارها النسبي.

ورغم أن هذه العناصر المكونة لبناء الشخصية الأساسية عناصر مكتسبة ومحاطة بعملية التوحد، وتكوين بناءاً ثابتاً مستقراً نسبياً، فقد أوضح بارسونز أن بناء الشخصية لا يتغير من بناء لآخر فحسب، بل أكد أن بناء الشخصية الأساسية متمثلاً عند جميع أعضاء البناء. فبنية الشخصية تتباين حسب الجنس وحسب المراكز المتباينة التي يشغلها أعضاء البناء في النسق القرابي.وبتأثير الاختلافات الطبقية والسلالية والبيئة المحلية. ويتضاءل هذا التباين بين أعضاء المراكز المتماثلة داخل البناء ويظهر هذا التقارب بوضوح عند من يشغلون مركز متباينة بالنسق نظراً لتباين تأثير عمليات التنشئة الاجتماعية واختلاف تأثيرات الموقف واختلاف نتائج التفاعل بين أعضاء النسق.

واستناداً لهذه الأسباب أوضح بارسونز أن أعضاء البناء الواحد لا يتوحدون قيماً متماثلة ولا يجمع بينهم توقعات للأدوار متطابقة لاختلاف الموقف وتباين قدرات الأفراد على التوحد مع الموضوعات الثقافية بيد أن تباين بناء الشخصية داخل البناء للذين يشغلون نفس المراكز بالبناء ليس مسألة صدفة فهذا التباين يقدم لنا التبريرات الأساسية لتحديد العلاقة بين البناء الاجتماعي والشخصية وتأكيد عملية التداخل.

٩- تعريف هونجمان وزالف لنتون

يعبر موقف كل من هونجمان ولنتون عن وجهة النظر الأنثروبولوجية في دراسة الشخصية. حيث يعرف هونجمان الشخصية بقوله:

"إن الشخصية إلى حد كبير نتاج الأفعال المتوقعة وإيحاءات".

"الآخرين التي ترى وتدرك عند التواجد في مواقف التفاعل".

إن الأنماط الشخصية عند هونجمان تكون جزءاً من الأنماط السلوكية الاجتماعية المعيارية. ويهتم هذا الاتجاه بدراسة الفرد. وتطوره الاجتماعي في بيئة ثقافية معينة وكيفية ارتباط الشخصية بأنماط السلوك الاجتماعي المتفق عليها وتحليل نتائج السلوك السائد في الجماعة. وتساعد هذه الدراسة الأنثروبولوجية على إدراك الأنماط الثقافية السائدة، ومن جهة أخرى فإن الأنثروبولوجي في دراسته للشخصية كشف الغطاء عن السلوك الاجتماعي وحاول أن يبين كيف تنتشر الثقافة على مستوى الأفكار والمشاعر وأفعال الفرد وإن كان قد أغفل البحث في الأسباب التي تدعو إلى ذلك كله.

ومن تعريف الشخصية الأخرى عند الأنثروبولوجيين تعريف رالف لنتون الذي يعرف الشخصية بأنها اصطلاح يستعمل للدلالة على كافة الصفات العقلية للفرد. أي مجموعة القدرات العقلية ومدركاته وأفكاره وعاداته والاستجابات العاطفية الشرطية. ويتبين لنا من الفقرة الأخيرة من هذا التعريف (الاستجابات العاطفية الشرطية)، إن ثمة علاقة بين شكل الشخصية وثقافة المجتمع الذي تنتمي إليه وهو ما قرره لنتون صراحة وذلك أن الثقافة توجد في عقول أفراد المجتمع وتستمد الثقافة صفاتها من شخصيات أفراد المجتمعات وتفاعلهم سوياً.

وباختصار يمكن القول بأن معظم الدراسات الأنثروبولوجية قد اتفقت على بعض النتائج العامة أهمها :

أولاً – اختلاف أنماط الشخصية باختلاف الثقافات.

ثانياً – وجود اختلافات فردية مقبولة في الشخصية نتيجة لاختلاف القدرات الفطرية.

ثالثاً – إن الشخصية القومية قلما تتغير.

رابعاً – أهمية أساليب التربية في تكوين الشخصية حسب الأنماط الثقافية السائدة.

خامساً – إن الكثير من أوجه الاختلاف في الشخصيات وأيضاً الكثير من أنماط الشخصيات تتكرر في كل المجتمعات.

سادساً – إن الشخصية ذات أبعاد ثلاثة :

بعد اجتماعي بعد نفسي بعد فسيولوجي

ولسنا هنا بحاجة إلى سرد مختلف التعريفات أو التطورات المتعددة لدراسة الشخصية ونكتفي هنا بأن نوضح أن ثمة تعارض بين الاتجاه النفسي أو السيكولوجي لدراسة الشخصية وبين الاتجاه الاجتماعي أن الاتجاه الاجتماعي يخفض فكلما اتضح لنا من العرض السابق يخفض من شأنه الفرد ويسلبه قدراته ويلغي قيمه والدوافع الفردية، بينما يعلي من قيمة الأنظمة الاجتماعية ويعطيها حق القهر والإلزام. أما الاتجاه النفسي الفرويدي فيعلي من قيمة الفرد ويطلق العنان للدوافع الفردية في توجيه السلوك ويسلب المجتمع قيمته.

أما المدرسة المعاصرة في علم الاجتماع عند باسونز وتلاميذه فكانت أكثر قرباً إلى الواقع. وقد رفضت الشخصية تصوراً اجتماعياً بحتاً يحمل صفات الظواهر الاجتماعية كما رفضت اعتبار الشخصية تنظيماً يوجد منعزلاً واعتبرت الشخصية نسقاً نفسياً يوجد أثناء علاقة التفاعل مع البناء الاجتماعي ولا يوجد أحدهما مستقلاً عن الآخر.

لذلك ذهب بارسونز إلى أنه من الصالح أن نوفق بين حاجات الفرد ومطالب المجتمع وأن نربط بين الشخصية والبناء الاجتماعي وأن نؤكد التفاعل بينهما في الموقف، بالإضافة إلى الثقافة لتحديد الفعل وهذا التفاعل بين الشخصية والبناء لا يؤدي إلى ذوبان العناصر الاجتماعية في الشخصية أو فناء الشخصية داخل البناء الاجتماعي، بل له درجة عالية من الاستقلال في مواجهة البناء الاجتماعي داخل الموقف، ولا يتحقق وجود شخصية إلا بوجود البناء الاجتماعي ولن يتحقق وجود البناء إلا بوجود الشخصية.

ومما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من اختلاف وجهات النظر هذه على النحو الذي قدمناه فإن ثمة مبادئ أو اعتبارات عامة قد تلقي بعض الضوء على طبيعة الشخصية وخصائصها على الأقل بالنسبة لكل مبتدئ لدراستها أهمها :

١- يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية في أنه له ذات أو "أنا" يشعر بها ويمكن تعريف الذات بأنها وعي الفرد بالآخرين وإدراكه لما بينهم وبينه من اختلاف أو هي ذلك الشعور الذي يعبر عنه باللفظ (أنا) في مقابل اللفظ (هو) أو هي أو هم أو هن.

٢- كثيراً ما يستخدم مصطلح الشخصية بطريقة توحي بأنه يرادف مصطلح الذات وذلك على اعتبار أن كلاً منهما نتاج أو محصلة لعملية التنشئة الاجتماعية غير أن هذا الاستخدام إلى جانب ما يتضمنه من خلط واضح بين مجال الدراسة في علم النفس والاجتماع - من حيث أن الذات أو الآنية أقرب إلى علم النفس في مقابل الشخصية كموضوع له أهميته في الدراسات السوسيولوجية يتقبل منا بين الذات - والشخصية من اختلاف في المعنى والمضمون، فعلى العكس من الذات - وهي عبارة عن وعي الفرد بنفسه وبالآخرين - تشير الشخصية إلى كل ما هو مميز بالنسبة لشخص ما وذلك في حدود السمات والخصائص والسلوك والقيم. وربما كان ذلك ما يقصده جون كيوبر عندما يعرف الشخصية بأنها "المجموع الكلي لكل ما يلاحظ أو يمكن ملاحظته من خصائص لشخص ما بحيث لا تشير فقط إلى سمات فيزيقية بحتة، بل وأنها تشير إلى العادات والاتجاهات والقيم وأنماط التفاعل مع الآخرين".

٣- يتعين على كل دراسة للشخصية - على الأقل من المنظور السوسيولوجي - أن نفرق بين شعور الشخص بذاته أو وجدانه أي صورة الشخصية كما تبدو في مرآة الذات وبين الأثر الذي تتركه مجموعة الصفات والسمات الشخصية في شعور الآخرين ممن يلاحظون المظاهر السلوكية في الخارج ويحكمون عليها على صورة الشخصية كما تبدو في مرآة الغير. بعبارة أخرى يجب أن نفرق بين الشخصية الذاتية أو الآنية وبين الشخصية الموضوعية أو الخلق.

٤- ان التميز السابق بين الآنية والشخصية الموضوعية تميز تحليلي لأغراض البحث والدراسة فقط حيث لا نجد له ما يؤكده في الواقع للأفراد فالشعور بالآنية يتأثر بمايعتقده الآخرون عن الفرد كما أن صفات الشخصية

الموضوعية كثيراً ما تتغير أو تعدل نتيجة الشعور الذاتي للفرد وتحت تأثير الشخصية المثالية التي يتصورها الفرد أو يتطلع لتحقيقها في المستقبل.

٥- الشخصية ليست شيئاً يملكه البعض دون البعض الآخر، حيث لا يمكن القول بأن فلاناً به شخصية وإن آخر لا شخصية له فهذه كلها تعبيرات دارجة لا تستند على أساس علمي. كذلك لا تستقيم الدراسة العلمية للشخصية مع أحكام القيمة التي يصورها البعض فليست هناك شخصية حسنة وأخرى رديئة كما أنه ليس هناك شخصية قوية وأخرى ضعيفة وغير ذلك من أحكام تقييمية شائعة ودارجة.

٦- تتميز الشخصية من وجهة النظر العلمية ببعض الخصائص أهمها :

أ- الوجدانية : أي أنها تختلف من فرد لآخر رغم تشابه الأفراد في بعض جوانبها بحكم نشأتهم في بيئة اجتماعية وثقافية واحدة.

ب- التعبير الواقعي والحاضر لصفات الشخص الحالية والثابتة، فإن كان هناك فرد يتغير من يوم إلى يوم، فهذا يعتبر من صفات شخصيته القائمة وبالتالي يمكن التنبؤ بسلوكه من خلال هذه الصفات.

ج- الاكتساب : فهي لكونها تمثل علاقة دينامية بين الفرد وبيئته ليست مسألة غريزية فطرية، بل هي أمر كنتاج للتفاعل الاجتماعي فنحن نخلق لأنفسنا شخصياتنا بالمواقف التي نعيشها والمشاكل التي نواجهها ونقوم بحلها كما نغير من شخصياتنا تبعاً لتفاعلنا مع الآخرين.

د- ليست الشخصية سلوكاً ظاهرياً للفرد، بل هي استعداد للسلوك في مواقف مختلفة.

هذا الاستعداد يتكون مما يسمى بالعادات والسمات والخصائص والقيم والعواطف وما إليها. لذلك. فهي تمثل تنظيماً فريداً لاستعدادات الشخص في مواقف مختلفة أو هي تنظيم فريد ومتميز للأفكار والمعتقدات والاتجاهات والقيم والعادات التي تنظمها للفرد في شكل أدوار ومراكز يشغلها في تفاعله مع الغير ومع نفسه.

هـ- التكامل : فالسمات الشخصية لا توجد مستقلة بعضها عن بعض كما لا تؤثر في السلوك منفردة فالشخصية - كما أشرنا - تنظيم على نحو دينامي تبدو فيه كوحدة.

وكأي شكل من أشكال التنظيم تتعرض الشخصية للتغير أو التطور ولكنها تتغير كوحدة متكاملة حتى إذا ما فقدت عناصرها هذا التكامل اضطراب انتظامها وأصبحت في حالة مرضية غير سوية.

وربما كان هذا التكامل والتعقيد والتشابك بين عناصرها - على نحو ما قدمناه هو الذي يجعل محاولة قياس سمات الشخصية مهمة تكتنفها صعوبة جمة حيث لا يمكن قياس الشخصية ككل بل يمكن فقط قياس بعض مظاهرها أو قطاعات منها.

٤- بناء الشخصية

في الأجزاء الأولى أوضحنا كيف يمكن أن ندرس الثقافة على المستوى المجتمعي وتعمدنا أن يبتعد تحليلنا عن المنظور السيكولوجي لدراسة الثقافة، إلا أننا في هذه الأجزاء الأخيرة نحاول أن نوضح كيف ندرس الثقافة على المستوى الفردي. وذلك من خلال إلقاء الضوء على طبيعة العلاقة بين السلوك الفردي والسلوك الاجتماعي. وفي تصورنا أن هدفاً مثل هذا يتحقق من خلال مناقشتنا لموضوعين رئيسيين :

١- مدى وطبيعة التأثير الذي تمارسه عادات الفرد ومعتقداته ودوافعه ومشاعره على نظرته وتفسيره لمعايير مجتمعة ثم على تقبلها والامتثال لها. بعبارة أخرى كيف - وإلى أي مدى - يؤثر بناء الشخصية في قيام الفرد بدوره وفي استجابته لأنساق الضبط الاجتماعي - هذا من ناحية.

٢- ومن ناحية أخرى، مدى وطبيعة التأثير الذي تمارسه الجماعة التي ينتمي لها الفرد بما لها من خصائص ثقافية واجتماعية على تكوين شخصيته. بعبارة أخرى إلى أي مدى تحدد هذه الجماعة ما سيصير إليه الفرد.

ويرتبط الموضوع الأول بما يعرف ببناء الشخصية وتنظيمها بينما يدور الموضوع الثاني بمسائل التنشئة الاجتماعية، ونظراً لما للموضوع الأخير من أهمية خاصة سنحاول أن نفرد له جزءاً مستقلاً لنركز هنا على تحليل بناء الشخصية وسبيلنا إلى ذلك هو توضيح الخصائص المميزة والعامة للشخصية الإنسانية من ناحية ثم تبيان ما تلعبه العمليات الاجتماعية من دور فى تطور بناء الشخصية.

أولاً : بناء الشخصية

تيسر ملاحظة كيف يستجيب الفرد لبيئته من عملية فهم أو استدلال مختلف التصورات التى تحدد العناصر المنظمة والنمطية فى سلوكه ومن أكثر التصورات استخداماً وذيوعاً فى تحليل بناء الشخصية والتى سنركز عليها نجد :

- الدافعية.
- البناء الإدراكى.
- بناء العادة.
- صيغ السمات.
- الميول المكتسبة.
- العمليات اللاشعورية.

وسنحاول فيما يلى أن نناقش بعض هذه التصورات وأكثرها ارتباطاً بموضوعنا، وذلك على النحو التالى :

١ - الدافعية

من المؤكد أن المصادر الأساسية والجوهرية للدافعية تكون نتاجاً للطبيعة العضوية لدى الفرد. حيث تتعدد حاجاته البيولوجية كالحاجة إلى الطعام والماء والهواء تلك الحاجات التى يجب إشباعها ضماناً لبقائه حتى أنه إذا فشل أو حرم من إشباعها - ولو بصفة مؤقتة - اختلفت وظائف الجهاز العضوى وعندئذ عجز عن أن يبقى على ذاته أو نوعه.

وعلى أي حال فإن هناك مجموعة دوافع أو حاجات أساسية عند الإنسان هي التي توجه سلوكه أهمها الحاجة إلى الطعام والشراب والحاجة الجنسية ودوافع الأمومة والهرب وحب الاستطلاع . . . الخ.

على أن ما يهمنا في هذا المقام الأسس التي تقوم عليها الدوافع أو المبادئ التي تؤثر في الدافعية عند الإنسان وأهمها - كما يشير إلى ذلك دكتور سعد جلال في كتابه المرجع إلى علم النفس - مما يلي :

أ- مبدأ الطاقة والنشاط

تؤدي الدافعية إلى القيام بحركات جسمانية وذلك بمد عضلات الجسم بالطاقة وتفريغ شحنة هذا النشاط بالاستثارة الجسمانية من البيئة الخارجية أو من داخل الكائن الحي : فقابض عضلات المعدة أثناء الجوع استثارة داخلية وتغير كيمياء الدم في حالة التعب استثارة داخلية أيضاً، كما قد يكون المثير موقفا من المواقف الاجتماعية المعقدة.

ب- مبدأ الغرضية

تؤدي الدوافع إلى توجيه السلوك نحو غرض أو هدف فالكائن الحي يسعى دائماً للحصول على الطعام والماء والشريك الجنسي والماء، والصيت وما إلى ذلك.

جـ- مبدأ التوازن

وهذا المبدأ من مبادئ علم وظائف الأعضاء ويقصد به أن الكائن الحي لديه الاستعداد لأن يحتفظ بحالة عضوية ثابتة متوازنة، فإذ تغير هذا الاتزان حاول الجسم استعادته فحرارة الإنسان العادية ثابتة في الجسم السليم عند درجة ٣٧ درجة مئوية ويحتفظ بالجسم بدرجة حرارته حول هذا المعدل مهما اختلفت حرارة الجو من أعلى درجات الحرارة إلى أدنى درجات البرودة. وعملية حفظ التوازن الفسيولوجي هذه تتم آلياً وينظمها الجسم بنفسه إلا أن الإنسان كثيراً ما يساعد على حفظ هذا التوازن وإعادته وإذا اختل فلكي يحتفظ بدرجة حرارته عند ٣٧° م يشرب المرطبات في الحر ليساعد عملية إفراز العرق

ويلبس الملابس الخفيفة وفي البرد يلبس الملابس الثقيلة ويجلس بجوار المدفأة.

د- مبدأ الحتمية الديناميكية

ومعنى هذا أن كل سلوك له أسباب توجد في الدوافع ومن هذه الدوافع ما هو فسيولوجي في أصله كالحاجة إلى الطعام والحاجة إلى الماء ومنها ما هو مكتسب متعلم والدوافع المكتسبة وإن كانت أصلاً تقوم على دوافع فسيولوجية إلا أنها استقلت عنها وأصبحت لها قوتها الدافعة الخاصة بها. كما أن من الدوافع ما هو شعوري وما هو لا شعوري.

هـ- الحاجة والدوافع والمشبع (الحافز)

تؤدي الحاجة إلى استثارة الدافع والدوافع ما هي إلا حالة تؤدي إلى عدم استقرار الكائن الحي فيقوم بنشاط تأهبي وكلا الحاجة والدوافع في داخل الكائن الحي واستثارة الحاجة والدوافع تؤدي إلى البحث عن مشبع (حافز)، هذا الحافز موجود في الخارج في البيئة ويؤدي إلى إشباع الحاجة ولتخفيف من الدافع عن طريق النشاط الاستهلاكي.

و- مبدأ جاذبية الحوافز (المشبعات)

يتميز الحافظ أنه يشبع الحاجة ويخفف من حدة الدافع، إلا أن الحوافز تتميز كما بين ليفين بأنه لها جاذبية، هذه الجاذبية إما إيجابية أو سلبية، والعلاقة بين الحوافز والدوافع تتميز بالآتي :

١- إذا كان للحافز (المشبع) جاذبية إيجابية فإدراكه قد يؤدي إلى استثارة دافع كامن أو زيادة حدة دافع مستثار فعلاً إذ يحدث في كثير من الأحيان أن يكون الإنسان شبعاناً إلا أنه يحس بالقابلية للأكل عند رؤيته طعاماً شهياً.

٢- إذا كان للحافز (المشبع) جاذبية إيجابية، فالدافع لا يتطلب إلا هذا المشبع لإشباعه . . . . فالطفل الذي يريد "الجيلاتي" لا يشبع دافعه أن تستبدل

"بالجيلاتي" قطعة من السكر، والطفل الذي يريد حذاء أحمر لا ترضيه الاستعاضة عنه بحذاء أسود.

٣- قد يكون للحافظ جاذبية إيجابية وسلبية في الوقت نفسه كالدواء المر الذي يشفي الداء رغم مرارته فالدواء هنا له جاذبيتان إحداهما سلبية والأخرى إيجابية.

٤- تتوقف جاذبية الحافز (المشبع) على التخفيف من حدة الدافع إلا أن هذا لا يتأتى دائماً. فكثير من الناس مثلاً يأكلون دون وجود دافع الجوع.

ز- وأخيراً يجب ملاحظة أن الدافع ليس شيئاً مادياً يمكن رؤيته مباشرة، إنما هو حالة للكائن الحي. يستحسن تسميتها بالدافعية يستنتج وجودها من أنماط السلوك المختلفة ومن نشاط الكائن الحي نفسه ليس معنى هذا أن الدافعية هي نمط السلوك الذي نلاحظه، إنما هي حالة وراء هذا النمط . . أي أنها الحالة التي توجد السلوك وليست السلوك نفسه. وبهذا قد تتكون عدة متنوعات من أنماط السلوك مبعثها حالة دافعية واحدة. وتقييم الدافعية إلى دوافع مختلفة لا يعني أن هذه الدوافع تختلف بعضها عن بعض في أنها حالة توتر تبعث الكائن الحي إلى نشاط . . . فالدوافع المختلفة ما هي إلا تمييز لمظاهر هذه الحالة.

ح- قد يكون هناك أساس فطري لبعض الدوافع والحالات الانفعالية ونميل إلى عدم تسميتها بالغريزة. لانها استعدادات تتاثر إلى حد كبير بالتعلم كما أن للعوامل الفسيولوجية أثر كبير فيها مما يدعونا إلى التردد في أن نطلق عليها أنها غريزة.

٢- البناء الإدراكي أو المعرفي

يعمل الإنسان ويسلك تبعاً لأفكاره وأعماله كلها موجها بفكره واعتقاداته وتوقعاته مهما بدأ سلوك الناس أو الشعوب أو القبائل شاذاً في نظر البعض فإنه في نظر السالكين معقولاً ومتفقاً مع وجهة نظرهم عن العالم، ويحاول كل إنسان خلال العمل المعرفي أن يبني لنفسه عالماً معقولاً يصف فيه الأشياء المختلفة

المتعددة ومن أهمها الناس الآخرون ويفهمنا لكيفية تكوين الأفكار - أو التصورات عن الأشياء وعن الناس ويفهمنا للمبادئ التى تحكم تفاعل وتطور ونمو هذه الأفكار - أو التصورات عن الأشياء وعن الناس ويفهمنا للمبادئ التى تحكم تفاعل وتطور ونمو هذه الأفكار فإننا بذلك نكون قد خطونا الخطوة الأولى نحو فهم سلوك الإنسان داخل عالمه المعرفى المخصوص. ذلك لأن استجابات الفرد وردود أفعاله للأشياء وللأشخاص تتشكل طبقاً لإدراكه لنظراتهم إليه أى طبقاً لعالمه المعرفى وخريطة العالم المعرفى لكل شخص تعتبر فردية وليس هناك اثنان يعيشان عالماً معرفياً واحداً.

وغالباً ما نعتقد أن تصورنا للعالم هو التصور الوحيد الممكن وأنه ينبغى على الآخرين أن يروا العالم بنفس الطريقة التى نرى بها - وهذا الاعتقاد الذاتى يعوق محاولاتنا لفهم سلوك الآخرين، فالسلوك الاجتماعى لشخص ما متأثر بتصوره لعالمه الذى يسلكه وبوجهة نظره الخاصة المميزة وبدون الفهم الدقيق للعالم المعرفى للشخص المعين فإن سلوكه قد يبدو شاذاً وغير مفهوم فلكل شخص تصوره الفردى للعالم وهذا التصور نتاج للعوامل المحددة الآتية :

١- البيئة الطبيعية والاجتماعية للشخص.

٢- بناؤه الجسمى.

٣- حاجاته وأهدافه.

٤- تجاربه وخبراته الماضية.

وتعتمد كيفية إدراك الفرد للعالم أولاً على طبيعة البيئات الطبيعية والاجتماعية التى تحيط به فتصور العالم فى نظر سكان القرى البسيطة أو فى نظر سكان المناطق الجبلية يختلف باختلاف بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية، بل إن مختلف أعضاء الأسرة الواحدة سوف يختلفون فى إدراكهم لمعاملة أصدقائهم وشركائهم وذلك الاختلاف يعتمد على سنهم وجنسهم ومركزهم فى الأسرة . . . الخ، وهم سوف يبحثون عن بيئات مختلفة من الأشخاص والكتب والأشياء الثقافية الأخرى وذلك فى محاولة لإشباع حاجاتهم ولكل شىء فما

يراه الإنسان من الخارج من بين الأشياء التي يمكن أن ترى وكيفية رؤيته لهذه الاشياء محددة جزئيا بتركيبه الفسيولوجي والاختلافات الفردية في الطاقات الحسية وفي القدرات العقلية بعكس الاختلافات الفسيولوجية ومعارف الشخص المحدد الذكاء تكون في العادة أقل تعقيداً وأقل تكاملا عن معارف الشخص الأكثر ذكاء ولكن ذلك ليس كل شيء.

والحقيقة أن كل شيء ينمي مجموعة من الحاجات والأهداف التي تختص به والتي تختلف عن حاجات وأهداف الأشخاص الآخرين وسوف نرى في الفصل الذي نحن بصدده الآن كيف أن إدراك الفرد للعالم يتحدد جزئياً بحدود حاجاته وأهدافه ولكن ذلك أيضاً ليس هو كل شيء.

فالتاريخ النفسي للفرد والذي هو سجل الخبرات الماضية يعتبر وحدة فريدة خاصة به ونحن نعلم أن محتوى تصور الفرد للعالم يتشكل تبعاً لخبراته الماضية وعلى الرغم من أنه لا يوجد شخصان يتفقان تماماً في إدراكهم للعالم فإن هناك ملامح عامة في تصور العالم مشتركة بين الناس جميعاً، وهذه الحقيقة ترجع إلى ان الناس جميعا لهم نظام عصبي متشابه ولأن جميع الناس يشتركون في حاجات معينة ولأن كل الناس ينبغي أن يواجهوا معاً مشكلات عامة معينة وعوالم المعرفة بالنسبة لأعضاء الجماعة الثقافية المعينة تتشابه إلى حد كبير وذلك بسبب التشابه الكبير في حاجاتهم وأهدافهم في بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية التي يترددون فيها بسبب التشابه في خبراتهم التعليمية.

وإذا كان ذلك فإنه يمكن أن نقرر أن معارف الفرد وإدراكاته تنتظم بطريقة انتقائية وذلك استناداً إلى بعض الاعتبارات أهمها :

أولاً : إن الفرد يرى الأشياء منظمة من الأرض والأبنية والناس ومن حيث الرؤية البصرية. فإن الشيء المرئي يمكن وصفه فقط على أنه مركز لا حزمة من الضوء ذات موجات طويلة مختلفة ولكن المدرك لهذا الشيء لا يراه على أنه مجرد تجمع من الاحساسات الملونة التي تتداخل في بعضها من غير أن تكون شكلاً محدداً، فالمدرك يرى شيئاً له لون وشكل وجسم أو صلابة ويتعرف عليه

كشيء ذي معنى كامل – كقطعة من الأرض أو كمبنى أو كشخص ويحدث كل هذا سريعاً دون جهد شعوري.

ثانياً – من بين الكثير من الأشياء في البيئة المادية للفرد يلاحظ أن أشياء معينة هي التي تدخل في إطار معرفته. أما بقية الأشياء الأخرى فلا تدخل ضمن هذه المعرفة لأنها لا تصل إلى إدراكه مطلقاً أو لأنها تلعب دوراً ضئيلاً لا يسترعي انتباهه.

ثالثاً – من بين الخصائص الكثيرة للأشياء يرى الفرد أو يدرك خصائص أو خاصية معينة وحتى هذه الخصائص المعينة قد يعاد تشكيلها أو تغييرها لتلائم متطلبات الفرد الذي يقوم بعملية الإدراك فالخريطة المعرفية للفرد ليست تصويراً فوتوغرافياً للعالم المادي ولكنها إلى حد ما تركيب شخصي به أشياء معينة منتقاة بواسطة الفرد لتؤدي دوراً رئيسياً وإدراكها يتم بطريقة الفرد وأسلوبه الخاص وكل شخص مدرك ليس مصوراً يصور الواقع كما هو. ولكنه رسام يعرض صورة للعالم معبرة عن وجهة نظره الفردية عن إدراكه الفردي لهذا الواقع.

وكل تنظيم معرفي له نوعان من العوامل المحددة : عوامل المثير والعوامل الشخصية وعوامل المثير هي التي تصدر عن طبيعة البيئة الخارجية للشيء المثير والعوامل الشخصية هي التي تعتبر نتيجة لخصائص الشخص المدرك.

أ- الانتقاء المعرفي وعوامل المثير

إن الخلفية المعرفية عن التجربة المعملية للإدراك توضح أن مثيراً واحداً يؤثر في الانتقاء المعرفي فالنقطة الواحدة الحمراء وسط عدة نقاط سوداء سوف تثبت في مخيلة المدرك. وكذلك الزنجي الوحيد وسط مجموعة من البيض سوف يكون واضحا تاماً، وهناك عوامل مثيرة أخرى تحدد عملية الانتقاء المعرفي ومنها التكرار فالشعار الذي يتوالى تكراره يستولي على انتباه الفرد بدرجة أكبر من ذلك الذي لا يتوالى ترديده. ومنها الحدة فالصيحة العالية تجذب اكثر من الصوت العادي، ومنها الحركة والتغير فإشارة الضوء المتحركة

تجذب الانتباه ومنها التعدد فكلما كان هناك عدد أكبر من الأشياء كلما كانت هناك الفرصة أكبر لعملية الانتقاء.

وعوامل الإثارة المستخدمة في خلق وترويج المعلومات الدعائية والثقافية تعتبر ذات أهمية كبيرة في تحديد المعارف التي سوف تصبح جزءاً من خبرات السامعين، وفي محاولتنا لخلق وتصميم مواد دعائية وتثقيفية لجمهور معين فإنه لابد من الاهتمام بعوامل الإثارة وعدم إهمالها كما يجب ألا يطغى الاهتمام بالعوامل الشخصية التي يختص بها جمهور السامعين على عوامل الإثارة.

ب- الانتقاء المعرفي وعوامل الشخصية

تعضد الدراسات التجريبية ثلاثة استنتاجات تتعلق بعملية الانتقاء المعرفي وأثر العوامل الشخصية فيها وهذه الاستنتاجات الثلاثة هي :

١- العوامل الشخصية تحدد عدد الأشياء التي يمكن إدراجها في لحظة واحدة وهي المدة التي تتم فيها عملية الإدراك.

٢- العوامل الشخصية تزيد من حساسية الميكانيكية والإدراكية لدى الفرد أو تقلل من مبادرته في التعرف والانتباه إلى الأشياء المثيرة الملائمة وإلى مظاهر هذه الأشياء.

٣- قد تشوه العوامل الشخصية المعارف الخاصة بالأشياء وذلك لكي تتفق هذه الأشياء مع حاجات الفرد ومتطلباته.

٣- صيغ السمات

من الصعب وصف الشخصية بإرجاعها إلى نموذج واحد معين لأن الشخصية لا تتميز بصفة واحدة فقط، بل قد يغلب عليها في الحقيقة صفة أو أكثر وهذه الصفات الغالبة أو المسيطرة تعرف باسم "السمة" ومن ثم يصبح من الضروري إحصاء جميع الصفات أو السمات التي تميز شخصاً ما عن غيره وباختصار يمكن اعتبار الصفة التي تعين أو تحدد النموذج العام للشخصية كالانبساط أو الانطواء مثلا إحدى السمات التي يتصف بها الشخص لأنها تكون صفة غالبة في توجيه السلوك.

والسمات في الواقع لها وجود حقيقي ولكن ظهورها في السلوك يعتمد دائماً على مبلغ ثبات تصور الذات ومن الواضح أن اصطلاح السمة لا يشير إلى شيء دائم أو غير متغير في ذاته، بل أنه يشير إلى ميل للفعل في الحدود التي تصور الشخص نفسه فيها والشخصية إذن وحدة مقوماتها من الأهداف التي يحاول الفرد الوصول إليها. أو بمعنى آخر فإن كل فعل يعتبر جزءاً متكاملاً من نسق شخصي ولا يمكن أن يفهم تماماً إلا في ضوء اصطلاحات هذا النص ويلاحظ أن سمات معينة في أي شخصية يمكن أن يكون لها وجود حقيقي إذا فهمت على أنها تميل إلى مقاومة التغير إذا تغيرت الظروف الخارجية أو المواقف، ولكن الوجود الواقعي للسمة يجب تقديره على أساس مضمون التصور وعلى أساس مضمون الوحدة التي تناضل الذات بالذات من أجلها.

وليس معنى هذا أن سمات الشخصية غير قابلة للتغير بصورة أو بأخرى ولكنها تتغير في الواقع في بعض المواقف الحاسمة وخاصة عندما يتعرض الفرد لضغط أو لظروف لا قبل له بها تضطره إلى التخلي عن مقومات شخصيته، وبالتالي يجب عليه ليواجه الموقف الجديد أن يتخلى عن بعض سماته والتخلي هنا لا يحمل معنى التفكك وإنما يشير إلى المرونة التي تتميز بها الشخصية في مواجهة المواقف المتغيرة.

وهناك من غير شك اختلافات فردية في هذا النطاق أي أنه لا يلزم أن تتغير السمات كقاعدة عند كل الأشخاص عندما يتعرضون لمواقف حاسمة أو لخبرات طارئة أو قاسية ويلاحظ عدد من علماء النفس بهذا الصدد أن بعض الأشخاص يظهرون مقاومة شديدة قد تصل إلى حد العناد فلا يغيرون سماتهم إلا اذا تعرضوا لنفس الموقف الحاسم عدة مرات متتالية، بينما يغير أشخاص آخرون سماتهم هذه عند التعرض لموقف حاسم واحد.

وفي دراستنا لهذا المفهوم سنركز على الجانب الاجتماعي فقط، أي على جانب تفاعل الفرد مع الآخرين. فالمعروف أن كل فرد منا يستطيع – من خلال الفرص المتاحة ومن خلال الوارثة المحدودة وخلال الخبرة الشخصية – أن ينمي مجموعة متميزة من التصرفات الدائمة أثناء استجابته للآخرين بطريقته

الشخصية. فقد يرى فرد ما أن كل جيرانه أعداءاً له ومن ثم يصبح حذراً متشككاً متردداً في علاقاته معهم، وقد يتصور شخص آخر نفسه محاطاً بالأصدقاء، ومن ثم يكون حراً طليقاً في تفاعله الاجتماعي معهم. وهذه التصرفات الدائمة تسمى بسمات الاستجابة الشخصية المتبادلة هذه السمات تساعدنا في الحقيقة في وصف الإنسان الاجتماعي وفي فهم سلوكه، بل وفي التنبؤ بأفعاله.

ونحن لكي نفهم تفصيلاً أهمية الدافعية والمعرفة أو البناء الإدراكي في ضبط السلوك الاجتماعي وتوجيهه لابد لنا من أن نضع في الاعتبار ما يحدث للفرد عندما يستجيب لعالمه الذي يعيش فيه، وفي التطور الزمني لحاجات الإنسان. ذلك لأن الظروف التي أثارت هذه الحاجات ثم طرق إشباعها وإحباطها قد تترك آثار عميقة لدى الفرد. ومن ثم يصبح من الضروري تلقي مزيداً من الضوء على هذه الآثار التي تلعب بدورها دوراً هاماً في استجابة الفرد للآخرين.

واعتقد أننا بذلك نكون قد أكملنا دائرة البحث حيث ناقشنا في مفهوم الدافعية حاجات الإنسان الأساسية وأوضحنا في مناقشتنا للبناء المعرفي أو الإدراكي كيف يعرف الإنسان بأحواله وهنا لنوضح كيف أن المعرفة والحاجات تساعد على أن تحديد ملامح وسمات استجابته الشخصية عند تفاعله مع غيره. فالمعروف أن السلوك الاجتماعي للفرد يتم من خلال سماته التفاعلية مع الغير، والتي هي نوع من الاستعدادات الثابتة نسبياً وذات الملامح المميزة لإستجابته وفي أي مجتمع ينمي كل شخص نمطا مميزاً لملامح استجاباته الشخصية التي تميز سلوكه الاجتماعي. هذه الملامح والسمات تتكون من طابع أو مزاج معين للاستجابة تساعد الفرد على أن يتصرف في المواقف الاجتماعية المختلفة. وكمبدأ يمكن القول أن نمط السمات الشخصية الخاصة بالفرد إنما هو نتيجة للعوامل الجسمية ولنمو الفرد في إطار محدد في بيئة اجتماعية ونتيجة لتاريخه الطويل من خبرات النجاح والفشل في إشباع حاجاته.

وبالإشارة إلى تنظيم الاستجابة المتبادلة كسمة العدوان نؤكد أن هذه السمة العدوانية إنما تصف شيئاً مميزاً عن الفرد، ومن الواضح أن السلوك

العدوانى إنما يعتمد إلى حد ما على طبيعة كل موقف على حدة، فبعض هذه المواقف يميل إلى إثارة السلوك العدوانى، وسوف يظهر كل فرد السلوك العدوانى تجاهها ولكن بدرجات مختلفة، ولكن النقطة الهامة هى أن بعض الأفراد يظهرون في موقف معين سلوكاً عدوانياً أكثر مما يظهره غيره فى نفس الموقف وربما يظهرون سلوكاً عدوانياً فى عدد كبير من المواقف أكثر من غيرهم أيضاً. وهكذا نصل إلى أن مثل هذا السلوك المميز إنما هو تعبير عن سمة العدوان فى الفرد.

وجدير بالذكر أنه قد بذلت عدة محاولات لتحديد السمات الأولية للاستجابة الشخصية المتبادلة نستطيع أن نصف ما حددته من سمات فى ثلاثة أقسام أساسية لكل منها مؤثرات سلوكية التى تحدد طبيعتها هى :

١- سمات تتعلق بالدور واستعداداته

هى السمات التى تحدد الأسلوب الذى يؤدى به الفرد دوره فى علاقاته الاجتماعية مع الآخرين فى مواقف مختلفة وهى :

أ- التسامى أو السيادة

يمكن تعريفها بالجرأة الاجتماعية أو الثقة بالنفس فيها يدافع الفرد عن حقوقه ولا يهتم بالشهرة كما لا يتقبل الهزيمة يضع نفسه دائماً وباندفاع فى المقدمة. ونقيض التسامى أو السيادة هو الجبن الاجتماعى أو الخوف من الغير.

ب- السيطرة وعكسها الخضوع

وهى رغم ارتباطها بالتسامى إلا أنها تختلف عنها. فالشخص المتسامى لا يقوم بالضرورة بدور المسيطر على الآخرين ويتميز المسيطر بالتأكد من نفسه والثقة بالذات والميل للشدة والقسوة وقوة العزيمة وإصدار الأوامر وهو فوق هذا كله قائد يميل إلى الأسلوب المباشر.

جـ- المبادرة الاجتماعية

ونقيضها أن يكون الشخص مغموراً اجتماعياً والشخص الذى يتميز بسمة المبادرة يعتبر منظماً اجتماعياً، لا يبقى فى المؤخرة، وإنما يتطلع دائماً لمراكز القيادة فيبادر بتقديم الاقتراحات فى الاجتماعات ليسطو على مراكز القيادة.

د- الاستقلال أو الاكتفاء الذاتى

ونقيضها الاعتماد على الغير والشخص المستقل شخص يميل إلى أن يخطط لنفسه وإلى تأدية عمله بطريقته الخاصة لا يبحث عن تأييد أو مشورة من الغير.

٢- سمات تتعلق بالتفاعل مع الغير

وتعرف باسم استعدادات تكوين العلاقة الاجتماعية ومن أهمها :

أ- تقبل الآخرين

ونقيضها نبذ الآخرين والشخص المتقبل للغير لا يصرح بآرائه الناقدة التى تتعلق بتقويم الآخرين ويتصف بالصفح والثقة فى الغير يتغاضى عن النقائض ويركز على محاسن الآخرين.

ب- الاجتماعية

ونقيضها عدم الاجتماعية والشخص الذى يتسم بسمة الاجتماعية يشترك فى الخدمة العامة ويحب أن يكون مع الآخرين يقترب منهم بسهولة ويميل إلى الرحلات والأسفار.

جـ- المصادقة

ونقيضها عدم المصادقة، والمصادق شخص دافئ كريم صريح من السهل كسب صداقته، كثير العلاقات الاجتماعية مع الآخرين.

د- التعاطف

ونقيضها عدم التعاطف : والمتعاطف شخص يتميز باهتمامه بمشاعر الآخرين وحاجاتهم ويقررها كما يتميز بالمروءة والكرم.

ونستطيع أن نجمل هذه السمات مع بعضها البعض لنميز بين ثلاثة أنماط مختلفة في مجال التفاعل مع الغير هي :

١- الاتجاه نحو الغير.

٢- الاتجاه ضد الغير.

٣- الاتجاه بعيداً عن الغير.

الاتجاه نحو الغير

يظهر الفرد حاجة ملحة للعطف والتقبل وحاجة خاصة نحو شريك أو صديق أو حبيب أو امرأة تحقق له بعض توقعاته وآماله في الحياة ويأخذ دوراً إيجابيا ويتحمل المسئولية في الخير والشر إنه في حاجة إلى أن يحب وأن يريده الغير وأن يرغب فيه الآخرون وأن يشعر بالتقبل إليه وأنه فرد منهم في نظر الآخرين يساعدونه ويحمونه ويرشدونه.

الاتجاه ضد الغير

إنه يعيش في عالم شعاره البقاء للأصلح والقوى يمكنه أن يبيد الضعيف ولهذا فهو في حاجة إلى أن يتفوق على الغير وأن يحصل على النجاح تلو النجاح والمكانة والهيبة بأى شكل ولديه حاجة قوية إلى أن يدمر الغير ويبدهم ويستخدمهم في تحقيق أغراضه وفي كل موقف يتعامل مع الغير يضع لنفسه السؤال التالي ما الذى أستطيع أن أحصل عليه في هذه الحالة ؟

الاتجاه بعيداً عن الغير

يطبق على نفسه مبدأ ينص على أنه لا يجوز بأى حال من الأحوال أن يتعلق بشخص أيا كان أو بشيء مهما كان كي لا يصبح عبداً له كما أنه لديه حاجة شديدة إلى الخلوة والوحدة، فهو مثل نزيل الفندق يعلق على باب حجرته اليافطة التى تقول عدم الإزعاج، إنه في حاجة إلى الاعتماد الكلى على النفس، ولكن تحقيق ذلك يتم بتكيف سلبى. إنه يهدف إلى تجنب تأثير أو ضغط أو ارتباط أو أوامر من الغير. كما أنه لا يجب أن يلتزم بأى معايير أو قيم سائدة

في المجتمع، ولكنه سوف يتعايش مع هذه اللوائح والقوانين لتجنب أي نوع من الاصطدام مع الغير، ولكنه يرفضها جميعاً في داخل نفسه.

٣- سمات ترتبط بالتعبير عن الذات

وهي أيضاً تعكس نفسها في كل موقف يتفاعل فيه الشخص مع الآخرين، ومن أهمها :

أ- المنافسة

ونقيضها عدم المنافسة، والشخص المتنافس يرى في كل علاقة تنشأ مع الغير لوناً من التنافس ويعتبر الآخرون منافسون له ويجب أن ينتصر عليهم، كما أنه لا يميل إلى التعاون ويبالغ في الاعتداء بنفسه.

ب- العدوانية

ونقيضها عدم العدوانية والعدواني شخص يتسم بميله لمهاجمة الغير بطريق مباشر أو غير مباشر ويتميز بكراهيته للسلطة وبميله للشغب وبسلبية واضحة.

جـ- الحساسية الذاتية

ونقيضها الاتزان الاجتماعي والحساس شخص يتميز بالخجل عندما يدخل في أي علاقة مع الغير يتردد في المساهمة في مناقشات جماعية كما يخجل عند ملاحظة الآخرين له ويشعر بعدم الراحة إذا اختلف مع الآخرين.

د- الاستعراضية

ونقيضها إنكار الذات : والمستعرض شخص يبالغ في مظهره وسلوكه يبحث عن الشهرة والتصفيق ويتصرف في بعض الأحيان تصرفات شاذة ليجذب أنظار الغير له.

وتعتبر مدرسة التحليل النفسي أكثر المدارس اهتماماً وإضافة إلى موضوع الشخصية، حيث كانت أول من قدمت صورة واضحة عن مكونات الشخصية ووظيفتها وتفاعل بعضها مع البعض ونموها وتغيرها.

وفي مجال الاهتمام بدراسة بناء الشخصية وتناولت مدرسة التحليل النفسي الموضوع تناولاً جديداً لتقديم نظريتها المعروفة التي قدمها فرويد في كتابه "تفسير الأحلام" سنة ١٩٠٠ لأول مرة وعدلها بعد ذلك في كتاب "الأنا" و"الهي" سنة ١٩٢٣ في هذه النظرية يميز فرويد جوانب ثلاثة للشخصية هي :

١- إلهي

وهو يشير إلى كل ما هو فطري ولا إرادي ولا شعوري ويمثل من الناحية التاريخية صورة الجهاز النفسي بعد الميلاد مباشرة أو طبيعة الإنسان الحيوان التي تبعد تماماً عن الأخلاق والمعايير الاجتماعية والثقافية والتي يستجيب لمبدأ اللذة والاندفاع نحو إشباع الدوافع بأي صورة دون مراعاة لمنطق أو حدود لزمان أو مكان أو تقيد بقيم ومعايير.

٢- الأنا

وتنشأ تدريجياً بتمايز إلهي بعد اتصالها بالعالم الخارجي ويتميز نشاطها "بالشعور" كما تضم الإدراكات الخارجية والداخلية فهي مركز الشعور والإدراك والإدارة لأنها تهيمن على أفعال الفرد وتصرفاته ويسيطر عليها "مبدأ الواقع" في مقابل (مبدأ اللذة) في إلهي. ومن وظائف الأنا :

أ- العمل على توافق الشخصية مع البيئة والدفاع عنها بخفض توترها وتحقيق إمكانياتها لما تقوم به من توفيق بين حاجة الفرد ومقوماته والبيئة.

ب- التحكم في ما ينبغي إدراكه وفعله بتنظيم عملية الشعور والإدراك الحركي.

ج- تنسيق أوجه النشاط وتنظيم الدوافع تبعاً لأهميتها الزمنية لتؤجل بعض الدوافع والرغبات العاجلة لتظفر بلذة عاجة في مقابل آلام مؤقتة.

٣- الأنا الأعلى

وهي صورة معدلة من الأنا بعد تطابقها مع المقتضيات الخلقية والاجتماعية وبعد استبدال سلطة الوالدين بسلطة داخلية تشبه الرقيب النفسي أو الضمير الذي يرشد الفرد إلى ما يجب عمله وينهاه عما لا يجب عمله وهي

بعبارة أخرى جانب الشخصية الذى يمثل الثقافات الاجتماعية فى شخصية الفرد يتكون من خلال ما يكتسبه الطفل أو يتعلمه من أوامر ونواهى وتقاليد ومعتقدات لقنه إياها والداه وكل من له سلطة فى محيطه وممن يحبه أو يحترمه أو يخشاه ويخافه. لذلك فإن كانت إلهى تمثل كل ما هو موروث وفطرى تمثل الأنا الأعلى كل ما هو مكتسب من تأثيرات والديه من قيم اجتماعية وثقافية.

وباختصار فإن الأنا الأعلى هى من التكوين عبارة عن مجموعة من القيم والمعايير والمبادئ الخلقية التى يستخدمها الفرد فى الحكم على سلوكه ودوافعه ويهتدى بها فى التفكير، وأفكاره، وهى من حيث الوظيفة جانب ثالث من الشخصية يوجه وينتقد ويعاقب وهى ثالثاً من حيث هى قوة دافعة عبارة عن اتجاه لا شعورى مكتسب على أساس الحب والخوف والاحترام. وهى أخيراً من حيث علاقاتها بالجوانب الأخرى للشخصية على زيادة العبء على الأنا، بحيث تفرض عليها أن ترضى دوافعها لا تضر بصالح الفرد فى المجتمع ولا يترتب عليها غضب الضمير.

وليست الهى والأنا والأنا الأعلى بثلاثة ملكات مستقلة من الشخصية، بل هى ببساطة قوى ثلاث متصارعة تجعل من الشخصية فى نهاية الأمر ميداناً لصراع كثير من القوى والدوافع وميداناً يصارع فى نفس الوقت ميدان البيئة الاجتماعية والثقافية.

٥- العمليات الاجتماعية ودورها فى تطوير بناء الشخصية

أ- مراحل تكوين الذات أو الأنية

أشرنا إلى أن الشخصية بمعناها المتكامل تقتضى توفر الشعور بالذات أو الآنية وذكرنا أن هذا الشعور بالذات سمة إنسانية تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات وأنه حتى ولو افترضنا أن لبعض الحيوانات قدرة ما على الشعور بالذات. فإن هناك شرطاً آخر يؤكد افتقار الحيوان الشخصية بمعناها المتكامل ألا وهو افتقار الحيوان لتصور أو إدراك شخصية مثالية كغرض أسمى.

حقاً إن الحيوان يشترك مع الإنسان - مع بعض الفروق النوعية - في كثير من الوظائف والعمليات العقلية والنفسية إلا أن الإنسان يتميز بقدرته على تمثيل المستقبل البعيد وتصور المثل العليا.

بعبارة أخرى قد يكون للحيوان فردية بيولوجية تكتسب في بعض الحالات صيغة سيكولوجية. أما الإنسان فله فردية بيولوجية من حيث هو حيوان وله شخصية سيكولوجية من حيث هو فرد في مجتمع إنساني وعلى أية حال فإن حقيقة الآنية أو الذات لا تتضح إلا بمعرفة مراحل تكوينها.

وترجع مراحل التكوين الأولى للآنية إلى عهد الطفولة المبكرة حيث يكون الشخص عاجزاً عن إدراك نفسه كذات مميزة عن ما يحيط به من عوامل خارجية والشعور بالأنا لا ينشأ دفعة واحدة، بل هو محصلة تطور تدريجي يمر بمراحل ثلاثة هي :

المرحلة الأولى

وتعرف بمرحلة اللا تغاير وهي تستغرق الأربعة أو الخمسة شهور من حياة الفرد، حيث تكون الاستجابات مقيدة أو محددة بالحاجات العضوية فقط، بحيث لا يميز الطفل الرضيع بين جسمه وبين ما يحيط به من أشياء، كما لا يميز بين أجزاء جسمه فنراه يمص أصابع قدمه كما يمص أي شيء آخر ينبه فمه وهي مرحلة لا تغاير لأن الطفل فيها لا يشعر ولا يدرك بأي تمييز بينه وبين ما هو مغاير أو مختلف عنه.

المرحلة الثانية

وهي تبدأ بوجه عام بعد الشهر السادس تقريباً فيها تظهر بوادر وعلامات الحركات الإرادية، حيث يصبح الطفل قادراً على تحريك يديه تبعاً لمؤثرات حسية "البصرية بصفة خاصة"، ومن ثم تبدأ الفواصل الفيزيقية بين جسمه والعامل الخارجي وبالتدريج تظهر في شعوره لتتحول إلى احساسات باطنية ولو انها تدور بصفة أساسية حول عالم الجسم (فقط).

المرحلة الثالثة

وهي مرحلة تكوين "الأنا" النفسي بجانبه الاجتماعي والمعنوي. أما الجانب الاجتماعي من الأنا فيتكون من خلال اندماج الطفل في حياة اجتماعية تبدأ دائرتها في الاتساع تدريجياً بتقدمه في السن ولو أن الإدراك فيها يكون أقرب إلى الناحية العملية منه إلى الناحية الذهنية بمعنى أن الطفل يحيا حياته الاجتماعية أولاً ثم يفكر فيها ثانياً ليتخذها موضعاً لتأملاته، ومن العوامل الهامة في تكوين الأنا الاجتماعي معرفة غيره من الأفراد وتمثل "الأنا" بالآخرين. وهنا أيضاً تلعب زيادة عدد الأفعال التي يحاكيها الطفل دوراً واضحاً في زيادة قدرته على تصور ذاته من خلال ما يكتسبه من معرفة وخبرة عن طريق مشاهدة أفعال الآخرين، كما تلعب دوراً هاماً في هذه الصدد، وهنا يصبح اسمه الشخصي من بين مقومات آنيته ثم يعرف بعد ذلك اسم والديه وأخوته ليبدأ بالتدريج في تركيب الجمل المفيدة وما أن يبدأ في استخدام الضمائر "أنا" وهو، هي، هم، يستطيع أن يميز نفسه عن العالم المحيط به. أما الأنا المعنوي فيتأخر عن الطفل بعض الوقت عن الأنا الاجتماعي وظهوره متوقف على قدرة الطفل على تأمل نفسه وإدراكها كشيء خاص به أي قدرته على التمييز بين الكلام العادي والمألوف وبين التفكير كنوع من التأمل الباطني وأيضاً قدرته على إخفاء افكاره وخواطره ليعرف معنى السر وقوة الكذب . . . الخ.

ب- الشخصية كنتاج للتفاعل الاجتماعي

رأينا من عرض مراحل تكوين الذات أو الآنية كيف أنه بتكوين الأنا المعنوي بعد الأنا الاجتماعي تكتمل الشخصية الذاتية للفرد ليشعر في النهاية بأنه شخص له ذات واحدة متكاملة ومتميزة عن غيره ويلي بعد ذلك مراحل النضج العاطفي والاجتماعي والتي يوجه فيها نمو الشخصية في إطار اجتماعي وثقافي ويمكن لأغراض التحليل أن ننظر إلى الطفل حديث الولادة، كما لو كان كائناً عضوياً يمكن تشكيله في صورة أو أخرى من صور الشخصية وداخل حدود معينة. ذلك لأن الكائن البشري لا يدفع في سلوكه وبصفة أساسية بغرائز

أو عوامل بيولوجية فقط، بل إن ما يشترك فيه مع الحيوان من دوافع وحاجات بيولوجية وفطرية تطبع بطابع ثقافي معين. وهذا ما أشار إليه بيرنارد في كتابه "الغرائز" دراسة في علم النفس الاجتماعي، عندما يقرر أن ما يسمى بالغرائز الإنسانية هي في الحقيقة خصائص أو سمات مكتسبة عن طريق الثقافة.

وتبدأ عملية الدوافع الغريزية عند الطفل - كما سنرى فيما بعد - منذ اللحظة الأولى للميلاد، ولكن أهم من ذلك أن إدراك الطفل بالآخرين ينمو ويتطور من خلال تفاعله معهم وهذا أمر يرتبط باكتشاف أن الآخرين يتوقعون منه أنماط معينة من السلوك في مواقف معينة وما أن يبدأ الطفل بعد ذلك في أن ينظر إلى ذاته بطريقة موضوعية أي يسلك ويتصرف بالطريقة التي يعتقد أن الآخرون يتوقعونها منه عندئذ تبدأ الذات الاجتماعية عنده في الظهور، بعبارة أخرى عندما يتوقع الطفل نتائج تصرفاته وسلوكه وتنمو لديه الذات الاجتماعية يبدأ بذلك رحلة طويلة ويتحدد له مكاناً معيناً كعضو مقبول في تجمعه.

ويحدد بروم وسيلزنك ثلاثة طرق أساسية عن طريقها تخلق التنشئة الاجتماعية ما يعرف بالذات هي :

١- إن التنشئة الاجتماعية تخلق في الفرد ما يكون "تصوره لذاته" بمعنى أن يتمثل الفرد ويحدد نظره لذاته من ملاحظة اعتبار ومعاملة الآخرون له. لذلك قد ينمو لدى الفرد "صورة كريهة أو مؤذية" تنبثق عن الأحكام التي تصوره كشخص غير مرغوب فيه أو غير جدير أي شيء وعلى العكس من ذلك تنمو لديه صورة ناقصة أو مفيدة للذات تنبثق عن الأحكام التي يصورها الآخرون عنه على أنه "محبوب وطيب وجدير بما يستحقه".

٢- إن التنشئة الاجتماعية تخلق في الفرد "ذاتا مثالية" بمعنى أن يكتشف ما الذي يجب عليه أن يفعله ليضمن استحسان وتقدير الجماعة، ومن ثم تعمل الذات المثالية على دفع الفرد للامتثال للمعايير المجتمعية تحقيقاً لهذا الهدف.

٣- وتعمل التنشئة الاجتماعية أخيراً على خلق الذات عن طريق تطوير ما يعرف "بالأنا" ولذلك يمكن تعريف الأنا بأنها الوظيفة التكاملية والضابطة للذات. وهي بهذا المعنى الشائع أقرب بالضمير وهذا يعني أن الفرد إذا تقدم به العمر يطور لنفسه ضوابط لتحديد سلوكه وتوجيهه في اتجاه معين كما لو كان غيره من الأفراد يلاحظ سلوكه حتى وإن لم يخضع لملاحظة مباشرة وحقيقية من جانب الآخرين. فالفتاة التي تحافظ على عفتها والشاب الذي يتجنب الرذيلة دون خضوعهما لرقابة من والديهما أو الأقارب والأصدقاء يوضحان قدرة الذات على توجيه السلوك بالتمسك والامتثال لمعايير الجماعية وتلك هي أهم وظيفة للأنا.

ولأننا سنعالج هذا الموضوع على نحو أكثر إيضاحا عند دراستنا لموضوع التنشئة الاجتماعية نكتفي هنا بالإشارة إلى أهمية المرحلة الأخيرة في تكوين شخصية الفرد والمقصود بها مرحلة تكوين الأنا الاجتماعي والمعنوي أو الروحي لتلك الحقيقة التي أجمع عليها أشهر دارس للشخصية من أمثال شارلز كولي وهربرت ميد وسيجموند فرويد، حيث يجمع هؤلاء وآخرون غيرهم على أن كل دراسة للذات أو الآنية يجب أن تضع في الاعتبار ثلاث قضايا أساسية هي :

١- الطابع أو الأصل الاجتماعي للذات.

٢- إن تفسير الذات أو الأنا يتطلب وجود المجتمع.

٣- إن الوعي الفردي بالانا أو الذات ينشا من خلال التفاعل مع الآخرين.

ونحاول فيما يلي توضيحاً وتأكيداً لهذه القضايا الثلاثة أن نستعرض بشيء من الإيجاز لأهم المحاولات والنظريات التي بذلت أو صيغت لتوضيح العلاقة بين الطبيعة البشرية الفردية وبين البيئة الاجتماعية.

لقد ذكرنا في حديثنا عن مقومات الشخصية أن البيئة الاجتماعية مقوم أساسي من مقومات الشخصية بالمعنى الذي يتم من خلالها تحول الإنسان من "فرد" إلى "شخص" كما تضمن قولنا السابق التأكيد على الثقافة باعتبارها أكثر جوانب البيئة الاجتماعية أهمية في هذا الصدد، ورأينا أن أهمية الثقافة تكمن

في أنها تقدم لنا "كيف تكون" أو بعبارة أخرى تكمن في حقيقة أننا لسنا الإنتاج للثقافة التي تعلمناها أو التي نشأنا في إطارها. غير أن التحليل الدقيق ذاته يكشف عن أنها ليست سوى تجريد فهي تتكون من طرق عامة للتفكير والعمل يتعلمها أعضاء الجماعة. بعبارة أخرى ليست الثقافة في جوهرها سوى تجريد لسلوك الأشخاص. أما الحقائق الملموسة والمشخصة في البيئة الاجتماعية فتتمثل في الأشخاص وما يقومون به من سلوك.

ويتم اكتساب الثقافة عن طريق عملية التعليم التي تحدث بين الأشخاص، فالطفل يتعلم من والديه وأخواته وغيرهم ممن يشاركونه في بيئته الاجتماعية وهو يتعلم منهم تلك الأفكار والاتجاهات والقيم التي غرست في شخصياتهم كنتيجة لعملية مماثلة للتعلم قام بها نحوهم أشخاص آخرون في جماعاتهم. هكذا إذن تصبح عملية اكتساب الثقافة هي المنتجة النهائية لعمليات التفاعل بين الأشخاص.

ومن ناحية أخرى فإن تعريف الذات بأنها كل ما تشير إليه ألفاظ مثل أنا الفاعل أو الفردية وأنا المفعول والأنا الاجتماعية وذاتي يعني على الرغم من بساطته إن الذات عبارة عن الفرد كما هو معروف لنفسه كفرد. أو أنها هي ما يتصوره بطريقة شعورية أو لا شعورية أن يكون هو نفسه أو هي الناتج النهائي لإدراك الشخص لنفسه وبخاصة إدراكه لاتجاهاته نحو ذاته، وعند هذا الحد فإن القول بأن الطفل لا ذات له إنما يعني أنه في البداية لا يدرك نفسه كشيء منفصل ومتميز عن بيئته، إذ أنه لم يتكون لديه بعد اتجاهات نحو ذاته. ويتعلم الطفل بالتدريج كيف يميز بين الأشياء التي تكون إجراء جسمة من غيرها من الأشياء التي يراها أو يلمسها، عندئذ يستطيع أن يكون لنفسه اتجاهات نحو نفسه كذات أو كشخص.

غير أن عملية تمييز الفرد لذاته كشخص تتطلب قدراً من الخبرة بأشخاص آخرين فكما أن وعي الطفل أو إدراكه لأعضاء جسمه فيزيقياً يتطلب وعيه وإدراكه بالأشياء الفيزيقية الأخرى التي تحيط به كذلك فإن إدراكه لنفسه كذات يتطلب إدراكه لغيره من الأشخاص كذوات مختلفة.

ويثير قولنا السابق فكرة الذات الاجتماعية، تلك الفكرة التي ترددت في كتابات وليم جيمس ومارك بالدوين. في أوائل القرن التاسع عشر، والتي أدخلها شالز كولي إلى علم الاجتماع بعد دراسات طويلة استند فيها على ملاحظة سلوك أطفاله وانتهى إلى القول بأن فكرة الذات أو الأنا تظهر فقط في العلاقة بالآخرين حيث يقول :

"إن الأنا ذات طابع اجتماعي لأنها في جوهرها عبارة عن تأكيد"
"لإرادة، الذات في وسط اجتماعي يدركه المستحدث . . . . . ."
"إنها ببساطة عبارة عن تمييز لأفكار ذاتية أو شخصية تعبر عن . . . ."
"عن وعي ذاتي ووعي اجتماعي في نفس الوقت ويترتب على ذلك"
"إن فكرة الفرد عن نفسه لا يتحقق لها أى معنى ملموس"
"أو مشخص إلا بعد أن يعي الفرد بتجاربه أو خبراته مع الآخرين "
"واتجاهاتهم نحوه، وهنا يمكن القول أنه لما كانت اللغة هي"
"الوسيلة الرئيسية التي يتم من خلالها توصيل الاتجاهات فإن"
"تطوير الذات يبقى بالضرورة محدوداً حتى يتعلم الطفل لغة"
"مجتمعة".

١ - كولي ونظرية مرآة الذات

قدم شارلز هورتون كولي نظرية شهيرة حاول من خلالها أن يوضح نشأة الذات وتطورها خلال عملية التفاعل الاجتماعي بالآخرين أو الغير. فيها يرى أن تطور الذات الاجتماعية أو الشخصية الإنسانية بالمعنى الذي قدمناه من قبل (تكوين الأنا الاجتماعية) يبدأ في الحقيقة منذ مرحلة مبكرة من حياة الفرد، حيث نجد أن الجماعة الأولية ويمثلها الأسرة في هذه المرحلة المبكرة، تمثل مصدرا لخبرات او تجاوب ضرورية لظهور ما اسماه بالتصور الذاتي للطفل ثم يأتي بعد ذلك جماعة الأقران وجماعة المدرسة وغيرها من جماعات ينتمي إليها الفرد بالتدريج لتقدم له في النهاية سياقات اجتماعية إضافية (مواقف للتفاعل

الاجتماعي) من خلالها يستطيع الفرد أن يتطور وأن يستمر في هذا التطور ككائن اجتماعي.

ولقد استطاع كولي من خلال ملاحظته لسلوك أطفاله أن يخلص إلى أن هذه الأحداث البشرية وتعبيرات الوجه وغيرها من أنشطة تحيط بالطفل تمثل ظواهر جذابة للطفل في البيئة المحيطة به. وأنه من خلال تراكم الخبرات التفاعلية يبدأ الطفل في أن يتحسس معنى خاصاً للكائنات الإنسانية الأخرى، بحيث يستطيع أولاً وعلى نحو تدريجي أن يدرك حدود جسده هو ليحدد نفسه كشيء أو موضوع مختلف عن البيئة الطبيعية من حوله ومتميز عن ما يحيط به من كائنات إنسانية ومما يساعد على هذه العملية ما نستخدمه على مسمع من الطفل من كلمات أو عبارات فكلمة أنا مثلاً تشير إلى حد تعبيره إلى الطابع الاجتماعي للتحقق من الذات لأنها تشير وبطريقة أوتوماتيكية إلى وجود ما هو غير الأنا أي تشير إلى الغير كموضع للاعتبار.

ومنذ أن يستطيع الطفل أن يميز نفسه عن الآخرين فإنه يدرك تدريجياً أنه موضع أو محل تقييم من جانبهم وأنهم يحكمون على مظهره وسلوكه وفقاً لبعض قواعد أو مستويات محددة، تلك المستويات التي ينبغي على الفرد فهمها جيداً حتى يستطيع أن يشرع في تقييم نفسه كموضوع اجتماعي. وبطبيعة الحال لا يولد الطفل مزوداً بهذه القدرة ولكنها في الحقيقة أمر يكتسبه من خلال احتوائه في عمليات تفاعل معقدة مع جماعات تسودها هذه القواعد أو المستويات السلوكية لذلك فإنه كلما تعلم الفرد هذه المعايير التقييمية كلما استطاع أن يتوصل إلى أحكام أكثر دقة حول سلوكه ومظهره ومن ثم فإن تصور الذات تظهر كنتاج للاحتواء في جماعة أو للاتصال بالآخرين.

وفي هذا الصدد قدم كولي أولى مبادئه أو قضاياه التي عرفت بمرآة الذات فيها يقرر أن رؤيتنا لأنفسنا تتم من خلال تقييم الآخرين لنا أو على حد تعبيره :

"أن كل فرد يعتبر بمثابة مرآة لكل فرد، مرآة تعكس ذاته".

فكلما نرى وجوهنا ومظهرنا وملابسنا في المرآة ثم نهتم بها لأنها تمثل أموراً لصيقة بنا وكما نشعر بالسرور أو عدم السرور لأن هذه الأمور وجوهنا ومظهرنا وملبسنا بدت على ما نريدها أن تكون عليه كذلك فإننا تدرك بخيالنا ما في عقول الآخرين من أفكار حول مظهرنا وسلوكنا وطباعنا وأصدقائنا وسلوكنا وغير ذلك مما يؤثر فينا تأثيراً بالغاً.

وتتطور أفكار الذات واتجاهاتها في نظر كولي من خلال عملية تخيل لما يفكره الآخرون عنا أي من خلال ما يسميه بمرآة الذات. والتي تستند على حد تعبيره على ثلاثة عناصر أساسية هي :

١- تخيل مظهرها للآخرين.

٢- تخيل حكم الآخرين على هذا المظهر المتخيل لنا.

٣- الشعور الذاتي كالشعور بالافتخار أو الشعور بالخزي.

ويعتبر العنصر الثاني في نظر كولي أكثر العناصر أهمية، حيث يرى أن ما يجعلنا نشعر بالاعتزاز أو الخجل أو العار (العنصر الثالث) ليس مجرد انعكاس آلي ميكانيكي منا، بل هو ذلك الأثر الذي تتخيله لهذا الانعكاس في أذهان الآخرين. ويبدو هذا الأمر واضحاً إذا وضعنا في الاعتبار حقيقة أن طبيعة وأهمية هؤلاء الآخرون الذين نرى أنفسنا في عقولهم هي التي تجعلنا نشعر بهذه المشاعر المختلفة، فنحن نشعر بالخجل من أن تبدو جبناء في حضرة شخص شجاع أو من أن نبدو وقحاء في حضرة آخر مهذب. وكثيراً ما نفخر أو نتباهى لشخص ما بعمل قد نخجل منه أمام شخص آخر.

وهكذا يرى كولي أن كل اتجاهاتنا الذاتية ليست محصلات انعكاسية متخيلة نجمت عن الخبرات التفاعلية للآخرين ممن يحيطون بنا، أو بعبارة أخرى ليست إلا محصلات نهائية للعديد من خبرات مرآة الذات. .

ذلك لانه استنادا على هذه المبادئ الثلاثة يقيم الفرد مجموعة من المعتقدات والتقييمات حول ذاته ككائن إنساني ومن ثم يصبح لذاته عبارة عن

فهم اشتق بطريقة اجتماعية لصفاته وآبائه وخصائصه وسلوكه محكوماً عليها بمعيار مشترك وعام في مجتمعه.

يمثل توحد هذا الجانب من الطبيعة البشرية الذي هو نتاج للسلوك، كما تمثل محاولة ربط هذا الجانب بالعملية الاجتماعية ذاتها تحولاً جذرياً من المرحلة المبكرة للطبيعة البشرية إلي مرحلة أخرى ذات طابع روحي أو نفسي، وبعبارة كولي نفسه يمثل تخيل الأفراد لبعضهم البعض أكثر حقائق المجتمع توحيداً لأنه يمكننا فهم الطبيعة البشرية فهماً دقيقاً.

ويشير التوحد بوجه عام وفي أقصى حالاته إلى ما يعرف بالتقليد والمحاكاة كعملية يعكس فيها السلوك الفردي. حقيقة أن الفرد قد تمثل بالفعل قيم الآخرين وأفكارهم واتجاهاتهم وعاداتهم. ويعتمد التوحد في حد ذاته على التخيل، أي يستند علي القدرة على إدراك – ليس فقط ما يبدو عليه الآخرين أو يسلكونه – بل وأيضاً القدرة على تطوير صورة مثالية للآخرين تستحق أن نقلد أو نحاكي، وهنا يكمن السر الأساسي الذي يدفع الأطفال إلى التقليد والمحاكاة، فالطفل الذي يقلد الجندي أو يلعب دوره، والطفلة التي تقلد الأم أو المدرسة وتلعب دورها يقوم كل منهما على هذا السلوك، توحداً بالشخصيات الهامة أو الهادفة التي يقلدونها، كما أنهما يتوحدان بهذه الشخصيات، لأن الأخيرة تستحق في نظرهما درجة أعلى وأكبر من التقدير.

ومعنى ذلك أن الفرد لا يستطيع أن يتوحد بشخص آخر دون محاولة منه على الأقل أن يلعب الدور المرتبط بالمكانة التي يشغلها من يقلده ويتوحد به، ونعود إلى مثال الطفل لنجد أنه في توحده لشخصية الجندي عليه أن يكون شجاعاً يرتاد المخاطر، بل كثيراً ما نجده يقوم بنفس سلوك الجندي فيرتدي زيه ويتأبط لعبه على هيئة بندقية أو مدفع ويخطط لمعارك مع الأعداء . . . الخ، بل نجده وقد استشعر بالفعل ما يتخيله هو من مشاعر الجندي كالفخر والاعتزاز لانتصاره في معاركه الوهمية والمسئولية والفداء في القيام بها إلى غير ذلك من المشاعر.

وباختصار يمثل التوحد جزءاً من العملية السوية للنمو، كما يمثل من ناحية أخرى كيف تنتقل الثقافة من جيل إلى جيل وبالطبع هناك درجات مختلفة متعددة لهذا التوحد تبدأ بولوع الطفل بأمه وولوع ما تحت العشرين بشخصيات مثالية كالمدرسين أو ممثلي السينما ... الخ. إلى توحد البالغين بالمهنة التي يستهونها أو بالمرتب الأساسي الذي ينتمون إليه.

ونعود إلى موقف كولي مرة أخرى فنلاحظ أنه على الرغم من أنه يعلق أهمية خاصة على مرحلة الطفولة المبكرة باعتبارها أخطر وأهم مرحلة لتطور ما أسماه بمرآة الذات إلا أنه ينبغي علينا أن نضع في الاعتبار أن هذه العملية تستمر خلال دورات مختلفة من حياة الفرد. ذلك أنه كلما تقدم الفرد من مرحلة الطفولة فالمراهقة فالرشد فالنضج فالشيخوخة كلما تمثلت له المرآة الاجتماعية من حوله أو ترآت له بطرق مختلفة وعليه في كل مرحلة أن يقرأن ما تكشف عنه هذه "المرايات" ليعدل من ذاته ومن سلوكه وأفكاره في الحدود الملائمة أو المناسبة لكل مرحلة يبلغها ومن ثم تصبح هذه المرايات المتعاقبة جانبا أساسياً وهاماً من جوانب الطبيعة البشرية في كل مرحلة من مراحل الحياة.

٢- جورج ميد ونظرية الاتصال الرمزي

ولقد أثارت أفكار كولي السابقة لدى البعض أهمية العلاقة بين الفرد والمجتمع في فهم الطبيعة الإنسانية وكان من أهم هؤلاء الباحثين جورج هربرت ميد الذي أضافت نظرياته التي ناقش فيها العلاقة بين العقل والذات والمجتمع فهماً جديداً للعمليات العقلية لدى الكائن البشري.

لقد سبق أن أوضحنا كيف أن الاتصال البشري يتكون في صوره الأولى والأساسية من شخص يوجه رموزاً هادفة نحو شخص آخر كما أكدنا حقيقة أن المعنى الذي يثيره الرمز في ذهن من يوجهه موازياً لمعناه لدى الشخص الآخر. هنا وعند هذا الحد التقط ميد هذه الفكرة ليبني نظريته على النحو التالي :

أ- الطابع الاجتماعي للعقل

توضح النظرية ميد عن الاتصال عملية التفكير التى شرحها وفسرها على أنها استجابة داخلية لرموز موجهة توجيهاً ذاتياً. وهو فى ذلك يرى أن الفرد يستجيب لهذه الرموز الموجهة توجيها ذاتيا بنفس الطريقة التى يستجيب بها للرموز التى يوجهها الآخرون له وغلى ذلك يرتبط عقل الفرد ارتباطاً وثيقاً بقدرته اللغوية، بل تكاد تكون العمليات الإدراكية للفرد ولغة مجتمعه عملية واحدة من وجوه كثيرة ومتعددة، فهى كلها ذات طابع عقلى أو اجتماعى سواء نظرنا إليها على أنها عادات فردية وذاتية أو على أنها عملية جمعية نظامية.

ويذهب ميد إلى حد الاعتقاد بأن العقل والذات ينبثقان أصلاً عن تجربة الفرد أو خبرته فى النظام الاجتماعي حيث يقول :

"إن العقل الإنسانى ينشأ فى العملية الاجتماعية عندما تدخل"
"هذه العملية فى تجربة أو خبرة الأفراد المتضمنين فى هذه"
"العملية وعندما يحدث ذلك يصبح الفرد واعياً بذاته أن يصير له"
"عقلاً، واعياً بالإضافة إلى ذلك بعلاقته بهذه العملية ككل"
"وعلاقاته بغيره من الأفراد المشتركين معه فيها"

ومن خلال هذه العملية التي شرحها ميد يصبح الفرد شخصاً اجتماعياً أي يكتسب الطابع الاجتماعي عندما يكتسب القدرة على الاستجابة، تلك القدرة التى يطلق عليها ميد اسم العقل على أنه مما يجدر ذكره أن عمليات اكتساب العقل واكتساب الذات يحدثان في وقت واحد، وهذا يعني أنه لو أننا لأغراض التحليل والمناقشة نحاول أن نفصل بينهما إلا أنه يجب أن ننظر إلى كل من العقل والذات على أنها أجزاء متداخلة ومتساندة فى نسق كلي واحد.

ب- نشأة الذات وتكوينها

يرى ميد أن الذات شأنها شأن العقل ترجع فى نشأتها الأولى إلى الاتصال الذي يمثل قاعدة التفاعل وأساسه بين الأفراد، فمن خلال التفاعل الاجتماعي

يستطيع الفرد أن يحدد ذاته وتشبه هذه الخبرات التفاعلية المبكرة التي تنشأ عنها الذات إلى حد ما في نظر ميد أحاديث الإيماءات بين الحيوانات، حيث تبدأ العملية بتفاعل الطفل حديث الولادة مع أبويه وبخاصة تفاعله مع أمه. فيها يكون صراخ الطفل ومختلف مظاهر سلوكه بمثابة مصدر دائم للإثارة وبالطبع ليس بمقدورنا أن نتصور أن الطفل في هذه الحالة يحاول أن ينقل معنى كمعنى الجوع أو الشعور بالبرد أو الابتلال ومع ذلك فإن الأم تستجيب لهذه المثيرات بإرضاعه أو بتدفئة أو تغيير ملابسه وغير ذلك من وسائل الراحة. هنا وعند هذا الحد تكون عملية الاتصال قد بدأت من وجهة نظر الطفل، فصراخه أصبح نمطياً بالدرجة التي تستطيع الأم معها أن تميز وبوضوح بين صرخة الألم وصرخة الجوع وغيرها من صرخات يصورها الطفل.

ومن اتساع نطاق الاتصال يبدأ الطفل في أن يتعلم كيف يوقع الأم أو يثير فيها السلوك الملائم والمناسب باستخدام أنواع معينة من الصرخات أو الأصوات بعبارة أخرى يتعلم الطفل كيف يثير الأم وكيف يستجيب لها بعدد متنوع من الطرق أو الوسائل النمطية ومن ثم فإن ما بدأ كحديث إيماءات من وجهة نظر الطفل يصبح اتصالاً يستند على رموزها دقة كلما استطاع أن يجعل من استجابة الأم له كلها رموزه لأستلفات استجابات معينة من الآخرين.

جـ- تطور الذات ونظرية اللعبة

كلما استطاع الطفل أن ينمي ويطور مهارته في الاتصال من خلال استخدامه للرموز الهادفة كلما أصبح وبالتدريج قادراً على أن يتمثل دور الآخرين، مثال ذلك أن الطفل يستطيع أن يتظاهر بأنه أم تعاقب طفلها (هو نفسه) على خطأ يرتكبه في هذه الحالة يبدأ الطفل في فهم وجهة نظر الشخص الآخر وأن يمارس اتجاهات هذا الشخص ومواقفه ومشاعره نحو ذاته.

وبالمثل قد يتمثل دور المدرس أو رجل الشرطة أو الطبيب. ولو أن هذا التمثيل (او التحيل للادوار) يكون في البداية محدوداً بدور واحد.

وتقترب هذه الفكرة من فكرة كولى عن مرآة الذات، لأننا عندما نتمثل أدواراً، الآخرين كما يقول ميد ننظر إلى أنفسنا من خلال أعينهم أو بعبارة أخرى نستطيع أن نكتسب اتجاهاتنا نحو أنفسنا من خلال نظرتنا إلى ذواتنا خلال أعينهم أو من خلال اتجاهاتهم هنا ولا تختلف هذه العملية كما نرى عن عملية تخيل حكم الآخرين علينا عند كولى.

تنشأ الذات وتتطور على حد تعبير ميد من خلال تمثيل دور الغير وتبدأ هذه العملية بادئ ذى بدء بتمثيل دور الوالدين والأقارب المحيطين وتتسع بعد ذلك بالتدريج لتشمل أدوار عدد متزايد وباستمرار من الأشخاص رفاق اللعب، المدرسين، الأصدقاء، زملاء العمل... الخ، ومن خلال هذه العملية يستطيع الشخص أن يقف على اتجاهات الغير نحوه، لذلك كان يمثل الدور لهذا المعنى يختلف تماماً عن أداء الدور الذى يشير إلى الإنجاز أو التحقيق الفعلى والواقعى لتوقعات الدور إلى جانب تمثيل الدور والأداء الفعلى للدور يستخدم ميد مفهوماً آخر وهو الانغماس فى الدور ليفرق ميد بين المفهومات الثلاثة بالإشارة إلى مواقف اللعب عند الأطفال. فالانغماس فى الدور يشير إلى نشاط الطفل عندما يتظاهر أنه بائع لبن مثلا، هنا يفكر الطفل ويتحدث ويقوم بدور بائع اللبن ولكنه أى الطفل فى نفس الوقت لا يستطيع أن يقوم بأداء فعلى لدور البائع لا يشغل هذا الدور فعلاً فى حياة الواقع ولكنه يستطيع فقط عندما ينغمس فى هذا الدور أن يتعلم تمثل الدور وأدائه الفعلى بطريقة خيالية مازحة.

وتبدو أهمية عملية الانغماس فى الدور عند ميد فى أنها تشير إلى عملية اكتساب الذات ولنا أن نتخيل طفلة فى الرابعة من عمرها تنغمس فى دور الأم بالنسبة لعروستها فتقدم لها العشاء وتأخذها لتنام فى سريرها وتحكى لها قصصاً لتنام ثم تغطيها وتودعها وغير ذلك من الأفعال التى تعرفها الطفلة وبطبيعة الحال تأكل الدمية ما تقدمه لها الطفلة من طعام فتقوم بملاطفتها وحثها على الأكل كما أن الدمية كما كانت بحاجة إلى أن تأوى للفراش لتقوم بقسرها على ذلك وغير ذلك من دور تقوم به أمها نحوها تلك المشاعر التى تستشعرها الطفلة فى عالم الواقع هنا نجد أن الطفلة تنغمس تماماً فى دور الدمية ودور الأم معاً فهى من

ناحية دمية ومن ناحية أخرى أم لتعبر من خلال اللعبة عن مشاعرها ثم لتستجيب كأم لتصرفات الدمية مثل امتناعها عن العشاء أو رفضها للنوم ... الخ.

وهكذا تستطيع الطفلة من خلال عملية انغماس في دور الأم أن تحدد بطريقة موضوعية اتجاهاتها وبالتالي تستطيع من خلال هذه اللعبة أن تصبح موضوعاً لذاتها أي تستطيع أن تطور اتجاهاتها نحو ذاتها.

وشيئاً فشيئاً ومع نمو الطفل يتسع تمثل الطفل للأدوار لتأخذ ما يسميه ميد شكل "اللعبة" فالطفل الذي يقوم بلعبة ما - مهما كانت بساطتها مثل لعبة الاختفاء والبحث - يجب عليه أن يفهم دوره في اللعبة فقط بل وأيضاً أدوار كل المشتركين معه فيها ويستشهد ميد للتدليل على ذلك بمثال لعبة كرة القدم، حيث يتعين على كل مشترك فيها أن يعي دوره جيداً أن يعي في نفس الوقت دور الآخرين سواء في فريقه هو أو في الفريق المقابل، حتى أنه من خلال تفهم هذه الأدوار كلها فقط يستطيع أن يرى نفسه والآخرين من وجهة نظر خارجية ويستطيع بالتالي أن يقوم بدوره على أكمل وجه.

ويعتبر كل نشاط اجتماعي بهذا المعنى بمثابة "لعبة" أو "مباراة" إذ ينبغي على الفرد أن يفهم اتجاهات وتوقعات الآخرين ممن يتفاعل معهم، بل ويجعل من هذه الاتجاهات والتوقعات جزءاً من تكوينه الأساسي، وهنا يستخدم ميد للإشارة إلى ذلك الجانب من الشخصية ما أسماه بمعنى أنه عندما يتصور الفرد عقليا أدوار الآخرين تنتظم اتجاهاته في وحدة منظمة تضبط وتوجه استجاباته وبعبارة أخرى يستطيع الفرد من خلال عملية أشبه باللعبة أو المباراة أن يطور معنى داخليا للآخرين ومن هذا المعنى يستمد تحديده وتعريفه للسلوك المناسب.

د- الأنا الفردية والأنا الاجتماعية

على الرغم مما ذهب غليه ميد من أن الذات تتطور (بكل معنى للكلمة) فقط من خلال عكسها لتوقعات الآخرين. إلا أنه يعترف في نفس الوقت بالجانب الإبداعي والتلقائي من الذات، وهو في ذلك يميز بين جانبين من الشخصية

الأنا الفردية والأنا الاجتماعية أما الأنا الفردية فتشتمل على كل ما هو شخصي وغريزي ومنفرد من أمور ترتبط بالفرد تمكنه من أن يكون مبدعاً أو غير متطابق مع الآخرين، أما الذات الاجتماعية فهي كل انعكاس يمكن التنبؤ به للجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد وهي محصلة عملية التنشئة الاجتماعية. وجدير بالذكر أن جانبي الأنا (الفردية والاجتماعية) يكمل بعضهما البعض : فبالأنا الفردية وحدها وبدون الأنا الاجتماعية لا يمكن التنبؤ بالسلوك الاجتماعي، بل يصبح النشاط الجمعي المنظم أمراً مستحيلاً، وبالأنا الاجتماعية وحدها بعيداً عن الأنا الفردية ما كان من الممكن أن يوجد الفن أو تنجز المخترعات أو يحدث التغير الاجتماعي.

٦- مقومات الشخصية

على الرغم من قولنا السابق أن الشخصية تتشكل وتتغير من خلال عملية التنشئة الاجتماعية،إلا أن هناك على الأقل أربعة محددات هامة لتكوين الشخصية هي :

١- المقومات الوراثية والبيولوجية.

٢- البيئة الجغرافية.

٣- البيئة الاجتماعية.

٤- البيئة الثقافية.

حيث يلاحظ أن الطبيعة الخاصة والنوعية لكل من هذه العوامل الأربعة تؤدي إلى تنوع واسع في أنماط الشخصية، بل وتحدد إلى درجة كبيرة عمليات التنشئة الاجتماعية ذاتها وذلك على النحو التالي :

أ- المقومات الوراثية والبيولوجية

يولد الإنسان مزوداً ببناء تشريحي وفسيولوجي وعصبي يحدد سلوكه الاجتماعي، وعند هذا الحد تعتبر الوراثة البيولوجية عاملاً هاماً في التنشئة الاجتماعية. وتبدو الأهمية الكبرى لمقومات الوراثة البيولوجية في أن عناصرها

ثابتة ولا تتغير. وبعبارة أخرى تضع هذه المقومات حدوداً لا يمكن للفرد أن يتخطاها سواء كانت فى صورة مواهب أو قدرات فيزيقية بحتة أو فى صورة خصائص فيزيقية ذات دلالات ثقافية واجتماعية.

تلعب الاختلافات بين الرجال والنساء أو بين الأفراد كل نوع على حدة دوراً هاماً فى الحياة الاجتماعية أينما كانت. وقد يكون التنوع والاختلاف بين الكائنات الإنسانية متميزاً كالاختلافات أو الفروق بين الجنسيين وقد يكون متصلاً أو مستمراً كاختلافات الطول والوزن وحجم الرأس ولون البشرة وغير ذلك من السمات الفيزيقية التى توجد حتى داخل النوع الواحد "ذكور" أو "إناث" وأياً كانت نوعية الاختلاف بين الأفراد، فإن هناك مستويات للعلاقة بين الفروق الوراثية أو البيولوجية وبين تكوين الشخصية :

١- إن ما تعطيه الطبيعة للأفراد من خصائص فيزيقية مختلفة ومتمايزة قد تحدد لهم أوضاعا متباينة وقدرات متفاوتة للمنافسة. فالفتاة الجميلة مثلاً قد تجد فرصة الزواج سانحة لها بدرجة قد لا تتوفر لغيرها ذات المظهر العادى أو القبيح.

٢- كثيراً ما تصبح بعض السمات البيولوجية - خاصة إذا ارتبطت بالتحديدات الثقافية على مر الزمن - عوامل هامة وأساسية فى التميزات الطبقية بين الأفراد على المستوى الاجتماعى، ولعل من أوضح الأمثلة فى هذه الصدد ذلك الوضع الطبقى لأفراد السلالات الممتزجة أو المهجنة الذين لا يختلطون اجتماعيا مع أسلافهم ممن يمثلون مكانة أدنى منهم إلا نادراً فى الوقت الذى لا يتقبلون فيه اجتماعيا من جماعات السلف الذين يحتلون مكانة أعلى منهم.

٣- كثيراً ما تؤثر كيمياء الجسم والغدد الصماء تأثيراً واضحاً على تكوين شخصية الفرد فالغدة الدرقية مثلاً يرتبط إفرازها بعمليات التكوين البنائى فى الجسم "الأبيض" بحيث إن زاد إفرازها أو أفرط زاد نشاط العمليات الحيوية واتسم الفرد بسرعة الاهتياج وإذا قل أو فتر تحول الفرد لكائن خامل بليد وتعطل ذكائه واتخذ جسمه مظهراً غريباً، كذلك تؤثر الغدد

التناسلية في النمو والسلوك وترتبط الغدة النخامية بالنمو الجسمي والوظائف الجنسية بحيث إذا قل إفرازها زادت عضلات الجسم وهناً وضعفاً وتعطل نمو الأعضاء الجنسية لتميل بالفرد إلى الاستكانة والاستسلام وإن ٬حرط إفرازها زادت. خشونة الجلد وزاد اتجاه الفرد إلى العدوانية، ولا ننسى هنا ما بين الجهاز العصبي للإنسان من صلة وثيقة بذكائه ومواهبه الخاصة وقدراته أو مهاراته الحركية الأمر الذى يؤثر بدرجة كبيرة من الوضوح على تكوين شخصيته.

ب- البيئة الجغرافية وتكوين الشخصية

تشتمل البيئة الجغرافية التي تحيط بالإنسان على أربعة عناصر أساسية هي الموقع والمناخ والطبوغرافيا والموارد الطبيعية وتمارس كل من هذه العناصر الأربعة تأثيرات متعددة على السلوك الإنساني بالدرجة التي جعلت بعض الكتاب يميلون إلى اعتبارها العامل المحدد لهذا السلوك. ومع ذلك فقد برهنت بعض الدراسات على أن العامل الجغرافي ليس عاملاً نسبياً بقدر ما هو عامل (محدد) للسلوك الإنساني وذلك من خلال ما تضعه من حدود أو قيود على أوجه النشاط البشري وسنحاول فيما يلي أن نوضح كيف تؤثر البيئة الجغرافية في النشاط البشري وبالتالي في عملية التنشئة الاجتماعية.

ان كلاً منا ينمو بطريقة أو بأخرى في بيئة جغرافية معينة تشتمل على موارد الغذاء والمياه والتربة الخصبة والمعادن والطوبوغرافيا. وقد يعيش بعض الأفراد في أقاليم تمتاز بخصوبة أرضها واعتدال مناخها، بينما يعيش البعض الآخر في أماكن صحراوية أو قطبية ذات مناخ متطرف وخصائص بيئية مختلفة كما سبق أن ناقشنا مدى ما يؤثره هذا النوع من الظروف الجغرافية المحيطة بالمجتمع في تنوع أشكال الثقافات ونضيف هنا أن هذا التنوع إنما يؤدى إلى اختلاف أساليب التنشئة الاجتماعية مما يؤثر بدوره في تكوين الشخصية. وذلك من خلال ما تمارسه هذه العوامل من تأثير على أسلوب حياة الجماعة وشخصيتها ككل.

جـ- البيئة الثقافية

وربما تؤثر البيئة الثقافية في الطفل حديث الولادة بدرجة أكثر فاعلية من البيئة الجغرافية، ذلك لأنه من خلال الحدود الثقافية المقررة للسلوك يختار كل مجتمع بطريقة غير مباشرة نمط الشخصية المتوافق والناجح وفي هذا الصدد نجد أنه على الرغم من التأثير العام للثقافة إلا أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن تجد شخصية تلقى تنشئة اجتماعية بنفس الطريقة أو الأسلوب وبالتالى لا يمكن أن توجد شخصيات متماثلة تماماً وتفسير ذلك إنما يكمن فى اختلاف درجة ما يعرف بالمشاركة الثقافية التى يقوم بها الفرد الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى تأثيرات، نوعية ومتميزة على الشخصية، ومما هو جدير بالذكر هذا التنوع أو الاختلاف فى نوعية التأثيرات الثقافية الخاصة أمر يؤكده حقيقة أن الثقافة لا يمكن أن تنقل فى مجموعها ككل، وإن هناك تنوعاً واسعاً فى أنماط السلوك المسموح به فى كل الثقافات، وفى هذا الصدد نستطيع أن نميز بين ثلاثة أنماط للاختلافات الثقافية هى:

١- الاختلافات الواضحة فى مدى تنوع المعرفة والمهارات اللازمة للعيش أو الوجود والتى تتسلسل فى درجة تعقدها من المهارات اللازمة والضرورية لمجتمعات القنص والصيد والبدائية إلى أكثر المجتمعات تعقيداً وتحضراً أو تصنيعا.

٢- اختلاف أنساق الضبط الاجتماعى التى تتدرج من أنساق الأسرة غير الرسمية إلى أكثر أشكالها رسمية وعلى ذلك يمكن القول أن هذا التنوع فى درجة تعقد المجتمع يتيح فرصة أوسع لتنوع أنماط الشخصية، وبالإضافة إلى ذلك، فإن اختلاف درجة المشاركة للفرد فى الثقافة تعتبر هى الأخرى عاملاً هاماً من العوامل التى تفسر - إن لم تحدد - اختلافات الشخصية فالمشاركة كما سبق أن أشرنا مسألة اختيار من شأنها أن توضح نوع البيئة الثقافية التى تحيط بالفرد ولعل من أبسط الأمثلة على ذلك أن اقتناء الفرد لبعض عناصر الثقافة المادية كالمعدات الكهربائية والإلكترونية مثلاً يعد مؤشراً هاماً من مؤشرات مستوى معيشته لأنها من ناحية تشير إلى

ذلك الجزء من الثقافة المادية المتاح له ولجماعته أو حتى مجتمعه كما أنها توضح من ناحية أخرى درجة اشتراكه فى الجانب اللامادى للثقافة نظراً لما تقدمه هذه المعدات (راديو - تلفزيون مثلاً) من معلومات وأفكار ترتبط بموضوعات سياسية ومشكلات اجتماعية ... الخ وهنا نجد من الأفراد من تمثل هل هذه الأشياء مستويات ثقافية بمعنى أن يسمح بها ولكنه لا يرغب في اقتنائها أو لا يستطيع اقتنائها ومنهم من يسمع عنها ويمتلكها بالفعل ولكن لا يقدرها حق قدرها، ونحن في كل حالة من هذه الحالات وفي حالات أخرى عديدة غيرها نجد مشاركة ثقافية متمايزة ترتبط إلى حد كبير بمستوى المعيشة أكثر من ارتباطها بالبيئة الثقافية، ومن ثم نستطيع أن نقرر أن تكون شخصية الفرد وتطورها إلى جانب تأثرها بالبيئة الثقافية العامة - تتأثر بنفس الدرجة بالثقافات الفرعية كمقوم من مقوماتها الضرورية.

على أن أهم ما يعنينا فى هذا المقام أن نبين اختلافات الشخصية فى المجتمعات المختلفة وخاصة من حيث الخصائص العامة وكذلك الاختلافات التي تظهر في الشخصية في مجتمع بعينه.

إن العامل الأول فى هذه الاختلافات - كما يرى كثير من علماء الاجتماع - يرجع الى تأثير الثقافة، وقد أوضحنا فى الفصل السابق إن ثقافة المجتمعات المختلفة تختلف كل عن الأخرى في مجموعة متنوعة من السمات ومركبات السمات والأنماط وكذلك يمكن أن تنطوي الثقافة الواحدة على عدد من الثقافات الفرعية قد يتميز أحدهما عن الآخر فيما يتعلق ببعض مركبات السمات التي قد يكون لها تأثير واضح على تعدد أنماط الشخصية.

ومن المسائل التى أصبحت موضع اتفاق بين الباحثين فى موضوع الشخصية فيما يتعلق بأثر الثقافة عليها ما يلي :

١- إن اختلاف سمات الشخصية فى المجتمعات المختلفة يرجع فى المحل الأول إلى تأثير الثقافة، وقد كان للأنثروبولوجيين دور كبير فى إبراز هذه الاختلافات نتيجة لدراساتهم لعدد كبير من المجتمعات البدائية ذات

الثقافات ولم يبرزوا بوضوح أثر الثقافة على الشخصية، ولكن علماء الاجتماع استطاعوا الاستفادة من المادة ... الأنثروبولوجية في تحديد الطرق التي تؤثر على أساسها ثقافة مجتمع معين على أعضائه وقد تقدمت دراسات علم الاجتماع التي تتجه إلى تحليل علاقة المركز الاجتماعي والدور الاجتماعي والتغير الاجتماعي على الشخصية.

٢- ومن أجل هذا اهتم الباحث في الثقافة والشخصية بالعلاقة بين الثقافة اللامادية وعلى الأخص القيم وبين الشخصية إلا أنهم لم يوجهوا عناية كافية لإدراك العلاقة بين الجانب المادي وبين الشخصية حتى في الأحوال التي يكون فيها الجانب المادي عاملاً هاماً في خلق قيم جديدة ويرى أجبرن ونيمكوف أنه من الممكن أن تدل على أن العناصر المادية من الثقافة تؤدي إلى استجابات تؤثر من غير شك في الشخصية.

٣- ترتبط الشخصية ارتباطاً وثيقاً بالأنماط الثقافية ومعنى ذلك أن كل نمط ثقافي يمكن أن يؤدي إلى تثبيت سمات معينة في الشخصية ويبدو هذا واضحاً في موقف عدد من المجتمعات من موضوعات هامة مثل اشتغال المرأة ومدى استقلالها أو طبيعة طاعتها للرجل. وقد يتجاوز مجتمعان فيسمح نمط الثقافة السائد في المجتمع الأول للمرأة أن تعمل وأن تستقل اقتصادياً ولكنه لا يعطيها قوتها المدنية المساوية للرجل بينما يسمح المجتمع الثاني الذي له نمط مختلف من الثقافة بإعطاء تلك الحقوق المدنية للمرأة حتى لو لم تكن عاملة.

٤- إننا لا نستطيع في ضوء المعلومات المجتمعة والمتيسرة حول أنماط ..... الشخصية سواء في مجتمعات متعددة أو في مجتمع واحد أن نؤكد وجود نمط رئيسي للشخصية.

ولكن الدراسات الأنثروبولوجية وخاصة تلك التي أجرتها روث بندكت تؤكد أنه إذا تغاضينا عن الاختلافات الفردية، فإن كثافته يمكن أن يكون لها صيغة كلية تنطبع بالتالي على الشخصية والتي يمكن تحديدها في نمط عام. ولهذا يحاول عدد من الباحثين التدليل على وجود نمط رئيسي للشخصية يميز

كل ثقافة على حدة ويضربون أمثلة كثيرة على ذلك ومن أهمها أننا نستطيع أن نميز في وضوح أفراداً ينتمون إلى ثقافات متعددة بإدراك الصيغة الكلية لسماتهم الثقافية وما يترتب على ذلك من توجيه نمطي معين.

٥- يعترض كثير من علماء الاجتماع في الوقت الحاضر على النتيجة التي يمكن أن تترتب على ما جاء بالفقرة السابقة وهي أن جميع أعضاء المجتمع يمكن أن يكون لهم شخصيات متطابقة ولكن الأمر في الواقع ليس على هذا النحو فإذا كان القول السابق صحيحاً في حالة المجتمعات الصغيرة أو البدائية أو القروية فإنه من الصعب أن نطبقه على المجتمعات الحضرية والواسعة النطاق ذات الثقافات الفرعية المتعددة، وقد أصبح معلوماً نتيجة اهتمام علم الاجتماع المتزايد بالثقافة موضوع أساسي في البحث السوسيولوجي أن الاختلافات الثقافية داخل المجتمع الواحد حقيقة لا تقبل المناقشة، ومن ثم فإن النتيجة التي يمكن أن تترتب على ذلك تجعلنا نؤكد اختلاف أنماط الشخصية في المجتمع الواحد ومن أبرز الأدلة على ذلك :

أ- أن اختلافات التربية والتعليم تؤدي إلى اختلافات في الشخصية كما أن اختلافات العقيدة الدينية يمكن أن يؤدي إلى ذلك أيضاً.

ب- إن الاختلافات الطبقية التي تقوم على مقومات التسلسل الطبقي في المجتمع تؤدي أيضاً إلى اختلافات في الشخصية يمكن أن نلحظها بسهولة إذا أجرينا دراسة عن العاملين في مهن مختلفة أو الذين ينتمون إلى شرائح اقتصادية شديدة التمايز.

ج- إن الاختلاف بين التنظيمات الاجتماعية الكبرى في المجتمع مثل الاختلاف الواضح بين المجتمع الريفي والمجتمع الحضري يؤدي إلى اختلافات جوهرية في أنماط الشخصية.

٦- ومن أبرز العوامل التي تؤدي إلى اختلافات جوهرية في الشخصية الحقائق المتعلقة بالتغير الثقافي ومن المعلوم أن التغير الثقافي يصاحبه تغير

اجتماعي يؤدى إلى إحداث تجديدات وتعديلات في المعايير الاجتماعية والقيم والاتجاهات، وقد يمتد التغير إلى أساس التنظيم الاجتماعي. ولكن درجة قبول هذه التجديدات أو التغيرات لا تكون بنفس الدرجة عند كل أعضاء المجتمع فكبار السن قد يحافظون على مقومات شخصياتهم القديمة، بينما يميل الشباب إلى سرعة التغيير، ومن ثم فإننا نتوقع أن نجد في المجتمع الواحد أنماطاً مختلفة من الشخصيات قد تظهر في الجماعة الواحدة.

وخلاصة القول أن تأثيرات الثقافة على الشخصية متعددة الجوانب ولن تستطيع أن تذهب وراءها بعيداً لأن معلومات علم الاجتماع في هذا الموضوع لا تزال قليلة نسبياً. والأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسات لمعرفة الاختلافات التي تظهر في الشخصية نتيجة لاختلاف الجنس والسن والخبرة على الرغم من تعرض جميع أعضاء المجتمع الممتازين على هذا الأساس لتأثيرات ثقافية واحدة ويميل عدد من علماء الاجتماع، بالإضافة إلى ذلك القول بأن دراسة العوامل المتعلقة باختلاف المهنة والتربية والأصل الأسرى لابد أن تسير جنباً إلى جنب مع الاختلافات السابقة لتكمل معرفتنا بحقيقة علاقة الثقافة بالشخصية.

د- البيئة الاجتماعية وتكوين الشخصية

تمثل البيئة الاجتماعية العامل الرابع والأكثر أهمية في العوامل المؤثر في عملية التنشئة الاجتماعية، وبالتالي في تكوين شخصية الفرد وبالطبع نحن لا نميل إلى الفصل والتمييز بين الآثار الاجتماعية والآثار الثقافية اللهم إلا لأغراض التحليل العلمي فقط، وعلى اعتبار أن الأفراد هم حاملو الثقافة وناقلوها. إن هذا التمييز يجعل من السهل علينا أن نميز بين عوامل التنشئة الاجتماعية التي ترجع بصفة أساسية إلى خبرة الجماعة وتجربتها في الحياة وبين تلك التي توجد من خلال اختلاف التوجيهات الثقافية لأفراد الجماعة والمثال على ذلك انه من الممكن أن يعيش الفرد داخل جماعة الأسرة الصغيرة ذات العلاقات القرابية الوثيقة، أو أن يعيش في أحد الملاجئ مثلاً، كما يمكن أن توفر له نفس الإمكانيات والمستوى المعيشي والثقافي في كلا الحالتين ومع ذلك نجده يمر

أو يحاط بنمطين مختلفين من التجربة أو الخبرة الاجتماعية ويترتب على هذا أن نوع الجماعات الاجتماعية التي ينشأ الفرد فيها وحجمها ونوعية الروابط أو العلاقات السائدة فيها تؤثر إلى حد كبير في شخصيته ففي هذه الجماعات يتعلم الفرد الولاء والانتماء والاحترام والتعاطف والتعاون وغير ذلك من الأمور التي تعتبر من أهم سمات شخصيته. ولذلك فإنه من السهل كما يتردد دائماً أن تعرف نوعية شخصية الفرد إذا عرفت إلى أي الجماعات ينتمي أو في أي الجماعات تمت عملية تنشئته الاجتماعية.

ولقد سبق أن رأينا بصدد الحديث عن عناصر الثقافة - كيف أن الجماعات تتنوع وتتعدد على طول متصل متدرج يبدأ بتلك الجماعات الأولية التي تسودها علاقات المواجهة والروابط الوثيقة والمباشرة لينتهي إلى أكثر الجماعات رسمية أو ثانوية حيث تمثل المصلحة دعامة أساسية ترتكز عليها ما بين أفرادها من روابط أو علاقات اجتماعية. ونستطيع هنا أن نضيف إلى ما تقدم حقيقة اختلاف أو تنوع شخصيات الأفراد الذين ينشئون وسط هذا النوع الكبير من الجماعات، حيث يسهل علينا ملاحظة كيف أن شخصية الفرد الذي ينغمس انغماساً كلياً في جماعته بحيث تربط أعضائها علاقات شمولية ووثيقة ودائمة تختلف اختلافاً ملحوظاً عن شخصية فرد آخر وجد في جماعة تسودها علاقات المصلحة أو ما يعرف باسم العلاقات التعاقدية والرسمية فقط، حيث نجد الأول مثلاً أقل وحدة وعزلة وإحباطاً بينما نجد الثاني أكثر انفتاحاً أو أقل محلية في نظرته للحياة وهكذا . . . ولسنا هنا بحاجة إلى الإطناب في مناقشة هذا الموضوع، بل يكفينا أن نشير إلى ما انتهت إليه كثير من الدراسات والبحوث من نتائج مؤداها أن كثير من حالات المرض العقلي والانحراف وإدمان الخمور أو المخدرات كانت كلها أكثر ارتباطاً بتجربة الفرد الجماعية أي بنوع الجماعة التي نشأ فيها أو عهد إليها مهمة تنشئته اجتماعياً.

وبالمثل فإن كثافة العلاقة التي تربط الفرد ويرتبط بأعضائها في نوع من التفاعل المنظم والمنتظم تعتبر هي الأخرى عاملاً من العوامل المؤثرة في تشكيل شخصيته وتطورها وربما كان من أبرز الاختلافات بين المجتمعات

المحلية الريفية والحضرية وضوحا ينبثق أصلاً عن هذه الحقيقة السابقة، ولعل موقف السمو الحضرى أيضا والذى يعد ظاهرة عامة يرجع فى جانب كبير منه إلى ذلك الاختلاف فى حجم وتنوع ما يعرف باسم المشاركة الجماعية للفرد.

وعند هذا الحد ينبغى كل دارس فى علم الاجتماع أن يتصدى لبحث أو معالجة موضوعين رئيسيين هما :

جماعة الأقران

الجماعة المرجعية

والمقصود بجماعة الأقرن كما سنرى فيما بعد - تلك الجماعة التى ينتمى أعضاؤها إلى نفس فئة العمر التى ينتمى إليها الفرد. وقد تشتمل هذه الجماعات على أعضاء من الجنسين ذكور وإناث وبوجه عام فقد كشفت الدراسات الحديثة عن أهمية هذا النوع من الجماعات، ولعل من شواهد أهميتها أنها كثيراً ما تطور فيما بينها كما يحدث فى جماعات تحت العشرين من بعض المعايير والقيم التى تتعارض بدرجة أو بأخرى ربما لقنوا إياه فى طفولتهم أو ما يتبناه آباؤهم من معايير وقيم ومحددات للسلوك.

أما الجماعة المرجعية فهى ببساطة تلك الجماعة - وقد تكون أفراد فى بعض الحالات - التى يستخدمها الفرد كمستوى للمقارنة أو هى التى يستمد منها الفرد قيمته الاساسية. وقد لا تتطابق قيم الجماعة المرجعية بالضرورة مع قيم المجتمع الكبير والمثال على ذلك أن بعض الأفراد قد يتخذون من التنظيمات الدينية جماعات مرجعية لهم يرفضون من خلالها الاشتراك فى الحروب وإن كانت هذه التنظيمات لم تعلن صراحة رفضها لذلك العمل وبوجه عام فإن الجماعة المرجعية شأنها فى ذلك شأن جماعة الأقران تعتبر من العوامل الاجتماعية المؤثرة فى تكوين شخصية الفرد.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الوضع الطبقى لجماعة الأسرة من ناحية ثم طبيعة البناء الطبقى فى المجتمع من ناحية أخرى ثم ما يكشف عنه البناء من طابع معين لظاهرة التنقل أو الحراك الاجتماعى من ناحية ثالثة توضح فى

مجموعها الاختلافات الجوهرية والواضحة بين أنماط الشخصية وتفسر بكفاءة ذلك الاختلاف في الأنماط الشخصية لدى أفراد ينتمون إلى طبقات وشرائح اجتماعية مختلفة.

الفصل السادس
الشخصية القومية

١-التطور التاريخي لدراسة الشخصية القومية

٢-نحو تعريف للشخصية القومية

٣-كيفية دراسة الشخصية القومية

٤-الشخصية المصرية والعربية

أ- الثقافة والشخصية العربية

ب- الدراسات الخاصة بالشخصية العربية

ج- نموذج دراسة دى شابرول

د- نموذج دراسة د. جمال حمدان

هـ- نموذج دراسة بيرجر

الفصل السادس

الشخصية القومية

١- الدراسات الشخصية القومية

يتضح من دراستنا للأبعاد الاجتماعية والثقافية للشخصية أن مصطلح الشخصية عامة مرتبط بالفرد. ولكننا في هذا الفصل سوف نهتم بشخصية الجماعة، أو ما يسمى بالشخصية القومية، وبالرغم من الصعوبات الناجمة من الخوض في هذا المجال خاصة الاعتبارات القومية أو منهجية البحث في ذلك المضمار، إلا أن يمكن تقسيم التطور التاريخي للبحث عن الشخصية القومية إلى عدة مراحل هي[1]:

أ- منذ تاريخ الإنسانية والإنسان يحاول دوماً تصنيف سلوك أصدقائه وأعدائه، وذلك بهدف معرفة كيفية التعامل معهم كتجمعات بشرية كبيرة لها خصائصها السلوكية المميزة. والمطلع على المادة المكتوبة في تراثنا المصري - مثلاً - يجد تصنيفات لا حصر لها بكل منطقة جغرافية، فأبناء دمياط ليسوا كأبناء المنوفية مثلاً، وليس هؤلاء كأبناء الشرقية، وليس النساء كالرجال، ولا الفقراء كالأغنياء، ولا الفلاحون مثل المثقفين، فكل جماعة عمرية، سواء كانت طبقة دينية أو حضارية، لها خصائصها السلوكية المميزة لأفرادها في عيون غيرهم، وتلك الميزة لأفرادها من وجهة نظرهم أنفسهم. على أية حال هناك ثلاثة وظائف تحققها محاولة الإنسان تصنيف سلوك الناس بعضهم البعض.

١- أن تلك التصنيفات بصرف النظر عن مدى صحتها تحقق للفرد قدراً كبيراً من اقتصاد الجهد بما تقدمه مناظرة عامة جاهزة تكفل له التعامل مع الآخرين بل والتنبؤ بسلوكه دون إمعان النظر في خصائصه الفردية.

---

(١) د. قدري حفني، دراسة في الشخصية الإسرائيلية، القاهرة: مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٥، ص ١٤ وما بعدها.

٢- أن تلك التصنيفات تضيق - ولو بشكل زائف - من نطاق الجهل فى تعامل الفرد مع الآخر. وذلك بما توفره من معرفة مسبقة بما يمكن أن تكون عليه صورة ذلك الآخر - الذى قد لا يعرفه بالفعل - خلال - معاملته معه.

٣- إن عملية التصنيف عامة، بما تتضمنه من تعميم وتجديد واختزال إنما تحقق هدفاً أساسياً من الأهداف التوافقية للعلم والإنسانية. ومن هنا فإننا نميل إلى تصنيف البشر لتحقيق هذا الهدف. أعنى التعميق والتجديد.

ب- على أية حال، بالرغم من أن دراسة الشخصية القومية (أحد موضوعات الدراسة العلمية لم يتم إلا مؤخراً). إلا أنه كما قلنا أن عملية التصنيف واصدار الأحكام كانت منذ فجر الإنسانية ويذهب البعض إلى أن المرحلة الأولى . . . لدراسة العملية بدأت عام ١٩٣٤ بنشر كتاب روث بندكت أنماط من الثقافة وانتهت هذه المرحلة بصدور الطبعة الأولى من كتاب كارونر التخوم لسيكولوجية المجتمع ١٩٤٥.

إن الاهتمام التخصصى بموضوع الشخصية القومية أو بمعنى أصح شخصية الشعوب يمكن ان يرجع إلى عام ١٨٦٠. حين أصدر لازاروس وسانيتال مجلة دورية بعنوان سيكولوجية وفلسفة الشعوب باعتبار أن دراسة سيكولوجية الشعوب إنما تستهدف اكتشاف القوانين التى تمارس فعاليتها حيثما تعيش الكثرة وتتصرف كفرد واحد.

ويشير جينز برج إلى أن هدف دراسة سيكولوجية الشعوب كما جاءت فى تصور لازاروس وستانيتال من الاهتمام بتقديم تفسير علمى شامل لحياة الشعوب. كما تتضح مخالفتهم وفنونهم ودياناتهم وتصرفاتهم مع توجيه الاهتمام إلى تناول التغيرات التى تطرأ على عقول البشر فى تطورها وذبولها. ولقد كان أسلوبها فى البحث إمبريقياً أى يعتمد على وقائع الملاحظة وفحصها إلى جانب الوقائع التى تقدمها الإثنولوجيا وغيرها من علوم الإنسان.

كذلك يجب الإشارة إلى محاولة فونت وذلك باهتمامه بقضية سيكولوجية الجماعات وأصدر فى عام ١٨٩٢ كتابه عن علم الأخلاق : دراسة فى

حقائق قوانين الحياة الروحية. ثم بدأ مع بداية القرن العشرين حتى عام ١٩٢٠ في إصدار مجلدات كتابة سيكولوجية الشعوب ولقد ظهر في ذلك الكتاب اهتمام فونت بدارسة اللغة والأساطير والعادات والقوانين والتنظيمات الاجتماعية التى كان يعتبرها نتاجاً للمجتمع. وما يهمنا أن فونت يطرح تصوره لشخصية الجماعة، تحت مصطلح الإدارة العامة، ويعرفها بأنها ذلك التركيب الخلاق الذي يؤدي إلى تطوير العقل الاجتماعي والإدارة الاجتماعية بما يتجاوز عقل وإدارة الأفراد.

وتابع ذلك التيار ماكدوجل بكتابه عقل الجماعة عام ١٩٢٠م، والذى يذهب فيه إلى أن تفكير وسلوك كل إنسان إذا ما كان يفكر ويسلك كعضو في مجتمع يختلف تماماً عن تفكيره وسلوكه كفرد منعزل. كذلك يؤكد ماكدوجل إلى أن المجتمع المتطور تنظيمياً يحقق مستوى من الذكاء والخصائص الخلقية يفوق مستوى أعضائه المتوسطين، بل ويفوق حتى مستوى أكثر أعضائه تقدما.

أما عن معادلة جيتز برج في عام ١٩٢١ في كتابه سيكولوجية المجتمع، فإنه حاول أن يقيم مكونات العقل المشترك إلى ثلاث عناصر :

١- العناصر العقلية المشتركة بين أعضاء مجتمع معين كأنماط الاستجابة الخاصة بالبيان الوراثي.

٢- التقاليد والخصائص الخلقية والفكرية المشتركة، كما تتمثل من ناحية في الكتب والمؤسسات والقوانين والعادات إلى آخره .... كما تتمثل من ناحية أخرى في صورها الطليقة التى تجد تعبيراً عنها في اتجاهات الرأى العام والفن والآداب والتحركات الشعبية.

٣- المشاعر الاجتماعية المرتبطة بالجماعة كمشاعر الولاء.

ويعد كتاب باركو الطابع القومي والعوامل المهمة في تكوينه عام ١٩٢٧، إسهاماً للمتخصص بالطابع القومي، خاصة من الناحية السياسية.

ويمكن القول بأن كتابات هذه المرحلة بالرغم من تميزها بمستوى ملحوظ من الثراء النظرى. إلا أنها كانت تفتقد الأحكام التجريبية أي الدراسات

الواقعية. حقاً لقد سعى لازاروس وستانيتال - كما ذكرنا سابقاً - إلى تحقيق معرفة إمبريقية في مجال دراسة شخصية الجماعة. وكذلك سعى فونت إلى الاستفادة من الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي في ذلك الوقت. ولكن هذه الدراسات لم تصل إلى مستوى عالٍ من الدقة والضبط العلمي، وهذا ما دفع انكلز وليفستون إلى إسقاط هذه الدراسات من الاعتبار في تاريخه للتطور البحثي في مجال الشخصية القومية.

جـ- وبالرغم من ذلك فإن إنكلز وليفستون اعتبر بندكت في كتابها أنماط من الثقافة ليكون البداية الحقيقية للدراسة عن الشخصية القومية. ولعل من اهتمامه بهذا الكتاب أن روث بندكت اعتمدت في تفسيراتها لسلوك الأفراد والجماعات البدائية على المفاهيم والنظريات السيكولوجية، وبخاصة مفاهيم ونظريات التحليل النفسي.

كذلك ينسب للاتجاه الأنثروبولوجي في مجال الأنثروبولوجيا - الذي طوره جيزا روهايم في عام ١٩١٥ - والذي يعد بمثابة حركة جديدة في مجال البحث عن شخصية الجماعة. وذلك لاهتمامه بتنوع عادات وتقاليد وتنظيمات القبائل البدائية التي درسها ضد التنوع. طرح المشكلة أمام الأنثروبولوجيين وهي أنه لابد من اللجوء إلى علم النفس لتفسير هذا التنوع. وبالفعل وجدوا تفسيراً لذلك في نظريات الشخصية، كذلك نظريات التحليل النفسي.

ويعلق انكلز وليفستون على بحوث هذه المرحلة بقوله أنها تفتقد التحليلات كذلك عدم اتساق ملحوظ في القضايا السيكولوجية التي تغطيها الدراسات المختلفة.

د- ولعل الحرب العالمية الثانية وما تركته من مشاكل قد أعطت توجيهاً للبحث في مجال الشخصية القومية. ولقد أكدت مارجريت ميد على هذه الحقيقة. ذهبت إلى أن الأحداث السياسية التي خلفتها الحرب العالمية الثانية قد خلقت الحاجة إلى الاهتمام المتزايد بالدراسات على جماعات قومية في محاول لاكتشاف ما في سلوك أعضاء تلك الدول القومية من انتظامات حضارية أخرى إلى أنهم قد درسوا في بعثة أو أنهم قد نزحوا إلى موطن جديد، وعاشوا

فيه فترة تبلغ من الطول ما يكفي لكي يصطبغوا بأشكالها الحضارية، ومن هنا فلقد أطلق على تلك الدراسات الطابع القومي. ويؤكد أيضاً جورد على هذا الاتجاه، أي ما طرحته الحرب العالمية من اهتمام الدراسات ذات الطابع القومي، حيث كانت الدوافع العملية - مثل الحرب النفسية والروح المعنوية - أكثر إلحاحا من الحاجة إلى الدراسات النظرية.

وهناك رأى معارض لذلك يدعو إلى التشكك في حقيقة أن بحوث تلك المرحلة كانت استجابة لمتطلبات الحرب العالمية الثانية، وهذا الاتجاه يؤكد أن هذه البحوث ما هي إلا استجابة لحاجات أو احتياجات خاصة بالمجتمع الأمريكي، خاصة بعد هجرة عدد كبير من الكفاءات البارزة في العلوم الإنسانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. هذا بالإضافة إلى الحاجة لدى السلطة الأمريكية لفهم شعوب ذات حضارات مختلفة مثل اليابان والصين وألمانيا والاتحاد السوفيتي. ولعل أهم الخصائص التي تميز دراسات هذه المرحلة ما يلي :

أولاً : تحديد الأهداف العلمية لدراسات شخصية الجماعات : ولقد حدد دوبجكر هذه الأهداف العملية لمثل هذا الدراسات فيما يلي :

١- إمكانية استخدام هذه الدراسات في الحرب النفسية باعتبارها يمكن أن تسهم في فهم عدو فعلي أو محتمل.

٢- إمكانية استخدام تلك الدراسات في مجال الدعاية الداخلية لموقف العدو والتصميم على هزيمته.

٣- هذه الدراسات تقدم أيضاً معلومات عن الحلفاء من أجل تعاون بكفاءة أكبر.

ثانياً : الالتزام السياسي المحدد للقائمين شهدتها بالبحوث : لقد أكدت مارجريت ميد على طبيعة الأهداف السياسية للدراسات التي شهدتها تلك المرحلة، مؤكدة أن تلك الدراسات قد نجمت عن صيغة ومنهج وقدر من الضرورات الملحة التي فرضها الموقف السياسي العلمي بعد عام ١٩٢٠. على أية

حال، فإن دراسة الطابع القومي الآن في تناولها للوحدات السياسية المعاصر تعد أساساً بعلم تطبيقي. وتؤكد مارجريت ميد أن كافة الأبحاث في هذا المجال قد تمت في خلال الارتباط بمشروعات قومية تتعلق إما بمشكلات الروح المعنوية في الداخل، وإما بحالة الحرب والسلام.

ثالثاً : تأكيد فكرة فريق البحث : لعل طبيعة الدراسة في موضوع شخصية الجماعة تفرض تضافر العديد من العلوم الإنسانية مثل الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس والسياسة والتاريخ والجغرافيا والقانون. ولهذا فإن دراسة الطابع القومي، سواء كان ريفي أو مجتمع معاصر أم معقد ينبغي أن يقوم بها فريق يضم خبرات وتخصصات متنوعة.

رابعاً : دراسة المجتمعات الكبرى : استمرت بحوث تلك المرحلة في التركيز على الدراسة المتعلقة بمجتمع واحد، شأنها في ذلك شأن بحوث المرحلة السابقة. والجديد في هذا الاتجاه هو اتجاه البحوث نحو مجتمعات كبرى معاصرة تمثلت أساسا في اليابان والصين وألمانيا والاتحاد السوفيتي. ولقد طرح هذا العديد من الموضوعات، مثل هل يجوز الحديث عن شخصية واحدة للجماعة على نطاق الأمم ؟ ما هو تأثير وسائل الاتصال الحديثة في هذا الصدد؟ هل تسهم وسائل الاتصال في تذويب الفوارق القومية أم أن تأثيرها أحيل إلى تدعيم التماسك القومي ومن ثم إلى تدعيم وإبراز تلك الفوارق ؟ وهل ينطبق مفهوم شخصية الجماعة بالنسبة للدول الأمم على الجمهور شأن انطباقه على الصفوة ؟

خامساً : الدراسة عن بعد : إن طبيعة الظروف التي يمكن أن تحول بين الباحث والاتصال المباشر بأفراد مجتمع البحث - سواء كانت هذه الظروف نظرة الشك إلى الغرباء أو عدم السماح بالتعبير عن آراء معارضة السلطة. فإن البحث عن الطابع القومي قد شبه بصيغة إعادة التركيب، ويصبح الشبه بين هذا التقرير والمجتمع الحر كالشبه بين تقرير عالم الحفريات الذي يعيد تركيب صورة حيوان منقرض. وتذكر مارجريت ميد أن الباحث قد يحال بينه وبين المجتمع

الذى يدرسه نظرا لنشوب حرب أو لفرض قيود على السفر والبحث أو يكون الهدف من البحث لمجتمع لم يعد موجوداً بعد.

كذلك تميزت الدراسات الخاصة بالطابع القومى فى الفترة ما بين ١٩٥٠ حتى ١٩٦٠ بكونها دراسات مقارنة. ويؤكد دويجكر وفريجيدا أن البحث فى الطابع القومى ينبغى أن يكون بحثاً مقارناً. والبحث المقارن فى الطابع القومى ينبغى أن يقوم على التعاون المتبادل بين العلوم المشتركة حيث ينبغى أن يوضع فى الاعتبار الإطار والحضارة وأيضاً تاريخ البشر محل الدراسة. ولقد تميزت بحوث هذه المرحلة بالاهتمام بفكرة الفريق، كذلك تميزت بتركيز الباحث أو فريق البحث على مجتمع واحد يدرسه بعمق وشمول بقدر المستطاع. هادفاً الوصول إلى صورة عامة لتكوينه السيكولوجى أو لشخصيته. كذلك كان الاهتمام فى هذه المرحلة من البحوث المقارنة ليس على مجال شخصية الجماعة الواحدة، بل لعله كان سمة شملت الكثير من دراسات العلوم الإنسانية فى هذا الوقت. ولقد انتقدت بحوث هذه المرحلة البحوث السابقة لشروط تمثيل العينات للجماعات الأصلية، وبالتالى افتقادها لإمكانية المقارنة الدقيقة. أما عن الوقت الراهن للبحوث فى هذا المجال فيمكن تلخيصه على النحو التالى :

أ- انكماش حجم البحوث التى تحمل عنواناً دالاً على استهداف دراسة شخصية الجماعة.

ب- استمرار وتزايد الاهتمام بالبحوث الحضارية المقارنة.

ج- استخدام تكتيكات البحث العلمى الأكثر رقياً وتطوراً.

٢- نحو تعريف للشخصية القومية

يشير سوروكن إلى أن من أبرز العيوب التى تعانى منها غالبية دراسات الطابع القومى أنها لا تتضمن تعريفاً لما تعنيه بالطابع القومى، وأنها إذا ما تضمنت مثل ذلك التعريف فإنه غالباً ما يكون تعريفاً غامضاً. وبالإضافة إلى أن مشكلة التعريف تتعدد بتعدد الكتابات فى الموضوع، إلا أنه يمكن القول أيضاً

إن تعدد التعريفات يرجع إلى تباين المناهج والمدارس ووجهات النظر بين كل من العلوم التي تدرس الشخصية القومية. ولابد من توافر عدد من الشروط لأجل الوصول لتعريف شامل للشخصية القومية. وأهم هذه الشروط هي :

أ- أن يكفل التعريف تغطية لأكبر قدر ممكن من التراث القائم بالفعل في هذا المجال.

ب- أن يكون تعريفا إنسانيا، بمعنى أن يكون نابعاً من علوم الإنسان ككل.

ج- أن يتسم بقدر من المرونة يسمح بتغطية إسهامات المدارس المختلفة داخل كل تخصص علمي من تخصصات العلوم الإنسانية.

د- أن يكفل استمرارية البحث في هذا المجال بوضعه في الاعتبار عامل تغير الظاهرة موضع الدراسة.

ه- أن يكفل اختبار لصحة نتائج البحوث في هذا المجال.

وانطلاقاً من هذه الشروط يمكن تبني تعريف مقترح للشخصية القومية بأنها :

"شخصية الجماعة هي مجمل تلك الخصائص المستمرة نسبياً الذي يكفل فهمها تفسيرياً وتنبؤياً للنشاطات الظاهرة لأعضاء جماعة معينة في فترة تاريخية محددة تتسم بالاتساق داخلياً وخارجياً".

ولتوضيح هذا التعريف سوف نناقش مكوناته بالتفصيل :

أ- "مجمل" : تشير إلى حصيلة تفاعل الخصائص المختلفة، فنفس الخصائص قد توجد لدى العديد من المجتمعات، ولكن ما يميز جماعة عن أخرى هو الصورة المتكاملة التركيبية لتفاعل تلك الخصائص معاً في ظل ظروف محدودة.

ب- "الخصائص" : تستخدم كبديل لتغيرات أخرى مثل "السمات النفسية" أو "الخصائص والأنماط الشخصية" أو "تكون الشخصية" "أنساق الاتجاهات والمعطيات السلوكية المميزة" إن مثل هذه التغيرات التي تبدو أكثر تحديداً إلا أنها تضيق من نطاق تطبيق المصطلح ابتداء في مجال علم

النفس دون غيره من العلوم الإنسانية. وكذلك فإن اختيار كلمة "الخصائص" على إطلاقها دون إردافها بصفة النفسية يفتح الطريق أمام اجتهادات العلوم المشاركة جميعا لتناول تلك الخصائص كل من منطلقه المتخصص، ودون أن يخل ذلك ببناء التعريف. فلا بأس من أن ينصب التعريف على الخصائص الجغرافية أو التاريخية أو النفسية أو الاجتماعية أو الأنثروبولوجية. ومن ناحية أخرى، فإن إطلاق ذلك التعبير دون تحديد يتيح أيضاً في نطاق علم النفس تغطية ما هو شعوري أو لا شعوري، وما هو موروث أو مكتسب مما تختلف في الآراء والتقييمات.

ج- "المستمرة" : والمقصود بالاستمرار هو التواتر على المدى الزمني، وهذا يتجنب الانزلاق إلى التعميم من معطيات واقعية مؤقتة أو من مظاهر أو ردود أفعال لمواقف عابرة، وبالرغم من أن هذه المعطيات المؤقتة قد تمارس تأثيرا تسلطيا على شخصية الجماعة ولكن هذا لا ينبغي أن يقلل من ضرورة الحذر من التعميم المبالغ فيه. ومثل ذلك الحذر لا يعني بدوره إغفالاً لمحاولة رصد وتفسير مثل تلك المواقف أو المعطيات المؤقتة في حدود دلتا كنتائج أو كمؤشرات مستقبلية لتشكيل شخصية الجماعة.

د- "نسبياً" : لابد من التعريف أن يقرن الاستمرار بالنسبة. وإذا كانت الاستمرارية هي التواتر على المدى الزمني، فإن تقدير المدى في كمجال بحوث شخصية الجماعة أو تحديد ظروف عديدة تتعلق باستراتيجية كل بحث على حدة، وهي تختلف تبعا لتخصص الباحث. ولطبيعة الجماعة موضوع الدراسة. بل وأيضا تبعا للهدف من البحث. ويمكن القول أيضا إنه كلما اتسع ذلك المدى الزمني، أي كلما ازدادت استمرارية الخصائص التي يستند إليها الباحث - ازداد اقتراب النتائج من العينة.

ه- " الذي يكفل فهما تفسيريا وتنبئيا ": والمقصود أنه ينبغي أن يتوافر فيما يتوصل إليه الباحث من مجمل الخصائص أمران: أن يقدم تفسيرا لما هو قائم، ثم أن يسهم في التنبؤ بما هو قادم، وكلا الأمرين شرط أساسي لأية

معرفة علمية. فبدون التفسير يفقد العلم قيمته المعرفية، وبدون التنبؤ يفقد قيمته العلمية أيضا.

و- "النشاطات الظاهرة ": تشمل النشاطات فى هذا التعريف كافة ما يمارسه أفراد الجماعة من نشاطات إنسانية يتمثل على سبيل المثال فى أنماط سلوكية، وعادات وقيم، واتجاهات وتشريعات وتنظيمات اجتماعية، وانتاج أدبى وعلمى وفنى . . . الخ. هذه الأنشطة هى بمثابة الواقع القائمة بالفعل، والتى تسعى الدراسات والبحوث إلى أن تستخلص منها ذلك المفهوم النظرى الافتراضى الذى ينسب عليه هذا التعريف، أى شخصية الجماعة، ومن هنا وجب أن يكون واضحا أن المقصود بتلك الأنشطة هو ما ظهر لنا وأمكن ملاحظته فحسب.

ز- "الأعضاء": استخدم هذا التعبير بدلا من ألفاظ "مواطنين " أو "الأعضاء الراشدين " أو غالبية أعضاء المجتمع "، أو "الأنماط الشخصية المنوالية "، إن هذه المفاهيم تقوم على افتراض بتساوى الوحدات محل القياس . ولكن فى مجالات بحوث الشخصية القومية يبدو مختلفا. وذلك لأن أفراد أى جماعة إنسانية، أيا كان البحث فى تصنيفها لا يمكن تصورهم متساوين فى تأثيراتهم على الجماعة التى ينتمون إليها. ومن ناحية أخرى، فإن الجماعة الفرعية بدورها لا تمارس تأثيرات متساوية عن الجماعة الأكبر التى تنتمى إليها. بل أن تلك التأثيرات تتفاوت تبعا لخصائص كل من الجماعة الفرعية ولا يمكن الحديث مثلا عن أغلبية وأقلية. مزيدا على ذلك أن بحوث الشخصية القومية تسهم بالإجابة عن تساؤل علمى مؤداه: ما الذى يحتمل أن تتخذه جماعة معينة من تصرفات فى موقف معين؟ مثل تلك التصرفات أيا كانت لا يشارك فيها أفراد الجماعة المعينة جميعا، وعلى حد السواء. بل أن بعض الجماعات الفرعية السائدة تاريخيا قد يكون لها التأثير الأكبر فى جميع تلك التصرفات.

ح- "جماعة معينة ": المقصود بأعضاء كافة من تنطبق عليهم شروط عقيدتها. وقد تتعدد هذه الشروط بما قد يفوق تعدد التصنيفات المختلفة لأنواع

الجماعات، وهذا المصطلح يختلف عن ألفاظ مثل "الأمة" و"المجتمع" و"الحضارة"، كما تشير هذه التعبيرات من تعدد في المعاني. كذلك فإن استخدام مثل هذه الألفاظ يحصر الحديث في نطاق الشخصية القومية دون أن يعطي مجالا للحديث عن الشخصية المهنية أو الطبقية أو العمرية، على حين أن "جماعة معينة" يشمها دون تعسف.

ط- "في فترة تاريخية محددة": والمقصود بذلك أن شخصية الجماعة -شأنها في ذلك شأن كل ما يتعرض له العلم- خاضعة للتغير والتغيير وكلاهما بالنسبة لشخصية الجماعة إنما يتم في إطار تاريخي وكمحصلة للعديد من الظروف المتشابكة الاقتصادية والجغرافية السياسية والحضارية إلى أخره. أن شخصية الجماعة لا تتكون فجأة، بل هي نتيجة تراكم تاريخي طويل، يفرض على الباحث في هذا المجال تساؤلا مؤداه: وماذا قبل ذلك ؟ ولا تحمل الوقائع الراهنة التي يتصدى لها بالتفسير إجابة مباشرة على تساؤله، في حين أن المنظور التاريخي وحده هو الذي يمكن للباحث من خلاله أن يفسر الكثير مما يعترى تلك الوقائع الراهنة من غموض. ومن ناحية أخرى، فإن إبراز البعد التاريخي لشخصية الجماعة يفرض على الباحث أيضا ضرورة التصدي لتساؤل مؤداه: وماذا بعد ذلك؟ انطلاقا من أن عملية التراكم التاريخي عملية مستمرة، وأنه لا نهاية للتاريخ. ولمثل ذلك التنبؤ أهمية لتحديد مجرى شخصية الجماعة.

ي- "يتسم بالاتساق داخليا وخارجي": و الإنسان الذي نعنيه على المستوى التفسيري لا التسجيلي. فليس حتما أن يكون ذلك الخليط من الوقائع أو النشاطات الظاهرة متسقا في حد ذاته. بل أن الاقتراب إلى التوقع أن يسود تلك الوقائع على المستوى التسجيلي قدر من التفكك الظاهر وعدم الاتساق الذي لا يمكن أن يتلاشى إلا بجهد يبذله الباحث بغية الفهم. ويقصد بالاتساق الداخلي مدى اتفاق النتائج التي يتوصل إليها بحث معين مع القوانين العامة التي توصل إليها التخصص العلمي المحدد الذي ينتمي إليه الباحث في المرحلة الراهنة. بمعنى أن تكون تلك النتائج قابلة

للفهم في إطار الحقائق العامة المتاحة في ذلك التخصص في المرحلة الراهنة..

أما الاتساق الخارجي فأمر تفرضه طبيعة البحث في موضوع شخصية الجماعة. حيث تقتضي الإحاطة به تضافر مجموعة من العلوم الإنسانية جميعا.

٣-كيفية دراسة الشخصية القومية

أ- التوصيفات السابقة

يصف دوبجكر وفريجدا الأساليب التي اتبعت في دراسة الطابع القومي، فيميز بين الأساليب الفردية والأساليب الجماعية . وتضم الفئة الأولى الأساليب التي استهدفت الخصائص السيكولوجية الأفراد بدراسة هؤلاء الأفراد أنفسهم ويضم الفئة الثانية تلك المناهج الموجهة نحو اكتشاف صفات الأفراد والتجمعات باستخدام بيانات جمعها أفراد آخرون أو تم جمعها خلال مصادر غير محددة.

أولا : الأساليب الفردية

١- الملاحظة. وتشمل إلى جانب الملاحظة المنظمة. تجمع الملاحظات التي أوردها ملاحظون مختلفون.

٢- المقابلة التي تستهدف الحصول على بيانات واقعية مباشرة .

٣- أساليب الاستبيان ، وتشمل الاستبيانات المكتوبة والمقابلات المقننة وقوائم الشخصية وما إلى ذلك.

٤- المقابلة الحرة .

٥- اختبارات معينة لسمات الشخصية، وتشمل إلى جانب فنتي المقاييس الفسيولوجية والمقاييس الحسية، والإشارة هنا إلى ثمانية اختبارات محددة من اختبار الشخصية ، كاختبار ستيورات للاستجابة الفعلية واختبار بافيلاس للأيديولوجية الأخلاقية واختبار إكمال القصص ، والرسم الحر وهكذا . . .

٦- إحصاءات السكان. وتشمل تلك الإحصاءات المتعلقة بانتشار الامراض العقلية في مجتمع معين، إلى جانب الإحصاءات الديموجرافية العامة.

٧- الأساليب الإسقاطية، وتضم ثلاث عشر فئة يقتصر بعضها على اختبار إسقاط من اختبار بقع الحبر(رورشاخ) أو اختبار تفهم الموضوع، أو اختبار الجشطلت، وما إلى ذلك. وتتسع ثقافة أخرى لتضم الفئة مجموعة من الأدوات الإسقاطية تتبع أسلوبا واحد، كاختبار إكمال الجمل، والأساليب النصف إسقاطية، وتحليل الأحكام والرسم الحر، وما إلى ذلك.

ثانيا: بيانات ذات طبيعة جمعية

١- تحليل الطقوس.

٢- تحليل التراث.

٣- تحليل الأفلام.

٤- تحليل العينة.

٥- تحليل أنساق التفكير الحضارية.

على أن تصنيف دوبجكر وفرويد يؤخذ عليه هذه الانتقادات:

١- تم عرض الفئة الأولى من فئتي التصنيف تحت عنوان الأساليب الفردية أما الفئة الثانية فقد تم عرضها تحت عنوان بيانات ذات طبيعة جمعية. وفضلا عن تعارض هذه التسميات مع أسس التقسيم التي حددها المؤلفات. إلا أن الحديث عن الأساليب والبيانات إنما يعني مباشرة الحديث عن تصنيفين لا تصنيفا واحدا. فليس ثمة ما يحول دون اتباعها أسلوب فردي للحصول على بيانات جمعية أو اتباع أسلوب جمعي للحصول على بيانات فردي.

٢- وضع المؤلفان أسلوب تجميع الملاحظات التي جمعها ملاحظون مختلفون ضمن أولى فئات الأساليب الفردية، وكان منطقيا وفقا لتحديد لأسس التقسيم المتبع أن ينضم هذا الأسلوب إلى القسم الثاني.

٣- اعتبر المؤلفان معالجة إحصاءات السكان ضمن الأساليب الفردية رغم أنها بيانات جمعها آخرون، فضلا عن طبيعتها الجمعية الواحدة .

ويقدم لنا انكلز وليفستون الأساليب التى اتبعت فى دراسة الطابع القومى على النحو التالى :

١- تقييم شخصية أعداد مختلفة من الأفراد الذين يدرسون بصفتهم أفرادا وليس من خلال سلوك ككل.

٢- تحليل السيكولوجى للظواهر الجمعية للراشدين(الممارسات النظامية الفولكلور ووسائل الاتصال الجمعى) وما إلى ذلك باعتبار خصائص الشخصية المفترض تكون متوالية بين السكان . .

٣- التحليل السيكولوجى لنسق تربية الأطفال بهدف استنباط أو تحديد ما يغرسه هذا النسق فى شخصية الطفل، ومن ثم فى التحليل الثانى من الراشدين.

ويؤخذ على هذا التصنيف أن انكلز وليفستون تمسكا بمفهوم الشخصية المنوالية، وما يعرضه من قصر لشخصية الجماعة على شخصيات راشديها. هذا أدى بهما إلى إضافة التحليل السيكولوجى لنسق تربية الطفل باعتباره أسلوب مستقلا من أساليب البحث فى مجال شخصية الجماعية.

أما مارجريت ميد فإنها تتناول بالتحديد مجال دراسة الجماعة عن بعد. فتذهب إلى أنه إذا ما قسمنا المجال وفقا للمرادفات بلا من تقسيمه تبعا للنظريات فإننا نستطيع أن نميز أدوات مختلفة باستخدام تواريخ الحياة . . ملاحظة الأطفال وعلاقاتهم المتبادلة مع الأباء . . الاختبارات الإسقاطية . . تحليل مواد تاريخية أو حضارية فى ضوء مفاهيم التحليل النفسى، أساليب اللعب المقابلة المتجمعة المتأثرة باتجاه التحلل النفسى. الاستبيانات الكاشفة . . . تحليل الأساطير والمواد المكتوبة. تحليل الدراما والطقوس والاحترام. ولكن يؤخذ على حصرها لهذه الأدوات هو تكاملها وأساليب أخرى مثل الإذاعات وقياسات الرأى العام وتحليل اللغة. كذلك يؤخذ عليها أنها اقتصرت فى تصنيفها على الأدوات المستخدمة دون التعرض لطبيعة الأفراد الذين تعامل معهم والإخباريين.

ب- نحو تصنيف مقترح للأساليب المستخدمة

إن تبين أوجه النقد في التصنيفات السابقة يضعنا حيال تصور لتصنيف مقترح للاساليب التي اتبعت في مجال دراسة شخصية الجماعة يتلافى قدر الاستطاعة أوجه القصور السابقة. ويمكننا وفقاً لذلك التصور أن نصنف تلك الأساليب على الوجه التالي :

أ- المادة : يقوم هذا الأسلوب على اللقاء المباشر بمجموعة أو بمجموعات من الأفراد بهدف دراسة شخصية الجماعة. ووفقاً لذلك التصور يمكننا أن نميز بين نوعيات ثلاث لأولئك الأفراد الذين يمثلون مادة ذلك الأسلوب.

١- أفراد الجماعات الأصلية المستهدفة : أي أن تتم دراسة شخصية الجماعة خلال الدراسة المباشرة لأفراد منتمية لهذه الجماعة، انتماء قائماً أثناء الدراسة.

وتوفر تلك النوعية المناخ الأمثل لدراسات شخصية الجماعة من حيث إمكانيات ضبط المتغيرات واختيار العينات وإجراء المقارنة الداخلية، وما إلى ذلك.

٢- أفراد جماعة مغتربة : ذلك عن استحالة توافر النوعية الأولى، أي عندما لا يجد الباحث مادة بحثه. ويقوم تناول مثل تلك الجماعات المغتربة على حقيقة أنه لا توجد جماعة معاصرة منفصلة تماماً عما يجري خارجها، منغلقة على نفسها انغلاقاً تاماً. مهما بلغ حرص الجماعة على إحاطة ما يجري داخلها بسياج من الحرية. فإن ذلك السياج يتعرض في كثير من الأحيان لشيء من الخلخلة نتيجة لعديد من الظروف وفي هذه الحالة يمكن أن يتوافر لدى الباحث مجموعة من الأفراد يتيح لهم نتيجة لظرف أو لآخر الاقتراب من الجماعة المستهدفة لفترة تطول أو تقصر. ويصبح على الباحث حينئذ أن يسارع إلى هؤلاء المغتربين محاولاً أن يستخلص من مشاهداتهم وأحاديثهم ولقاءاتهم

داخل الجماعة المستهدفة ما يتيح له معرفته لشخصية تلك الجماعة. وهناك العديد من الافتراضات التي توجه إلى نتائج مثل هذه الدراسات أهمها :

أ- أن الاعتماد على أفراد الجماعة المغتربة يعتمد في النهاية على قدرة هؤلاء الأفراد على التعبير عن أفكارهم. فضلاً عن قدرتهم على التقاط ما له دلالة من مظاهر السلوك التي أتيح لهم رؤيتها والتجاوز عن سواها. كذلك قدرتهم على التذكر والاستطلاع. وتلك القدرات جميعها متفاوتة من فرد لآخر. فضلا عن تأثرها بالعديد من العوامل الشخصية والبيئية.

ب- إن طبيعة اقتراب هؤلاء من الجماعة المستهدفة تفرض عادة أن تكون الاتصالات التي يتاح لهم إقامتها مع أفراد تلك الجماعة اتصالات محدودة ومصطنعة.

ج- إن مدة إقامة هؤلاء المغتربين لا تبلغ من الطول عادة ما يتيح قدراً معقولاً من الاطمئنان إلى ما يمكنهم استخلاصه خلالها.

٣- أفراد جماعة منعزلة : يستقي الباحث في تعامله مع أفراد الفئة السابقة - أي مع أفراد الجماعة المغتربة - معلوماته من أفراد ينتمون إلى جماعته هو. أو على الأقل لا ينتمون إلى الجماعة المستهدفة. أما في حالة الجماعة المنعزلة. فإن الباحث يستقي معلوماته من أفراد ينتمون إلى تلك الجماعة المستهدفة، أو على الأرجح كانوا ينتمون إليها وانقطعت صلتهم بها لسبب أو لآخر، ومضت على تلك القطيعة فترة زمنية تزيد أو تقل.

ويؤخذ على النتائج المستقاة من هؤلاء الأفراد أنها تقوم على افتراض مسبق مؤداه أنهم يمثلون أفراد الجماعة الأهلية المستهدفة بدرجة تسمح بتعميم النتائج المستخلصة من دراستهم على أفراد تلك الجماعة. وليس هذا من الصحة في شيء، فمجموعة الأفراد الذين كانوا ينتمون لجماعة معينة ثم نزحوا عنها لسبب أو لآخر وأقاموا داخل جماعة جديدة استقر بهم المقام فيها. لا يمكن بحال أن يمثلوا أفراد جماعتهم الأصلية لسبب أساسي يتمثل في مجرد إقدامهم على الخروج عنها. إن ذلك النزوح يعني أن سمات وخصائص هؤلاء الأفراد لا

تتفق مع السمات أو الخصائص المكونة لشخصية الجماعة الأصلية وفي كثير من الأحيان يكون ذلك الاختلاف ضمن الأسباب الرئيسية التي أدت بهم إلى الإقدام على النزوح أو الهجرة.

ب- الأدوات : اذا ما أتيح للباحث اتباع هذا الأسلوب. أي أسلوب تحليل الأفراد. فإنه يصبح في النهاية حيال عينة من الأفراد بصرف النظر عن طبيعة تكويناتهم. وبالتالي فإن المجال يصبح مفتوحاً أمامه واختيار الأدوات السيكولوجية التي يراها مناسبة للتعامل مع هؤلاء الأفراد وبالفعل فإن استعراض البحوث التي أجريت في مجال شخصية الجماعة وأتيح فيها للباحث أن يتبع هذا الاسلوب يكشف عن انه لا تكاد توجد وسيلة لقياس الشخصية أو القدرات لم تستخدم.

ثانياً : أسلوب تحليل الإنتاج

أ- المادة : تشمل المادة التي يمكن أن يعطيها هذا الأسلوب حصيلة كافة أوجه النشاط التي يمارسها أفراد الجماعة المستهدفة في حياتهم اليومية. دون أن يسعى الباحث إلى دفعهم إليها. ودون أن يقصدوا هم تقديمها للباحث. وأهم الفئات التي يمكن أن تندرج تحتها المواد هي :

١- الصحف والمجلات والإذاعات : وهي التي تعد تعبيراً مكثفاً عن الاتجاهات الفكرية السائدة في الجماعة المستهدفة، وبالتالي فإنه يمكن من خلال تناول تلك المواد بالتحليل التوصل إلى مكونات شخصية تلك الجماعة. ويمكن الاعتراض على ذلك بالقول إن هذه المواد قد لا تعكس في النهاية اللا شخصية ذلك القطاع من الجماعة الذي قام بإنتاجها.

٢- الإحصاءات السكانية : وهي مصدر خصب للبيانات القابلة للتحليل بهدف إلقاء الضوء على شخصية تلك الجماعة، مثل الإحصاءات الخاصة بديموجرافية الجماعة أو إحصاءات عن انتشار أنواع معينة من الأمراض النفسية والعقلية في أفراد الجماعة المستهدفة إلا أنه لا يمكن الاعتماد كلية

على هذه البيانات نتيجة عدم دقتها على النطاق القومى. إذ أن قطبيعة هذه البيانات تجعلها قاصرة على قطاع ضيق من السكان.

٣- الفولكلور : كثيراً ما يتجه المتخصصون إلى الفولكلور يستنبطون من تحليلهم لمادته ملامح شخصية الجماعة التى يشهدون دراستها. والمشكلة الرئيسية فى نتائج مثل هذه الدراسات تتمثل أساساً فى أن تعريف مصطلح الفولكلور والتفرقة بينه وبين بقية أنواع الإنتاج الأدبى يثير فى حد ذاته قدرا كبيرا من المجادلة والاختلاف.

٤- الأفلام السينمائية : إن تحليل الأفلام السينمائية فى دراسات شخصية الجماعة يفيض بالعديد من البحوث التى اعتمدت أساساً على هذه المادة.

ولا شك أن الاعتماد على تحليل الأفلام السينمائية تواجه بنفس الاعتراضات التى ذكرناها على تحليل بيانات الصحف والمجلات والإذاعات.

٥- تحليل اللغة : إن ارتباط اللغة بمفهوم القومية، رغم تباين الأشكال التى يمكن أن تتخذها هذه الرابطة. ولا شك أن اللغة تعكس فلسفة الجماعة فى الحياة وشخصيتها.

٦- تحليل الإنتاج الفكرى المكتوب : يتناول الباحثون فى مجال الشخصية الجماعية كافة أنواع الإنتاج الفكرى المكتوب لأفراد الجماعة المستهدفة. ويواجه هذا الاتجاه أيضاً بنفس الاعتراضات التى سبق ذكرها.

ب- الأدوات : لعل أهم الطرق المستخدمة فى ذلك المجال هو طريقة تحليل المحتوى، ويعرف بأنه أسلوب من أساليب وصف موضوعى ونسقى وكمى للمستوى الظاهر للاتصال. ويعترض على استخدام المحتوى بأن المحتوى ما هو إلا نتيجة واتصالات معينة، وكثيراً ما يكون تصورهم لهذه الاتجاهات وقيم الجمهور على ما هو عليه من تحيز - هو الذى يحدد ما يظهر. زد على ذلك. فإن محتوى الاتصال يكون عرضة أيضاً لضغوط الجماعات ذات المصالح. والتى قد يكون لها من الفعالية ما يكفى لتحديد أو على الأقل للتأثير فى طبيعة المحتوى.

ويقترح الدكتور قدرى حفنى اسلوبا آخر لدراسة الشخصية الجماعية. وهو اسلوب اعادة التركيب. ويعنى به التأليف التركيبى للمعارف المتخصصة المتناثرة من جماعة بشرية معينة. او تجمع بشرى معين. ويقوم استخدام اسلوب اعادة التركيب المقترح على مسلمتين نظريتين اساسيتين. هما :

أ- ان الانسان الفرد وحدة متكاملة مستقلة تفصح عن نفسها فى كافة مجالات النشاط الإنسانى. اجتماعية كانت او تاريخية أو اقتصادية أو سياسية. إلى آخره.

ب- إن كافة البحوث النفسية يمكن اعتبارها بحوثاً نفسية اجتماعية، سواء أفصح الباحث عن ذلك أو لم يفصح. وذلك طالما أنه لم يتم استبعاد عامل الفروق القومية. وهو ما لا يمكن استبعاده تماما إلا بإجراء كافة البحوث على عينات عالمية.

ويشترط لهذا النوع من الأسلوب توافر مادة متخصصة، نتيجة لتراكم عدد من البحوث النفسية الميدانية التى أجريت على عينات متنوعة، كذلك تنوع الاساليب والأدوات التى استخدمت فى تلك البحوث. وهكذا فإن أسلوب اعاده التركيب يكفل قدرا من تكامل العديد من الاتجاهات النظرية والأساليب والأدوات المستخدمة فى المجال. مما لا يمكن توافره عادة باتباع الباحث من أساليب أخرى.

٤-الشخصية المصرية والعربية

تنوعت الدراسات التى تحاول جاهدة دراسة الشخصية المصرية بين تاريخية وجغرافية وسياسية ونفسية واجتماعية. وسوف نحاول فى هذا الجزء أن نعطى ثلاثة نماذج لهذه الدراسات.

أ- الثقافة والشخصية العربية

تهتم الدراسات السوسيولوجية بالعلاقة العضوية بين الثقافة والشخصية بصفة عامة. والشخصية القومية بصفة خاصة. ولقد بينا أن هناك فرع من فروع علم الاجتماع يطلق عليه علم الاجتماع الثقافى. ولكن الى الآن نحن فى حاجة الى

ما يسمى بعلم اجتماع الشخصية. والمطلع على تراث العلوم الاجتماعية يجد اسهامات علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعى بدراسة الشخصية. ولقد طور حديثا فرع من فروع علم النفس يطلق عليه "علم نفس الشخصية". والعلم الذى ننادى به - أعنى علم اجتماع الشخصية - يبرز ما هو اجتماعى او إنسانى فى الشخصية، وكيف تختلف أنماط الشخصية تبعاً للبيئة الاجتماعية والثقافية. ولا يعنى هذا أننا لا نعطى اعتباراً لإسهامات العلوم الأخرى لدراسة الشخصية، سواء علم النفس أو الأنثروبولوجيا. ولكن ما نطالب به أن يكون هناك تخصص قائم بذاته لدراسة الشخصية من المنظور السوسيولوجى الصرف. فالدراسات النفسية تركز على مظاهر التباين الفردى فى السمات والقدرات دون أى اعتبار لأثر البيئة الثقافية والاجتماعية. كذلك الحال بالنسبة للأنثروبولوجيا. حقيقة هناك اهتمام بالمؤثرات الثقافية والاجتماعية، ولكن ليس هناك اهتمام بارز بدراسة تأثير الثقافة على شخصيات حامليها.

ولقد نشطت فى الآونة الأخيرة فرع من فروع الأنثروبولوجيا يطلق عليه "الأنثروبولوجيا النفسية". حيث يدرس قيمة العلاقة بين "الثقافة والشخصية"، وأثر كل منهما فى الآخر فى إطار مجتمع ما لتحديد مقوماته الأساسية والكشف عن الطابع القومى[1].

إن موضوع العلاقة بين الثقافة والشخصية العربية أحد مجالات علم الاجتماع الثقافى من ناحية وعلم اجتماع الشخصية من ناحية أخرى. وبادئ ذى بدء، لا يمكن فهم الطابع القومى للشخصية العربية دون الوقوف على الأنماط الثقافية المحيطة بها. وإن كانت الثقافة هى كل ما يكتسبه الإنسان بكونه عضواً فى المجتمع، كذلك الحال، فإن الشخصية الاجتماعية للفرد هى كل ما يكتسبه الإنسان لكونه عضواً فى الحياة الاقتصادية. فإن الشخصية الاجتماعية للفرد هى كل ما يكتسبه الإنسان لكونه عضواً فى الحياة الاجتماعية.

---

(١) زكى محمد إسماعيل "الثقافة والشخصية العربية". فى نخبة من أساتذة الجامعات العربية. دراسات فى المجتمع العربى. الأردنى. اتحاد الجامعات العربية (الأمانة العامة) ١٩٨٥، ص ٣٥٣.

وبهذا فإنه من الصعوبة بمكان الفصل بين الثقافة كميراث اجتماعي والشخصية كميراث فردي. فكلاهما - الثقافة والشخصية - متلازمين لا يمكن فهم أي منهما بدون الرجوع للآخر. فالثقافة هي المشكلة للفرد، وفي بعض الأحيان نجد أن الفرد هو صانع الثقافة والمحافظة عليها والمتغير والمتجدد فيهما. على أية حال، الشخصية العامة والشخصية العربية خاصة. هي ترجمة وانعكاس لكل ما يحيط بها من أنماط وسمات وتراث ولغة وقيم ودين.

ونظراً لتشابك موضوع الشخصية القومية، فإن تعاون العلوم الاجتماعية مطلوب، سواء في مجال الأنثروبولوجيا أو علم النفس أو التاريخ أو الجغرافيا أو علم الوراثة والأحياء.

إن الثقافة - كما قدمنا - هي كميراث احتماعي يجده الإنسان أمامه منذ ولادته حتى وفاته. هذا الميراث ليس جامداً بل قابل للتطوير والتعديل والتغير، كما يتضمن الثقافات الوافدة والثقافات الأصلية، وينقل ويتعلم هذا الميراث الاجتماعي إلى الأجيال جيل بعد جيل. وما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى، أنا الله قد أعطى الإنسان وعلمه مسميات الأشياء وقيمها. ولهذا فإن الإنسان له القدرة على أن ينتقي ويختار ويدرك ويبتكر ويبدع في ومن بيئته الثقافية. وتختلف درجة الانتقاء والاختيار باختلاف الثقافة نفسها، وباختلاف العمليات الاجتماعية والثقافية والتربوية. فالثقافة الحديثة، على سبيل المثال، تعطي للفرد الحق في الاختيار والانتقاء من بين سماتها ومركباتها وأنماطها الثقافية.

إن المؤتمر العربي الثاني للثقافة قد حدد الثقافة العربية بأنها : "حصيلة معارف الأمة وآدابها وعاداتها وتقاليدها واتجاهاتها الروحية والفنية"[1]. وبهذا تعد الثقافة أسلوب حياة في بيئة اجتماعية معينة، هذا الأسلوب يوجه الأفراد داخل الحياة الاجتماعية وينظم علاقاتهم ويساعدهم على التعبير عن حاجاتهم المادية والمعنوية.

---

(١) انظر : جامعة الدول العربية "المؤتمر الثقافي العربي الثاني". الإسكندرية ٢٢ أغسطس - ٣٠ سبتمبر ١٩٥٠.

يتضمن مفهوم الشخصية ثلاثة أبعاد أساسية: البعد الفردي أو الذاتي - وهو الخاص بالعوامل النفسية والجسمية التي تشكل الفرد. وهناك البعد الاجتماعي وهو متعلق بالبيئة الاجتماعية وكل السبل التي مر بها الفرد حتى أصبح عضواً في جماعة ما - الأسرة أو المهنة أو جماعة الأصدقاء . . . الخ. وهناك أيضاً البعد القومي أو ما يطلق عليه الطابع القومي أو الشخصية القومية. وهي ما يميز شعب من الشعوب عن غيره من الشعوب الأخرى. وعندما نتحدث عن الشخصية القومية، فإننا نتحدث عن تاريخ ولغة ودين وحضارة وأسلوب حياة مجتمع من المجتمعات دون غيره.

والمطلع على تراث العلوم الاجتماعية يجد التنوع الهائل في تعريفات الشخصية[١]. وقد يرجع تعدد المفاهيم إلى تعدد نظريات الشخصية والجوانب المتعددة لسمات الشخصية الجسمانية، العقلية، الخلقية، النفسية، الاجتماعية، القومية. بالإضافة إلى تعدد العلوم الاجتماعية التي تهتم بدراسة الشخصية، مثل علماء النفس والوراثة والحياة والأنثروبولوجيا والاجتماع.

ومن حيث البعد الفردي أو الذاتي، تعرف الشخصية - كما يذهب برنس Prince بأنها "المجموع الإجمالي لكل الأمزجة والدوافع والميول والشهوات والغرائز الفطرية والبيولوجية، وكذلك الميول والاتجاهات المكتسبة عن طريق التجربة". ويعرفها واطسن Watson بأنها "مجموع الأنشطة التي يمكن اكتسابها عن طريق الملاحظة الواقعية لفترة طويلة تسمح بتطوير مادة يمكن الاعتماد عليها"[٢]. وكما هو واضح من التعريفات الخاصة بالبعد الفردي أن محور التركيز هنا حول القوى التي يمتلكها الفرد، والتي تحدد استجابته للمواقف التي يمر

---

(١) يشتق لفظ شخصية في اللغة العربية من الفعل "شخص" أي أبصر ورأى ما تراه العين وتبصره. وجاء في القرآن الكريم: {إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار} إبراهيم: ٤٢.

وفي الأصل اللاتيني يرجع إلى لفظة Persona أي القناع الذي يرتديه الممثل ليساعده على القيام بدوره. وبهذا يستخدم المصطلح للإشارة "عما يقوم به الشخص نفسه من دور يعبر هو ذاته عنه. زكي محمد إسماعيل. مرجع سابق. ص ٣٦

(٢) عاطف وصفي. الثقافة والشخصية. القاهرة. دار المعارف. ص ١٠٢ - ١٠٣

بها. ولهذا فإن لكل إنسان شخصيته التي تميزه عن غيره من أقرانه. فالشخصية على هذا النحو - هي الشعور الذاتي الذي يشعر به الفرد بتميزه عن غيره، وينعكس هذا في سلوكه.

ويأتي مصطلح الشخصية القومية National Personality أو الشخصية الاساسية Basic Personality والشخصية المنوالية Model Personality لتشير في معظم التعريفات إلى نفس الشيء. فالشخصية القومية هي "طراز أو نمط الشخصية الشائع الذي يحظى بأكبر نصيب من التكرار في أية دولة متحضرة. ولذا كان هذا الطراز من الشخصية معبراً عن نوع الكائن البشري الموجود في هذا المجتمع".

ولا يختلف تعريف الشخصية الأساسية عن الشخصية القومية على أساس أن الشخصية الأساسية "تعد من عناصر الشخصية المشتركة بين أعضاء المجتمع أو الثقافة".

ويرى بعض الباحثين أن مفهوم الشخصية الأساسية ينطبق على الشخصية في المجتمعات المحلية او التقليدية أو المعزولة. وقدم عالم النفس التحليلي كاردنر Kardiner تعريفا للشخصية الأساسية بأنها : "ذلك الشكل من الشخصية المشترك بين السواد الأعظم من أبناء المجتمع نتيجة خبراتهم السابقة المشتركة". ويقدم رالف لينتون R. Linton تعريفاً آخر : أنها "شكل متكامل إلى حد كبير، وأن وجودها يمد أفراد المجتمع بفهم وقيم مشتركة ويجعل من الممكن توفر الاستجابات العاطفية لأعضاء المجتمع بالنسبة للمواقف التي تتصل بقيم مشتركة بينهم".

أما الشخصية المنوالية فتعرف بأنها "أكثر أنماط الشخصية شيوعاً في مجتمع معين أو ثقافة معينة" أو أنها "نمط الشخصية الذي يظهر بأكثر قدر من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية في مجتمع واحد محدد"[1]. هذه المفاهيم الثلاثة تشير إلى شيء واحد هو وجود شخصية عامة لها طابع قومي في مجتمع

---

(١) عاطف وصفي، مرجع سابق، ص ١٠٣.

ما. هذه الشخصية القومية هي التي تعكس السمات الثقافية والتراكم الحضاري لشعب من الشعوب تميزه عن شخصيات قومية أخرى.

ب- الدراسات الخاصة بالشخصية العربية

الشخصية العربية هي نتاج للثقافة والرصيد التاريخي المتراكم العربي. ولا يمكن فهم الشخصية العربية دون الحديث عن مقوماتها وسماتها وطابعها العربي. وإن كانت الثقافة والحضارة العربية تؤثر في الشخصية العربية وتطبعها بطابعها. فالشخصية العربية بدورها أثرت وما زالت تؤثر في البنيان الثقافي والحضاري العربي. وتعد الثقافة الإسلامية أحد المقومات الأساسية للثقافة العربية ومن ثم للشخصية العربية. وتعد العقيدة (الدين الإسلامي كنظام حياة)، واللغة العربية (كأداة فكر وتراث معاً) والتاريخ (كنتاج وحصيلة للتراث المتراكم) والتراث (التراث والمتغيرات في الفكر الإسلامي) من أهم مقومات الثقافة والشخصية العربية[1].

هناك العديد من الدراسات[2] التي استهدفت تحديد السمات والملامح الأساسية للشخصية العربية. وتميزت هذه الدراسات إما بالتحيز ضد العرب والإسلام، ومن ثم الشخصية العربية أو الدفاع عن الإسلام والعروبة، ومن ثم الشخصية العربية. وغاب عن كلا الفريقين التحليل العلمي لمعرفة السمات الإيجابية والسلبية للشخصية العربية. ومنذ القرن السابع الميلادي - أي مع قدوم الإسلام، وهناك مواجهة حضارية بين العرب والغرب، حاول كل طرف أن يصوغ

---

(١) زكي محمد إسماعيل، "الثقافة والشخصية العربية"، مرجع سابق، ص ٣٦٢ - ٣٦٨.

(٢) هناك العديد من الدراسات عن الشخصية العربية، على سبيل المثال R. Patal في كتابه عن العقل العربي The Arab Mind.

- السيد ياسين. الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلي والمفهوم العربي، جابر عبد الحميد، وسليمان الشيخ. دراسات نفسية في الشخصية العربية. القاهرة. عالم الكتب. ١٩٧٨.

- زكي محمد إسماعيل. الثقافة والشخصية الإسلامية: دراسة في "الأنثروبولوجيا النفسية". ضبعة كلية العلوم الاجتماعية. عدد ٢. الرياض. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ١٩٧٨.

صورة للآخر. ويحدد الباحثين أربعة مراحل تاريخية لهذا الصراع الحضارى. كانت المرحلة الأولى أثناء الفتح العربى فى القرنين السابع والثامن الميلادى. حيث عبرت الجيوش العربية الجزيرة العربية حتى وصلت إلى الأندلس وفرنسا. وتميزت هذه المرحلة بالطابع العدائى من الغرب للعرب الغزاة أصحاب حضارة ودين جديدين مخالفين لما هو شائع فى أوربا فى تلك المرحلة. أما المرحلة الثانية فكانت أثناء الحروب الصليبية حيث "كانت كفة العرب هى الراجحة إذ كانوا يمتلكون ما يمكن تقديمه لأوربا . . . لهذا كان أخذهم أكثر من عطائهم. بيد أن هذه النظرة المعتدلة لم تتوقف إلا مع بداية القرن السابع عشر، حيث كانت معركة "ليبانتو" التى دمر فيها جوان النمساوى قوة الترك البحرية . . . الأمر الذى جعل قوة الإسلام وخطره يتضاءلان فى نظر الغرب رويداً . . .".ومع نهاية تلك المرحلة تغيرت صورة العرب فى نظر الغرب وسيطرت عليهم الروح السلبية وأثر على تقييمهم للشخصية العربية. "فهو تقييم المنتصر تجاه المهزوم بما يحط من شأنه. هذا بالإضافة إلى ما ترسب من روح عدائية انطوت عليها صدور الغربيين الذين هزمهم العرب بالأمس فى عقر دارهم، ناهيك بأن العالم العربى قد دخل فى مرحلة التخلف الحضارى"[1].

وجاءت المرحلة الثالثة مع الغزو الاستعمارى لمعظم البلاد العربية والتى امتدت من بدايات القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين. ولا شك أن المستعمر قد ترك بصماته على سكان العالم العربى مما أثر ولو ظاهرياً على طبيعة الشخصية العربية. "إن المستعمر فى هذه المرحلة السوداء لم يكتف باستغلال العرب اقتصادياً وإنما ركز على ما يسمى بـ"استعمار الشخصية" أى محاولة تجريد الشخصية العربية من مقوماتها الإسلامية وتراثها العربى، وإن استطاعت الشعوب العربية أن تفلت من هذا الشكل البغيض بإثبات شخصيتها العربية الواضحة المعالم والتى انتصرت تباعاً على المستعمر . . . إن المستعمر جند فى هذه المرحلة . . . فلاسفته وعلماء الاجتماع . . . لرسم صورة للشخصية العربية المتخلفة، ومن ذلك ما قرره "جورج ديهاميل" . . . من أن الذهنية (العقلية)

(1) زكى محمد إسماعيل. مرجع سابق. ص ٣٦٨ - ٣٧٠.

الشرقية عاجزة عن الفكر التركيبي وعن تجاوز الذات. ويؤكد هذا باحث آخر هو "جب" حيث يتهم الفكر الإسلامي بأنه غير قادر على عمليات التركيب"[1].

أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهي المرحلة الراهنة التي يعيشها العرب – أي مرحلة ما بعد الاستعمار والتحرر والاستقلال الوطني – وبالرغم من التعامل المتكافئ بين الغرب والعرب في الأصعدة والعلاقات الدولية، إلا أن العداء التاريخي ما زال مستمراً، ويظهر هذا في التأثير المادي والمعنوي لإسرائيل[2].

وتشير الدراسات الميدانية على استمرار النظرة المتميزة المعادية للعرب من خلال النظريات المزيفة التي يروجها الفكر الغربي عن تخلف الإنسان العربي إذا ما قورن بإنسان الغرب، ويعزو مورو بيرجر M. Berger أسباب جهل الغرب بطبيعة العرب إلى "الصراع العربي الإسرائيلي"، وكذلك الانطباع الشائع والخاطئ عن أن العرب يملكون مصادر بترولية ضخمة ولكنهم يضيعونها، وكذلك مقاومة العرب لنفوذ الغرب السياسي المتسلط والداعي إلى التوسع الاقتصادي على حساب الدول الأخرى[3].

هناك مجموعة من الدراسات الغربية التي اهتمت بتحليل الشخصية العربية، والتي تميزت بالفهم التعاطفي مع الشخصية العربية، من حيث دراسة الماضي والحاضر والمشكلات التي تعاني منها الشخصية العربية وتكيفها مع المحدثات الجديدة. ويمثل هذا النوع من الدراسة تلك الدراسة التأملية بدراسة العوامل الحضارية والاجتماعية والنفسية في الشرق الأوسط. والذي نشر عام ١٩٥٩ وقدمه جورج جاردنر G. Gardiner بمقدمة تتميز بالموضوعية والنزاهة العلمية. وفي هذه المقدمة نجد تحديداً للعوامل التي تسهم في تشكيل

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧١ – ٣٧٢. انظر أيضاً: أحمد عزت عبد الكريم "العلاقات بين الشرق والغرب وأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر"، في إشراف محمد شفيق غربال.

(٢) دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة. القاهرة: جامعة الدول العربية. (د.ت).

(٣) المرجع السابق، ص ٣٧٢ – ٣٧٣. انظر أيضاً:

Berger, M., The Arab World Today. New York Anchor Books. 1967 p XIV

سمات الشخصية العربية وتحديد أنماطها من خلال الوضع الراهن في الوطن العربي، مثل سيادة التنظيم القبلي مما يؤدي إلى تقوية الروابط التسلطية في الأسرة، انتشار الأمية حيث تصل في بعض المجتمعات العربية إلى ٩٠٪ خاصة في المناطق الريفية، وكما تؤدي نوعية الحياة الدينية إلى الخضوع لمشيئة الله مما يؤدي إلى سيادة اتجاهات القبول لمختلف مشكلات الحياة اليومية، كذلك تأثير البدو الرحل على بقية السكان الريفيين والمدنيين، كما أن هناك تركيز على روابط الولاء داخل الجماعات الاجتماعية الصغيرة يقابل انفصاماً في الشعور بالانتماء والولاء للمجتمع الكبير[1].

ولقد بين جاردنر العوامل التي أدت إلى التغير الاجتماعي والثقافي وانعكست على سمات الشخصية العربية، مثل الحربين العالميتين والعلم الحديث وتطور الزراعة والصناعة، وظهور الوعي بأهمية بناء مجتمع جديد، ووسائل الإعلام الحديثة. كل هذه العوامل وغيرها قد أحدثت تغيرات عميقة فيما بين المجتمع العربي المعاصر، وتركت بصماتها على الشخصية العربية المعاصرة من خلال انفتاحها على الثقافات الأخرى. وإن كان هذا التقرير قد تم منذ عام ١٩٥٩، فإن عوامل التغير قد تضاعفت واتسع مداها وشملت العديد من القطاعات في المجتمع العربي المعاصر[2].

وعلى الجانب الآخر هناك دراسات غربية حاولت بطريقة سافرة أو ضمنية تشويه صورة المجتمع العربي عامة والشخصيات العربية خاصة. وفي كتابه عن العالم العربي حاول مورو بيرجر في فصله عن شخصية العرب وقيمهم أن يرجع مصادر الشخصية العربية إلى قيم البدو الرحل التي سيطرت على المجتمع

---

(١) "إن خضوع الشخصية العربية بفعل الحس الديني إلى مشيئة الله فإن هذا يعد من إيجابيات الشخصية العربية لا سلبيتها ما دامت المشيئة قرينة التوكل عليه تعالى بعيدة عن التواكل أو الكسل أو الخمول أو الترهب الذي يحرمه الإنسان وينهى عنه. ولكن الباحثين الغربيين قد لا يفهمون هذا".
زكي محمد إسماعيل. مرجع سابق، ص ٣٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧٤.

العربى، كما يرد أساس هذا الشخصية إلى التاريخ الطويل للخضوع الأجنبى والفقر ونماذج تربية الأطفال فى عملية التنشئة الاجتماعية.

ولقد حاول برجر أن يضع بعض التحذيرات المنهجية لدراسة الشخصية العربية، متمثلة فى أنه "لا يعطى أحكاماً عن العرب فى عمومهم - الشيوخ والشباب، الذكور والإناث، المسلمين والمسيحيين، التقليديين والمحدثين - وإنما حاول أن يركز على ما يسمى النقطة المنوالية فى دراسة الشخصية. وبالرغم من عدم معرفة المصادر التى استقى منها برجر أحكامه وتعميماته، كذلك فإن قيم البدو الرحل التى اعتقد أنها الشكل الرئيسى للشخصية العربية لم تعد هى العامل المسيطر على الشخصية العربية الراهنة، نظراً للتغير الاجتماعى والثقافى السريع الذى ترك بصماته على المجتمع العربى. بالإضافة إلى أن خضوع الشخصية العربية للأجنبى لم يؤثر عليها، ولقد استعادت هذه الشخصية مقوماتها الأصلية بعد حصولها على حريتها وبدأت تنفتح على الثقافات الأخرى، وأخيراً فإن أنماط تربية الأطفال وانتشار التعليم ووسائل الإعلام قد أدى إلى ارتفاع الوعى العربى وأثر بشكل مباشر على الشخصية العربية المعاصرة"[1].

حاولت إحدى الدراسات الميدانية عن الشخصية العربية أن تعقد مقارنة بين الشخصيات القطرية والعراقية والمصرية والأمريكية طبقاً لقرب هذه الشخصية من البداوة، وقد صنف الباحث الأقطار العربية إلى ثلاث أنواع : النمط الأول توجد فيه[2] البداوة والحضارة جنباً إلى جنب ويمثله العراق، والثانى تبدو فيه البداوة أشد وأقوى تأثيراً من الحضارة وتمثله قطر، والثالث تبدو فيه الحضارة أقوى تأثيراً من البداوة وتمثله مصر. ورغبة فى إبراز التشابه فى تكوين الشخصية بين العينات العربية الثلاثة امتدت المقارنة إلى عينة أمريكية، وذلك من أجل

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٤ - ٣٧٦. إن المصادر التى اعتمد عليها بيرجر كما يذكر السيد ياسين هى : سنية الصاوى، مزاج العرب وأخلاقهم، حامد عمار، التنشئة الاجتماعية فى قرية بدوية، جميل صليب، التيارات الفكرية فى سورية ولبنان. انظر السيد ياسين، الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى، ص ١٨٤ - ١٩٧.

(٢) انظر : جابر عبد الحميد، سليمان الخضرى الشيخ، دراسات نفسية فى الشخصية العربية، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٨، ص ٤٧٩ - ٤٩٨.

زيادة التباين فى عينات البحث بنية التعرف على مدى تأثير الثقافة على السلوك الإنسانى. كما أن هذا سوف يساعد على إبراز مدى التشابه ونوعيته بين العينات العربية. ومن حيث فروض الدراسة فإن للدراسة أربعة فروض رئيسية : جاء العراق على أساس[1] أن جوانب التشابه فى الحاجات النفسية بين العينة القطرية والعينتين العراقية والمصرية أكثر من نواحى الاختلاف بينهما. كما أن معامل الارتباط بين البدو مثل النفسى للعينة القطرية ونفس البدو مثل العينات الثلاث تبدو بدرجة كبيرة. وتتناقص تدريجياً باختلاف هذه المجتمعات فى درجة البداوة والحضارة. وأخيراً إن فروق الشخصية بين العينة القطرية والأخرى الأمريكية ترجع لاهتمام الإنسان الأمريكى بنفسه وحياته الفردية بدرجة أكبر من القطرى، وأن العينات العربية المقابلة يهتم فيها الفرد بالجماعة والآخرين معاً[2].

ولقد جاءت النتائج مؤكدة لتشابه النماذج العربية: أى أنه يوجد تشابه بدرجة كبيرة أكثر مما يوجد من اختلاف فى أربعة عشرة حاجة نفسية من الحاجات الخمس عشر موضوع الدراسة. كذلك اتضح أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية فى عشر حاجات نفسية مقارنة بين العينتين القطرية والعراقية. كما وجد أن معامل الارتباط بين البدو ومثل النفسى للعينة القطرية - المصرية يساوى ٩٣٪ بينما بلغ ٨٥٪ بين القطرية والعراقية. ١٪ بين القطرية والامريكية. ومن ناحية ثالثة فقد افترض أن معامل الارتباط بالنسبة للبداوة بين العينة القطرية والعراقية أعلى مما يوجد بين القطرية والمصرية. وهذا ما خالفته النتائج بسبب تلمذة الطلاب القطريين على الأساتذة المصريين وغلبة الشباب المصرى على الإعلام القطرى وتعرض العينة القطرية للمدنية الحديثة والثقافة المعاصرة والانفتاح على العالم الخارجى بما يبعدهم عن طبيعة البداوة. واخيراً جاءت

---

(١) زكى محمد إسماعيل. مرجع سابق. ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٢) المرجع السابق. ص ٣٧٧. حاول الباحث أن تكون الفئات الأربع متماثلة من حيث كونهم طلاب من كليات التربية يدرسون العلوم الفيزيقية والاجتماعية والسلوكية. كما ان جميع الفئات اختيرت من مدى عمرى متقارب ونهاية مرحلة المراهقة. أما عن نواحى الاختلاف بين الفئات الأربعة فكانت فى اختلاف الظروف الثقافية والاجتماعية والحضارية التى تعرضوا لها فى تجمعاتهم وأثرت فى تشكيل شخصيتهم.

النتائج تشير إلى أن العينة القطرية أعلى من الأمريكية بالنسبة للحاجة إلى النظام والعطف والتحمل والعدوان. بينما كانت العينة الأمريكية أعلى من القطرية في الحاجة إلى الاستعراض والتأمل الذاتي والجنسية الغيرية. وهكذا تميزت القيم القطرية بالاهتمام بالجماعة، بينما تميز العينة الأمريكية باهتمام الفرد بنفسه وبحياته. كذلك الحال بمقارنة العينة الأمريكية بالعينات العربية الثلاث[1].

وسوف نقدم هنا ثلاث نماذج لدراسة الشخصية العربية، هي : نموذج دى شابرول، ونموذج جمال حمدان، ونموذج مورو برجر.

أ- النموذج الأول : دراسة دى شابرول فى كتابه وصف مصر

دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ولقد استغرق إعداد هذا الكتاب من عام ١٨٠٩ حتى عام ١٨٢٢[2].

قسم المؤلف كتابه إلى ستة فصول خصص الأول لدراسة الطقس والسكان وتقاليد وعادات المصريين. أما الفصل الثانى فكان عن الإنسان المصرى فى سنوات عمره الأولى الطفولة والهندسة والفنون والعلوم والآداب. وفى الفصل الثالث درس الإنسان المصرى فى طور الرجولة، خاصة العادات المدنية والأسرية. أما الفصل الرابع فيناقش الإنسان المصرى فى طور الشيخوخة. ويختص الفصل الخامس بالنظم والمؤسسات. وأخيراً يتعلق الفصل السادس بالتجارة والصناعة والزراعة.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٨.

(٢) دى شابرول، وصف مصر : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ترجمة زهير الشايب، القاهرة : مطبعة الحبراوى، ١٩٧٦، ج١، من ص ٢٨ - ٣٦.

ب- النمـوذج الثـانى : مـن دراسـة د. جمـال حمـدان فـى كتابـه شخصية مصر - دراسة فى عبقرية السكان، وصدر هذا الكتاب عام ١٩٧٠:

وقسم المؤلف[1] كتابه إلى أربعة عشر فصلاً بالإضافة إلى المقدمة التى تناول فيها معنى الشخصية الإقليمية. وخصصت الفصل الأول : موضوع التجانس الطبيعى والمادى. أما الفصل الثانى : فيعالج التجانس البشرى والوحدة السياسية. ويناقش الفصل الثالث : من النسق الحضارى إلى التخلف. والفصل الرابع : من الطغيان الإقطاعى إلى الثورة الاشتراكية. والفصل الخامس : من إمبراطورية إلى مستعمرة. والفصل السادس : شخصية مصر الاستراتيجية. والسابع: البناء الحضارى والأساسى الطبيعى. والثامن : شخصية مصر الاقتصادية. والتاسع : سكان مصر. والعاشر : مركزية رغم الأعداد. والحادى عشر : تعدد الأبعاد. والثانى عشر : التوسط والتوازن. والثالث عشر : الاستمرار والانقطاع. والفصل الرابع عشر والأخير : بين الوطنية المصرية والقومية العربية. وكما هو واضح فإن المعالجة الجغرافية هى السمة الغالبة لتعادل موضوع شخصية مصر.

جـ- النموذج الثالث : دراسة مورو بيرجر عن العالم العربى اليوم، وقد أعد الدراسة عام ١٩٦٢[2] :

قسم المؤلف دراسته إلى ثلاثة أقسام رئيسية خصص القسم الأول لدراسة العرب والمسلمين تاريخهم وشخصيتهم. والقسم الثانى خصص لدارسة المؤسسات الاجتماعية مثل الحياة الاقتصادية والطوائف الاجتماعية والمؤسسات السياسية والعقائد القومية، أما الجزء الثالث والأخير فقد خصص للتغيير الاجتماعى ومتطلباته فى العالم العربى.

---

(١) جمال حمدان. شخصية مصر : دراسة فى عبقرية السكان. القاهرة : مكتبة النهضة العربية. ص ١ - ١٥.

(٢) مورو بيرجر. العالم العربى اليوم. ترجمة محى الدين محمد. بيروت : دار مجلة الشعر. ١٩٦٣. ص ١٤٧ - ١٧٥.

الباب الثالث

المجتمع - البناء - التنظيم - الطبقة

الفصل السابع

البناء الاجتماعي

١- الأصول الأولى لفكرة البناء الاجتماعي.

٢- راد كليف براون.

٣- ايفانز بريتشارد.

٤- ريموند فيرث.

٥- روبرت ردفيلد.

٦- تالكوت بارسونز.



الفصل السابع

البناء الاجتماعي(*)

على الرغم من انتشار مفهوم البناء الاجتماعي واستخدامه على نطاق واسع في كثير من الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية الحديث إلا أن الغموض كان ولا يزال يخيم عليه في أذهان الكثير من الباحثين في هذين المجالين وبالتالي تواجه دراسة البناء الاجتماعي بصعوبة كبيرة تنشأ إلي حد كبير عن عدم اتفاق علماء الاجتماع والأنثروبولجيا على تعريف واحد محدد لمفهوم البناء الاجتماعي.ولعل من أوضح وأبسط الأمثلة على هذا الخلط أن هناك من الباحثين من يستخدم كلمتي البناء والتنظيم على أنهما مترادفتان يشيران إلي نفس الشيء. وهدفنا في هذا المقام هو التوصل إلي تعريف دقيق لمفهوم البناء الاجتماعي كما أن سبيلنا إلي ذلك إنما يتمثل في عرض مختلف المحاولات التي بذلت لفهمه وتحليله سواء في مجال الأنثروبولجيا أو علم الاجتماع وذلك على النحو التالي:

١- الأصول الأولى لفكرة البناء الاجتماعي:

على الرغم من أن استخدام كلمة (البناء الاجتماعي) تعتبر محاولة حديثة نسبياً ترجع بالتقريب إلي حوالى ٥٦ سنة عندما استخدمها ولأول مرة العالم الأنثروبولوجي البريطاني راد كليف براون سنة ١٩٤٠ في محاضراته الشهيرة التي ألقاها أمام المعهد البريطاني للأنثروبولجيا التي حملت عنوان "محاضرات في البناء الاجتماعي إلا أن الفكرة التي تشير إليها كلمة البناء فكرة قديمة وجدت في كثير من الكتابات الاجتماعية في القرنين ١٨، ١٩ نجدها ممثلة في كتابات مونتسكيو وكوندرسيه وكارل ماركس وإن كانت قد اتخذت مصطلحات اخرى.

(*) كتب هذا الفصل أ.د. السيد عبد العاطي.

أ- فمونتسكيو مثلاً يشير إلي مضمون الفكرة في استخدامه لنظرية النسق الاجتماعي الكلي وبخاصة في كتابه روح القوانين في هذه النظرية يري أن هنالك انتظاماً أو اتساقاً أو تماسكاً وانسجاماً بين مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية بالدرجة التي يصعب معها فهم قوانين أي مجتمع إلا في ضوء علاقته بالنظم السياسية والاقتصادية والدينية والعادات والتقاليد وحجم السكان وأمزجة الناس وخصائص البيئة الطبيعية والجغرافية [1].

ب- ويعالج أوجست كونت نفس الفكرة عندما أشار إلي ما أسماه بالاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية وعندما استخدم مفهوم علاقات التضامن إن كونت في استخدامه لمفهوم الاستاتيكا الاجتماعية كان يقصد في الحقيقة الدراسة التحليلية للأجزاء المختلفة التي تكون النسق الاجتماعي الكلي لعلاقات التأثير والتساند المتبادل بينهما وما يؤدي إليه هذا التساند من عمليات اجتماعية فإن دراسته للمجتمع في حالته الاستاتيكية كانت دراسة للتوافق الاجتماعي أو بمعنى أصح دراسة لبناء المجتمع في حالة الثبات والاستقرار في مقابل ما أسماه بالديناميكا الاجتماعية التي تركز على دراسة التغير بصفة أساسية فكأن كونت في دراسته للاستاتيكا يحاول الكشف عن الشروط الضرورية للوجود الاجتماعي بينما هو في دراسته للديناميكا يحاول الكشف عن شروط تغير هذا الوجود وما يعنينا أنه في دراسته للاستاتيكا والديناميكا حاول أن يلقي مزيداً من الضوء على السمات أو الخصائص الجوهرية التي يمثلها مفهوم البناء الاجتماعي [2].

جـ- وكذلك الحال عند هربرت سبنسر عندما أقام موازنة أو مماثلة بين المجتمع والكائن العضوي مؤكداً على فكرة التساند الوظيفي أو الاعتماد المتبادل بين نظم المجتمع في مراحل تطوره المختلفة قد ساعد بذلك على نشر استخدام فكرة البناء والوظيفة التي شاع استخدامها في الدراسات الاجتماعية بعد ذلك [3].

٢- راد كليف براون:

أشرنا من قبل إلي أن راد كليف براون كان أول من أدخل مصطلح البناء الاجتماعي إلي ميدان العلوم الاجتماعية والأنثربولوجية ومما هو جدير بالذكر أن براون في استخدامه لهذه الكلمة كان متأثراً ببعض الكتابات الاجتماعية التي استخدمت فكرة البناء وصاغتها تحت مصطلحات أخرى إلي جانب تأثره بالمناخ العلمي أو الظروف العلمية التي سادت عصره وسيطرت على معظم الدراسات الاجتماعية في القرن العشرين والتي تمثلت في اعتبار علم الاجتماع والأنثروبولوجيا علوماً طبيعية يمكن تطبيق المنهج أو الطريقة العلمية فيها والتي امتدت إلي أبعد من ذلك عندما ساد الاعتقاد في النظرة الكلية المتكاملة لموضوع الدراسة بمعنى أن الباحث العلمي ينظر إلي الكل ويدرس الأجزاء في علاقتها بهذا الكل بحيث أننا إذا انتقلنا إلي مجال علم الاجتماع كان على عالم الاجتماع أن ينظر إلي المجتمع على أنه له بناء متماسك مؤلف من أجزاء متساندة فيما بينها تسانداً وظيفياً تماماً كما يدرس عالم الطبيعة النووية مكونات الذرة باعتبار أن لها بناء متكاملاً ومتسانداً [٤].

ونستطيع أن نلخص نظرية راد كليف براون في البناء الاجتماعي على النحو التالي:

أ- أن دراسة البناء الاجتماعي تقتضي دراسة العلاقات الاجتماعية بين الأشخاص باعتبارها هي المكونات الأساسية لهذا البناء وهنا يجب أن نميز بين الأشخاص والافراد على اعتبار أن الشخص من حيث ماله من دور معين "وليس الفرد من حيث هو كائن حي له خصائص فردية أو بيولوجية) هو محور اهتمام الباحث في تركيزه على العلاقات الاجتماعية.

ب- أي أن علاقة اجتماعية في جوهرها عبارة من علاقة ثنائية بين شخصين ولكن نظراً لأن العلم يهتم بالكليات فقط أي بما هو كلي ودائم ولأن هذه العلاقات الثنائية علاقات جزئية وغير دائمة، فإن هناك نوعاً آخر من العلاقات التي يهتم بها الباحث في دراسته للبناء الاجتماعي، هي العلاقات

الاجتماعية الدائمة التي يصل إليها الباحث عن طريق عملية تجريد أي استقراء للعلاقات الجزئية والوصول منها إلي علاقات دائمة وثابتة.

جـ- أن العلاقات الدائمة أو الثابتة قد توحي بفكرة أن المجتمع يظل في حالة استاتيكية ثابتة وهذا أمر لا يتفق مع واقع المجتمع لذلك فأن دراسة البناء الاجتماعي في نظره تحتم التمييز بين ما أسماه بالصورة البنائية وبين ما أسماه بالبناء الواقعي.

أما البناء الواقعي فيمثل الحياة الاجتماعية أو السلوك أو العلاقات القائمة بالفعل بين أعضاء المجتمع كما تحدث في النشاط اليومي أي أنه يمثل مجموعة العلاقات الجزئية ولذلك فهو عبارة عن بناء جزئي متغير تتجدد فيه الحياة الاجتماعية كما يتجدد البناء العضوي بالنسبة لحياة الكائن الحي. أما الصورة البنائية فلا توجد في الواقع ولكن نصل إليها من خلال عملية تجريد البناء الواقعي بحيث تعبر عن بناء له درجة عالية من الاستمرار والبقاء.

د- إذا كان الأشخاص بالمعنى الذي حدده براون هم الوحدات الاساسية للبناء الاجتماعي فان الانساق الاجتماعية تمثل الأجهزة التي تتفاعل فيما بينها داخل هذا البناء بحيث يتحدد لكل منها وظيفة تضمن بقاء البناء واستمراره تماماً كما هو الحال بالنسبة للأجهزة العضوية التي تحقق للبناء العضوي حياته واستمراره. أما النسق الاجتماعي فهو بدوره يتألف من مجموعة من النظم التي ترتبط به وتتشابك فيما بينها لتكون نسقاً متكاملاً في الوقت الذي تكون فيه النظم عبارة عن القواعد المنظمة للسلوك والتي تفرضها الجماعة على الأشخاص، ولذلك أيضاً تكون علاقة النظم الاجتماعية بالبناء علاقة مزدوجة بحيث ترتبط بأفراد الجماعة التي تخضع لمعايير النظام من ناحية وحيث يرتبط كل نظام بغيره من النظم التي تكون النسق من ناحية أخرى.

هـ- ترتبط فكرة التنظيم ارتباطاً وثيقاً بمضمون البناء الاجتماعي عند براون فإذا كان البناء الاجتماعي في رأيه مجموعة علاقات ومعايير منظمة لسلوك الأشخاص فأن التنظيم هو ترتيب أدوار وأنشطة الأشخاص داخل البناء ومن ثم

يمكن القول إن النسق البنائي يرتبط بالمكانة أو الوضع الاجتماعي أما التنظيم فيرتبط بالأدوار التي يقوم بها الشخص في النسق.

٣- إيفانز بريتشارد:

ظهر مفهوم البناء الاجتماعي عند ايفانز بريتشارد في دراسته عن النوير والتي اهتم فيها بدراسة مجدتمع النوير وبخاصة من زاوية البناء السياسي ونستطيع أن نوجز نظريته في البناء الاجتماعي بوجه عام فيما يلي [*]:

أ-أن البناء الاجتماعي عبارة عن العلاقات التي تقوم بين الجماعات التي تتميز بدرجة عالية من الثبات والتعقيد أي الجماعات التي تدوم وتستمر في الوجود بغض النظر عما تحويه من أفراد على اعتبار أن الأفراد زائلون ومتغيرون بينما البناء يبقي ويدوم. ولذلك فأن الأسرة لا تعتبر جماعة بنائية لأنها تتغير بسرعة أما بتقدم أطفالنا في السن أو انفصالهم عنها بالزواج أو موت أحد الأبوين، ومن هنا أيضاً يبدأ بريتشارد بما يسميه بالبدنه كعنصر أساسي مكون في البناء الاجتماعي أو بمعني أدق في النسق القرابي.

ب-أن هناك فرقاً بين العلاقات الاجتماعية والعلاقات البنائية على اعتبار أن الأولى علاقات غير ثابتة أو دائمة بل سرعان ما تتلاشي بموت الأفراد بينما تشير العلاقات البنائية إلي العلاقات التي تقوم بين الجماعات وليس بين الأفراد وكذلك هناك فرق بين الجماعات الاجتماعية والوحدات البنائية على اعتبار أن الوحدات البنائية تختلف عن الجماعات في خصائص الاستمرار وديمومة العلاقات الاجتماعية بين أعضائها من ناحية واستمرار أو بقاء العلاقات التي تربط بالوحدات البنائية الأخرى.

جـ-لا يمكن فهم البناء الاجتماعي إلا من خلال ما يسمي بمبدأ الانشقاق والالتحام وهذا يعني أن البناء الاجتماعي الكلي لأي مجتمع عبارة عن نسق من أبنية منفصلة ومتمايزة كالبناء القرابي والسياسي والاقتصادي ترتبط رغم تمايزها وانفصالها بعلاقات متبادلة كما أن كل بناء من هذه الأبنية يضم عداداً

س النظم تؤلف فيما بينها وحدة متماسكة. ولذلك فأن دراسة وفهم البناء الاجتماعي تقتضي دراسة الأبنية الجزئية في علاقاتها وتساندها وتأثيرها المتبادل بعضها مع البعض.

٤-ريموند فيرث:

أ- صدرت نظرية ريموند فيرث عن البناء الاجتماعي في كتابه المعروف باسم نماذج بشرية فيها يعبر البناء الاجتماعي عن مجموعة العلاقات المنظمة التي تربط الأجزاء بالكل الذي تكونه وتعمل فيه [1]. أما العلاقات المنظمة فهي في نظره العلاقات الثابتة والدائمة ولذلك فأن دراسة البناء الاجتماعي تستلزم حتماً استبعاد العلاقات المؤقتة أو العرضية أو هي دراسة العلاقات البنائية بنفس المعنى الذي أشار إليه ايفانز بريتشارد ولو أن هذه العلاقات الثنائية أو الجزئية التي تعبر عن نفسها في أنماط السلوك اليومي، هي الأساس الأول الذي تقوم عليه دراسة البناء الاجتماعي.

ب- وإذا كانت دراسة العلاقات المنظمة والثابتة تمثل الشرط الأول لدراسة البناء الاجتماعي فان هناك شرطا ثانيا انفرد بتقريره فيرث وحده ويتمثل في دراسة العلاقات الواقعية المتحققة بالفعل في المجتمع والتي يمكن الوصول إليها عن طريق الدراسات الحقلية باستخدام الملاحظة المباشرة.

ج- غير أن دراسة السلوك الواقعي أو العلاقات الواقعية في نظره يجب أن تمتد لتتناول ما يسميه بالسلوك المتوقع وذلك على اعتبار أن أفراد المجتمع في سلوكهم وتصرفاتهم يتأثرون بتجاربهم الماضية أو بمعنى آخر على اعتبار أن السلوك الاجتماعي في المجتمع وفي أي موقف من المواقف تحدده أو تتحكم فيه كل النظم الاجتماعية الموجودة في المجتمع باعتبارها أوضاعاً متعارف عليها ويلتزم بها جميع الأفراد بالدرجة التي يتمكن من التنبؤ أو توقع سلوكهم في كل موقف وأن الخروج على هذه الأوضاع المتعارف عليها للسلوك أو ما يعرف باسم النظم الاجتماعية يعتبر انحرافاً يواجه بدرجة من المقاومة والاعتراض من جانب المجتمع لما في هذا الخروج من تهديد بتخلخل البناء

الاجتماعي نفسه. فكان دراسة البناء الاجتماعي من زاوية النظم والأنماط المتعارف عليها للسلوك تفترض تأثر السلوك الواقعي الحالي بالماضي من ناحية كما تفترض في الوقت نفسه تأثر السلوك بالمستقبل على أساس التوقعات التي يتوقعها الأفراد والجماعات لانماط السلوك التي ستحدث.

د- على هذا الأساس ومن خلال دراسة البناء الاجتماعي لا في حدود السلوك الواقعي فقط بل وأيضا في حدود السلوك المتوقع نجد فيرث يدخل دراسة القيم الاجتماعية التي تحكم سلوك الأفراد في دراسة البناء الاجتماعي على اعتبار أن هذه القيم توضح العلاقات المثالية أو العلاقات التي تتحكم فيها قواعد الضبط الاجتماعي وبالتالي على اعتبار أن هذه القيم ترتبط ارتباطا وثيقا بالبناء الاجتماعي ولا يقتصر دورها على مجال الاخلاق فقط كما ذهب إلي ذلك كثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين سبقوه.

هـ- والبناء الاجتماعي في نظره يتضمن مختلف أنواع الجماعات التي يشكلها الناس كما يتضمن النظم التي يشاركون فيها وتربط بينهم فهو يري أن الحياة في مجتمع ما تعني تنظيم مصالح الأفراد وتوجيه سلوكهم تجاه بعضهم البعض كما تعني انضمامهم إلي جماعات من أجل العمل المشترك وأن هناك نوعا من التخطيط أو التنسيق يقوم في العلاقات التي تنشأ بين الأفراد.هذا التخطيط في نظره يمكن أن نسميه بالبناء الاجتماعي أما الطريقة التي تعمل بها هذه العلاقات بالفعل بحيث تؤثر في حياة الأفراد وطبيعة المجتمع فهي في نظره تمثل ما يسميه بالوظائف الاجتماعية وهو في هذا الصدد بصفة خاصة يقارن البناء الاجتماعي بعلم التشريح والوظيفة الاجتماعية بعلم وظائف الأعضاء.

و- ويقوم البناء الاجتماعي لأي مجتمع من المجتمعات البشرية على بعض المبادئ المحددة أو الأساسية تتمثل في التقسيم الجنسي والتقسيم العمري (على أساس السن) ثم الموطن والقرابة وهو يري أن هذه المبادئ الاساسية يمكن أن توصل الي فهم أفضل عن كيفية أو طبيعة دورها في البناء

الاجتماعي بالتركيز على دراستها في المجتمعات البدائية بصفة خاصة والتي تتميز بصغر الحجم وبساطة التنظيم بدلا من دراستها في المجتمعات الصناعية المعقدة والكبيرة الحجم. على أنه يشير بصفة خاصة إلي مبدأين أساسيين وأكثر أهمية من المبادئ الأساسية في البناء الاجتماعي هما مبدأ التخصص المهني ومبدأ الاختلاف الطبقي أو المرتبة فهو يري أن التخصص المهني أحد المبادئ الاساسية في كل المجتمعات حتى المجتمعات البدائية التي تكون فيها فرصة التخصص ضئيلة.

فالساحر مثلاً أو الطبيب يكون في العادة متميزاً عن باقي الأفراد لمكانته ومركزه الاجتماعي الذي يميزه عن غيره ففي بعض أجزاء أفريقيا قد يكون الحدادون جماعة خاصة تحيط بصناعتهم طقوس كثيرة مما ينعكس على مركزهم الاجتماعي فيكرمون ويحترمون بينما يعتبرون في أحيان أخرى منبوذين ينتمون إلي طبقة دنيا لأنهم يقومون بحرفة وضيعة تقلل من مكانتهم. وكذلك الحال بالنسبة للمبدأ الثاني وهو الاختلاف وهو الاختلاف الطبقي أو المرتبة. فالامتياز في المرتبة يبدأ في الأسرة نفسها كما يحدث بين الأخ الأكبر والأصغر وحقوق أحدهما على الآخر وكثيراً ما تشاهد المرتبة عن طريق الوراثة في معظم النظم الخاصة بالرئاسة وإن كان هناك نوع آخر من المرتبة يحصل عليها الفرد عن طريق الثروة لا نجده ممثلاً في المجتمعات البدائية إلا في حالات نادرة. وعلى ذلك فإن المبدأ الثاني للبناء الاجتماعي عند فيرث قد يغلب عليه الطابع الاقتصادي الذي يهتم بدراسة المهن والطبقات والمراتب خاصة وأن طبيعة المهنة هي التي تحدد الطبقة الاجتماعية والتي تعكس بدورها المركز الاجتماعي الذي يشغله الفرد في المجتمع.

٥ - روبرت ردفيلد:

في كتابه له بعنوان المجتمع الصغير كبناء اجتماعي يقدم روبرت ردفيلد تصوره للبناء الاجتماعي. فيه يري أن الباحث يهتم عند دراسته للمجتمع بدراسة علاقة الناس بعضهم ببعض وليس على دراسة علاقة الإنسان بالطبيعة

ذلك لأن الأفراد الذين يتألف منهم أي مجتمع ينقسمون في العادة إلي أنواع أو طبقات كما أن العلاقات التي تقوم بينهم تنقسم هي أيضاً إلي أنواع. غير أنه في اهتمامه بدراسة العلاقات الاجتماعية يضع ردفيلد اعتبارين هامين: يتمثل الاعتبار الأول في التركيز على دراسة العلاقات ذات الأهمية الدائمة ولذلك فأن العلاقات الاجتماعية أو - الأنماط السلوكية المؤقتة لا يمكن في نظره أن نعتبرها أجزاء من البناء الاجتماعي أما الاعتبار الثاني فيتمثل في التركيز على مدي أهمية تلك العلاقات بالنسبة لبقاء المجتمع واستقراره وفي ذلك يسأل الباحث نفسه عن ما عساه أن يحدث فيما لو اختفت هذه العلاقات أو تغيرت. هل سيؤدي ذلك إلي تغيير جوهري في البناء الاجتماعي أم لا؟ وقد حاول ردفيلد كما هو معروف من خلال هذين المبدأين أن يقدم تحليلا للبناء الاجتماعي لقرية شانكوم بدأ فيه بالنظرة إلي البناء الاجتماعي على أنه عبارة عن "نسق" أي هو العلاقات المنظمة بين الأجزاء والكل والترتيب الذي ترتبط فيه عناصر الحياة الاجتماعية بعضها ببعض وذلك على اعتبار أن هذه العلاقات ترتبط فيما بينها ارتباطاً متسانداً لتؤلف فيما بينها سلسلة واحدة وإن تفاوتت في درجات تعقدها. ثم يتقدم في تحليله بعد ذلك للبناء الاجتماعي للقرية لينظر إليه لا على أنه نسق من العلاقات أو أنواع الروابط الموحدة فعلاً بين الناس وأفعالهم فحسب بل وأيضاً على أنه نسق من المعايير [٢] أي أنه يمكن اعتبار البناء الاجتماعي نسقاً أخلاقياً من حيث هو ترتيب دقيق ومحكم لافكارنا عن طبيعة السلوك الحسن. وعلى هذا الأساس يصبح البناء الاجتماعي في نظره جزءاً أو مظهراً هاماً لما يمكن تسميته بنسق القيم ولو أنه لا يؤلف هذا النسق كله. ومن الضروري في نظره أن ندرك أن توقعات الناس عن تحقيق هذه المعايير ترتبط بنسق المعايير الخلقية ذاته وإن كان يمكن تمييزها عنه. ومن هذه الزاوية يمكن اعتبار البناء الاجتماعي للمجتمع الصغير في نظر ردفيلد على أنه مجموعة من الشروط التي توجه وتحدد سلوك الأفراد وتصرفاتهم أو على أنه نسق من القواعد والإرشادات الخلقية أو مجموعة من العلاقات التي توجه أو تهدي إلي حياة طيبة وفاضلة. وأخيراً وفي ضوء ما توصل إليه ردفيلد من حقائق

عن قرية شاتكوم ينتهي إلي أن البناء الاجتماعي للقرية مجرد جزء من المجتمع المحلي كله أو نسق له علاقات بغيره من الانساق الأخرى بحيث يسهل دراسة علاقة البناء الاجتماعي بالاقتصاد والدين وغيرهما من الأنساق الآخرى وأنه بذلك يعود فيقرر مبدأ أساسياً هو أنه بدلاً من أن نعتبر البناء الاجتماعي واحداً من عدة أنساق متصلة بعضها ببعض لتؤلف حياة القرية ككل بحيث ترتبط بعض أجزاء نسق معين بأجزاء انساق أخرى، يمكن اعتبار البناء الاجتماعي فكرة محورية ثابتة ومنظمة تدرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية بالرجوع إليها. وهو في ذلك يتفق - كما يقول - مع فورتيس في نظرية البناء الاجتماعي على أنه كل الثقافة التي تسود مجتمعنا معيناً بالذات أو على أنه فكرة كلية وشاملة. بحيث تدرس كل مظاهر حياة المجتمع من خلال ارتباطها بهذه الفكرة الشاملة.

٦ - تالكوت بارسونز:

خرج بارسونز من دراسته لموضوع البناء الاجتماعي بنظرية أطلق عليها نظرية البناء الوظيفي للانساق الاجتماعي [٨] في هذه النظرية يري بارسونز أن الفرد أو الإنسان هو وحده أي نسق اجتماعي وذلك بصفته وحدة عاملة مستقلة لها كل الصفات التي تجعله يجاهد نحو تحقيق أهداف معينة. والتفاعل عاطفياً أو - شعورياً مع الأشياء والحوادث. كما أنه بالإضافة إلي كل هذا، وبدرجات متفاوتة على دراية وفهم للمواقف التي يوجد فيها وأهدافه ونفسه. ويتميز الفعل الذي يقوم به الفرد بأنه يخضع لعدد من النواحي المعيارية التي تبدو في التصرفات النموذجية التي تحدد اتجاه الفعل المرغوب فيه سواء كان هذا الفعل هدفاً أو سلوكاً. وهذا النسق من نماذج التصرف المعيارية يعتبر عنصراً هاما في حضارة الجماعة. أما النسق الاجتماعي فهو نسق يعمل عن طريق التصرفات والأفعال الانسانية وليس نسقاً للنماذج الحضارية ذلك لأن موقفه من هذه النماذج ليس أكثر من تفاعله معها كما يتفاعل بالمثل مع الظروف الطبيعية والبيولوجية. بينما نجد النسق الحضاري يختلف عن ذلك في أنه تجريد للنسق الاجتماعي أي تجريد لنفس الظواهر الملموسة ولا يكفي في تحليلنا لتركيب

النسق الاجتماعي أن نحلل كل وحده من أجزائه بطريقة نفسية مستقلة من ناحية شخصية كل وحده والقيم التي توجهها وانما يجب في هذه الحالة أن نلجأ إلي التحليل الوظيفي للكل المركب الذي ينشأ عن تفاعل الوحدات. بل أننا لو استبعدنا العلاقات الاجتماعية فان هناك عناصر كثيرة تؤثر على الفعل نفسه كالظروف التي تحيط به والظروف اللازمة لكي تتمكن مجموعة من الأفراد من أن تعمل كوحدة متكاملة والحاجات الوظيفية سواء أكان مصدرها بيولوجي أو حضاري اجتماعي أو فردي لا يمكن اشباعها إلا عن طريق عمليات يقوم بها الفرد. فالحاجة إلي الأكل حاجة بيولوجية ولكن العملية الإنسانية لانتاج الطعام والاختلاف في العادات الاجتماعية التي تتعلق باستساغته واستهلاكه لا تحددها أية ناحية بيولوجية وأنما هي ظواهر اجتماعية كتأليف الموسيقي والاستماع إليها تماماً. وعلى ذلك فمصدر هذه الحاجات لا يهمنا إلا من ناحية تأثيره في النسق الاجتماعي وتوجيهه نحو حدث معين. وإذن فالبناء الاجتماعي هو مجموعة ثابتة من العلاقات النموذجية بين الوحدات ولما كانت وحدة النسق الاجتماعي هي الفرد في قيامه بحدث معين أصبح البناء الاجتماعي عبارة عن نسق من نماذج العلاقات بين الأفراد ويتميز بناء النسق لأي حدث اجتماعي بأن الفرد في معظم علاقاته لا يشترك فيها ككل مستقل وإنما على أساس أنه جزء مختلف من الحدث ككل، وإذا أطلقنا اصطلاح دور Role على وحدة النسق للعلاقات الاجتماعية أمكننا أن نصوغ تعريف البناء الاجتماعي بأنه نسق من العلاقات النموذجية للأفراد وهم يقومون بأدوار يتصل بعضها بالبعض الآخر. والدور هنا هو الصلة التي تربط النسق الفرعي وهو الفرد كوحدة سيكولوجية سلوكية بالبناء الاجتماعي، وإذا ما حاولنا معرفة طبيعة هذه الصلة وماهية البناء الاجتماعي نفسه من وجهة نظر القائم بالدور وجدنا أن الدور نفسه يتميز بمظهرين: أحدهما معياري والآخر تلقائي أو تطوعي: فمن وجهة نظر القائم بالدور يتحدد هذا الدور على أساس ما يتوقعه منه أفراد الجماعة وفق التقاليد الاجتماعية السائدة ولهذه الناحية بين أفراد الجماعة أهميتها في وضع الفرد القائم بالدور لأن هناك من النتائج التي تترتب على مدي تحقيقه ما يتوقعه منه

افراد الجماعة فهو إما أن ينال تقديراً ومكافأة وإما أن ينال غضباً وعقاباً وهذه الناحية الحضارية هي التي تحدد التصرف أو الفعل المناسب للأشخاص الذين يقومون بأدوار معينة. أما العامل الشخصي وهو هنا تلقائي تطوعي فيتمثل في الدوافع الشخصية عند الفرد نفسه والتي يعمل بها على تكامل شخصيته عن طريق أدائه لدوره حسبما تتوقعه منه الجماعة دون نظر إلي أي ثواب أو عقاب. ويتشرب الفرد خلال قيامه بدوره المثل والقيم السائدة في جماعته ويتفاوت الأفراد في مدي تشربهم لهذه المثل والقيم والتي تتميز بقوتها على التأثير في سلوكهم وإذن فحسب وجهة النظر هذه يبدو المظهر الأساسي للبناء الاجتماعي في النواحي النموذجية المتوقعة والتي تعرف التصرف المناسب للأفراد الذين يقومون بأدوار معينة ويعمل على تحقي هذه التوقعات الدوافع الشخصية للفرد نفسه نحو تكوين شخصيته وتماسكها بالإضافة إلي ما يتوقعه من جزاء الآخرين له وهذا النسق من التصرفات النموذجية المتوقعة يحتل مكانه في النسق الاجتماعي الكلي وتكون له على هذا الأساس شرعيته وهو هنا يطلق عليه النظام. ونخرج من كل ما سبق بأن البناء الاجتماعي عبارة عن ترتيب للأشخاص في علاقات تخضع لنظم معينة ويمكن أن نمثل لذلك بالبناء الاجتماعي للجيش مثلاً، وحيث نجد أن الأشخاص هم وحداته وأن بنائه الاجتماعي عبارة عن ترتيب لهذه الوحدات في مجموعات يطلق عليها أسماء مختلفة كلواء وفصيلة وكتيبة ثم ترتيبهم في مجموعات أخرى كمشاه ومدفعية وطيران ثم ترتيب الأشخاص في رتب كعميد وملازم وعريف وإلي غير ذلك من الألقاب. وعلى ذلك فالبناء الاجتماعي يرتبط بترتيب الأشخاص بينما يرتبط التنظيم الاجتماعي بترتيب النشاط وفي تمثيلنا بالجيش نجد أن لكل شخص فيه مهمة معينة هي في الواقع جزء من النشاط الكلي للجيش سواء أكان ذلك وقت السلم أو في وقت الحرب أما النظام فيبدو في النسق المعقد للقواعد ونماذج التصرفات التي يتوقع من كل فرد في المجموعة أن يتصرف بمقتضاها. فإذا كنا نتحدث عن نظام الجيش فإنما نعني بذلك نماذج التصرف التي نتوقعها من أفراده المختلفين. وإذن فالشخص هو وحدة البناء الاجتماعي. ويهتم البناء

الاجتماعي بترتيب الأشخاص، والتنظيم الاجتماعي بترتيب أوجه النشاط والنظام الاجتماعي بالتصرفات المتوقعة أو العلاقات في داخل البناء. والاصطلاحات الأربعة الشخص والبناء والتنظيم والنظام لا تخرج عن كونها اصطلاحات مختلفة لحقيقة واحدة وليست أسماء لحقائق مختلفة.

والخلاصة:

أنه على الرغم من تعدد وجهات النظر حول مفهوم البناء الاجتماعي واختلاف أساليب دراسته وتحليله إلا أن دراسة هذا الموضوع في مجموعتها تهتم بناحيتين أساسيتين يكاد يتفق عليهما كل من أهتم بدراسته هما:

١- أنه على الرغم من أن الباحث في دراسته للبناء يبدأ بدراسة أو تحليل مظهر السلوك اليومي كما يبدو في الحياة الواقعية للأفراد إلا أن ما تهتم به الدراسة العلمية للبناء الاجتماعي يتمثل في الأنماط الكلية العامة للعلاقات الاجتماعية أي تركز على العلاقات ذات الطابع الاستمراري الدائم على اعتبار أن فكرة البناء الاجتماعي توحي بالاستمرار والتجريد.

٢-أن دراسة البناء الاجتماعي وإن كانت تركز على الأنماط السلوكية أو العلاقات الدائمة فأنها تمتد أيضاً إلي دراسة الارتباط المتبادل بين هذه الأنواع المختلفة من الأنماط السلوكية أو العلاقات الدائمة. وفي ذلك فأن الباحث لا يدرس أي نظام من النظم في صورة مستقلة وإنما يدرسه في علاقته بالنظم أو الانساق الأخرى أي في ضوء البناء الاجتماعي الكلي المحدد وما يلعبه هذا النظام من دور في كيان وبناء المجتمع. هذا الدور يعرف باسم الوظيفة الاجتماعية ولذلك ارتبطت فكرة البناء الاجتماعي بفكرة الوظيفة البنائية وتمخض عنها اتجاه احتل مكاناً مرموقاً في النظرية السوسيولوجية المعاصرة هو ما يعرف باسم الاتجاه الوظيفي الذي تبناه عدد غير قليل من المشتغلين بعلمي الاجتماع والإنسان.

الوظيفة الاجتماعية:

تعتبر فكرة الوظيفة الاجتماعية نتيجة طبيعية للاتجاه البنائي في دراسة المجتمع وتنطلق هذه الفكرة من منظور مؤداه أن النظم الاجتماعية مرتبطة بعضها ببعض وتتفاعل أحداها مع الأخرى من خلال علاقة التأثير المتبادل. وكما هو الحال بالنسبة لمفهوم البناء اكتنف مفهوم الوظيفة كثير من الغموض ولو أن الاتجاه الغالب بين الباحثين في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا هو اعتبار الوظيفة مصطلح يشير إلي القدر الذي يسهم به الجزء في الكل سواء كان هذا الكل يمثل المجتمع أو الثقافة أو أنه مصطلح يشير في مجال دراسة البناء الاجتماعي إلي الدور الذي يلعبه أي نظام من النظم الاجتماعية في تماسك المجتمع على تكامل الأجزاء في الكليات أو تساند الأجزاء فيما بينها تساندأ ضرورياً أي بعبارة أخرى يؤكد على أهمية التعرف على مدى التشابك بين النظم التي تؤلف المجتمع وما يسهم به كل نظام في تماسك المجتمع واستمراره ووحدته.

ويفضل علماء الاجتماع تتبع نشأة الاتجاه الوظيفي في أعمال الرواد الأول مثل أوجست كونت، وهربرت سبنسر، ودور كايم وغيرهم ممن تصوروا المجتمع في ضوء الوظائف التي يؤديها كل جزء في البناء أو التي يؤديها البناء ككل تتساند أجزاؤه غير أن استخدام مفهوم الوظيفة في علم الاجتماع انطلق من فكرة محورية عند هربرت سبنسر بصفة خاصة تقوم على المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية بمعنى تصور المجتمع ككائن حي يتألف من وحدات تؤلف مجتمعة بناء متماسكاً يتحدد لكل وحده منها في هذا البناء وظيفة محددة تهدف في النهاية إلي حفظ كيان البناء. وبالتركيز على المجتمع ككائن عضوى اجتماعي نجده يتألف من وحدات هي الأفراد أو الجماعات ترتبط فيما بينها بعلاقات يتألف منها البناء الاجتماعي ويقومون في حياتهم الاجتماعية بمجموعة من الأنشطة لكل نشاط منها دور أو وظيفة في حفظ البناء الاجتماعي.

وعلى ذلك فأنه من الشائع في تاريخ علم الاجتماع أن هذه المماثلة التي جاء بها سبنسر بين الكائن العضوى والمجتمع أو بين الفسيولوجيا والمورفولوجيا الاجتماعية وبين المورفولوجيا والفسيولوجيا العضوية قد أتاحت الفرصة لإنتشار استخدام فكرة البناء والوظيفة في علم الاجتماع لتقابل المورفولوجيا والفسيولوجيا على التوالي غير أن الكثيرين من الكتاب في النظرية السيولوجية يرجع ظهور الاتجاه الوظيفي الحديث في علم الاجتماع والانثروبولوجيا إلي تأثير أميل دور كيم بصفة خاصة على اعتبار أن معالجة دور كايم لفكرة الوظيفة في كتابه "قواعد المنهج في علم الاجتماع" تعتبر أول محاول علمية منظمة لدراسة الوظيفة بشكل منهجي منظم. في هذا الكتاب حاول دور كايم أن يحقق استقلال علم الاجتماع عن علم النفس والبيولوجيا فذهب إلي أن النظرة الي علم الاجتماع على أنه امتداد للبيولوجيا نظرة خاطئة لأن الظواهر الاجتماعية في طبيعتها تختلف اختلافاً واضحاً عن الظواهر الفسيولوجية. ويمتد دفاع دور كايم عن استقلال علم الاجتماع خطوة أبعد فنراه يتكلم عن ما أسماه بالضمير الجمعي الذي لا ينتج عن مجرد المجموع العددي للضمائر الأفراد بل ينتج عن تفاعل هذه الضمائر الفردية على نحو يجعل هذا الكل "الضمير الجمعي" يمثل خصائص مختلفة عن خصائص الأجزاء الداخلة في تكوينه وعلى ذلك فأن الظاهرة الاجتماعية تنفصل بالضرورة عن تجسداتها الفردية بحيث لا ترتد في النهاية إلي أفراد بل إلي المجتمع. ويهدف دور كايم من هذا كله أن المجتمع وحده كلية متفاعله وأن الظواهر الاجتماعية تتولد عن هذا الكل بأثره ولذلك فهي ليست كالظواهر السيكولوجية والفسيولوجية التي تصدر عن الكائن العضوي وبالتالي فأن علمن الاجتماع ليس امتداداً لعلم النفس أو البيولوجيا.

وفي كتاب تقسيم العمل الاجتماعي يحدثنا دور كايم عن ظاهرة تقسيم العمل ومعنى كلمة الوظيفة خاصة عندما يتكلم عن القيمة الخلقية لظاهرة تقسيم العمل وباختصار فان دور كايم يستخدم كلمة الوظيفة بمعنيين مختلفين يشير المعنى الأول إلي وجود نسق من الحركات الحيوية والضرورية لحياة الكائن

الحي أما المعنى الثاني فيشير إلي العلاقة التي تربط هذه الحركات الحيوية وحاجات الكائن العضوي ولذلك فقد عرف وظيفة النظام الاجتماعي بأنه تناظر أو تماثل بين النظام وحاجات الكائن الاجتماعي.

ويعمق راد كليف براون - تحت تأثير دور كايم ومن خلال استكماله للمماثلة العضوية - معنى الوظيفة بحيث تشير عنده إلي حياة أي كائن على أن تدرك بمعنى تأدية البناء أو قيامه بوظائفه ومن خلال استمرار القيام بالوظائف يحتفظ البناء باستمراره أو دوامه غير أنه إذا كان دور كايم يحدد وظيفة البناء الاجتماعي بأنها تناظر بين النظام الاجتماعي وحاجات الكائن الاجتماعي فأن براون يستبدل كلمة حاجات بمصطلح الشروط الضرورية للوجود فوظيفة العملية الفسيولوجية عنده شرط ضروري لوجود الكائن العضوي حتى أن توقف العضو لأداء وظيفته يعني توقف عملية الحياة كذلك يستخدم براون مصطلح الوظيفة بمعناه البنائي ليشير إلي ترابط داخلي بين البناء الاجتماعي وبين عملية الحياة الاجتماعية. ولذلك نجد أن مفاهيم العملية والبناء والوظيفة تمثل نقاطاً محورية أساسية تفسر في ضوئها نظرية براون والتي يمكن تلخيصها ببساطة في أن هناك في كل مجتمع يوجد بناء يكون فيه الأفراد وحدات أساسية ويرتبطون بعضهم البعض عن طريق مجموعة محددة من العلاقات الاجتماعية ترتبط فيما بينها في كلب متكامل وأن استمرار البناء الاجتماعي يرجع إلي عملية الحياة الاجتماعية ومن ثم فأن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع هي مجموع الوظائف التي يقوم بها البناء الاجتماعي.

ويعتبر مالينوفسكي من أعلام الاتجاه الوظيفي الحديث اشتهر إلي جانب دراسته المستفيضة لبعض المجتمعات البدائية باهتمامه بدراسة الثقافة وباتجاهه الوظيفي معارضاً التفسيرات التطورية والإنتشارية للثقافة وتتمثل نظرية الوظيفة للثقافة في قوله بأن الثقافة وحده متكاملة تتألف من عدد من النظم التي هي عبارة عن مجموعات من وجوه النشاط التي تنتظم حول حاجة معينة أو بمعنى آخر أن الوحدات الحقيقية في الثقافة هي النظم التي هي جماعات من الناس

موحدين لمتابعة نشاط معين وينشأ من خلال توحدهم المستمر التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد والسلطة وغير ذلك من العناصر الثقافية.

ويحاول روبرت ميرتون وضع نظام أو إطار يجري من خلاله التحليل الوظيفي في الدراسات المرتبطة بالتغير الثقافي مبتعداً عن استخدام المماثلة العضوية التي سبق أن أشرنا إليها. في هذه المحاولة يركز ميرتون على التمييز بين نوعين من الوظيفة الاجتماعية وهما الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة وأساس التمييز بين نوعي الوظيفة هو التمييز بين الحاجات والأغراض الشخصية وبين النتائج الوظيفية الموضوعية وذلك على اعتبار أن الوظيفة الظاهرة قد لا تعني في الحقيقة إلا معنى ساذجاً وبسيطاً للسلوك الاجتماعي وأنه من الأهمية بمكان أن نتعمق أو نسبر أغوار الوظيفة الظاهرة لنصل إلي الوظيفة الكامنة التي قد تكشف عن وظائف للسلوك الاجتماعي تناقض الوظائف الواضحة الأمر الذي يمكن الباحث من التعرف على ما إذا كان السلوك والنشاط أو حتى النظام الاجتماعي في المجتمع له هدف أو غرض معين. وعلى ذلك يري ميرتون أن الدراسة الدقيقة والجادة للوظيفة الاجتماعية تقتضي من الباحث الاهتمام بموضوع البواعث أو الدوافع الكامنة وراء سلوك معين فقد يختلف الباعث على السلوك من مجتمع لآخر رغم أن السلوك نفسه يحقق نفس الوظيفة في كل من المجتمعات كما أنه قد تتشابه البواعث ولكن تختلف الوظائف الكامنة لهذا السلوك. والحقيقة أن هذا التمييز بين الوظيفة الكامنة والظاهرة ليس إلا امتداداً لتفرقة قديمة وشائعة بين الوظائف الاجتماعية المقصودة وغير المقصودة.

و في السنين الأخيرة تشعب الاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع إلي شعبتين متميزتين وهما الاتجاه الوظيفي لدراسة الوحدات الكبرى والاتجاه الوظيفي لدراسة الوحدات الصغرى. وواضح أن أساس التمييز بين هذين الاتجاهين يكمن في حجم الوحدة المختارة في كل منهما كنمط للنسق محل الدراسة: ففي الوقت الذي يزعم فيه أصحاب الاتجاه الأول أن التحليل يجب ان يتم على أساس الوحدات الكبيرة نسبيا والموجودة بالفعل ويمثل المجتمع في هذا الاتجاه الوحدة الأولى في التحليل ولذلك يعرف المجتمع عندهم

على أنه نسق كلي مستقل ويكتفي بذاته يعيش فترات أطول من حياة الفرد ويمثل هذا الاتجاه بارسونز وميرتون حيث تبدو المجتمعات كانساق تمثل وحدات الدراسة يتدرجان بعد ذلك إلي وحدات أقل حجماً وأكثر تحديدا.
يميل أصحاب الاتجاه الوظيفي إلي دراسة الوحدات مجموعة من المفاهيم التي استمدوها من علم النفس الجشطلتي مثل الموقف الإدراكي والمضمون الواقعي وغير ذلك.

الفصل الثامن

التنظيم الاجتماعي(*)

* مقدمه

- تعريف التنظيم الاجتماعى.
- مستويات التنظيم الاجتماعى.
- مكونات التنظيم الاجتماعى.

(*) كتب هذا الفصل أ.د. السيد عبد العاطي.



الفصل الثامن

التنظيم الاجتماعى

مقدمة:

أياً كانت درجة تعقد المجتمع الإنساني أو بساطته فانه ينطوي بصورة أو بأخرى على درجة ما من التنظيم الاجتماعي ذلك لأن هناك ميلاً طبيعياً أو فطرياً في الإنسان إلي أن يجتمع مع بني جنسه. أن الإنسان مفروض عليه في كل مكان أن يعيش حياة اجتماعية وأن يصبح مندمجاً بصفة دائمة في علاقات اجتماعية متبادلة غير أن هذا الميل للتجمع الطبيعي والانغماس الحتمي في الوجود الاجتماعي قد أوجب ضرورة وضع عدد من القواعد والإجراءات اللازمة لتنظيم عملية المعيشة المشتركة ولذلك طور الإنسان ما يعرف بالعادات والنظم والجماعات..........إلخ وغير ذلك مما يطلق عليه في علم الاجتماع "التنظيم الاجتماعي".

وقد يستخدم التنظيم الاجتماعي دائماً ليشير لمجموعة ثابتة نسبياً من الأجزاء المكون سواء كانت أشخاصاً أو جماعات ولذلك قد نجد للتنظيم خصائص قد لا توجد في مكوناته بحيث تؤدي بصفة عامة إلي وجود كل قائم بذاته وهنا نجد أن بعض الباحثين مثل سيازنك يميلون إلي الإشارة للتنظيم الاجتماعي على أنه "نسيج اجتماعي" وهم في ذلك يتصورون العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع كما لو كانت تمثل شبكة نسجت خيوطها أنماط التفاعل الاجتماعي بينهم. وهنا يظهر التنظيم الاجتماعي في التفاعل اليومي بين الأفراد ولو أن المصطلح نفسه يشير عندهم إلي ترتيب معين بين الأجزاء المكونة له. وعلى ذلك فأن كل ما ينطوي عليه المجتمع من منظمات أو نظم أو أنساق تمثل أنماطاً مختلفة للتنظيم الاجتماعي فالأسرة والنقابة وجماعات العمال وأعضاء النادي وهيئة الأمم المتحدة عبارة عن تنظيمات اجتماعية تتمايز في الحجم اتساعاً وضيقاً ولهذا فلاحظ أنه كلما زاد عدد السكان وزادت

الثقافة تراكماً اتسع التنظيم وتعددت وظائفه. كذلك من التنظيمات الاجتماعية ما يقتصر على وظيفة واحدة ومنها ما تتعدد وظائفه وفي كثير من الأحيان يمر المجتمع بعملية مستمرة للتغير الاجتماعي بحيث تتعرض مختلف التنظيمات الاجتماعية التي ينطوي عليها لدرجة ما من التغير الذي قد يؤدي في كثير من الاحيان إلي تغير الوظائف التقليدية لبعض التنظيمات فقداناً أو تحولاً أو تقلصاً فالتغير الذي طرأ على الأسرة مثلاً جعل بعض وظائفها تنتقل إلي تنظيمات وأجهزة أو مؤسسات أخرى غيرها.

تعريف التنظيم الاجتماعي[1]:

يعرف بارنز Barns التنظيم الاجتماعي بأنه الجهود التي يبذلها الإنسان لتحقيق أهداف معينة تشبع له في العادة حاجات ضرورية كما أنه في نظره عبارة عن الجماعات والبناءات الاجتماعية التي تنشأ نتيجة لهذه الجهود. وعلى ذلك فالتنظيم الاجتماعي من وجهة نظر بارنز له معنيان الأولى وظيفي والثاني بنائي ويقصد بمعناه الوظيفي الجهود الجماعية الإنسانية لتحقيق أهداف مطلوبة كتربية الأطفال وتوزيع السلع والخدمات مثلاً. ويقصد بمعناه البنائي ما ينشأ عن هذه الجهود الوظيفية من جماعات لتنفيذ هذه الأنواع من النشاط كالأسرة لتربية الأطفال والجماعات الاقتصادية لتوزيع السلع والخدمات.

أما راد كليف براون فيري أن التنظيم الاجتماعي عبارة عن تنظيم للنشاط الإنساني نحو أهداف معينة. ويعرف مارشال جونز التنظيم الاجتماعي بأنه النسق الذي ترتبط بواسطته أجزاء المجتمع بعضها ببعض من ناحية وبالمجتمع ككل من ناحية أخرى بطريقة مقصودة وقد استخدم هربرت سبنسر في كتابة مبادئ علم الاجتماع مصطلح التنظيم الاجتماعي ليشير إلي العلاقات المتبادلة ذات التكامل والتمايز "بين المظاهر الاقتصادية والسياسية في الحياة الاجتماعية. أما دور كايم فقد استخدم المصطلح في نتابه الانتحار سنة ١٨٩٧ ليشير إلي التكامل الاجتماعي والانتظام الفردي من خلال عمليات الاتفاق حول المعايير والقيم وقاعد الأخلاق. أما تشارلز كولى Cooly Ch في كتابه التنظيم

الاجتماعي للجماعات الأولية على اعتبار أن هذه الجماعات الأولية تعتبر وحدات متمايزة للحياة الاجتماعية واتفاقا مع كولي فأن تصور الفرد لذاته يتشكل من خلال التفاعل الاجتماعي وما للتنظيم الاجتماعي في نظره إلا أوجه النشاط المشتركة والفهم الذي يتطلبه هذا التفاعل الاجتماعي. أما بارسونز T Parsons فيبدأ بفكرة أن كل الانساق الاجتماعية منظمة بمعنى أنها تكون متمايزة بنائيا في الوقت الذي يفضل فيه هومانز استخدام مفهوم النسق الاجتماعي بدلا من التنظيم في الوقت الحاضر يميل بعض علماء الاجتماع إلي دراسة التنظيم الاجتماعي على اعتبار أن دراسة الانساق الاجتماعية المختلفة تعبر في ذاتها عن وجوه أو مظاهر مختلفة للتنظيم الاجتماعي، وعلى أية حال فأن هذه التعريفات السابقة تختلف فيما بينها رغم اتفاقها في بعض النواحي اختلافا واضحاً حيث يقصر بعضها التنظيم الاجتماعي على عملية تنظيم النشاط الإنساني بينما يركز البعض الآخر على العلاقات الاجتماعية في الوقت الذي يتخذ فيه البعض الثالث من الجماعات والبناءات الاجتماعية نقطة محورية لفهم التنظيم الاجتماعي وتحليله على اعتبار أن التنظيم هو الأسلوب أو الطريقة التي تتكون على أساسها الجماعات. على أنه من الأفضل أن ننظر للتنظيم الاجتماعي على أنه يشتمل على كل ذلك لأنه في حقيقة الأمر عبارة عن علاقة الإنسان بغيره وبيئته وجماعته وجنسه وحضارته وبالتالي فأن هذه المظاهر المختلفة لا توجد إلا كأجزاء مترابطة لكل متكامل وهو ما يطلق عليه اسم التنظيم الاجتماعي. فمن ناحية يمكن أن ننظر إلي التنظيم الاجتماعي على أنه تنظيم النشاط الإنساني بقصد تحقيق غايات معينة ومن ثم تصبح وحدات التنظيم هي أوجه النشاط الإنساني بقصد تحقيق غايات معينة ومن ثم تصبح وحدات التنظيم هي أوجه النشاط وليست الأشخاص لأن النشاط الجمعي إذا وجد بين شخصين أو أكثر يكون منظماً إذا عهد لكل منهم بمهمة معينة أو نشاط معين يعتبر جزء من النشاط الكلي ومن هنا أيضاً كانت هناك علاقة واضحة بين التنظيم الاجتماعي وتقسيم العمل الذي من شأنه أن يقيم بناء من الأدوار، والمراكز المعتمدة كل على الآخر بطريقة متبادلة فأي تنظيم اجتماعي لا يمكن أن يوجد إلا على

أساس عمليتين رئيسيتين الأولى عملية الاختلاف والتي تتميز عن طريقها الأجزاء بعضها عن بعض عن طريق ما تؤديه كل منها من وظائف مختلف نتيجة للاختلاف في الخبرات والأهداف والبرامج أما إذا توحد الناس في كل هذا ولم يعد هناك ما يميز فرداً عن آخر أو مجموعة عن أخرى لم يعد هناك داع لأي ترتيب معين لأجزاء المجتمع وإذن فالتنظيم لا يكون واضحاً إلا عن طريق ما يختلف به كل فرد عن الآخر أو كل جماعة عن الأخرى أما العملية الرئيسية الثانية للتنظيم الاجتماعي فهي عملية التكامل وهي العملية التي تصبح الأجزاء المختلفة عن طريقها متآلفة ولا تعني أن يكون الأفراد متشابهين وإنما على العكس من ذلك تمكن هذه العملية الأجزاء المختلفة من تأدية وظائفها بطريقة صحيحة ولما كانت هاتان العمليتان متلازمتين باستمرار بدرجات معينة لم يعد التنظيم شيئاً ثابتاً وإنما شيء دائم التغير ذلك لأنه يأتي نتيجة لعمليتي الاختلاف والتكامل في تعاونهما معاً فإذا لم تتآلف العمليتان ظهر ما يعرف بالمشاكل الاجتماعية فاختلاف التخصص في نشاط أفراد الأسرة لابد وأن يصحبه نوع من التكامل يستهدف التوفيق بين نشاط أفرادها وإلا انهرت الأسرة.

ومن ناحية ثانية يمكن أن ننظر إلي التنظيم الاجتماعي على أنه إطار من السلوك والعلاقات له خصائص مميزة تتمثل في وجود مجموعة من المعايير الاجتماعية أو قواعد الفعل الاجتماعي التي تحكم طريقة تأدية الفرد لدوره كما تتمثل أيضاً في وجود مجموعة من الآليات التي تربط بين سلوك الأفراد الذين يشغلون أدواراً معتمدة بعضها على البعض الآخر الأمر الذي يمكن من تحقيق الأهداف المبينة ومن هنا كان أهم ما يميز التنظيم الاجتماعي هو أن يكون أعضاؤه على درجة عالية من الاتفاق في نظرتهم إلي الأهداف والوسائل.

مستويات التنظيم الاجتماعي:

أشرنا من قبل إلي أن دراسة التنظيم الاجتماعي تحتم على الباحث استخدام معالجته من خلال نموذج أو أداة تحليلية هي ما يعرف باسم النسق الاجتماعي وأنه إذا ما تقبل الباحث نموذج النسق الاجتماعي وحاول أن يفهمه

أو بحلله فأنه بذلك يحقق خطوة هامة في المدخل السوسيولوجي إلي دراسة التنظيم الاجتماعي. وتؤكد فكرة النسق الاجتماعي عملية التفاعل والاعتماد المتبادل للظواهر الاجتماعية بالدرجة التي تدرس بها الوقائع الاجتماعية المفردة أو الظواهر الجزئية على أنها أجزاء في كليات أو مركبات مترابطة ومتداخلة. وقد يبدو من المفيد على حد تعبير سيلزنك أن نتصور الانساق الاجتماعية كما لو كانت تمثل مستويات ثلاثة للتنظيم الاجتماعي.

١- العلاقة على مستوى الأشخاص:

وهي تمثل العنصر الأساسي في كل رابطة اجتماعية تحدث عندما يرتبط شخصان بعلاقة ما أحدهما بالآخر كعلاقة الجار بجاره مثلاً. وتشير صفة شخصية هنا إلي انها علاقة تقوم بين أشخاص ولا تعني أنها لابد وأن تكون علاقة وثيقة فكثيراً ما تكون على هذا المستوى من التنظيم علاقة سطحية أو غير وثيقة وتمثل دراسة العلاقات الشخصية المتبادلة موضوعاً هاماً في علم الاجتماع لأنها تمثل العناصر الأساسية للبناء الاجتماعي فمهما اختلفت الجماعات نجدها تكون من نفس الوحدات الأساسية التي تتمثل في الأدوار وأنماط التفاعل. ولذلك فأن من يهتم بدراسة التنظيم الاجتماعي يجد لزاماً عليه أن يعالج ويعمق هذا النوع من العلاقات لأنه بذلك يسهم في معرفة العناصر الأساسية المكونة للجماعات مهما اختلفت بل وأكثر من ذلك يسهم تحليل هذا النوع من العلاقة بكثير في فهم المجتمع وما يطرأ عليه من تغير.

٢- العلاقة على مستوى الجماعات:

وهذا المستوى من العلاقة يختلف عن المستوى السابق اختلافاً واضحاً لأنه عندما تتعارض الجماعات مع بعضها البعض فأن أعضائها غالباً ما يتميزون بالعداوة تجاه بعضهم البعض ولو أن ذلك لا يحدث بصفة مستمرة. أن معرفة بناء الجماعة يتيح الفرصة لفهم الصراع أو التضامن داخل المجتمع كما أنها تلقي ضوءاً كبيراً على القوى التي تحدد طابع المجتمع في المستقبل.

٣- العلاقة على مستوى النظام الاجتماعي:

وهو أكثر مستويات التنظيم الاجتماعي تعقيداً ويوجد هذا المستوى بصفة خاصة عندما يتميز المجتمع – كمرحلة من مراحل تطوره – بنماذج متميزة متكاملة من التنظيم الاجتماعي تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى. ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك التنظيم الاقطاعي والراسمالي حيث يمثل كل منهما بعض الخصائص المحورية التي ميزت المجتمع الأوربي في فترة معينة عن غيره من المجتمعات.

مكونات التنظيم الاجتماعي:

يتكون كل تنظيم اجتماعي من بعض المكونات الضرورية والعامة يسميها البعض بالضرورات أو الملزمات الاجتماعية وأهمها الجماعات والقيم والمركز والدور والسلطة والأيديولجية. ترتبط فيما بينها ارتباطاً متبادلاً وذلك في أثناء عملها في أي نسق اجتماعي.

أ- الجماعات الاجتماعية:

الجماعة ظاهرة عامة توجد في كل مكان من العالم، وهي لذلك تمثل جزءاً أساسياً من مكونات أي نسق اجتماعي. وقد يستخدم مصطلح الجماعة استخداماً واسعاً ليشير إلي أي تجمع من الأشخاص الذين يرتبطون مع بعضهم البعض بمجموعة متميزة من العلاقات الاجتماعية – يصدق ذلك على أعضاء جماعة الأسرة أو أعضاء الحزب السياسي أو جماعات العمال – جماعة المدينة والجماعات القومية. وقد يمكن لشخصين أو أكثر أن يكونا جماعة بالمعنى الاجتماعي إذا ما ارتبط كل منهما بالآخر بعلاقات مع غيرهم من الجماعات الأخرى وعلى هذا الأساس يمكن أن نعرف الجماعة كنسق لعلاقات اجتماعية تربط بين الأفراد عن طريق الشعور بالتضامن الوجداني أو العاطفي، والهدف المشترك والمشاركة في نمط ثقافي يحدد الأدوار الاجتماعية والمستويات التي

تميز أعضاء الجماعة عن غيرهم وأخيراً الوعي بالانتماء أو العضوية للجماعة وبالتفاعل مع أعضائها.

وتتمثل الخاصية المميزة للجماعات الاجتماعية في الوعي بالتفاعل المتبادل بين أعضائها وليس في مجرد القرب أو الارتباط الفيزيقي بينهم، فحشود المسافرين مثلاً لا يكونون جماعة اجتماعية طالما أن عنصر التفاعل المتبادل لم يتحقق بعد بينهم.

والجماعة حقيقة اجتماعية هامة وحيوية وذلك لما تقوم به من وظائف عديدة في المجتمع ولما تمارسه من تأثير على سلوك الأفراد في كل المواقف الاجتماعية فمن خلال تأدية الجماعة لوظائفها تستطيع أن توصل الاتجاهات الثقافية والمطالب الاجتماعية الخاصة للأفراد والتوقعات التي تتطلبها المواقف الاجتماعية المختلفة، وهنا تبدو أهمية جماعة الأسرة في كسب الفرد لثقافة مجتمعه من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية ومن ناحية ثانية تهيء الجماعة مناخاً اجتماعياً للفرد يشبع فيه حاجاته، ويمارس فيه تأثيره الإيجابي مثلاً في الاستجابات الشخصية التي تعبر عن العاطفة أو التفوق أو المركز ومن ثم فأن المضمون الاجتماعي للجماعة هو المجال الوحيد الذي يشبع فيه الفرد حاجاته ورغباته.

وتتخذ الجماعة في المجتمع الحديث والمعقد نماذج مختلفة ومتعددة تختلف فيما بينها من حيث الحجم أو نوعية العضوية فيها أو كثافة الروابط والعلاقات بين أعضائها أو غير ذلك من الخصائص المميزة للجماعات. وربما كان من أكثر التصنيفات شيوعاً للجماعة في علم الاجتماع هو ذلك التمييز بين جماعات أولية وثانوية، وبين جماعة رسمية وغير رسمية.

أ – الجماعات الأولية والثانوية:

يشير مصطلح الجماعات الأولية Primary group على حد قول شارلز كولي Ch. Cooly إلي الجماعات التي تتميز بعلاقات المواجهة والارتباط الوثيق والتعاون بين أعضائها ولذلك فأن أهم ما يتسم به هذا الشكل من

الجماعة هو أن العلاقات السائدة بين أعضائها تكون على مستوى شخصي بالدرجة التي يهتم فيها أعضاؤها كل بالآخر على نحو يتعدي أو يفوق مجرد التحقيق الأناني والذاتي للأهداف الشخصية، وبعبارة أخرى لا تكون عضوية الجماعة أو العلاقات التي تربط بين أفرادها وسائل لتحقيق أهداف ذاتية، بقدر ما تكون غرضاً في ذاتها ولذاتها وبالتالي تكشف الجماعة عن حياة جمعية أو كلية وهدف مشترك ولعل من أبسط الأمثلة على النموذج الأولي للجماعة هو جماعة الأسرة.

وفي مقابل الجماعة الأولية يستخدم البعض مصطلح الجماعة الثانوية ليشيروا إلي الجماعات التي تسودها علاقات عرضية وأقل وضوحاً وأكثر توجهاً نحو المصالح الذاتية والاهتمامات الفردية وفي العادة تكون الجماعات الثانوية أكبر حجماً وأكثر رسمية من الجماعات الأولية ومن أمثلتها الروابط والاتحادات المهنية والنقابات وجماعات المصلحة الأخرى. وتختلف الوظيفة التي تقوم بها الجماعات الأولية بطبيعة الحال عن وظيفة الجماعات الثانوية. ففي الوقت الذي يجد فيه الفرد في الجماعة الأولية مناخاً تسوده المودة والحب والتعاطف والمشاركة الوجدانية لمشاكله وغير ذلك من الأمور الحيوية التي تؤثر في تكوين شخصيته. نجد أن الجماعة الثانوية تعمل هي الأخرى على تطوير شخصيته ولكن بطريقة أكثر رسمية. كما أن الجماعات الثانوية تمد الفرد بميكانيزم فعال ومؤثر لتحقيق أهداف معينة وللتعبير عن مصالح واهتمامات محدده ولكنها في الوقت نفسه قد تتطلب نوعاً من تعديل إن لم يكن كبت وأحباط بعض الدوافع والمشاعر الدفينة.

ب- المجتمع المحلي والرابطة كنموذجين متعارضين للجماعة الاجتماعية:

طور فرناند تونيز مفهومي المجتمع المحلي والرابطة ليشير بهما إلي نوعين متميزين من العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراد الجماعة وينطبق المفهوم الأول في الحالات التي تستند فيها علاقات الجماعة على التجانس

والإنسجام والاتفاق التام في رغبات الأفراد وإراداتهم، ذلك الانسجام والاتفاق الذي تطوره العادات والطرائق الشعبية والتقاليد والدين.

وفي هذا النموذج تعتبر العلاقات الاجتماعية غايات في ذاتها وبالتالي تكون مشاعر الألفة والمودة أموراً متوقعة بين الأعضاء، الأمر الذي يجعل هذا النموذج أقرب إلي نموذج الجماعة الأولية عند كولي، وعلى العكس من ذلك نجد النموذج المقابل للجماعة الثانوية والذي يسميه تونيز بالرابطة، حيث تفقد العلاقات الشخصية والحقوق والواجبات التي تحدد عن طريق العادات والعرف أهميتها في تنظيم الجماعة لتحل محلها علاقات التعاقد أو "العقد" والذي يمكن القول أنه في الوقت الذي يطور النموذج الأول علاقات بين الأعضاء بطريقة غير مقصودة يطور النموذج الثاني علاقات يرتبط فيها الأفراد بطريقة مقصودة لتحقيق غايات معينة.

جـ - الجماعات الرسمية وغير الرسمية:

قد تظل الجماعات غير رسمية في علاقات أفرادها وتنظم حياتها. فيستمر أعضاؤها في العمل بكل جهد لتحقيق مصلحتهم المشتركة في حرية وتصرف وجماعية ولكنها لا تلبث أحياناً كثيرة أن تنقلب إلي جماعة رسمية ذات قواعد محدده للمسئوليات والواجبات وطرق العمل المؤدية للأهداف. وقد تتطور بعد ذلك من جماعة رسمية إلي جماعية بيروقراطية تتركز فيها الرقابة في عدد محدود من الأشخاص هم الذين لديهم السلطات المقابلة للمسئوليات وهم الآمرون وبقية الأعضاء منفذون، وفي العادة تكون الجماعة غير الرسمية أصغر حجماً بحيث يمكن أن توجد داخل بناء الجماعات الرسمية وبالتالي فأنه كلما كبر حجم الجماعة كلما اتجه تنظيمها إلي الطابع الرسمي ومن أمثلة الجماعات غير الرسمية جماعات الأصدقاء وجماعات العمل الصغيرة وجماعة الأسرة بينما تعتبر المكاتب والإدارات الحكومية ومشروعات الأعمال الكبري والمؤسسات العسكرية والجامعات أمثلة للجماعات الرسمية.

٢- المعايير والقيم:

تمثل المعايير والقيم مكوناً أساسياً من مكونات التنظيم الاجتماعي، ذلك لأن من أهم ما يميز الجماعات ذات التنظيم الاجتماعي عن مختلف التجمعات الأخرى - كالحشد مثلاً - أن الأولى تطور فيما بينها قواعد عامة أو معايير تنظم ما يقوم بين أعضائها من علاقات كما تحدد وتتوقع أنماط للسلوك والتفاعل بينهم. والمعايير بوجه عام هي أمور مشتركة ومتفق عليها بين أعضاء الجماعة فيما يتعلق بأنماط السلوك الملائمة، وهي بالتالي قواعد تحدد ما الذي يحتمل أو يجب أو يتعين أو يستطيع أفراد الجماعة القيام به من سلوك - أو تجنبه - في مواقف اجتماعية مختلفة. ومن المعايير ما يكون عاماً يلتزم به جميع أفراد الجماعة بلا استثناء بحيث تأخذ في النهاية صفة القانون، ومنها ما يكون خاصاً تلتزم به بعض الجماعات الفرعية دون غيرها. وهنا يمكن أن نميز بين المعايير الرسمية وغير الرسمية، أما الأولى فهي التي تحدد بطريقة رشيدة ومقصودة لضبط السلوك داخل الجماعة المنظمة ومن ثم تفرض على الأعضاء عن طريق مراكز السلطة أو القيادات. وفي مقابل ذلك تتضمن المعايير غير الرسمية قدراً من الطوعية أو الاختيارية في الإلتزام بها ومع ذلك تصبح بمرور الوقت عادات اجتماعية واسعة الانتشار. غير أنه مهما كانت طبيعة المعايير السائدة في الجماعة فأنه يجب أن يتوافر لها درجة ما من الاتفاق أو الاجماع بين أفراد الجماعة. بمعنى أن الغالبية العظمى من أعضاء الجماعة يجب عليهم أن يتقبلوا هذه المعايير ويمتثلون لها، إذ أنه بدون هذا الاتفاق والاجماع تفقد المعايير ما لها من طبيعة ملزمة على أن ذلك كله يتوقف على مدي ما تحققه أو تسهم به هذه المعايير فيما يتعلق بأهداف الجماعة ومدى تأصلها في مشاعرهم وتقاليدهم وتستند المعايير على القيم الثقافية السائدة كموجهات للسلوك تحدد ما هو مناسب أو غير مناسب من أنماطه كما تعين مختلف الوسائل التي يستطيع من خلالها أفراد الجماعة تحقيق أهدافهم. والمقصود بالقيم الثقافية كأحدى مقومات التنظيم الاجتماعي هي كل اعتقاد أو إحساس عام بأن نشاط أو فعل أو

علاقة أو هدف ما على درجة من الأهمية بالنسبة لكيان الجماعة أو المجتمع ورفاهيته - وهذا يعني أن أهداف الجماعة تتخذ ما لها من فعالية وأهمية فقط عندما يعبر عنها في قيمة عامة مشتركة بالنسبة للغالبية العظمة من أفرادها ليعملوا بطريقة فردية أو جمعية على تحقيقها وأياً كانت قيم المجتمع فأنها تشكل إلى حد كبير نظمه الأساسية كما توجد وتحدد الأنشطة الاجتماعية لأفراده. فالفردية كقيمة أساسية من قيم المجتمع الأمريكي مثلاً هي التي حددت وبشكل واضح أهدافه العليا كما شكلت بالتالي النمط المميز لتنظيمه الاجتماعي. وبوجه عام يمكن القول بأن القيم عناصر ثقافية تعبر عن اتجاهات الأفراد واعتقادهم ومثلهم ورغبتهم ومفضلاتهم وأحكامهم التي تحددها في ذلك كله مجموعة من المبادئ والمعايير التي يضعها المجتمع والتي تحدد المرغوب فيه وغير المرغوب من السلوك. وتقوم القيم بوظيفة هامة وحيوية تتمثل في ربط أفراد المجتمع بعضهم البعض بالدرجة التي تجعل عناصر الثقافات الأخرى عسيرة ومن ثم فهي ملزم اجتماعي ضروري لكل مجتمع منظم أياً كانت درجة تحضره. وكلما كانت القيم ذات عمق واضح يتم اكتسابها بدون وعي من الأفراد لتصبح من موجهات السلوك دون إحساس بها. كما أنه مهما اختلفت القيم داخل المجتمع الواحد باختلاف الجنس أو الطبقة فأن قيماً معينة تظل ذات عمومية لجميع الأعضاء ولو أن الكثيرين قد يختلفون في تحقيقها في سلوكهم الفردي أو الاجتماعي وأخيراً يعكس طابع النسق القيمي حاجات أساسية معينة في التنظيم الاجتماعي للمجتمع خاصة وأنه يشتمل على كل الموضوعات والظروف التي أصبحت ذات معنى خاص من خلال تطور هذا المجتمع وانغمست في شعور أفراده ورغباتهم وميولهم.

٣- المركز والمكانة والدور:

يمكن اعتبار النسق الاجتماعي كنموذج تحليلي أو أداة للتنظيم الاجتماعي على أنه مجموعة لسلة من الأوضاع المحددة التي تربط أعضاء النسق بعضهم ببعض وتخضع علاقاتهم لنظام معين يتحدد لكل منهم من خلاله

دور معين داخل النسق كما يحدد الدور الاجتماعي للفرد مجموعة الواجبات والحقوق والامتيازات والالتزامات والتي تناط بما يشغله من وضع أو مركز في هذا النسق وكثيراً ما يختلط مفهوم الدور بمفهومي المركز أو المكانة والوضع لذلك يبدو من المفيد أن تضع تعريفاً محدداً منهما وذلك على النحو التالي:

يقصد بالدور ذلك السلوك أو النشاط الذي ينتظر أن يقوم به الفرد في كل موقف اجتماعي يشغل فيه مركزاً معيناً أو أنه يشير إلي مجموع الأنماط السلوكية المقررة ثقافياً والمرتبطة بمركز معين، ويرتبط الدور بطبيعته بفكرة المركز أو المكانة، أما المركز فهو الوضع الذي يشغله الفرد في النسق بحكم سنه أو جنسه أو ميلاده أو وظيفته ومستوى تحصيله. وفي النسق الاجتماعي هناك سلسلة طويلة من المراكز والأدوار المرتبطة بكل منها. ومع أن أساس تكوينها وتحديد شكلها يختلف عن ثقافة إلي أخرى إلا أن هناك علاقات تؤدي إلي قيام السلوك العادى بمعنى أن تنظيم المراكز والأدوار في النسق على نحو معين يجعل من الممكن التوقع مقدماً بالسلوك الذي سوف يصدر عن الآخرين في كل موقف اجتماعي وهذا ما يعرف باسم توقعات الدور ولهذا يقال إن لكل شخص مجموعة من الأدوار والمراكز يقوم بها أو يوجد فيها والأمر كله معلق على المضمون الاجتماعي الذي يوجد فيه الفرد أو يتفاعل معه. وفي المجتمع الحديث تتعدد انتماءات الفرد لأكثر من جماعة أو نسق وتتعدد الأدوار التي يتعين عليه أن يقوم بها وكثيراً ما تتعارض أهداف هذه الجماعات التي ينتمي إليها الفرد الأمر الذي يتيح الفرصة لما يعرف باسم صراع الدور وصراع الدور أو الفشل في القيام بالدور المتوقع أمر من الصعب تجنبه ولذلك فمن أهم المعايير التي تستخدم في الحكم على مدى تكامل شخصية الفرد أو توافقها هو مدى قدرة الفرد على التوفيق بين الأدوار التي يقوم بها أو نجاحه وفشله في الجمع بين أكثر من دور في وقت واحد.

وتختلف توقعات الدور كما تختلف المراكز التي يشغلها الأفراد في النسق تبعاً لعدة عوامل منها:

أولاً: السن والجنس حيث نجد أن توقعات الرجل غير توقعات المرأة كما أو توقعات الشاب غير توقعات المسن ومنها أيضاً قدرات الفرد ومواهبه الخاصة أو ملكاته ومهنته ومستوى تعليمه أو تحصيله وهي كلها أمور تستخدم كأساس في تمييز المراكز أو الأوضاع التي يشغلها الأفراد داخل النسق وتحديد النسق وتحديد الأدوار التي من المتوقع أن يقوموا بها. وهنا نستطيع أن نميز بين نوعين من المكانة أو المركز. مكانة موروثة تحدد للفرد منذ لحظة الميلاد دون جهد من جانبه. ومثالها تلك المكانة التي تحدد للفرد خلال عملية الوراثة وتحدد وفقاً لها وبطريقة آليه أدوار مبينة كالطبقة الاجتماعية والسلالة والجنس والعمر، ومكانة مكتسبة تلحق بالفرد فقط من خلال ما يقوم به من جهد أو على الأقل اختيار من جانبه. ويتميز هذا النوع من المكانة بأنه يخضع للتنافس وكقاعدة عامة يمكن القول بأن أكثر المجتمعات تعقيداً هي أوضحها تميزاً باتاحة فرص أكبر للفرد لأن يحقق أو يختار مكانة ما من بين عدد متنوع من أوضاع المكانة. وهذا ما يعرف – كما سنرى في دراستنا للنظام الطبقي باسم التنقل الاجتماعي.

٤ – القوة والسلطة:

لا يسير النسق الاجتماعي مهما كان بسيطاً أو معقداً كيفما اتفق ذلك لأن نواحي النشاط التي تكون الحياة اليومية للناس تتطلب التوجيه وبالتالي لابد أن تكون هناك جهة موجودة لاصدار القرارات والسلطة كما يعرفها بعض علماء الاجتماع هي قوة نظامية وشرعية في مجتمع معين مرتبطة بنسق المكانة الاجتماعية وموافق عليها من جميع أعضاء المجتمع أو هي الحق المقرر لجماعة من الناس في وضع قرارات ملزمة لتنظيم نشاط الآخرين. وترجع أهمية السلطة إلي أنها توجه سلوك الأفراد بصورة محدده لإنجاز الأهداف العامة ويتحقق ذلك من خلال بعض الميكانيزمات مثل التبادل والمصالح المشتركة والتضامن والقوة. أما القوة فلا يزال مفهوماً غامضاً وغير محدد في أذهان الكثيرين من المشتغلين بعلم الاجتماع ولو أنها بوجه عام تشير إلي قدرة فرد وجماعة على

ضبط فرد آخر أو جماعة أخرى ويتضح عنصر القوة من خلال اتخاذ القرارات حيث يظهر الفعل في أي نسق اجتماعي عندما تتحول القرارات إلي فعل من جانب من هم في مواضع القوة أو أولئك الذين يملكون القدرة على التأثير في غيرهم من الأفراد. ومن وجهة النظر السوسيولوجية فأن أنساق السلطة والقوة متضمنة في كل نسق اجتماعي ولكن موضع السلطة واختيار الهيئة وامتداد الفعل يختلف من مجتمع لآخر. وبوجه عام يلاحظ أن مظاهر السلطة ومراكزها وأجهزتها المختلفة وتتطور التنظيم الاجتماعي حيث تميل إلي التطور من البساطة إلي التعقيد كلما انتقل المجتمع من حالة البدائية إلي القروية إلي الحضرية إلي الصناعية وتبلغ السلطة أعلى مراحل التعقيد في الانساق الاجتماعية التي تدخل تحت إطار الدولة وهنا نجد أن هذه الانساق يكون لها سلطات تترتب على اساس نظام تسلسلي لكل درجة فيه مركز من مراكز القوة بحيث نجد أن النسق الاجتماعي الواحد تتدرج فيه السلطات على نحو يرتب مراكز الناس وأدوارهم بالنسبة للنسق وبالنسبة لمجموع المجتمع. ويطلق على انساق السلطة المتدرجة على هذا النحو اسم "البيروقراطية" التي تقوم على أساس تسلسل السلطات داخل التنظيم بحيث لا تستطيع المراكز العليا فيها أن تشرف إشرافاً مباشراً على كل شيء داخل النسق الاجتماعي وبالتالي تفقد اتصالها بالقاعدة العريضة للنسق الاجتماعي وتسنح الفرصة عندئذ لاضطراب السلطة والتعقيد الذي يعطل تنفيذ القرارات أو إنجاز الأهداف ويظهر ذلك على مستوى الحكومات والمؤسسات الكبري بصفة خاصة.

وتصنف السلطة تصنيفات مختلفة، لعل من أبسطها وأكثرها شيوعاً ذلك التمييز بين السلطة التنفيذية التي تفرض التشابه والامتثال لقواعد السلوك المقبولة اجتماعياً وذلك بهدف المحافظة على استمرار القواعد والمعايير في أداء عملها ومنع الانحراف أو التعدي على الاتجاهات الثقافية العامة والنظام الاجتماعي العام ككل. والسلطة الإدارية التي تسهم في توجيه الأفعال داخل الوحدة الاجتماعية والتي بدونها لا يمكن لأي جماعة أن تنهض بالوظائف التي تحقق أهدافها، وهنا تمثل اللوائح الأساسية للتنظيمات المختلفة الأسلوب أو

الطريقة التي تفرض من السلطة. والسلطة القضائية التي تعمل على حل الخلافات التي تنشأ بين الأفراد في المجتمع مهما كان نوع هذا الخلاف.

ومن تصنيفات السلطة أيضاً ذلك التمييز بين السلطة الشرعية والسلطة المغتصبة أو التمييز بين السلطة التقليدية التي تستمد شرعيتها من قدسية التقاليد القائمة والسلطة القانونية التي تستمد شرعيتها من نسق القواعد الرسمية والتي تتمثل وظيفتها في تنظيم السلوك بطريقة رشيدة عقلانية وتعاون على انجاز الأهداف المراد تحقيقها. وهناك نوع آخر من السلطة الإلهامية أو الكاريسمية[٢].

وهي التي تستمد شرعيتها من الخصائص الفريدة لقائد معين ومن الطبيعة الالهامية لرسالته وهي إذن صورة فريدة لأنها تعتمد على قدرة القائد على اقناع اتباعه وتأكيد الطبيعة الخاصة والمقدسة لرسالته. هذا وعلى الرغم من أن مفهوم الكاريسما نبع أصلا من الدين. إلا أن السلطة الكاريسمية من ليست بالضرورة دينية بالمعنى التقليدي بل أنها تستند أيضاً على الروح القومية خاصة إذا نظرنا إلي القائد على أنه ممثل لروح الشعب المتميز والمثال على ذلك سلطة هتلر في ألمانيا النازية.

٥ – الضبط والجزاء الاجتماعي:

الضبط الاجتماعي هو العملية التي يوجه بها الأفراد إلي أن يسلكوا وفق أنماط السلوك المتبادلة والمتوقعة، أو هو الوسائل والعمليات التي يحقق بها النسق أهدافه من خلال مجموعة من القواعد التي تنظم سلوك الأعضاء بهدف تحقيق النظام ورعايته وبلوغ أكبر درجة من التكامل. أو هو على حد تعبير لندبرج عبارة عن المسالك الاجتماعية التي تقود الأفراد والجماعات نحو الامتثال للمعايير المقررة أو المرغوبة، أو بمعنى آخر هو العمليات والوسائل التي تستخدمها الجماعة لتضييق نطاق الانحرافات عن المعايير الاجتماعية المقبولة. أن المجتمع لكي يضمن توافر النظام واستمراره يلجأ في الحقيقة إلي ممارسة الضبط على أعضائه بطرق ثلاثة أما الأولى فتتمثل في التنشئة الاجتماعية للأفراد بما يجعلهم أنفسهم راغبين في التصرف أو السلوك على النحو المتوقع منهم

وذلك من خلال ما يلقنه المجتمع في الفرد من قيم ومعايير أساسية يشترك فيها مع غيره عندما يكبر والتي تجعله متشابهاً مع غيره من أفراد المجتمع. أما الثانية فهي تتمثل في فرض ضغوط اجتماعية وجماعية على الأفراد تلزمهم بالتوافق وإلا عوقبوا من جانب الجماعة الأولية كالاستحسان والاستنكار والثناء واللوم أو العزل كما تتمثل أيضاً في الضوابط الرسمية للجماعات الثانوية كالقوانين واللوائح والإجراءات المقننة والدعاية والمكافآت والعقوبات وما شابه ذلك. وتأتي الطرقة الثالثة مكملة للطريقتين الأولى والثانية خاصة في الحالات التي لا تجديان فيها وهي استخدام القوة للحيلولة دون وقوع الإنحراف أو إثارة أي عامل من عوامله. ويعتبر القانون من أهم وسائل الضبط الاجتماعي الرسمية ممثلاً في الدولة والحكومة كما يعتبر الدين شكلاً من أشكال الضبط الاجتماعي التي تجمع بين الطابع الرسمي وغير الرسمي، فطالما كان أفراد المجتمع يؤمنون بحقيقة وقوة الأديان يظل التدين سلاحاً قوياً للضبط قد يستخدمه القادة والكتاب للتأثير في أفراد المجتمع ليحققوا من خلال مخاطبة القلوب والنفوس والأرواح ما لم يستطيعوا تحقيقه بواسطة الاقناع والعقل. ولذلك فأنه مهما ضعف الوازع الديني في المجتمع الحديث بفعل المدنية والمادية فأن الدين سيظل من أهم وسائل الضبط الاجتماعي في المجتمع.

ويرتبط الضبط الاجتماعي بالجزاء خاصة إذا أخذنا بتعريف معين للضبط مؤداه أنه تطبيق للجزاءات بما يضمن امتثال الأفراد لمعايير الجماعة من ناحية ثانية، ثم التنسيق بين أفعال الأفراد وتصرفاتهم بطريقة تمكن الجماعة من تحقيق أهدافها. وبوجه عام فأن مصطلح الجزاء يشير في علم الاجتماع إلي نظام المكافآت والعقوبات التي يستخدمها أعضاء الجماعة لتشجيع السلوك على الامتثال للمعايير وفي هذا الصدد يمكن أن تميز بين جزاءات سلبية.

وتوضع كعقوبة أو تهديد بعقوبة يواجه بها الأفراد الذين يتعدون على معايير الجماعة أو الذين فشلوا في إنجاز مهامهم والقيام بأدوارهم كما ينبغي وقد تتضمن الجزاءات السلبية فقد المكانة أو الرتبة وتتدرج حتى تصل إلي حد الإعدام أو الموت أما الجزاءات الإيجابية فتستخدم لمكافآة الأعضاء الذين

يتمثلون لمعايير الجماعة أو يسلكون حسب توقعات الجماعة ومن ثم فهي تشجع الأداء الأحسن للدور وتأكيد أنماط السلوك المرغوبة وجدير بالذكر أن كلا النوعين من الجزاءات تعتبر ملزمات اجتماعية ضرورية للابقاء على تنظيم الجماعة ووسائل فعالة تمكن الجماعة أو النسق من تحقيق أهدافه.

٦- الرتبة الاجتماعية:

كلما زاد التنظيم الاجتماعي للنسق تعقيداً تحددت الأدوار المختلفة ورتبت فيما بينها بطريقة تدرجية أو هيراركية ليصبح بعضها أعلى رتبة من البعض الآخر والرتبة في علم الاجتماع باعتبارها عنصراً من عناصر النسق الاجتماعي يمكن أن تفهم كمنزلة اجتماعية. وهي تعتمد على علاقات للدور وأوضاع المكانة أو المركز ولهذا فمن الممكن أن نجد أفراد لهم رتب متشابهة في النسق ولكن يصعب أن نجد نسقاً يشغل كل أعضائه رتباً متساوية أن كل فرد يقوم بفعل ما في النسق يحاول دائماً أن يقيم غيره من أعضاء النسق ليحدد رتبتهم بالنسبة لرتبته هو. لذلك تقيم القائمين بالفعل تعتبر عملية هامة لأنها تثير الفعل المتضمن في العنصر البنائي للرتبة وبالمثل فأن كل فرد يقيم من جانب اقرانه في النسق لتتحدد له رتبة معينة وفقا لمكانته ودوره في النسق. وقد ترتبت الأدوار على هذا النحو بطرق مختلفة. فقد يعتبر أحد الأدوار ذا رتبة عالية لما يناط به من درجة عالية من السلطة بالنسبة لغيره. من أدوار في النسق أو لما يتطلبه من مهارة أو خبرة أو تحصيل معين وبالعكس قد يعتبر الدور أقل رتبة لما يناط به من امتيازات أو – سلطة أو قوة أقل أو مسئوليات أقل حجماً وأياً ما يكون المعيار المستخدم في تقييم الأدوار أو ترتيبها في النسق فأن الأحكام أو التقيمات المشتركة للأدوار من جانب أعضاء النسق تشكل فيما بينها نسقاً من أنساق الرتبة الاجتماعية التي تمثل مكوناً هاماً من المكونات الأساسية لكل تنظيم اجتماعي.

على أنه كثيراً ما يختلط مفهوم الرتبة الاجتماعية بالمكانة الاجتماعية على اعتبار أن كلا المفهومين يشير إلي نفس الظاهرة إلا أننا نتصور أن الرتبة الاجتماعية تشير إلي الوضع المتميز للأدوار في جماعة ما بينما تشير المكانة إلي

المستوى المحدد للهيبة الذي يناط بالفرد في جماعة من خلال ما يقوم به من دور فيها. ولذلك تكون المكانة نتيجة أو محصلة للرتبة الاجتماعية ومن ثم تقول أن شخصاً ما يتمتع بمكانة عالية في النسق أو الجماعة لأن الدور الذي تحدد له فيها يحتل رتبة أعلى في التدرج الهيراركي لأدوار الجماعة أو النسق. وهنا ينبغي أن نلاحظ أن المكانة التي قد يشغلها الفرد في جماعة ما لا يتكون بالضرورة هي نفسها تلك المكانة التي قد يشغلها في جماعة أخرى.

ولقد ربط بيرجل مفاهيم "البناء" والنسق والترتيب الطبقي فيذكر أن في كل بناء نجد أن عملية تحديد الرتبة تقوم بوظيفة حيوية أو تكون بمثابة طريقة لأحداث النظام في تنوع مضطرب من الظواهر أو الوحدات وترتيبها في نسق ذي مغزي ثم يلي ذلك عملية تحديد المكانة كنتيجة لعملية الرتبة وتشير إلي تحديد الوضع النسبي للشخص أو الجماعة أو الوحدة داخل النسق الذي أجريت فيه عملية تحديد الرتبة ونظراً لتعدد الأنساق واختلافها فأن ذلك يؤدي إلي أن يكون لكل شخص أو جماعة عدة رتب ومكانات مختلفة. أما الترتيب الطبقي فهو النتيجة الموضوعية لعملية تحديد الرتبة أو المكانة. فهو يشير إلي نظام تحديد الرتبة وإلي الوضع النسبي للرتب والمكانة وطريقة توزيعها داخل نسق متدرج فإذا كان النسق يرتب ما بين الأشخاص بغض النظر عن عضويتهم في جماعات نكون بصدد ترتيب طبقي فردي أما إذا أخذت الجماعات ورتبت كوحدات فيما بينها فأننا نكون بصدد ترتيب طبقي جماعي أما الترتيب الطبقي الاجتماعي فهو المظهر العام لبناء كل الانساق الاجتماعية.

الفصل التاسع

الطبقة والتدرج الطبقى الاجتماعى[*]

- ❖ تمهيد.
- ❖ تعريف الطبقة.
- ❖ النظريات الأساسية فى تفسير ظاهرة التدرج الطبقى.
- ❖ مبادئ الانقسام الطبقى فى المجتمع.
- ❖ النسق الطبقى فى المجتمع الريفى والحضارى.

(*) كتب هذا الفصل أ.د. السيد عبد العاطى.



الفصل التاسع
الطبقة والتدرج الطبقى الاجتماعى

تمهيد:

يشكل موضـوع " الطبقة الاجتماعية " مبحثا من المباحث الاساسية فى علم الاجتماع بل يكاد يكون من الموضوعات الكلاسيكية التى حظيت بقسط وافر من الاهتمام لا من جانب علماء الاجتماع فحسب بل وأيضا من جانب الفلاسفة ودعاة الاصلاح الجتمـاعى الامر الذى جعل التراث الفكرى والعلمى فى هذا الموضـوع ينطوى على العديد من النظريات التى تعبر عن تصورات وايديولوجيات مختلفة ومتعارضة.

وترتكزالاهمية التى يشغلها موضوع "الطبقة والتدرج الطبقى" عند علماء الاجتماع على تصور مؤاده أن ظاهرة انقسام المجتمع إلى طبقات اجتماعية تعلو بعضها بعضا، ظاهرة عامة يكاد لا يخلو منها أى تنظيم اجتماعى انسانى، حتى انه من المتعذر أن تجد فيما يسود العالم من ثقافات مختلفة مجتمعا واحدا يخلو من مظاهر الترتيب الطبقى الاجتماعى. حتى فى المجتمعات البدائية التى قد لا تظهر فيها الفوارق الطبقية بين الأفراد بنفس الدرجة من الوضوح التـى تبـدو عليـها فـى المجتمـع المتمدين. الا أن موضوعـات مثـل الرئاسـة. والزعامة. والشجاعة الفردية وملكية الأسرة والعشيرة تشير إلى نوع ما من التدرج الطبقى فيها وفى أى مجتمع يتفاعل الأفراد مع بعضهم البعض عل أساس من أدوار اجتماعية تمثل مجموعة وظائف مختلفة تثبت فى نموذج معين يحدد الموقف الاجتماعى للأفراد الذين يختلفون فيما بينهم فى صفات ومقاييس عدة. كما أن فى كل المجتمعات نجد هناك تمايزا بين الأفراد على أساس ما يقومون

به من أدوار كما نجد تقييما لهذه الأدوار يتم بطريقة متمايزة الامر الذى يجعل بعض الأدوار أكثر أهمية وقيمة من غيرها ويجعل أفراد بعينهم ينالون نصيبا وقدرا أكبر من تقدير المجتمع نظرا لأهمية الأدوار التي يشغلونها. ومن ثم تظهر فكرة المركز نتيجة لاختلاف درجات التقدير الاجتماعي للادوار الاجتماعية التي يقوم بها أفراد المجتمع، وبالتالى تظهر فكرة الترتيب الطبقي كعملية بها تترتب الجماعات والأفراد في سلسلة متدرجة من المراكز والمراتب التى يقرنها المجتمع بدور معين أو لمجموعة من الادوار التي يقوم بها الأفراد والجماعات. ويؤكد علماء الاجتماع من هذه الزاوية، أن ظاهرة الترتيب الطبقي عامة بقدر ما لظاهرة "الطبقة" في نظر البعض مثل بارسونز وبوتومور سمة من أبرز سمات التنظيم الاجتماعي وعنصرا اساسيا لكل تنظيم اجتماعي في المجتمع الحديث.

وتستند عمومية ظاهرة التدرج الطبقي عند كثير من علماء الاجتماع على فكرة اللامساواة بين الافراد فالناس حتى التوائم منهم لا يختلفون فقط فى تركيبهم الجسماني وقدراتهم العقلية وأنماط سلوكهم وأمزجتهم ومهارتهم اليدوية والفنية فحسب، بل يختلفون أيضا فى أوضاعهم الاجتماعية وفى المكافآت التي يحصلون عليها والمراكز والادوار والوظائف التي توزع عليهم داخل التركيب الاجتماعي ولذلك تمثل هذه اللامساواة الاجتماعية بين الأفراد والتى تسير جنبا إلى جنب مع الفروق الفردية أساس ظاهرة الطبقة. بعبارة أخرى تتفق عملية الترتيب الطبقي مع مفهوم اللامساواة الاجتماعية التى يجرى امرها في كل المجتمعات كما أن دلالة النسق الطبقي القائم على هذه اللامساواة تبدو في تحديد نوع المكافآت والحواجز التي يمنحها المجتمع للأفراد والجماعات. ذلك أن المجتمع لابد وأن تكون لديه بعض أنواع المكافآت والجوائز التى يستخدمها فى اثارة دوافع العمل بين الأفراد والجماعات وترتبط طريقة توزيع هذه المكافيءت بالمركز الاجتماعي لتكون جزءا أساسيا من التنظيم الاجتماعي واساس ظاهرة الترتيب الطبقي في المجتمع.

ويعارض بعض علماء الاجتماع مثل ارنست بيرجل فكرة اللامساواة بين الأفراد كأساس لتبرير عمومية ظاهرة الطبقة ويستخدم بدلا منها فكرة التكامل فهو يرى أن الكل اذا ما تركب من جزئين متمايزين أو أكثر فاننا في هذه الحالة نتحدث عنه كبناء. وطالما أن أبسط الوحدات الاجتماعية تتركب بالضرورة من فردين أو جماعتين او أكثر لذلك كانت جميع الوحدات الاجتماعية بنائية في المقام الأول. غير أن ذلك لا يعني في نظر بيرجل، أن هذه الأجزاء المكونة للكل أو البناء هي بالضرورة مختلفة أو غير متساوية فالاختلاف واللاتساوي بين الأجزاء ليست صفاتمنطقية أو واقعية في كل الانساق البنائية بل هي صفات تظهر فيما بعد. بمعنى انه كلما أصبح النسق أكثر تعقيدا كلما أصبحت أجزاؤه المكونة لها أقل اتساقا وتساويا مع بعضها البعض وبناء علي ذلك يرى بيرجل انه اذا كان البعض يرجع ظاهرة الترتيب الطبقي إلى عمليات التمايز داخل وحدة لم تكن متمايزة من قبل فأن، الدلائل تشير في نظره إلى ان عمليات التكامل وليس التمايز، هي العامل الفعال الأكثر أهمية ويتخذ شاهدا على ذلك أن البناء الشعوبي او السلالي في امريكا والذى لعب دورا هاما في نسق الترتيب الطبقي فيها لم يكن نتيجة للتمايز داخل نسق متجانس بقدر ما نتج أولا وقبل كل شئ من تكامل عناصر متغايرة في نسق أوسع وأكبر.

غير أنه علي الرغم من عمومية ظاهرة الترتيب الطبقي، وعلي الرغم من اختلاف وجهات النظر في تفسير وتبرير هذه العمومية، الأأنه من الحقائق المؤكدة أن لكل مجتمع نسقه الخاص من الترتيب الطبقي الذي يرتبط ارتباطا وظيفيا بغيره من الانساق التي تكون في مجموعها البناء الاجتماعي. لذلك كان من الطبيعي أن، يختلف هذا النسق شكلا ومضمونا من مجتمع لآخر وذلك لاختلاف طبيعة البناء الاجتماعي ومقوماته من ناحية ولاختلاف ما يسود في كل مجتمع من ترتيب هرمي للقيم التي يتخذها المجتمع دعامة يقيم عليها هذا النسق. ذلك انه طالما كان الترتيب الطبقي مسألة تصنيف وتقسيم فغالبا ما يوجد تنوع واسع ولا محدود للوسائل التي رتبها المجتمع ترتيبا طبقيا: فمن المجتمعات ما ينقسم إلى طبقتين ومنها ما ينقسم إلى أثنتي وعشرين وبينما

يؤسس الترتيب الطبقي على أساس من الكفاءات والصفات الشخصية في بعض المجتمعات كالذكاء والشجاعة نجده يؤسس في مجتمعات أخرى على أساس من الملكية أو الدخل أو مؤشرات موضوعية أخرى، وقد يكون هذا الترتيب الطبقي واضحا ومتفق عليه في بعض المجتمعات بينما نجده أكثر غموضا في مجتمعات أخرى بحيث لا يكاد يتفق فردان من أفراد المجتمع. وقد تسمح بعض المجتمعات بالتداخل ما بين الطبقات الموجودة بينما يكون التمايز بين الطبقات صارما ودقيقا في مجتمعات أخرى بحيث لا يستطيع الفرد أن يغير من الطبقة التي حددت له منذ لحظة ولادته. وقد تبقى بعض انساق الترتيب الطبقي جامدة وثابتة لعدة قرون بينما تتغير باستمرار في مجتمعات أخرى ومرد هذا الاختلاف والتنوع الواسع في انساق الترتيب الطبقي بين المجتمعات ان نسق الترتيب الطبقي هو أحد الانساق البنائية في المجتمع والتي تتشكل شكلا ومضمونا بالصورة العامة لبناء المجتمع وبطابع الثقافة السائدة وتخضع بالتالي لعوامل التغير التي يخضع لها المجتمع لتسير في نفس الاتجاهات التغيرية التي يمر بها المجتمع ككل.

تعريف الطبقة:

يبدو أن لفظ "الطبقات"قد عرف عند كثير من المؤلفين العرب فخم يحدثوننا عن طبقات الشعراء وطبقات المحدثين وغير ذلك من أنواع الطبقات كما ظهر المعنى الاجتماعي للفظ عند العرب، حيث نجد ان الكثير من المؤلفين العرب يحدثوننا عن طبقة العامة، وطبقة الصناع وطبقة التجار وغيرهم. كما يبدو المعنى الاجتماعي للفظ طبقة في بعض المفاهيم العربية حيث يذكر صاحب لسان العرب أن طبقات الناس هي منازلهم ومراتبهم.

وقد اسيخدم اللفظ في اللغات الأوربية ليشير إلى معان متعددة تبعد بعداً تاما عن المعنى الاجتماعي مثل الفئة أو القسم، أو النوع أو حجرة الدراسة.

وعلى الرغم من أن اللفظ قد استخدم في اللغات الأوربية بمعناه الاجتماعي منذ عهد طويل نسبيا، حيث نجده عند تورجو سنة ١٧٦٦ كما نجده

فى كتاب سان سيمون سنة ١٨٣٥ الا أن اللفظ لم يكتب له الذيوع والانتشار إلا بعد ظهوره كتابات كارل ماركس فى أواسط القرن التاسع عشر.

وفيما يلى نستعرض بعض التعريفات المتداولة للطبقة بالمفهوم الاجتماعى:

أ-فى قاوس علم الاجتماع:

يعرف فيرشيلد الطبقة الاجتماعية بانها:" عبارة عن مجموعة من الجماعات الاسرية التى تتكون داخل المجتمع، وتتساوى فى المكانة الاجتماعية فكل الأفراد الذين يتساوون اجتماعيا ويلقون درجة واحدة من الهيبة والاحترام، يكونون طبقة اجتماعية مميزة.

ب- وفى دائرة المعارف البريطانية:

تعرف الطبقة الاجتماعية بانها ذلك الحشد من الأفراد الموجودين داخل المجتمع والذى يتصف أفراده بانهم ذوو مكانة متساوية.

جـ- وفى دائرة معارف العلوم الاجتماعية:

يستخدم اللفظ ليشير إلى اللامساواة الاجتماعية التى تقوم بين الجماعات وقد أوضحت الدائرة المعنى الشائع للطبقة فى حديثنا العادى عن الطبقات العليا والدنيا وطبقة الملاك والاجراء.. الخ وفى هذا المعنى تصبح الطبقة عبارة عن مجموعة من الناس تتميز بصفات ومميزات معينة ومشتركة فيما بينهم كما تشير دائرة معارف العلوم الاجتماعية إلى أن اشتراك الأفراد فى صفات معينة لا يكفى لان يوضح المعنى الاجتماعى للكلمة، بل لابد من تعيين نوع الجماعات التى يمكن اعتبارها طبقات اجتماعية وان تحدد الاسس التى تنشئها والمظاهر التى تحدد كيانها وهنا نجد اتجاهين مختلفين فى تحقيق أسس التوحد الطبقى:

الأول: موضوعى يتخذ من العوامل الاقتصادية كالأرض ورأس المال ووسائل الانتاج أساسا لانقسام المجتمع الانسانى إلى طبقات اجتماعية وذلك

على نحو ما ذهب أصحاب الحتمية الاقتصادية والمادية التاريخية مثل ماركس وسان سيمون وماكس فيبر.

والثاني: ذاتي فيه تصبح الطبقة الاجتماعية مفهوم لا وجود له إلا في ذهن الفرد الذي يخلقها خلقا، على نحو ما يفعل علماء الغرب بصفة عامة.

هذا وقد ظهرت تعريفات كثيرة للطبقة في كتب علم الاجتماع نذكر منها:

١-تعريف ماركس:

يعرف كارل ماركس الطبقة الاجتماعية بانها تجمع من الأشخاص ممن يقومون بنفس الوظيفة في نظام الانتاج. ولذا كان الاحرار والعبيد والنبلاء، والعامة والسادة والرقيق وأصحاب الحرفة وصبيانهم كلها عبارة عن أسماء لطبقات اجتماعية ظهرت في فترات مختلفة من التاريخ، كانت تتميز فيما بينها عن طريق المركز أو المكانة المختلفة التي كانت تشغلها في الاقتصاد بوجه عام.

٢-تعريف ماكيفر:

والطبقة عندما ماكيفر هي أي جزء من المجتمع متميز عن باقي أجزاء المجتمع لا عن طريق التحديات التي تنشأ عن اللغة أو الاقامة أو الوظيفة أو التخصص وانما عن تلك التحديات التي تنشأ عن ادراك الأفراد والجماعات للمسافات أو الابعاد الاجتماعية فيما بينهم وان كانت هذه الصفة تتطلب لتوضيحها وابرازها وجود فروق موضوعية تتمثل في الدخل والامتيازات والفروق المهنية القائمة بداخل المجتمع وحتى هذه الفروق نجدها لا تشكل جماعات متلاصقة أو متلازمة اذا خلت من نظام يقوم على سمات الاستغلال.

٣-تعريف اجبرن وينمكوف:

يعرف اجبرن وينمكوف الطبقة بانها حشد من الاشخاص يشتركون في نفس المكانة الاجتماعية داخل المجتمع وهما بذلك يتفقان مع تعريف الطبقة كما يرد في دائرة المعارف البريطانية.

٤-تعريف سوروكين:

وفي مقالة لسوروكين بعنوان ما هي الطبقة يشير إلى أغلب النظريات التي عالجت موضوع الطبقة كانت ضعيفة وخاطئة وهو لذلك يحاول أن يقدم تحليلاً خاصا لمفهوم الطبقة يتفادى فيه الاخطاء المتكررة التي وقع فيها الباحثون عند تعريفهم للطبقة فيذهب في تعريفه إلى أن الطبقة جماعة خاصة متعددة الروابط تختلف عن الأسرة والقبيلة والطائفة والمرتبة والأمة، وقد أصبح لها في عصرنا الحالي تأثير ونفوذ عظيمان ولا يهم في نظره الاسماء التي نطلقها على هذه الجماعة فنسمها باى اسم، أو نرمز لها بالرمز وانما المهم هو تحديد السمات الاساسية التي تحدد كيانها وتميزها عما عداها فهي على حد تعبيره مفتوحة من الناحية المثالية ونصف مغلقة من الناحية الواقعية يجمع بين أفرادها مصالح مشتركة وتتصف اساسا بانها غير كاملة التنظيم وان كانت تصل احيانا الى درجة معينة من التنظيم وتكون أحيانا على وعى وادراك بكيانها الخاص وأحيانا لا تشعر بمثل هذا الكيان. وهي اخيرا جماعة متعددة الروابط ترتبط مع بعضها البعض بروابط مهنية واقتصادية إلى جانب ارتباطها بظاهرة الترتيب الطبقي من حيث تميزها بمجموعة من الحقوق والواجبات تختلف عن حقوق وواجبات الطبقات الأخرى التي لها نفس الطبيعة العامة.

٥-تعريف جنزبرج:

يعرف جنزبرج الطبقة الاجتماعية بانها اجزاء من المجتمع أو مجموعات من أفراد يقف كل منهم على قدم المساواة مع الآخرين وتتميز عن باقي أجزاء المجتمع الأخرى بمعايير معينة كارتفاع أو انخفاض المكانة بشرط ان يتقبلها المجتمع ويجيزها ويشير جنزبرج إلى أنه بداخل كل طبقة تسود المساواة بصفة أساسية وبطريقة تعلو بهذه المساواة فوق مستوى الفوارق الصغرى أو المراتب المختلفة التي تنقسم إليها الطبقة وينظر جنزبرج إلى الطبقة الاجتماعية من زواويتين تشير الأولى إلى وجهة نظر خارجية يرى فيها الطبقة طريقة في السلوك والكلام والملبس والتعلم وعادات التعامل الاجتماعي بوجه

خاص. وتشير الثانية إلى وجهة نظر ذاتية تذهب إلى أن الفروق القائمة بين الطبقات ترتكز على ذلك الشعور الذى يمكن أن نطلق عليه اسم الوعى الطبقى.

النظريات الاساسية فى تفسير ظاهرة التدرج الطبقى:

سنركز هنا على خمس نظريات رئيسية تمثل كل منها اتجاها خاصا فى تعريف الطبقة الاجتماعية وفى تفسير ظاهرة الترتيب الطبقى الاجتماعى وهى على التوالى نظرية كارل ماركسى ونظرية ماكس فيبر. والنظرية الوظيفية عند دافيز ومور وبارسونز ونظرية سوروكين وأخيرا نظرية لويد وارنر.

ولعل السبب فى أختيار هذه النظريات يكمن فى انها تجيب على كثير من المشكلات التى تقابل دراسة الطبقة: فكل منها تمثل مرحلة من مراحل تقدم الدراسة والبحث فى ظاهرة الطبقة الاجتماعية وهى فى مجموعها تمثل تطور الابحاث فى الطبقة الاجتماعية فماركس كان أول من اشاع استخدام لفظ الطبقة وتطورات دراسات الطبقة إلى أن جاءت أبحاث وانر بمفاهيم ميثودولوجية جديدة عن الظاهرة إلى جانب أن هذه النظريات تقدم فى محموعها وصفا وافيا وشرحا مستفيضا لظاهرة الطبقة وترتيبها داخل التركيب الاجتماعى وان كنا نجد لكل منها إتجاها خاصاً إلى انها اختلفت فيما بينها من حيث مهارتها أو قدرتها التحليلية الا أننا نجدها أيضا تتقابل فى بعض النقاط وان اختلفت فى نقاط أخرى على نحو ما سنوضح فيما بعد.

١ -نظرية كارل ماركس:

تتلخص نظرية ماركس فى الطبقة فى النظر الى وسائل الانتاج- وهى فى جوهرها عامل اقتصادى- باعتبارها الحقيقة الاساسية للتنظيم الاجتماعى التى ينتج عنها مجموعة من العلاقات ينعكس صداها على أشكال العلاقات الاجتماعية الأخرى فتشكلها وتصبغها بصبغة خاصة. وعلى اساس هذا التصور

يقوم فهمه وتصوره للطبقة الاجتماعية حيث يردها إلى النتيجة الحتمية للقوى الاقتصادية والاجتماعية التي يحددها النسق الاقتصادى في المجتمع.

فالطبقة عند ماركس هى حشد من الناس يقوم بوظيفة واحدة فى تنظيم الانتاج كالاحرار والعبيد والنبلاء والاقطاعيين والفلاحين والتجار والموزعين وهم على هذا الاساس المسيطرون والخاضعون وتتميز كل طبقة عن الأخرى باختلاف وضعها الاقتصادي وذلك لأن كل طبقة تأخذ وضعها على أساس الوظيفة التي يقوم بها أفرادها في عملية الانتاج. الأمر الذى يجعل نظام الانتاج عاملا أساسيا فى تحديد الطبقة الاجتماعية. واذا كانت المكانة الاجتماعية والسلطة أو الثروة أمورا يمكن اعتبارها مقاييس أو علامات أولية تحدد معالم الطبقة الاجتماعية الا أنها ترتد في النهاية إلى التنظيم الاقتصادى وبالتالى تصبح الطبقة عبارة عن مجموعة مادية من الظروف تحيط بالكائنات الانسانية أو دافع يقسم أفراد المجتمع إلى فئات اجتماعية أساسية تحدد من خلالها علاقاتهم بل حياتهم ومصائرهم.

وقد ترتب على هذا التصور أن أصبح الصراع الطبقى نقطة محورية فى نظرية ماركس فالتاريخ ليس الا تاريخ الصراع بين الطبقات وتفسير ذلك انه ولو كانت الطبقات الاجتماعية هى محور النظام الاجتماعى الا أن مقياس التفرقة بين طبقة وأخرى يقوم فى نظره على أساس الانتاج فهناك طبقة مستغلة وأخرى مستغلة والصراع حتمى بين هاتين الطبقتين بل هو قوام حيوية المجتمع واساس تقدمه. ففي العصور القديمة كان الصراع متمثلا بين الاحرار والارقاء ثم بين الاشراف والعامة ثم بين الاشراف والفلاحين أما فى الوقت الحاضر فيقوم الصراع بين الطبقة البورجوازية وطبقة من العمال ويكمن أساس الصراع بين الاخيرتين وتعارض مصالحهما على حد تعبيره فى أن نظام الانتاج الحالى أصبح لا يتمشى مع نظام الملكية فالانتاج لم يعد فرديا أى يقوم به كل صانع بمفرده أو بمساعدة عدد قليل من العمال بل أصبح جماعيا بمعنى اشتراك عدد كبير من الأفراد فيه بينما ظل نظام الملكية فرديا لم يتغير وكانت نتيجة ذلك أصبح العمال فى قبضة أصحاب رؤوس الاموال ليستغلوها وليستولوا على فائض الانتاج

وسيظل النضال بين الطبقتين في نظر ماركس إلى أن يتلائم نظام الملكية مع نظام الانتاج بان تصبح الملكية جماعية.

وأخيرا يرى ماركس أن هذا الصراع سينتهي طبقا لقانون التطور الاجتماعي لطبقة العمال لانهم أكثر عددا وأسوأ حالا وسيؤدى النظام الرأسمالي نفسه إلى هذه النتيجة اذ أن عدد أصحاب رؤوس الاموال سيتناقص باستمرار مع زيادة عدد العمال نتيجة تقدم فنون الانتاج التي تتطلب رؤوس أموال ضخمة الامر الذي يؤدي إلى دخول عدد من صغار أصحاب رأس المال في زمرة العمال- كما أن المنافسة الحرة ستؤدي إلى الافراط في الانتاج بالدرجة التي لا تقابلها زيادة في الاستهلاك نظرا لضعف القوة الشرائية عند العمال. الامر الذي يترتب عليه اختلال التوازن بين الانتاج والاستهلاك فتقع الازمة وتتقوض أركان النظام الرأسمالي وتقوم على انقاضه الديكتاتورية العمالية وتصبح رؤوس الاموال الانتاجية ملكا للمجموع.

ولقد كانت نظرية ماركس مثاراً للنقد من جانب الكثيرين حتى تلامذته انفسهم وكان من أهم النقاط التي انتقد فيها ماركس ما يأتي:

١- أن محاولته تفسير التطور التاريخي بالصراع هي احدى المحاولات التعسفية لتفسير مجرى الحوادث الانسانية خاصة عندما جعل من العوامل الفنية الانتاجية والاقتصادية عوامل مسئولة وحدها عن التغير ولها وجود حقيقي في النطاق الاجتماعي والسياسي والعقلي بأكمله.

٢- انه في تحديده للصراع الطبقي بين البورجوازية وطبقة العمال قد اغفل أهمية الطبقات الوسطى التي بدأ عددها يتزايد في المجتمع الحديث نتيجة للتطور الاقتصادي الذي يمر به وان ظهور عمال المكاتب والمشرفين والمديرين والفنيينه ورجال العلم وآخرون غيرهم ممن يكونون طبقة وسطى جديدة لهو دليل قاطع على أن المجتمع ككل هو أكثر من أن ينقسم إلى معسكرين متصارعين يواجه كل منهما الآخر على نحو ما ذهب إليه ماركس.

٣- أنه في اصراره على انقسام المجتمع إلى طبقة الاغنياء وطبقة الفقراء بينهما صراع دائم قد اغفل ما قد يوجد بينهما من تآزر ووئام في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية حتى في الجانب الاقتصادى نفسه ذلك التطور الذى يولد تصورات جماعية مشتركة تجعل الحياة الاجتماعية ممكنة الوجود والاستمرار دون أن يسود وجدان الطبقة العاملة بالضرورة.

٤- غير أن أهم وجوه النقد التى وجهت لنظرية ماركس وتهمنا في المقام الاول تدور حول التصور الماركسي لعلاقة ملكية وسائل الانتاج بالاوضاع الطبقية. ويتلخص هذا النقد في أنه اذا كان امتلاك البرجوازية لوسائل الانتاج سببا حقيقيا وعاملا وحيدا في وجود الطبقات الاجتماعية فان الطبقات يجب أن تختفى اذا ما جردت الطبقة البرجوازية من ممتلكاتها. واذا كان ماركس قد ذهب وتابعه في ذلك أوبنهيمر إلى أن تأميم وسائل الانتاج إلى جانب الملكية الجماعية للأراضي الزراعية من شأنه أن يؤدى إلى خلق مجتمع لا طبقي.فاننا نرد على أوبنهيمر بقولنا ان كل البلاد الاوربية الصغيرة ليست فيها مقاطعات كبيرة متمركزة في ايدى ملاك راسماليين ولكنها مع ذلك لا تخلو من وجود الطبقات الاجتماعية كما أن التجربة السوفيتية ذاتها قد اثمرت عن نتائج لم يكن يتوقعها ماركس. فالنظام الشيوعى قد قام بتأميم وسائل الانتاج بدرجة أدت إلى اختفاء الاقطاعي والرأسمالي والممول ولكن على ذلك ظل التقسيم الطبقي قائما ولم يختفي على نحو ما كان يتصور ماركس.

٢-نظرية ماكس فيبر:

كانت لكتابات ماركس أهمية كبيرة في دفع ماكس فيبر إلى دراسة الترتيب الطبقي وفي ان يقدم نظرية عن الطبقة يتخذ فيها اتجاها مميزا يجمع بين بعض العناصر الفنية النظرية الماركسية وبين أصالة فكرية كشفت عنها اضافاته وتعديلاته لكثير من جوانب التصور الماركسي للطبقة.

وتقوم نظرية ماكس فيبر على اتخاذ مفهوم القوة أو السلطة أساسا لتفسير ظاهرة الترتيب الطبقي الاجتماعي والتي تتشكل بداخل البناء الاجتماعي في ثلاثة أبعاد مختلفة هي: الطبقة، والمركز أو المكانة، والحزب. وتفسير هذه الأبعاد الثلاثة بعامل واحد هو عامل القوة أو السلطة ويقصد بالسلطة فرصة الفرد أو عدد من الأفراد في تحقيق اراداتهم في عمل مشترك حتى ولو كان ضد مقاومة الاخرين الذين يشتركون في هذا العمل.

ويشير فيبر إلي وجود ثلاثة انساق مختلفة للترتيب الطبقة داخل المجتمع هي النسق الاقتصادي والنسق الاجتماعي والنسق السياسي وعلى العكس مما ذهب اليه ماركس، الذي دمج الانساق الثلاثة في نسق واحد هو النسق الاقتصادي وجعله محورا تدور حوله جميع أوجه الحياة الاجتماعية، يرى أن كل نسق من الانساق الثلاثة له تسلسل وترتيب خاص به ومنفصل عن الآخر، كما يختلف كل منهم في التعبير عن شكل السلطة الخاص به والمعيار الذي تتميز بداخله السلطة.

ولذلك يمكن القول ان تحليل فيبر لظاهرة الترتيب الطبقي الاجتماعي يقوم اذن على اضافة بعدين جديدين للبعد الذي استند عليه ماركس اذ بينما يقوم التحليل الماركسي على اساس بعد الطبقة التي تحدد قيامها العوامل الاقتصادية بصورة حتمية يضيف فيبر في تحليله بعدين جديدين هما المركز أو المكانة والحزب.

وتمثل الطبقة الاجتماعية البعد الأول لتحليل فيبر، وهي تشير إلى المركز في النسق الاقتصادي ذلك لأن الأفراد الذين تتهيأ لهم فرص متشابهة للحياة من حيث المصالح الاقتصادية العامة في امتلاك البضائع والحصول على دخل تحت الظروف التي تحددها ظروف العمل يكونون طبقة اجتماعية، كما أن العمليات الاقتصادية توزع الأفراد في تسلسل طبقي يقاس بصفة أولية بالمعيار الاقتصادي. كما ان الطبقة تشير إلى المركز في النسق الاقتصادي، فهي تشير

أيضا إلى فرص الحياة المشتركة في النظام الاقتصادى ولذلك ينشأ الصراع الطبقي بصفة أساسية عن العلاقات الاقتصاديى في السوق.

أما المركز أو المكانة وهى البعد الثانى فى نظرية فيبر، فان ما يحدد قيامها هو عنصر القوة أو السلطة الاجتماعية التى تتفاوت بدرجة حصول الأفراد عليها والتى يشكل توزيعها المتفاوت تسلسلا ونظاما معينا يعرف بنسق المكانة ويشار إلى الشرف الاجتماعى والهيبة والاحترام باعتبارهم أسس جوهرية لهذا النظام. بمعنى انه اذا كان الوضع الطبقى يحدده مركز السوق الذى يتحدد بدوره عن طريق العوامل الاقتصادية فان تسلسل المكانة يقوم على الاحترام والهيبة التى تمنح للأفراد أو الجماعات والتى تتميز بالقبول والاتفاق بينى الافراد داخل المجتمع وهو على الرغم من فصله بين الطبقة والمكانة الا انه يعترف ان المعايير التى تحكم بها على مكانة الفرد قد تعتمد هى الأخرى على عوامل اقتصلدية فالتمييزات فى المكانة ليست فى الحقيقة إلا انعكاسات للتميزات الطبقية وقد وفق بفصله هذا بين بعد الطبقة والمكانة فى أن يفسر سبب وجود أفراد من فئات اقتصادية مختلفة رغم كونهم من طبقة ذات مكانة واحدة.

ويتخذ فيبر من أسلوب حياة الجماعة مقياسا لتحديد مكانتهما كما يشير أيضا إلى مقاييس أخرى مالتربية واحترام الوالد والمهنة وان كانت هذه المقاييس في نظره هى اساس بعيد عن مختلف طرق أساليب الحياة التى تتميز بها الجماعة في المجتمع كما تشير أيضا إلى وجود علاقات من المودة والالفة بين افراد جماعة المكانة الواحدة حيث يميل أفراد الجماعة الواحدة إلى وضع اطار معين ومحدد من العلاقات التى تقوم بينهم وبين ما عداهم من جماعات أخرى للمكانة.

وهكذا يتمثل الاختلاف الاساسى بين الطبقة وجماعة المكانة ببساطة على حد تعبير بوتومور فى انه بينما تتدرج الطبقات فى المجتمع طبقا لعلاقاتها

بالانتاج ومركزها فى السوق نجد أن جماعات المكانة ترتب طبقا لمبدأ استهلاك السلع كما يتمثل فى اختلاف اساليب الحياة التى تتميز بها كل طبقة.

أما البعد الثالث والأخير فى نظرية فيبر فيتمثل فى الحزب والنظام السياسى وتعتبر السلطة أساس هذا النظام حيث يتفرع عنها أحزاب منفصلة او جماعات سياسية مختلفة ويفسر مركز الحزب فى النظام السياسى تبعا لدرجة السلطة الاجتماعية الممنوحة تبعا لدرجة قوة التأثير فى العمل المشترك دون النظر إلى مضمون هذا العمل فقد تستخدم الاحزاب المال والتأثير الاجتماعى والايحاء ووضع العقبات من خلال المناورات البرلمانية للوصول إلى تحقيق أهدافها وتعتبر درجة نجاح الحزب فى ذلك بمثابة انعكاس لمدى سلطته وبالتالى يتعين مركزه ودرجته فى التسلسل السياسى.

٣-النظرية الوظيفية:

وتستند النظرية الوظيفية فى تفسيرها لظاهرة الترتيب الطبقى على اساس التصور بأن الجماعات تنتظم حول بعض المراكز التى تحقق الاحتياجات الجوهرية التى يتطلبها الكيان الاجتماعى المنظم ونظرا لتفاوت قيمة المراكز بداخل المجتمع يتكون نظاما من التسلسل أو الترتيب تنتظم فيه هذه المراكز بطريقة تدريجية متسلسلة تبعا لاهميتها وقيمتها ولذلك يوجد داخل المجتمع سلسلة أو ترتيب اجتماعى واسع يقوم على اساس القيم والحاجات التى يتوقف عليها بقاء المجتمع ذاته.

ويمكن أن نلخص اتجاه هذه النظرية فى ثلاثة قضايا هامة هى:

١-يشكل الترتيب الطبقى وهو عبارة عن توزيع غير متساوى للهيبة والمكافآت المادية ضرورة وظيفية وهو لذلك يعتبر خاصية عامة ودائمة فى كل مجتمع.

٢-تتمثل الضرورة الوظيفية لنسق الترتيب الطبقى فى حاجة المجتمع إلى ميكانيزم يدفع الأفراد لأن يشغلوا مراكز على درجة من الأهمية الاجتماعية

وتتطلب قدرا من الخبرة والتدريب وهنا تكون المكافآت المادية والهيبة بمثابة الدافع لشغل هذه الأوضاع والمراكز.

٣-يؤكد وجود هذا الميكانيزم أن أكثر المراكز والأوضاع أهمية تشغل بوعى وقصد عن طريق أكثر الأفراد جداوة وكفاءة أو لأقدرهم وأكثرهم تدريبا ومرانا. ويعتبر كل من دافيز ومور من أشهر علماء هذه النظرية وقد ضمنا أفكارهما حول تفسير ظاهرة الترتيب الطبقى فى مقالة لهما بعنوان بعض المبادئ الترتيب الطبقى فيها بدأ المؤلفان تبرير مفهوم الضرورة الوظيفية للترتيب الطبقى فيذهبان إلى القول بان الضرورة الوظيفية للترتيب الطبقى تتمثل فى ذلك الطلب الملح الذى يواجه المجتمع ومؤداه ترتيب الأفراد فى مستويات مهنية متباينة وأمكانيات دفع عبر المستويات المهنية المختلفة وان المجتمع ميكانيزم وظيفى عليه أن يوزع على الأفراد الأوضاع الاجتماعية وان كلفهم بانجاز الواجبات التى يعرفها بهذه الأوضاع.

ويقوم المجتمع بتحقيق الواقعية على مستويات مختلفة بأن يبث الأفراد الصالحين الرغبة فى ان يشغلوا أوضاعا وأذا كانت الواجبات المرتبطة بالاوضاع المختلفة متساوية جميعا فى رضاء الافراد عنها فانها لذلك تتساوى فى أهميتها بالنسبة لبقاء المجتمع كما تتساوى فى مقدار حاجتها لنفس القدرات والمواهب وبالتالى لن تكون هنا اختلافات أقل أهمية.

غير أن ما يحدث على حد تعبير دافيز ومور أن هذه الواجبات تخلق قدرا كبيرا من الاختلاف والتباين بين من يشغلون الأوضاع التى تتطلب هذه الواجبات. والواقع أن ذلك الاختلاف لا يرجع إلى أن بعض هذه الأوضاع بطبيعتها أكثر ملاءمة من غيرها بل يرجع إلى أن بعض بعض هذه الأوضاع تتطلب مواهب خاصة أو تدريبا خاص ولأن بعضها أكثر أهمية من الناحية الوظيفية، كما أن تنفيذ الواجبات المرتبطة ببعض هذه الأوضاع قد يتطلب مثابرة فائقة.

والمجتمع في نظر دافيز ومور يجب أن تكون لديه من ناحية أنواع معينة ومختلفة من المكافآت يستخدمها كوسيلة من وسائل الفراء، وأن تكون لديه من ناحية أخرى وسيلة معينة لتوزيع هذه المكافآت على الأوضاع المختلفة ولذلك تصبح المكافآت وطريقة توزيعها جزء من النظام الاجتماعي ومن ثم يظهر التدرج ويصبح أكثر تحققا.

وعندما يظهر التدرج أو الترتيب على هذا النحو تصبح المكافآت من صميم الوضع الاجتماعي ذلك لانها تتألف من مجموعة الحقوق المرتبطة به إلى جانب ما يمكن أن يسمى بمتطلباته وغالبا ما ترتبط هذه الحقوق والمتطلبات من الناحية الوظيفية بواجبات الوضع أيضا فاذا كانت حقوق ومتطلبات الاوضاع المختلفة في المجتمع غير متساوية فلابد وان يكون المجتمع متدرجا. وهذا يشير إلى مفهوم الترتيب بدقة لان عدم المساواة الاجتماعية عبارة عن عملية او أجراء يتطور بطريقة لا ارادية تؤكد به المجتمعات ان اكثر الوضاع الاجتماعية أهمية يشغلها بطريقة ارادية أكثر الاشخاص كفاءة وبذلك تصبح عدم المساواة هنا محكومة باسس تنظيمية واضحة.

ويحاول المؤلفان تفسير الاختلاف والتباين بين انساق الترتيب والتدرج في المجتمعات في ضوء مفهومين اساسيين هما الاختلاف في انساق التدرج والترتيب الطبقي ثم اختلاف الظروف والعوامل الخارجية.

وفيما يتعلق بالمفهوم الأول ذهب دافيز ومور إلى أن اختلافات انساق الترتيب تتأثر بخمس اعتبارات هي:

١-درجة التخصص وتقسيم العمل:

فالتخصص وتقسيم العمل يؤثران على مدى التدرج المهني ودقته خاصة وأن الوظيفة أو المهنة لا يتحقق وجودها الا بفصلها من الناحية البنائية عن الوظائف والمهن الأخرى.

٢-طبيعة التأكيد الوظيفي:

حيث تختلف المجتمعات التى تؤكد على أهمية الأمور المقدسة أو الدينية مثلا عن تلك التى تؤكد على اهمية الأمور العلمانية الخاصة اختلافا بينا في طبيعة نسق التدرج والترتيب لاختلاف الاساس الذى يؤكد عليه.

٣-ضخامة الفروق الفردية:

فالمجتمعات تختلف فيما بينها من حيث مدى ضخامة الفروق الفردية والحدان المعبران عن هذا الاختلاف هما المساواة من ناحية واللامساواة من ناحية أخرى.

٤-مدى الفرص المتاحة:

وهذا امر يتعلق بالمساواة فى فرص تحقيق التنقل من مستوى اجتماعي لآخر في نطاق السلم الاجتماعي وهنا أيضاً نجد حدين يعبران عن اختلاف المجتمعات في هذا الصدد هما المجتمع المتنقل والمجتمع الجامد غير المتنقل.

٥-درجة تضامن المستوى الاجتماعي:

أو درجة التضامن الطبقي فالمجتمعات تختلف فيما بينها من حيث وجود مجموعة التنظيمات التى ترقى بمصالح الطبقة وهنا نجد حدين يعبران عن هذا التفاوت هما طبقة منظمة وأخرى غير منظمة.

وفيما يتعلق بالظروف الخارجية التى تؤثر فى اختلاف انساق الترتيب والتدرج الطبقي حدد المؤلفان ثلاثة اعتبارات أساسية.

١ - **النمو الثقافي:** فنمو التراث الثقافي يؤثر في زيادة التخصص وبالتالي يسهم في زيادة التنقل ويضعف من درجة التضامن الطبقي كما يغير كذلك من التأكيد الوظيفي الأمر الذى يترتب عليه شكل الترتيب والتدرج.

٢- **موقف المجتمع بالنسبة لغيره من المجتمعات:** فوجود أو عدم وجـود صراع مفتوح مع المجتمعات الأخرى سواء فى مجال العلاقات التجارية الحرة أو الانتشار الثقافى يؤثر بلاشك فى طبيعة نسق الترتيب والتدرج.

٣- **حجم المجتمع:** والمجتمع الصغير يحد بلاشك من مدى نمو التخصص الوظيفى كما يحد من درجة العزلة بين المستويات المختلفة ومن زيادة اللامساواة بين الأفراد.

ويؤكد بارسونز على أنه رغم اختلاف المظاهر والاشكال التى تبدو عليها الطبقات الاجتماعية. إلا أنها تخضع جميعا لتفسير واحد فالنسق الطبقى القائم على المهنة فى الولايات المتحدة الأمريكية على حد قوله والنسق الطائفى فى المجتمع الهندى والنسق الطبقى القائم على اساس السن والقرابة فى المجتمعات البدائية كلها تنوعات مادية تخضع لتحليل وتفسير نظرية واحدة هى النظرية الوظيفية التى تشير إلى أن الترتيب الطبقى القائم على الطبقة الاجتماعية أو على أى بعد آخر يتوقف على القيم المدعمة للمجتمع والتى بدونها لا يمكن أن يقوم للكيان الاجتماعى قائمة.

٤-نظرية سوروكين:

تتضح نظرية سوروكين فى الطبقة فى كتابه التنقل الاجتماعى "الذى أصدره سنة ١٩٧٢، وكتابه المجتمع والثقافية الشخصية الذى أصدره سنة ١٩٤٧ وحاول فيه أن يربط موضوع الترتيب الطبقى بأنواع التجمعات الانسانية الأخرى.

ويعرف سوروكين الترتيب الطبقى على أنه عبارة عن تمايز السكان داخل مجموعة من الطبقات رتبت ترتيبا هرمياً، ويظهر هذا الترتيب فى وجود عدم التساوى فى توزيع الحقوق والامتيازات والواجبات والمسئوليات والقيم

والحاجات الاجتماعية والقوى الاجتماعية ومختلف التأثرات على أعضاء المجتمع.

وللتدرج الطبقى عند سوروكين أشكال ثلاثة:

١- **التدرج الاقتصادى**: الذى يتمثل فى تفاوت القوة الاقتصادية للأفراد وحيث لا تتساوى المكانة الاقتصادية لأفراد المجتمع فيظهر الغنى بينهم والفقير وهنا يمكن أن نميز بين مجتمع يتساوى فيه الأفراد فى هذا الصدد ومجتمع رأسمالى على العكس من ذلك.

٢- **التدرج السياسى**: الذى يعبر عن ترتيب الأفراد أو تصنيفهم على أساس من السلطة والهيبة ترتيباً هرمياً كذلك يعبر عن التباين الموجود بين الحكام والمحكومين.

٣- **التدرج المهنى**: ويأخذ شكل مستويات مهنية متباينة حيث يختلف أعضاء المجتمع فى انتمائهم للجماعات المهنية المختلفة وحيث تكون بعض المهن اشرف من البعض الآخر وحيث تنقسم الجماعة من حيث السلطة الى من يملكون السلطة والنفوذ وإلى تابعين لهم.

وتتداخل هذه الأشكال المختلفة للترتيب الطبقى تداخلاً كبيراً بحيث نجد أن من يشغل طبقة عليا فى أحد هذه الأشكال يكون فى الغالب منتميا إلى طبقة عليا فى الشكلين الآخرين فمن يحتل مكانة اقتصادية فى طبقة عليا يحدث أن يكون منتميا واخرى سياسية عليا والعكس بالعكس.

والتدرج الطبقى فى نظر سوروكين، حقيقة فى كل المجتمعات الانسانية حتى أن مجتمع اللاطبقة مجتمع أسطورى ولا وجود له فالترتيب الطبقى خاصية ثابتة لأى مجتمع منظم بغض النظر عن شكل هذا المجتمع أو درجة تحضره.

ويميز سوروكين بين ترتيب طبقي كمي هو ذلك التدرج، الهرمي من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا. وترتيب طبقي كيفي هو ذلك التنظيم أو البناء الداخلي للترتيب الطبقي وكلا النوعين يمثلان حقيقتين يستند عليهما الترتيب الطبقي في المجتمع.

وحدد سوروكين الخصائص المميزة للطبقة الاجتماعية في ثمان خصائص هي:

١- انها من الناحية القانونية مفتوحة ولكنها شبه مغلقة من الناحية الواقعية.

٢- انها جماعة طبيعية.

٣- انها جماعة متماسكة.

٤- انها عدائية للجماعات الأخرى التي لها نفس الطبيعة العامة.

٥- يمكن النظر اليها على انها جماعة منظمة نسبياً ولكنها في الواقع ضعيفة التنظيم.

٦- انها تعي بوحدتها ووجودها وان كانت في بعض الأحيان لا تصل إلى هذه المرتبة من الوعي والشعور بهذه الوحدة والوجود.

٧- انها كانت من الخصائص البارزة والمميزة لأوربا منذ القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين.

٨- انها جماعة متعددة الروابط حيث ترتبط برباطين: الرباط المهني والرباط الاقتصادي وهي من حيث الترتيب الطبقي مجموعة من الحقوق والوجبات التي تتناقض مع حقوق وواجبات الطبقات الأخرى التي لها نفس الطبيعة العامة.

وقد أولى سوروكين لموضوع التنقل عناية كبيرة فخصص الجزء الثاني من كتابه الذي يحمل نفس العنوان لتعريف التنقل وتحديد اشكاله وعوامله.

وهو يعرف التنقل الاجتماعي بأنه تحول الفرد أو أى موضوع اجتماعي أو قيمة اجتماعية خاصة أو أى شئ يمكن أن يخلق ويتكيف عن طريق النشاط البشرى، من وضع اجتماعي معين إلى آخر. ويرى أن هناك شكلين رئيسين للتنقل الاجتماعي.

١- **تنقل أفقي:** هو تحول الفرد أو الموضوع من جماعة اجتماعية إلى جماعة أخرى على نفس المستوى.

٢- **تنقل رأسي:** هو عبارة عن مجموع العلاقات المتضمنة في تحول الفرد من درجة اجتماعية معينة إلى درجة اخرى وينقسم التنقل الرأسي بدوره الى:

أ-**تنقل رأسي صاعد:** وهو الارتقاء الاجتماعي ويمثل التحول الى درجة أعلى.

ب- **تنقل رأسي هابط:** وهو التدني الاجتماعي ويمثل التحول الى درجة أدنى.

ولا يقتصر تصنيف التنقل الاجتماعي إلى الأشكال السابقة على شكل دون غيره من أشكال الترتيب الطبقي التى أشار إليها سوروكين بل تصدق على اشكال الترتيب الطبقي الاقتصادى والسياسي والمهني وينتهي سوروكين إلى بعض القضايا العامة بصدد أسس التنقل الاجتماعي فى شكله الرأسي هي:

١-يندر أن يكون هناك مجتمع من المجتمعات تكون فيه الطبقة مغلقة باحكام بحيث لا يكشف عن درجة ما من التنقل الاجتماعي باشكاله الاقتصادية والسياسية والمهنية.

٢-يندر أيضا ان يكون هناك مجتمع يصبح فيه التنقل الرأسي متحررا بصورة مطلقة دون أن يواجه عقبات فى الانتقال من طبقة إلى أخرى غيرها.

٣-يختلف عمق وعمومية التنقل الاجتماعي الرأسي بصفى خاصة من مجمتمع لآخر بل يختلف في نفس المجتمع من فترة زمنية لأخرى.

٥-نظرية لويد وارنر:

اقام لويد وارنر نظريته عن الطبقة على أساس بعض الدراسات الميدانية التي اعتمد فيها على المدخل الانثروبولوجي لدراسة ثلاثة من أمريكية هي يانكي سيتي وجونز فيل واولد سيتي، وقد ضمن نتائج دراساته كما أوضح نظريته عن الطبقة في كتاب له بعنوان "الطبقة الاجتماعية في أمريكا سنة ١٩٦٠".

في هذه النظرية يقرر وارنر منذ البداية أن الطبقة الاجتماعية تتداخل في كل وجوه الحياة الاجتماعية، حيث تنعكس مظاهر الطبقة على الأسرة الزواج، والحكومة والعمل والعب.. الخ، وهي أيضاً عامل محدد لنمو وتطور شخصية الفرد وعامل فعال كذلك في تحديد نوع المهرات والقدرات ولذلك فالطبقة الاجتماعية واقع وحقيقة اجتماعية توجد داخل كل مجتمع.

وقد بدأ وارنر ابحاثه على أساس الافتراض بأن الطبقة تحددها العوامل الاقتصادية بالدرجة الأولى غير أنه تحول من هذا الفرض الاقتصادي البسيط الى تصور آخر يقوم على أبراز جميع العوامل التي يستخدمها أفراد المجتمع ليرتب منهم الآخر في نظام تسلسلي شامل، ومن ثم ينتهي الى تصور معين للطبقة مؤداه انها عبارة عن مجموعتين أو أكثر من الأفراد ممن يعتقدون أنهم في وضع اجتماعي عال أو منخفض ويرتبهم الأفراد الآخرون على هذا النحو.

وفي دراسته للطبقة وضع وارنر اجراءات جديدة تتمثل في طريقتين هما:

أ-طريقة المشاركة المقيمة: وتفترض ان اشتراك الأفراد في نواحي معينة من النشاط معروفة ومقيمة قد يترجمه الأفراد إلى نوع من الترتيب الطبقي الاجتماعي في المجتمع.

ب-طريقة قائمة خصائص المركز: وتقوم على أساس تقسيم الأفراد (الإخباريين بالنسبة للباحث) للمشاركة الاجتماعية للآخرين عن طريق قوائم للمهنة ومصدر الدخل ونموذج المنزل ومنطقة الاقامة.

ويشير وارنر إلى أن التعقدالاجتماعي يعتبر بمثابة عامل جوهري في تحديد وجود الطبقة الاجتماعية من عدمها لقد اثبتت الدراسات انه كلما تعقد التركيب الاجتماعي اصبحت العوامل الاقتصادية والتكنولوجية لها أهميتها في تحديد نظام الطبقة والمكانة كما اوضحت الدراسات الانثروبولوجية المقارنة على حد تعبيره أن المجتمعات التي تتصف بدرجة عالة من تعقد التركيب الاجتماعي ولابد وان يكون لديها بعض النظم التي تؤدي بواسطتها وظائف معينة لها اهميتها في استمرار بقاء المجتمع. ففي المجتمعات المعقدة والمزدحمة لابد وان يكون لديها نوع من نظام المكانه الذي يمكن بواسطته ان تحدد اماكن الأفراد وذلك وفقا للقيم السائدة. أما في جماعات الصيد والجمع والالتقاط التي اتصفت كما يقول ببساطة البناء وقلة عدد السكان فلا يوجد نظام للرتب ويصبح نسق الترتيب الطبقي أقل وضوحاً.

ولا يأخذ وارنر بالنظرية الماركسية في تفسير ظاهرة الترتيب الطبقي . ويرى أن القول بالحتمية الاقتصادية قول خاطئ ذلك لأن النظام الاقتصادي يتاثر بالنسق الاجتماعي وليس العكس صحيحاً كما ان القول بصراع دائم بين طبقة البروليتاريا والطبقة البورجوازية والذي ينتهي حتما على نحو ما ذهب ماركس بانتصار الطبقة العاملة وخلق مجتمع قول يجانبه في نظر وارتر الكثير من الصواب ذلك لأن وجود نظام الطبقة لا يعني بالضرورة وجود صراع طبقي، بل

قد تقوم علاقات المودة بين الطبقات المختلفة في المجتمع، وبالتالي فإن مجتمع الاطبقية غير ممكن التحقق والوجود لأن النظام الطبقي ضرورة لازمة من ضروريات المجتمع الحديث والمعقد.

مبادئ الانقسام الطبقي في المجتمع:

لم يقتصر الجدل والخلاف بين الباحثين والمفكرين على تعريف الطبقة الاجتماعية كما لم يقتصر على اختلاف نظرتهم الى طبيعة الترتيب الطبقي في المجتمع بل كان الاختلاف ولا يزات كبيراً بينهم حول مبدأ الانقسام الطبقي في المجتمع أو تحديد العوامل المحددة للوجود الطبقي: فمنهم من ابرز أهمية عامل مثل "الانتاج" وجعله محور أساسيا يرتكز عليه تقسيم المجتمع إلى طبقات مختلفة على نحو ما ذهب اليه سان سيمون، ومنهم مثل ماركس من استبدال عامل الانتاج بعامل التوزيع او ملكية وسائل الانتاج. كذلك يرى البعض مثل كارل بوخرن "الدخل" يمثل أهم العوامل التى تؤكد من حدة الوجدان الطبقي بين أفراد المجتمع الواحد ىف الوقت الذى يؤكد فيه البعض الاخر مثل شمولر على أهمية المهنة كعامل أساسى يحدد المستوى الطبقي للفرد. هذا الى جانب ما ذهب إليه فريق اخر من أمثال هالفاكس أن نمط وأسلوب الحياة يرتبط ارتباطا وثيقاً بالوضع الطبقي الامر الذى يجعله يقرر أن أسلوب الحياة مبدأ هاماً وأساسياً من مبادئ الانقسام الطبقي.

وعلى الرغم من أن هذا الاختلاف الا انه قد اصبح من الواضح أن أهم ما يميز نسق التدرج الطبقي في المجتمع الحديث هو اهمية الدور الذى تلعبه العوامل الاقتصادية في تحديد هذا النسق وتشكيله بشكل خاص اذ لم يعد الدين أو العقيدة عاملاً اساسياً في تأكيد الفوارق الطبقية بين أفراد المجتمع كما كان سائداً ولا يزال في انساق الطوائف الهندية كما لم يعد القانون هو

الذى يؤكد ذلك التمايز الطبقى بين الأفراد كما كان سائدا فى انساق المرتبة الاجتماعيه.

بل على العكس من ذلك تاكدت أهمية العوامل الاقتصادية كعوامل محددة للأوضاع الطبقية فى المجتمع الحديث الأمر الذى أدى إلى التخلى عن الامتيازات القانونية والسياسية التقليدية والمتعلقة بالتمايز الطبقى والى انسار وديوع المصيرات الاقتصادية للطبقة كاتجاه تبناه المفكرون والعلماء تحت تأثير كتابات كارل ماركس. فجنزبرج مثلا يرى أن العامل المحدد للترتيب الطبقى عامل اقتصادى فى طبيعته ومضمونه ذلك لأن الظروف الاقتصادية هى التى تحدد مهنة الفرد والمهنة بدورها خير دليل على نمط حياته وتحصيله كما أنها تشير إلى نوع الأفراد الذين يتقابل معهم على حدود متساوية فيشعر نحوهم بالمساواة مما ينمى فيه الشعور بالطبقة وبالمثل نظر ريتشارد سنترس إلى الترتيب الطبقى باعتباره مؤسسا على العمليات الاقتصادية فذهب إلى أن مكانة الفرد ودوره فيما يتعلق بالعمليات الاقتصادية فى المجتمع انما تفرض عليه اتجاهات معينة وقيم واهتمامات ومصالح ترتبط بدوره ومكانته فى المجال الاقتصادى كما ان مكانه الفرد بالسبة لوسائل الانتاج وتبادل الخدمات والساع تنمى فيه شعورا بالعضوية فى طبقة اجتماعية معينة تشارك معه هذه الاتجاهات والقيم والمصالح.

ونستطيع ان نلخص المحاولات التى بذلت لدراسة الطبقة فى ضوء الابعاد الاقتصادية فى ثلاثة اتجاهات رئيسية ركز كل منها على عامل اقتصادى بعينه باعتباره المبدأ الأساسى للانضمام الطبقى فى المجتمع وفى هذا الصدد نجد أن ملكية وسائل الانتاج والثروة والدخل ثم المهنة تمثل اهم العوامل الاقتصادية التى ارتكزت عليها هذه الاتجاهات الثلاثة فى تفسير ظاهرة الترتيب الطبقى.

١-ملكية وسائل الانتاج:

وتعتبر نظرية ماركس على نحو ما قدمنا من قبل اشهر النظريات التى حاولت تصور الطبقة كنتاج حتمى للقوى الاقتصادية ةالأبعاد التى يحددها النسق الاقتصادى فى المجتمع. ويركز ماركس على عملية الانتاج زملكية وسائله فى مناقشته. حيث يرى أن الطبقات الاجتماعية تنشأ مع نمو القوى الانتاجية ويقتضى هذا النمو على حد قوله توسعاً فى تطبيق مبدأ تقسيم العمل بما يتعدى نطاق العائلة وتجميع الثروة وظهور الملكية الخاصة، ولذلك كان الأساس الذى تقوم عليه الطبقات الاجتماعية يتمثل فى العلاقة التى تنشأ بالنسبة لأدوات الانتاج التى تقع فى حيازة الملكية الخاصة وهو لذلك يقسم التاريخ البشرى إلى عدد من العهود الرئيسية تتميز كل منها بنظام خاص وبصورة خاصة من العلاقات الاجتماعية ولاسيما علاقات الملكية والعلاقات القائمة بين الطبقات.

ولقد كان من نتيجة اختلاف توزيع ملكية وسائل الانتاج فى نظر ماركس واختلاف علاقات الأفراد بوسائل الانتاج أن انقسم المجتمع الرأسمالى إلى طبقتين متعاديتين تواجه كل منهما الأخرى بطريقة مباشرة هما البروجوازية القليلة العدد والتى تستحوذ فى يدها ملكية وسائل الانتاج، وفى يدها مقدرات توزيعها وطبقة البروليتاريا الكبيرة العدد التى لا تملك إلا قدرتها على العمل فقط.

وعل هذا الأساس يرى ماركس أن علاقة الأفراد بوسائل الانتاج تمثل البعد الأساسى فى تشكيل الطبقة أما العوامل الأخرى كالدخل ودرجة التعليم والمهنة فما هى إلا علامات مميزة لتوزيع السلع المادية فقط اى أنها لا تدل فى نظره على الوضع الطبقى لانها لا تشير الى الوضع فى عملية الانتاج.

٢-الثروة والدخل:

وإذا كان ماركس قد حدد العوامل الاقتصادية المحددة للطبقة في حدود من ملكية وسائل الانتاج فإن هناك من المفكرين من ركز على الثروة والدخل كمقاييس لأوضاع الطبقية في المجتمع ومصدرا لها. فاندرية جوسان مثلا يرى أن الثروة هي أول ما نفكر فيه حين نتكلم عن الطبقة ولذلك تدور احاديثنا حول الطبقات الغنية والفقيرة الملاك والمعدمين..الخ. كما ميز جيد من حيث توزيع الثروة بين طبقات ثلاثة:

طبقة العمال الذين يتقاضون أجرا ثم طبقة الرأسماليين الذين يحصلون من رؤوس اموالهم على ارباح معينة وأخيرا طبقة الملاك الذين يعيشون على دخولهم.

ولقد كان لتفاوت درجات الثروة أهم ما يميز الطبقات الاجتماعية في نظر كارل بوخر فقد اعطى بوخر أهمية خاصة لمقدار الثروة التي تستحوذ عليها كل طبقة معينة دون غيرها وانتهى الى القول بانه قد تكونت خلال التاريخ طبقات تنجب اغنياء أو أخرى تنجب فقراء وذلك تبعا لمقدار الثروة التي في حوزة كل طبقة.

٣-المهنة:

لاقت المهنة قبولا كبيرا عند كثير من الباحثين في موضوع الطبقة سواء كان على المستوى الدراسة النظرية التحليلية أو على المستوى الميداني، وذلك باعتبارها ابرز العوامل المحددة للوجود الطبقي وللمستوى الاجتماعي والاقتصادي للفرد.

١-ويعتبر جوستاف شمولر من اقدم من اكد أهمية المهنة في تحديد الوضع الطبقي لافراد المجتمع فهو يرى أن تفاوت المراتب الاجتماعية والاختلافات الطبقية في المجتمع ليست الا انعكاسات لاختلاف المهن. والمهنة في نظره ليست أمرا مكتسبا وخارجا عن الانسان وانما هي الانسان نفسه وهو يعني بذلك

أن مزاولة المهنة تترك عادات واخلاق وثقافة ونوع من السكن والملبس وتقدير وتصور للأشياء تختلف باختلاف المهنة كما انها أي المهنة تطبع الفرد بطابع جسماني ونفسي معين يختلف عن ذلك الطابع الذى تتركه مزاولة مهنة أخرى. إن مزاولة مهنة معينة تخلق , بمضي الوقت على حد تعبيره طبيعة ثانية فى الفرد ومجموعة من العادات التى تتكون فيما بينها لتؤدى فى النهاية الى اختلاف طائفة من يزاولونها عن غيرهم من أصحاب المهن الأخرى.

٢-وقد بلغ تقدير سوروكين لأهمية المهنة فى تحديد الأوضاع الطبقية لأفراد المجتمع أن جعل أحد أشكاله الرئيسية للترتيب الطبقي مرتبطا أشد الأرتباط بالمهنة هو الترتيب أو التدرج المهني وهو في ذلك يميز بين شكلين من أشكال الترتيب المهنى هما:

أ-التدرج الطبقي داخل المهن:

ويتضح من حقيقة مؤداها أن ثمة عدداً من شاغلى المهن يشكلون مستويات اجتماعية. لذلك فإن المستويات المهنية الأساسية لا تتوزع بطريقة افقية على مستويات أفقية بل على مستوى رأسي هيراركى تعلو بعضها بعضا. ويحدد سوروكين أسس هذا الشكل من الترتيب المهنى فى أهمية المهنة بالنسبة لوجود وبقاء الجماعة ككل ثم درجة الذكاء الضرورية لانجاز وأداء واجبات المهنة بنجاح. لذلك فإن المهن الهامة اجتماعيا هى تلك التى ترتبط بوظائف التنظيم وضبط الجماعة وبتلك التى تشكل قلب المجتمع ولذلك نراه يصل إلى نتيجة هامة مؤداها أنه" كلما زادت درجة الانجاز والتحصيل فى العمل المهنى لوظائف التنظيم الاجتماعي والضبط وكلما زادت درجة الذكاء الضرورية لنجاح هذا الانجاز كلما حصل القائمون بهذا العمل على مرتبة أعلى، وبالتالى امكن لهم أن يشغلوا مكانة أعلى في السلم المهني والاحتماعي".

ب-الترتيب الطبقي بين المهن:

ويتحقق هذا الشكل من خلال وجود انماط واعمال مهنية متدرجة فى كل ميادين النشاط كالاعمال الزراعية والصناعية والتجارية يعمل بداخلها الأفراد فيتدرجون فى مراتب ومستويات مختلفة ومتدرجة من مراتب عليا تتولى الاشراف والضبط إلى مراتب مهنية دنيا تخضع للإشراف والتوجيه.

ويقسم سوروكين أعضاء أى جماعة مهنية إلى مستويات ثلاثة أساسية:

المستوى الأول: ويمثله اصحاب المشروعات أو السادة وهم مستقلون اقتصاديا فى نشاطهم المهنى وينحصر نشاطهم فى تنظيم المشروعات وضبطها.

المستوى الثانى: ويتألف من كبار العاملين من مديرين وكبار مهندسين الخ. وهم ليسوا ملاكاً لمشروعات بل يقومون بنشاطهم المهنى مقابل الأجر أو مرتب ويتميزون بان نشاطهم المهنى يتسم بالطابع العقلى لا اليدوى.

المستوى الثالث: ويشتمل على العمال اليدويين وهم يعملون مقابل الأجر وأن كانت أجورهم عادة ما تقل عن أجور المستوى الثانى كما انهم يقفون أدنى السلم المهنى والرئاسى. ويرى سوروكين أن هذه المستويات الثلاثة تتدرج فى شكل تسلسلى كما توجد فى كل المجتمعات وهى وان اختلفت اسماؤها من مجتمع لآخر الا أن مضمونها فى الحقيقة واحد.

وفى النهاية يرى سوروكين أن المهنة تعمل على تشكيل الانسان ككل فهى لا تحدد فقط مقدار دخله أو تغير من مظهره أو تحدد ملبسه وسلوكه بل وايضا تشكل عملياته العقلية من أدراك واحساس وانتباه بما يتلائم ومقدراتها وظروفها كما أنه تؤثر على معتقداته وتكيفه الفعلى وارائه او اخلاقياته وأيديولوجياته.

٣- كذلك ذهب توماس لازويل الى ان التقسيمات المهنية من أكثر الدلائل أو المؤشرات استخداما كوسيلة لتحديد المركز الاجتماعى والمكانة الطبقية لافراد

المجتمع حتى أنه لا يبدو من المستغرب ان اختلاف الاتجاهات المهنية يفسر الى جد كبير اختلاف الطبقات الاجتماعية وان تجد ان معتقدات ثقافية معينة تدور حول مهن معينة وحول مدى قيام الأفراد بها تعكس تغيرات طبقية واضحة بين أفراد المجتمع الواحد.

٤-وبالمثل يرى جاكسون ان المهنة تعتبر أكثر معايير الترتيب الطبقي اهمية ذلك لان مغزاها أو معناها مزدوج فهي من ناحية أخرى تحدد موقف العمل الذي يترك بدوره آثارا واضحة على الوعي الطبقي وانماط تقدير المكانة في داخل الموقف وفي خارجه وهي إلى جانب ذلك تساعد على توضيح ماهية وطبيعة المشكلات التي يتحتم مواجهتها عن أي محاولة لعلاج موضوع للترتيب الطبقي في المجتمع

٥-أكدت نتائج كثير من الدراسات الميدانية الحديثة التي اجريت حول موضوع الطبقة، ان المهنة قد اصبحت من أكثر الوسائل المستخدمة تعبيرا عن المستوى الطبقي. وهنا نشير، على سبيل المثال لا الحصر إلى دراسة ناتالي روجوف ودراسة دونالد وراي كنموذج يوضح اتجاه هذه الدراسات

ا- حاولت ناتالي روجوف التعرف على دور المهنة في تحديد المستوى الطبقي في مجتمعات مختلفة وذلك بعقد مقارنة بين نتائج دراستين اجريتا في كل من أمريكا وفرنسا وقد كشفت المقارنة عن أن نسبة ٤٠٪ من أفراد العينة في كل من المجتمعين قد اشارت إلى المهنة كعامل مميز لاوضاعهم الطبقية أو أن حوالي خمسي الافراد كانوا يوحدون انفسهم بطبقات معينة نظرا للإنتماء لمهن معينة.ومن ثم توصلت روجوف إلى نتيجة مؤداها أن هناك أرتباطا بين المستوى المهني والتوحد الطبقي، وان مدى هذا الارتباط كان متماثلا إلى حد كبير في المجتمعين.

ب- كذلك وضحت في دراسة دونالد وراى للترتيب الطبقي في مدينة ايليتي، أن البناء المهني للمدينة قد انعكس على البناء الطبقي بها بحيث انضمت المدينة إلى طبقات مختلفة تبدأ بطبقة رجال الأعمال وهي أعلى الطبقات وتشتمل على أصحاب وملاك المشاريع الصناعية الكبرى وأصحاب المهن الفنية العليا وتمثل هذه الطبقة بؤرة الضبط الاقتصادي والاجتماعي والتنظيمي للمدينة أما الطبقة الوسطى فقد تكونت من صغار الملاك وبعض الفنيين وعمال الياقة البيضاء وبعض العمال المهرة وقد انقسمت هذه الطبقة إلى فئات اجتماعية ومهنية معارضة حيث تبين ان العمال المهرة كانوا يمثلون فئة متقاضي الاجور وينتمون إلى النقابات والاتحادات العمالية بيما توحد عمال الياقة البيضاء بمصالح الطبقة العليا وكانوا يمثلون فئة متقاضي المرتبات والمهايا. كما تبين أن مصالح كل من الفئتين كانت متعارضة بشكل واضح رغم انتماء افرادها إلى نفس الطبقة. أما العمال العديين واليدويين وغيرهم فقد تكونت من مجموعهم الطبقة الدنيا في المدينة ولو أن هذه الطبقة قد انقسمت هي الأخرى إلى فئات اجتماعية ومهنية اختلفت فيما بينها في حدود مقدار الاجر والانتماء إلى الاتحادات والروابط المهنية.

النسق الطبقي في المجتمع الريفي والحضري:

أشرنا في مقدمة هذا الفصل إلى أن فكرة الارتباط الوظيفي القائم بين نسق التدرج الطبقي وغيره من الانساق البنائية في المجتمع تمكننا من افتراض امكانية تأثر هذا النسق بعوامل التغير التي يتأثر بها المجتمع ككل بحيث تكشف عن حدوثتغيرات وتعديلات في طبيعة ومقومات هذا النسق تسير جنبا الى جنب مع التغيرات التي تكشف عنها الانساق الاخرى في تاثرها بعوامل التغير.

كما أشرنا فيما سبق إلى اختلاف انساق التدرج الطبقي يرجع وفقا لوجهة النظر الوظيفية والتكاملية الى اختلاف درجة التخصص وتقسيم العمل

ونوعية العلاقة التى تربط المجتمع بغيره من المجتمعات الأخرى وذلك على اعتبار أن هذه العوامل كلها تعتبر خصائص مميزه للبناء الاجتماعي وبالتالي تجعل النسق الطبقي ومقوماته وخصائصه المميزة في كل منهما نوجزها فيما يلي:

١-اختلاف درجات التمايز في مراكز الأفراد وأدوارهم:

تمايز المجتمعات بين أعضائها على اساس من الادوار كما انها تقيم هذه الادوار بطريقة بحيث تجعل بعض الادوار أكثر أهمية وقيمة من أدوار اخرى وبالتالي تمنح لمن يشغلون هذه الأدوار درجات متمايزة من التقدير، وقد أوجد تفاوت التقدير الاجتماعي فكرة المركز والمكانة الاجتماعية كمرتبة يقرنها المجتمع بدور معين أو مجموعة من الادوار التي يقوم بها الفرد. وفي كل مجتمع يتحدد المركز أو المكانة الاجتماعية بمبادئ معينة كالسن والجنس واختلافات أسس المركز أو المكانة من مجتمع لآخر باختلاف درجة ما نتمتع به هذه المبادئ من أولوية كقيمة أساسية في المجتمع متعارف عليها في التراث الاجتماعي، الامر الذى يؤكد تمايز الافراد على اساس المركز والدور ويمهد السبيل إلى ايجاد نوع الترتيب الطبقي في المجتمع.

ومجتمع القرية مجتمع بسيط محدود الحجم والكثافة فيه الزراعة قيمة اقتصادية وثقافية تنعكس على كافة مظاهر النشاط الاجتماعي لافراده فهي قد اعطتهم ابعاداً خاصة ومتميزة عن غيرهم كما اخرجتهم اخراجا واحدا ومتشابها حتى بلغت بهم إلى اقصى حدود التجانس الثقافي. والعمل الزراعي بطبيعته غير متخصص مما جعل سكان القرية متشلبهون إلى حد كبير فهم يقومون بنفس العمل وبنفس الطريقة ولنفس الاهداف وبتوجيه من نفس الايديولوجية.

وقد ترتب على هذه الخصائص والتجانس الواسع بساطة الحياة الاجتماعية بوجه عام نظرا لبساطة العمل السائد وتحقيقه بطريقة روتينية إلى

جانب بساطة الاهداف التي يسعى اليها الأفراد لذلك كانت درجة التمايز بين الأفراد في حدود المركز والدور وأقل كثافة وتعقيدا. ذلك لان تجانس الأفراد قد قلل إلى حد كبير من عدد المراكز والدوار بالدرجة التي لا نجد فيها تسلسلا واسعا معقدا لمراكز الأفراد وادوارهم في المجتمع. وعلى العكس من ذلك يمتاز المجتمع الصناعي بتعقد البناء وتعدد الجماعات والثقافات فالصناعة بطبيعتها تثير الاختلافات والتمايز بين أفراد المجتمع.

فالملاحظ أولا ان الصناعة تجند العديد من الأفراد للعمل بمصانعها وقد ينزح الكثيرون من مختلف الجهات للعمل بمواقعها وهذا يعنى من الناحية الواقعية أن رجالا ونساء من مختلف الثقافات والمواطن لهم تصوراتهم وأفكارهم وايديولوجياتهم المتغايرة والمتناقضة يزج بهم تحت سقف واحد وفى منطقة واحدة مما يؤدى الى اختلاط الثقافات الفرعية التى ينتمون اليها الامر الذى يقضى على وحده او اتساق المجتمع القديم ويؤدى إلى تشبعات واسعة النطاق فى القيم والعادات. والتقاليد والذواق واللهجات وغير ذلك من مظاهر ثقافية متنوعة.

والملاحظ ثانيا: أن الصناعة فى تطورها انما تطور نسقا معقدا من التخصص وتقسيم العمل ومن المؤكد أن يؤدى هذا التمايز المهنى إلى درجات التمايز فى مراكز الافراد وادوارهم وقد اصبح التمايز المهنى من السمات البارزة للمجتمع الصناعى حتى أنه على الرغم مما يسوده من ثقافة عامة الا هذه الثقافة تتفتت فى الوقت ذاته إلى ثقافات فرعية متمايزة مهنيا ذلك لان الافراد الذين يشاركون فى نفس المهنة انما يطورون معايير معينة ويؤكدون ايديولوجيات جماعية موحده خاصة بهم كما أن تنوع المهن والدخل المتفاوت المرتبط بها وتفاوت درجات التعليم والانجاز المصاحب لكل مهنة يؤدى بالافراد إلى أن

يشتركوا في معايير مختلفة ويسلكون بطريقة متمايزة كما لو كانوا يشاركون ثقافة فرعية خاصة بالمهنة التي يزاولونها.

والملاحظ ثالثا: ان العمل الصناعي إلى جانب انه يمتاز بالتخصص والتعقيد يمتاز بالمرونة والقابلية للاستجابة للتغيرات التكنولوجية وهو من أجل ذلك لا يتفق ومبدأ الوراثة المهنية بل يؤكد على الاختلاف والفروق الفردية من حيث القدرة على الأداء والانجاز لذلك أصبحت العبارة ماذا تستطيع أن تعمل أو ماذا تعلمت لكي تعمل، من العبارات التي تعكس ثقافة المجتمع الصناعي الذي يؤكد باستمرار قيمة التنافس الفردي كما أصبحت الامكانيات الفردية عاملا هاما لتحديد مستقبل الفرد واصبحت علاقته بالمنظمات المهنية علاقة غير شخصية تتشكل بمدى الحاجة اليه ومدى ما يحققه من فائدة.

ومن المؤكد ان مجتمعا بهذه الخصائص البنائية من تعقد وتعدد الثقافات الفرعية وتعارضها وتخصص وتقسيم دقيق وواسع للعمل ادى بدوره إلى تمايز مهني واسع النطاق والتأكد على أهمية المقدرة الفردية كاساس للالتحاق بالعمل وشغل المكانة. لابد وأن يكون على درجة كبيرة من التغاير والاتجانس الامر الذي يترتب عليه زيادة حدة التمايز بين الافراد في حدود المركز والدور، بالدرجة التي يصبح فيها الحديث عن مساواة مطلقة بين أفراده غير منطقي أو واقعي.

٢-اختلاف اسس التمايز بين الافراد:

تمثل الاختلافات في الاسس والمبادئ التي يستخدمها المجتمع لتحديد مراكز الافراد وادوارهم، المظهر الثاني من مظاهر الاختلاف في أنساق الطبقة في المجتمع الصناعي واللاصناعي.

ففي مجتمع القرية يتحدد مركز الفرد ومكانته الاجتماعية باسس ومقاييس تقليدية كالسن والجنس والانتماء إلى جماعات قرابية او ما يسمى

بالمولد فقد أوضحت الدراسات أن أهم المعايير والقيم التي تحدد السلطة الاجتماعية في مجتمع القرية بوجه عام وفي العائلة الريفية بوجه خاص تتمثل في احترام السن كقاعدة عامة تحدد وتشكل انماط السلوك وادوار الافراد في المجتمع كما تتمثل ثانيا في التمييز بين الافراد على اساس الجنس وسيادة الذكر كما تمثل أيضا في احترام المركز في دائرة القرابة كنموذج من نماذج السلوك المرحب به في مجتمع القرية اضف إلي ذلك أن الشخصية الاجتماعية للفرد تحدد بمدى العلاقات داخل العائلة وخارجها فالفرد جزء من العائلة ولا يتمايز الأفراد من هذه الزاوية الابناء على تحقيق الفرد لقيم العائلة أو تقصيره أو اخفاقه فيها. وللتقاليد من وراء ذلك سطوة كبرى في تحديد الاطار العام للسلك الاجتماعي والخطوط الرئيسية التي تعين نموذج الشخصية وما تشغله من مركز وما تقوم به من ادوار.

وهكذا نجد أن السن والجنس والقرابة أو المولد تمثل أهم المعايير التي يتحدد على اساسها مركز الفرد ومكانته في مجتمع القرية بل تمتد هذه المعايير لتصبح اسس تحديد وتمايز المراكز المهنية لافراد القرية.

وعلى طرف النقيض نجد المجتمع الصناعي فقد أصبح السن والجنس والقرابة وغيرها ومن معايير ومقاييس تقليدية امورا ثانوية في تحديد مركز الفرد بوجه عام ومركزه المهني بوجه خاص فالمجتمع الصناعي في تأكيده على أهمية مهنة الفرد ومقدا دخله ودرجة تحصيله الفني يكون بذلك قد وضع أسسا جديدة لتحديد مكانة الفرد ومركزه ودوره في المجتمع وجعل المركز الاجتماعي للفرد انعكاسا لمركزه المهني وادواره المهنية ولقد أصبحت المهنة هي المؤشر الحقيقي للمركز الاجتماعي واصبح التوزيع المهني للافراد يستخدم في كثير من الدراسات الحديثة كثبت أو دليل هام للترتيب والتمايز الطبقي في المجتمع الصناعي.

كما أوضحت الدراسات الحديثة ان أكثر آثار الصناعة وضوحا على نسق المكانة والطبقة قد تمثلت في ان الدور المهني للفرد قد اصبح من المبادئ الاساسية لتحديد مكانة الفرد في المجتمع ذلك لان الادوار التى تقوم بها الافراد فى العمل الصناعى تميل إلى أن تعطيهم قدرا معينا من المركز والمكانة الاجتماعية فى مجتمعهم كما أوضحت أيضا أن النظام المهنى الصناعى يتداخل على الصعيدين القومى والمحلى بنظام المركز والمكانة بالدرجة التى تبدو فيها الصناعة والعمل الصناعى من أحد المصادر الرئيسية لتحديد مركز الفرد ومكانته في المجتمع.

ويترتب على ذلك أن المركز المهنى للفرد فى مجتمع القرية يرتبط بمركزه الاجتماعى الذى يتحدد على اساس من السن والجنس والمولد أو الجماعة القرابية أو يكون لاحقا للمكانة الاجتماعية بينما يكون المركز المهنى في المجتمع الصناعى معيارا رئيسيا فى تحديد مكانته الاجتماعية ودعامة أساسية للتمايز بين أفراد المجتمع. فاذا ما أجرينا مقارنة بين المجتمعين فى مجال اسس تحديد المراكز والادوار المهنية وجدنا عدة اختلافات جوهرية. فلم يعد السن والجنس وغيرها من الأمور التقليدية معايير ثابتة ورئيسية لتحديد الادوار المهنية في المجتمع الصناعى كما هو الحال فى مجتمع القرية بل إن العمل الصناعى بما يمتاز به من تخصص واسع ومرونة كبيرة فى الاستجابة للتغيرات المصاحبة للتطور التكنولوجى يجعل من الامكانيات الفردية بغض النظر عن فوارق السن والجنس اساسا للالتحاق أو ممارسة العمل ومن ثم كانت وراثة العمل ووراثة المركز المهنى أمراً يتعارض وطبيعة العمل الصناعى.

وقد أوضحت الدراسات الحديثة التى اجريت على بعض المناطق حديثة التصنيع أمثلة عديدة على عدم إمكانية قيام العمل الصناعى على الأسس التقليدية للعمل والمكانة الاجتماعية مثال ذلك ما أشار إليه سلزك من محاولات

فى بعض قرى اليابان للتوفيق بين التنظيم الصناعى والتنظيم الاجتماعى التقليدى استند على المكانة الاجتماعية الوروثة واتخذ من التنظيم القرابى محورا له. وقد تمثلت هذه المحاولات فى اختيار العمال داخل الجماعات الاسرية الصغيرة يعملون فى جماعات اشبه بالجماعات القرابية القديمة غير ان هذه المحاولات قد باءت جميعها بالفشل وكشف هذا النظام الجديد الذى كفل مزيجا من التنظيم الصناعى والتنظيم القرابى التقليدى عن دلائل كثيرة لتفككه وعدم تكامله مع التنظيم الاجتماعى القائم مما حتم ضرورة الاعتماد على معايير اخرى لاختيار العمال وتوزيع الادوار المهنية تتخذ من المقدرة والكفاءات اساسا لها بدلا من الاستناد على الروابط والعلاقات القرابية.

كذلك اشار هومانز فى احدى مقالاته إلى تغيرات العمل التى تتبع هجرة الاهالى من القرى القبلية إلى العمل بالمصانع وما ترتب على ذلك من تعارض مع الاسس التقليدية لنظام المكانة والدور. فقد تبين أن التنظيم الصناعى قد غير أسس المكانة الاجتماعية التقليدية بحيث خضع كبار السن ورؤساء القرى ممن كانوا يتمتعون بمكانة تقليدية عالية للشبان فى هذا التنظيم الجديد وقد انعكس هذا الخضوع على الاجور المنخفضة التى كانوا يتقاضونها والمراكز المهنية الدنيا التى كانوا يشغلونها فى الترتيب الهرمى للمصنع وقد أحدث هذا الخضوع آثار عديده ليس فقط فى تقويض الأبنية التقليدية بل وأيضا فى انعدام الامن السيكولوجى خاصة لكبار السن ممن كانوا يحتلون مكانة تقليدية عالية، فقد أصبح من المحتم عليهم طاعة أوامر أشخاص آخرين كانوا يشغلون أدنى السلم الاجتماعى فى البناء الطبقى القديم كما أصبحت هذه الطاعة أمرا مفروضا ومعيارا للتقييم وباختصار حتم التصنيع التخلى عن المعايير التقليدية للالتحاق بالعمل وتحديد المكانة المهنية للفرد وذلك لما صاحبه من تعدد وتعقد فى الادوار المهنية فى المجتمع الصناعى حتى ان

اختلافات الاسس التي يستند عليها نسق المكانة الاجتماعية أمر مرتبط باختلاف المقومات الاساسية التي يستند عليها نسق الطبقة في المجتمع الصناعي واللاصناعي.

فاذا نظرنا إلى المهنة كأساس للترتيب الطبقي، نجد أنها لا تصلح لتفسير الفوارق الطبقية في مجتمع القرية كما انها لا تصلح كمدخل لدراسة ظاهرة الطبقة في هذا المجتمع ذلك لأن التحليل الاقتصادي للطبقة والذي يستند على عامل المهنة وحده انما يعطي فكرة ناقصة عن ظاهرة التقسيم الطبقي في المناطق الريفية لانه يتغاضى عن امور على جانب كبير من الاهمية في هذا الصدد مثل المركز الاجتماعي للعائلة وطبيعة البناء الاجتماعي لمجتمع القرية بالاضافة إلى العادات والتقاليد والعرف وأنماط الثقافة السائدة وغيرها من العوامل التي تلعب دورا كبيرا في ابراز الفوارق بين الأفراد.

وتتأكد أهمية المهنة في تفسير الفوارق الطبقية في المجتمع الصناعي بل وفي زيادة كثافتها بطريقة توحي بان المهنة هي اساس التمايز والترتيب الطقي في هذا المجتمع فقد أوجد العمل الصناعي تفاوتا كبيرا في الثروة ومستويات المعيشة وطرق الحياة خاصة وأن كل من أصحاب المصانع والاداريين والعمال المهرة وغير المهرة كل هؤلاء انما يطورون ويسايرون ثقافات مستقلة ومستويات للمعيشة ولهم اهتمامات ومصالح مستقلة ومتعارضة احيانا وإلى جانب هذا التفاوت الاجتماعي والاقتصادي أوجد العمل الصناعي نوعا من اللامساواة وعدم التكافؤ قضى على وحدة المجتمع التقليدي وترابطه.

ويترتب على اختلاف اساس الترتيب الطبقي بين المجتمع الصناعي واللاصناعي اختلاف في درجة وكثافة التمايز الطبقي بين الأفراد في كل من المجتمعين فالتمايزات الاجتماعية في مجتمع القرية ليست كبيرة جدا، كما أن الرتبة والمكانة الاجتماعية ليست متطرفة كما هو الحال في المجتمع الصناعي

ذلك لان الابعاد الاجتماعية والاقتصادية بين من ينتمون إلى الرتب العليا وغيرهم ممن ينتمون الى الرتب هى أكثر اتساعا فى المجتمع الصناعى عنها فى مجتمع القرية. وهذا يعنى أن البناء الطبقى فى المجتمع الصناعى أكثر ارتفاعا عنه فى المجتمع اللاصناعى.

مما لاشك فيه أن الصناعة قد ساهمت إلى حد كبير فى زيادة كثافة التمايز الطبقى بين الأفراد الأمر الذى جعل سلم التدرج الاجتماعى أكثر أرتفاعا فى المجتمع الصناعى عنه فى مجتمع القرية وجعل هذا التدرج يشتمل على درجات وشرائح واختلافات أكثر من حيث الدخل والسلطة والمهابة اذا كانت الصناعة تشكل فى هذا المجتمع جانبا كبيرا من تركيبه المهنى فهى بذلك قد قسمت بناءه الطبقى إلى سلسلة من التجمعات المهنية والطبقية المختلفة. كما استبدلت بتلك الهوة الواسعة بين الملاك والمعدمين فى مجتمع القرية سلسلة كبيرة من الفواصل بين عامل المصنع والمشرف الفنى والادارى، وصاحب المصنع .. الخ وأدت بالتالى إلى ارتفاع السلم الطبقى بين أفراده وبعبارة أخرى لم تبسط الرأسمالية الصناعية من النسق الطبقى للمجتمع الصناعى لتحصره بين جماعتين متصارعتين على نحو ما ذهب إليه ماركس بل جعلته أكثر تعددا وتعقيدا.

٣-اختلاف طبيعة التمايز والترتيب الطبقى:

تتحدد المكانة الاجتماعية للفرد فى مجتمع القرية على أسس تقليدية ومعايير ثابتة كالسن والجنس والقرابة أو المولد، بينما يؤكد المجتمع الصناعى على الامكانيات الفردية والتحصيل الفردى لذلك فان التمايز بين المراكز يكون أكثر صلابة وجمودا وثباتا فى مجتمع القرية عنه فى المجتمع الصناعى بحيث توصف المكانة فى القرية بانها ذات طابع موروث بينما المجتمع الصناعى يسوده ما يعرف بامراكز أو المكانة المكتسبة.

والمقصود بالمركز أو المكانة الموروثة ذلك المركز الذى يتحدد للفرد ويدرب عليه منذ لحظة ولادته بغض النظر عن قدرته الفردية أو هو ذلك الوضع الذى يتحدد للفرد عن طريق الوضع الطبقى لاسرته وعن طريق الاهمية الملحقة بجماعة السن والجنس والجماعة الاقتصادية التى ينتمى إليها منذ ولادته.

أما المركز أو المكانة المكتسبة فهو نتائج الجهود الفردية مضافا إليه عنص الحظ الاحسن والفرصة المتاحة أو هو ذلك الوضع الذى يتطلب كفاءة خاصة ولا يتحدد للفرد منذ لحظة ولادته بل يترك أمام الأفراد ليشغل من خلال المنافسة والمجهود الفردى.

وفى المجتمع الصناعى يتسم المركز الاجتماعى بالطابع المكتسب فالمنافسة من أكثر خصائص المجتمع وضوحا كما ان المهارات والامكانيات الفردية من أكثر الوسائل أهمية فى تحديد مركز الفرد ومكانته المهنية والاجتماعية كما أن التحصيل الفردى معيار أكثر ملاءمة للتخصص الواسع الذى يعتبر من السمات البارزة للثقافة الصناعية ومقياس يتفق وطبيعة العمل الصناعى ومتطلباته فى مسايرة التطورات التكنولوجية المستمرة لذلك كله كان تطور النظام الصناعى يحتم بالضرورة التأكد على المركز أو المكانة المكتسبة.

إن المجتمع الصناعى فى تأكيده على حرية الاختيار انما يحتم منهجا تنافسيا لتوزيع الادوار المهنية التى تشغل عن طريق صراع تنافسى بين الأفراد مما يجعل الادوار المكتسبة أكثر انتشارا فى المجتمع الصناعى عنها فى مجتمع القرية. بل إن فى بناء الدور المتغير والمعقد فى المجتمع الصناعى يحتم هذا المنهج التنافسى ليس فقط فى البناء المهنى بل وأيضا فى تنظيم العلاقات الاجتماعية فى مجموعها لذلك يمكن القول بان الاتجاه نحو الصناعة كان سببا فى تحول وتعديل أنساق المكانة من الطابع الموروث إلى الطابع المكتسب إن الثقافة الصناعية تعترف بالأفراد من حيث هم أفراد وتكافئهم فى حدود من

المهارات المكتسبة لدرجة انها تنظم الافراد في جماعات تسمى بجماعات المهارة من خلال المنافسة. كما انها توسع من مجال وسلطة هذه التنظيمات التي تقوم على اساس المهارات الفردية.

ويترتب على ذلك أن الصناعة في تأكيدها على الادوار والمراكز المكتسبة تغير من طبيعة التمايز بين الأفراد من طابع الجمود إلى المرونة وتغير في نفس الوقت من طبيعة نسق الطبقة في المجتمع الصناعي فقد كشفت بعض الدراسات عن انه على الرغم من بساطة التركيب الطبقي في مجتمع القرية وعلى الرغم من أن الشعور الطبقي أقل حده بين الأفراد الا أن نسق الطبقة يمتاز فيه بطابع الجمود والثبات بدرجة ملحوظة عنها في المجتمع الصناعي. وهذا يعني بدوره انه على الرغم من أن الصناعة قد أدت إلى زيادة الشعور الشعور الطبقي بين الافراد وأدت أيضا إلى زيادة درجات التمايز المهني والاقتصاد الذي أدى بدوره إلى وجود جماعات اجتماعية مختلفة بنوعيها الرأسي المرتبط بأنواع المهن واقسامها المختلفة والافقي المرتبط بالمركز الاجتماعي والوضع الطبقي مما جعل الطبقات والشرائح الاجتماعية أكثر عددا الا أنها أي الصناعة مع ذلك قد غيرت من طبيعة النسق الطبقي، بحيث أصبحت الطبقات رغم كثرة عددها اكثر مرونة وأقل جمودا وثباتا.

إن نسق الطبقة في المجتمع الصناعي رغم انقسامه إلى سلسلة التجمعات والشرائح والفئات الاجتماعية المتمايزة الأنه يمتاز بتداخل هذه الافسام بحيث لم يعد هناك فواصل وتقسيمات صارمة ودقيقة بينها لذلك يقال إن مصطلحات مثل "الطبقة الوسطى" أو "العليا" أو "الدنيا" كلها عبارات كتبت لأغراض الفهم والتحليل أكثر من كونها تصنيفات دقيقة خاصة وان كل طبقة قد انقسمت فيما بينها إلى مراتب مهنية وتعليمية واقتصادية متعددة فضلا عن وجود

حركات التنقل الاجتماعي واضحة المعالم وملحوظة من مستوى لاخر داخل كل طبقة.

أن المجتمع الصناعي عندما يشيد بناءه الطبقي على دعائم مرنة كالمهنة التي تستند على أسس أكثر مرونة وتخضع في ذاتها لسلسلة من التغيرات واسعة المدى فانه بذلك يجعل طبقاته أكثر مرونة وأقل ثباتا بنفس القدر الذى يجعلها واضحة ومتعددة.

لذلك كانت الطبقة الاجتماعية في ظل الثقافة الصناعية أكثر تعقيداً وأقل ثباتا طالما أنها وجدت فى ظروف دائمة التغير كما انها اكثر تكيفا لمتطلبات التغير في سهولة نادرا ما تحدث في النسق الطبقي لمجتمع القرية.

غير أن ذلك لا يعني ان فكرة الطبقة قد حذفت نهائيا من المجتمع الصناعي بل يعني فقط ان الطبقة قد أخذت شكلا آخر يختلف عما كانت عليه في مجتمع القرية مثلا فمع هذا التطور الصناعي وانتقال الافراد بين مستويات للدخل مختلفة ومع تغيرات العمال المستمرة أصبحت الطبقة الاجتماعية عاجزة عن ان تتمسك بخطوطها وحدودها الفاصلة بل أصبحت الخطوط بين الطبقات أكثر غموضا عنها في مجتمع القرية.

٤-اختلاف معدلات التنقل الاجتماعي وسرعته:

وينحصر المظهر الرابع من مظاهر الاختلاف بين انساق التدرج الطبقي في المجتمع الاصناعي، في درجة ما يتسم به كل نسق من مرونة أو جمود، أو مقدار ما يتيحه من فرص التنقل من طبقة لأخرى بداخله. ولقد جمعت البحوث والدراسات على أن مجتمع القرية نظرا لأن تمايز المركز والدور يقوم فيه على اساس من معايير ثابتة وتقليدية ونظرا لما يتسم به نسقه الطبقي من جمود وثبات كانت معدلات التنقل الاجتماعي فيه في أدنى درجاتها بعكس المجتمع

الصناعي الذي أكد على اهمية المركز والمكانة المكتسبة كاساس لنسقه الطبقي وعلى المنافسة الفردية والقدرات الفردية كاساس لشغل المركز او الدور.

ومن المؤكد أن انتشار الصناعة وتطورها كان عاملا من العوامل التي أدت إلى زيادة معدلات التنقل الاجتماعي فالتغيرات السكنية والمهنية واستمرار حركات الهجرة وتغيرات البناء المهني والتغيرات السريعة للثروة والدخل وغير ذلك من ظواهر ارتبطت بتصنيع المجتمع الصناعي يأخذ طابع المرونة ويظهر بمظهر التغير المستمر مما ينعكس بدوره على نسقه الطبقي ودرجة ما يتيحه للأفراد من تنقل داخل وخارج الطبقة بل لقد كان هذا الارتباط بين التصنيع وارتفاع معدلات التنقلات الاجتماعية نتيجة حتمية في نظر الكثيرين من مؤرخي الحركة الصناعية مثل كلارك كير، وجولد ثروب وغيرهما. للتطور التكنولوجي والاقتصادي وما فرضه من نسق معقد لتقسيم العمل وذلك كنموذج دينامي للمجتمع الحديث أن المجتمع الصناعي في نظرهم مجتمع مفتوح يشجع التنقل المهني والجغرافي والاجتماعي لانه طالما استندت السياسة التصنيعية على أسس مرنه يتأكد فيها عامل المنافسة فانها بذلك تتعارض مع كل ما هو جامد وتقليدي موروث.

وبناء على ذلك يمكن القول إن التطور التكنولوجي بوجه عام وتطور الحركة الصناعية بوجه خاص كانا بقدر ما ترتب عليهما من زيادة في حدة التمايز في مراكز الأفراد وادوارهم مؤديان إلى تفتت المجتمع الصناعي إلى عدد كبير من الطبقات أو الفئات المختلفة اجتماعيا واقتصاديا الاأنهما مع ذلك كانا من العوامل التي أدت إلى تغيرات واسعة في البناء المهني وما يترتب على ذلك من حدوث حركات واسعة للتنقل المهني ادت بدورها نظرا لما اكتسبت المهنة من أهمية خاصة إلى عمليات مصاحبة للتنقل الاجتماعي.

وفي مجال المقارنة بين انساق الطبقة في المجتمع الصناعي واللاصناعي نستطيع أن نقرر انه كما أن التمايز والترتيب الطبقي كانا أقل وضوحا وكثافة في مجتمع القرية عنه في المجتمع الصناعي وكما أن كثافة هذا التمايز قد ارتبطت طرديا بعامل التصنيع كذلك فان التنقل الاجتماعي باشكاله المتنوعة كان اقل كثافة في مجتمع القرية اذا قورنت معدلاته بما يحدث في المجتمع الصناعي وارتبطت معدلات هذا التنقل من حيث السرعة والمدى بعامل التصنيع ارتباطا طرديا مما جعل البعض يقرر أن التنقل أمر ملازم بالضرورة لقيام المجتمع الصناعي.

الباب الرابع

علم الاجتماع ودراسة النظم الاجتماعية

- ❖ تمهيد: علم الاجتماع ودراسة النظم الاجتماعية.
- ❖ الفصل الثانى عشر: علم الاجتماع والنظام السياسى.
- ❖ الفصل الثالث عشر: علم الاجتماع والنظام الاقتصادى.
- ❖ الفصل الرابع عشر: علم الاجتماع والنظام الدينى.
- ❖ الفصل الخامس عشر: علم الاجتماع والنظام الأسرى.

تمهيد

علم الاجتماع ودراسة النظم الاجتماعية

١ - تعريف النظام والنظم والبناء:

هناك ثلاث مصطلحات أساسية غالبا ما تستخدم رغم ما بين كل منها من تداخل وهذه المصطلحات هي: التنظيم الاجتماعي، البناء الاجتماعي، والنظم الاجتماعية.

ويشر التنظيم الاجتماعي Social organisation - كما يعرفه بارنز Barnes - إلى الجهود التي يبذلها الإنسان ليحقق أهدافاً معينة، وخاصة المتعلقة بحاجاته الضرورية، وهو يعني أيضاً الجماعات والأبنية الاجتماعية التي تنشأ نتيجة لهذه الجهود. ويعرف جونز Jones التنظيم الاجتماعي بأنه النسق الذي ترتبط بواسطته أجزاء المجتمع بعضها ببعض من ناحية، وبالمجتمع ككل من ناحية أخرى، ويتم ذلك بطريقة مقصودة (١).

أما مصطلح البناء الاجتماعي Social structure فيشير إلى مجموعة ثابتة نسبياً من العلاقات النموذجية بين الوحدات. ولما كان الفرد هو وحدة النسق الاجتماعي فالبناء الاجتماعي إذن هو: نسق من نماذج العلاقات بين الأفراد. ويرى بارسونز أن الفرد هو وحدة أي نسق اجتماعي، وذلك بصفته وحدة عامة مستقلة لها كل الصعاب التي تجعله يجاهد نحو تحقيق اهداف معينة. والتفاعل مع هذه الأحداث. ومعنى هذا أن الفرد من خلال قيامه بالأدوار التي تربط الفرد كوحدة سيكولوجية سلوكية بالبناء الاجتماعي يتشرب القيم السائدة في جماعاته. فالمظهر الأساسي للبناء الاجتماعي إذن، هو النواحي النموذجية المتوقعة والتي تعرف "التعريف المناسب للأفراد الذين يقومون بأدوار معينة

---

(١) عاطف غيث، مرجع سابق.

ويعمل على تحقيق هذه التوقعات والدوافع الشخصية للفرد نفسه نحو تكوين شخصيته وتماسكها، بالإضافة إلى ما يتوقعه من جزاء الآخرين له.

نخلص من كل هذا بأن "البناء الاجتماعي" عبارة عن ترتيب الأشخاص والعلاقات لنظم معينة والشخص هو وحدة البناء الاجتماعي، ويهتم البناء إذن بترتيب الأشخاص، بينما يهتم التنظيم بترتيب أوجه النشاط والنظام، والتصرفات المتوقعة، أو العلاقات، في داخل البناء.

وبالنسبة للنظم الاتصالية، فانه نظراً لأن الناس تعيش في تفاعل منظم مع الآخرين، فهو يدعم من خلال تكرار سلوكه أنماطاً معينة تشبع حاجاته المادية والمعنوية، ولهذا نشأت هذه المنظمات الاجتماعية لإشباع حاجات الإنسان، ومن حين لآخر تراجع كل جماعة أو مجتمع هذه العمليات وهذه الأنظمة في استمرارها وتغيرها، وبهذه الطريقة نشأت النظم، فكأن النظم هي أنماط سلوك تجمعت حول احتياجات الإنسان الأساسية، وكل نظام يحتوى إذن على معايير وعادات وتوقعات تنتقل إلى الأجيال التالية كتراث اجتماعي، فالنماذج المقننة هي ما اصطلح على تسميته بالنظم الاجتماعية Social institutions وهي تقوم بوظائفها داخل التنظيم الاجتماعي.

وتعرف النظم الاجتماعية بأنها "الأنساق المنظمة الدائمة نسبياً للتصرف والاتجاهات والأغراض والأشياء المادية والرموز والمثل، التي توجه أغلب نواحي الحياة الاجتماعية"، ويعرفها جينزبرج Ginsberg بأنها القوانين الموضوعة المعترف بها، والتي تحكم الصلات بين أفراد الجماعة.

٢- خصائص النظم الاجتماعية:

وللنظم الاجتماعية عدد من الخصائص العامة البارزة، والتي يمكن أن نجملها في الآتي:

١- يتميز النظام الاجتماعي بأنه يقوم بوظيفته كوحدة في النسق الثقافي ككل، وذلك لأن النظام لا يخرج عن كونه تنظيماً لنماذج التفكير والتصرف، التي تظهر خلال النشاط الاجتماعي وما يتصل به من إنتاج مادي، وهي بالتالي

عبارة عن تجميع القواعد الاجتماعية السائدة في المجتمع والتي تتكون من العادات والتقاليد والقيم المنظمة، بوعي أو بدون وعي، وهي كوحدة وظيفية. وقد تنجح بعض هذه العناصر الثقافية فتتحول إلى نظام، بينما قد لا تنجح الأخرى. وفي حالة نجاحها، نجد أنها تتجه إلى التوحيد مع الأجزاء الأخرى. ولهذا فإن النظم تعكس الترابط مع بعضها والبعض الآخر.

٢- يتميز النظام بدرجة نسبية من الاستمرار والدوام، فأنساق الاعتقاد وطرق العمل وغيرها لا تصبح نظماً إلا بعد أن تصل إلى مرحلة مقبولة بصفة عامة خلال فترة مناسبة من الزمن.

٣- يتميز أي نظام بأنه له هدفاً أو عدداً من الأهداف الواضحة.إلا أن هذا الهدف قد يتعارض مع مرور الزمن بالوظيفة التي يؤديها للنظام.

٤- تتميز النظم الاجتماعية بجمودها نتيجة لما تتميز به من استقرار ودوام لفترة مؤجلة من الزمن، حتى تكاد في بعض الأحيان أن تتحول إلى ما يشبه الطقوس. وهذا ما يجعلها تقف أحياناً كعقبه امام التغير.

٥- يتميز أي نظام اجتماعي بعناصر خمسة هي: أهدافه، اتجاهاته، نواحيه الرمزية، نواحيه المادية، تقاليده الشفهية أو المكتوبة. وكمثال لذلك نجد أن الأسرة كنظام اجتماعي تتمثل أهدافها في إنجاب الأطفال وتحقيق وضع اجتماعي معين، كما تتمثل الاتجاهات ونماذج التعرف فيها في الحب والعطف والولاء والإخلاص واحترام العلاقة الاسرية. والنواحي الرمزية تتم في خاتم الزواج، والنواحي المادية في المنزل والأثاث، والتقاليد الشفهية أو المكتوبة في وثيقة الزواج.

٣- أشكال النظم الاجتماعية:

يمكننا أن نمز بين الأشكال الآتية من النظم الاجتماعية:

١ - نظم تلقائية ونظم مقننة - وتتمثل الأولى في تلك التي نشأت استجابة للقيم السائدة مثل الزواج والدين والملكية، أما النظم المقننة فهي تتميز بأنها

جاءت نتيجة تنظيم واع ومقصود ليحقق أهدافاً معينة مثل التعليم والصناعة والادخار والتأمين وهكذا.

٢- هناك نظم أساسية ونظم مساعدة أو فرعية - والأولى هى التى نشأت لتحقيق الضبط فى المجتمع (مثل الدين والدولة) حيث لا يمكن للمجتمع أن يستمر بدونها. أما النظم المساعدة فهى تقل فى أهميتها للمجتمع عن الأولى (مثل النظم الترفيهية) ويمكن أن نشير هنا إن أساسية أو فرعية النظام راجع إلى المكان والزمان، فما هو بأساسى فى ثقافة أو مجتمع معين ليس كذلك فى ثقافة أو مجتمع آخر.

٣- نظم مشروعة ونظم غير مشروعة - والأولى تتعلق بالنظم التى تنظمت واتفق عليها مثل العمل، الزراعة، الأسرة. أما النظم الغير مشروعة فهى تتمثل فى نظم مثل البغاء، الرشوة، والمعيار العريض المميز عن الشرعية وغير الشرعية فى توافق النظام هو القيم السائدة فى أجزاء النظام الاجتماعى.

٤- نظم عامة ونظم محدودة - ويمكننا أن نميز بين هذين النوعين بمدى انتشار كل منهما بين أطراف المجتمع، فالدين والأسرة مثلاً من النظم العامة، بينما النظم الترفيهية فهى ربما تكون محدودة لفئة أو طبقة معينة.

٥- نظم عاملة ونظم ضابطة - وتتميز الأولى بأن وظيفتها الأساسية هى تنظيم نماذج التعرف التى تعتبر ممارستها ضرورية لتحقيق ما يسعى إليه النظام من أهداف مثل النظم الصناعية. بينما تتميز النظم الضابطة بأنها وجدت لضبط عدد من العادات ونماذج التعرف التى لا تعتبر فى حد ذاتها جزءاً من النظام نفسه. كما هو الحال فى النظم القانونية.

كما أشرنا أن تعدد النظم الاجتماعية مرتبط برغبات وأنشطة الإنسان المتعددة. على أية حال، يمكننا أن نصنف النظم الاجتماعية الهامة فى حياة الإنسان فى أربعة نظم رئيسية هى:

١- النظم السياسية.

٢- النظم الاقتصادية.

٣- النظم الدينية.

٤- النظم الأسرية.

هذه النظم الاجتماعية هى أكثر النظم انتشاراً أو بروزاً. فلم توجد أية ثقافة تخلو من الاسرة أو من نظام اقتصادى أو حكومة أو عقيدة دينية. وتختلف كل هذه النظم من مجتمع لآخر من ناحية الإشباع وقوة التنظيم. وواضح أن هذه النظم الأربعة تتركز حول الحاجات الإنسانية الأساسية وهى: الغذاء والجنس والعقيدة والأمن.

ولا تعنى دراستنا لهذه النظم أنه لا يوجد نظم هامة أخرى، ولكن فى الحقيقة أنها تأتى في الأهمية بعد هذه النظم. مثل التعلم والترفيه والفنون والصحة وغيرها. وسوف نناقش هنا النظام السياسى، والاقتصادى، والدينى، والاسرى.

الفصل العاشر

النظام السياسى

- تمهيد .
- التعريف بعلم السياسة
- أهم موضوعات علم السياسة
- اشكال الدولة
- نظريات نشأة الدولة
- الأحزاب فى الدراسات السياسية

الفصل العاشر

النظام السياسى

تمهيد:

تحتاج الحياة الاجتماعية إلى نظام يضبط سلوك الأفراد، ويحدد العلاقة بينهم. ويحمى الضعيف من القوى. ويعمل على حماية المجتمع بأكمله من أى اعتداء خارجي، ويعمل كذلك على المحافظة على كيان المجتمع ووحدته عن طريق إلزام الأفراد وتقييدهم ببعض جوانب حضارية كالعادات والتقاليد والدين. وغير ذلك. إن النظام الذى يعنى بكل هذه الأمور هو ما يعرف بالنظام السياسى (١).

وقد كان منفذ النظام - أى الحاكم - يختار على أساس قوته الجسمانية أو سنه. حيث كان أقوى الجماعة بينهم وأكبرهم سناً هو الذى تنفذ أحكامه ويعملون على اتباعه، وكانت الجماعة فى بادئ الأمر عبارة عن أسرة تربط أفرادها درجة من القرابة، ثم انتقل السلطان بعد ذلك لرئيس القبيلة الذى يحكم أكثر من أسرة. ثم انقسمت القبيلة إلى عشائر لكل عشيرة رئيس، وجميعها تخضع لسلطان شيخ القبيلة. وظلت الحالة على هذا المنوال إلى أن كثرت العشائر وكبرت حتى أصبحت دولاً، وأصبح حاكمها ملكاً. وكانت الملكية فى كثير من الدول مطلقة، أساسها تقديس الملك الذى يعتبر الحاكم المطلق الذى بيده مقاليد كل شئ، ويتصرف فى دولته كما يشاء. دون أن يكون مسئولاً أمام احد. وكان الاستبداد طابع كثير من الحكام الذين كانوا يعالجون الكثير من الأمور معالجة شخصية متضمنة الكثير من الظلم للمحكومين. وكان الكثير من هؤلاء الحكام يعمل على تكوين طبقة عليا من أفراد المجتمع لمناصرتهم ومؤازرتهم ضد الغالبية العظمى من أبناء المجتمع. وكان أفراد هذه الطبقة

---

(١) انظر: إسماعيل سعد. علم الاجتماع السياسى. الإسكندرية. دار المعرفة الجامعية. ١٩٨٤.

يستغلون هذا النفوذ لبسط سلطانهم والإثراء على حساب الغير. ويمثل عهد الإقطاع – في العصور الوسطى – النظام الملكي الجامد، حيث كانت الإقطاعيات توزع في أوربا على الأمراء والمنتسبين للعائلة المالكة. وكانت الإقطاعية في ذلك الوقت تمثل أبشع أنواع الحكم الاستبدادي، فكان الأمير أو نائبه يتحكم في الفلاحين بواسطة عدد من الجنود، وكان له السلطة المطلقة عليهم، يستخدمهم في الأرض ويستغلهم. وكانت حقوقهم محدودة جداً مقابل عملهم المضني في الزراعة والفلاحة. وكانوا يحرمون حرماناً تاماً من الملكية الزراعية.

غير أن الأمر تطور بعد ذلك، وخاصة مع ظهور الثورة الفرنسية والثورة الصناعية. مما أدى إلى اهتمام بالفرد وبحريته وبكرامته وبحقه في أن يكون له دور في بناء مجتمعه وبناء مستقبله. كما كان لظهور الفكر الاشتراكي دور هام في تشكيل النظام السياسي في الدول التي تعتنق هذا النظام.

وعموماً سنبدأ هذا الفصل بالإشارة إلى تعريف علم السياسة، ثم نتطرق بعد ذلك لعرض لبعض الموضوعات التي يهتم بها علم السياسة كالدولة والأحزاب.

أولاً – في التعريف بعلم السياسة:

لعل أقدم الاتجاهات وأكثرها تقليدية في تعريف علم السياسة هو ذلك الذي يركز على دراسة الدولة والوحدات المتفرعة منها، وهكذا فإن علم السياسة في عرف هذا الاتجاه هو "علم الدولة"، أو هو "ذلك الفرع من العلوم الاجتماعية الذي يتناول نظرية وتنظيم وحكومة وممارسة الدولة". وأحياناً يصر أنصار هذا الاتجاه على أن تكون المؤسسات موضوع التحليل شرعية أو مؤسسة بطريقة شرعية.

ويرتبط بهذا الاتجاه، الاتجاه الذي يعبر عنه ماكس فيبر الذي يرى إضفاء الصفة السياسة على تنظيم ما أو رابطة ما، طالما يتم تنفيذ نظامها على نحو مستمر في إقليم معين بتطبيق، أو التهديد بتطبيق، قوة مادية من الجهاز الإداري،

وواضح أن المؤسسات المختلفة مازالت هي الوحدات الأساسية للتحليل. لكن العنصر الجغرافي يتدخل في تحديد نطاق علم السياسة.

غير أن هناك اتجاه آخر يرى أن علم السياسة هو "علم السلطة". وهنا تنتقل بؤرة الاهتمام من المؤسسات في حد ذاتها إلى السلطة حيثما توجد. وعلى هذا لا تكون وحدة التحليل بالضرورة هي المؤسسة في أي من مستويات التنظيم الرسمي، إذ تحتل علاقات السلطة الموجودة في أنواع شتى من المواقف، وبذلك تكون بؤرة اهتمام عالم السياسة هي الصراع للحصول على السلطة أو الاحتفاظ بها أو لممارستها على الآخرين، أو لمقاومة هذه الممارسة.

وواضح مما سبق أنه يمكن التمييز بين وجهة النظر التي تميل إلى الأخذ بتعريف ضيق لعلم السياسة، فتركزه في دراسة الأنماط المتنوعة للمؤسسات التي تتصف أساساً ودائماً بأنها مؤسسات سياسة (كالدولة وما يتفرع عنها من مؤسسات) ووجهة نظر تأخذ بتعريف واسع لعلم السياسة تركز على الوظائف السياسية وتعالج السياسة كنشاط. ويميل أنصار وجهة النظر هذه إلى الاهتمام بمعظم جوانب النظم الاجتماعية. ويجدون الظواهر السياسية في كل مكان تقريباً: في الأسرة، وفي النقابة، وفي دور العبادة... وهكذا.

والواقع أن الفارق الجوهري بين الرأيين مصدره موقف العلماء من الدولة. فأصحاب الاتجاه الأول يرون أن هناك فارقاً جذرياً بين طبيعة الدولة، وطبيعة المجموعات البشرية الأخرى، كالنقابة والقبيلة مثلاً. فالدولة وحدها تتمتع بالسيادة اى السلطة المطلقة. أما المجموعات الأخرى فسلطتها ناقصة أو مستمدة من سلطة الدولة. وأصحاب الاتجاه الثاني يرون أن لا فرق بين الدولة من حيث كونها مجموعة بشرية وبين أية مجموعة أخرى كالنقابة أو القبيلة. وبالتالي تكون مظاهر السلطة في هذه المجموعات كلها واحدة، وتستحق أن تدرس، وكل الفرق في رأيهم بين المجموعة البشرية التي يطلق عليها اسم دولة وبين كل مجموعة من المجموعات الاخرى ينحصر في الكم لا في الكيف. أما طبيعة هذه المجموعات فواحدة.

وبين هذين الرأيين رأى وسط يقول إن علم السياسة هو علم السلطة فى المجموعات المركبة، أى المجموعات البشرية التى تتضمن فى ذاتها عدة مجموعات، بعضها تداخل فى بعض، كالحزب السياسى والدولة والمنظمة الدولية، أما دراسة السلطة فى المجموعات البسيطة كالأسرة والقبيلة، فلا تدخل فى علم السياسة، ولكنها أقرب إلى علم الاجتماع.

أهم موضوعات علم السياسة:

علم الاجتماع السياسى بشكل خاص وعلم السياسة بوجه عام له عدة موضوعات يهتم بها وبدراستها، منها الدولة والأحزاب والديمقراطية والحرية والسلطة والمشاركة.. إلى آخر ذلك من الموضوعات. وسوف نقتصر فى دراستنا هذه على موضوعى الدولة والأحزاب.

الدولة فى الدراسات السياسية:

الدولة من الموضوعات التى تتصدر علم السياسة وهى الموضوع الرئيسى الذى يتناوله علم السياسة بالدراسة والتحليل باعتبارها أكثر الكيانات الاجتماعية بروزاً فى المجتمع. هذا وقد تباينت الآراء حول مفهوم الدولة والأركان السياسية التى تشكلها. فقد تغير مصطلح الدولة بمرور الوقت - إذ تطور - خلال الفترة اليونانية والرومانية.

إن الدولة عند أرسطو هى أحد مخلوقات الطبيعة وإن الإنسان حيوان سياسى، بمعنى أن الدولة ضرورية لوجوده بصورة مرضية. أما أوجستين فهو يرى أن أصل الدولة "الخطيئة الأولى" وأن الإنسان فى حاجة أن يعيش فى ظل سلطة حتى تكبح ميوله الشريرة. واعتبر ترازيماخوس أن الدولة ليست سوى حكم الأقوى. ثم يعرف هربرت سبنسر الدولة فيقول إن الدولة شئ لم يكن موجوداً فى أيام الرجل البدائى، وهو يأمل أن يعود ذلك اليوم حتى يزول وجود الدولة. ورأى أن الماركسية تشاركه هذا الرأى.

لقد كان مكيافللى هو أول من أدخل المصطلح فى دراسات علم السياسة، إذ حدد الدولة فى كتابه الأمير بقوله: "كافة القوى التى عن شأنها أن

تمارس سلطة على الأفراد تسمى دولة. فهي إما تكون ملكية أو جمهورية". والواقع أن الدول في الماضي أو في الحاضر قد تختلف عن بعضها في عدة جوانب، ولكن هناك ملامح يمكن في ضوئها تحليل مفهوم الدولة مثل الشعبا ولإقليم والحكومة والسيادة، فهي خصائص لكل دولة لا يختلف فيها الدارسون.

تعريف الدولة وأركانها الأساسية:

لقد اختلف علماء السياسة في تعريف الدولة. فقد عرفها البعض بأنها عبارة عن مجموعة دائمة ومستقلة من الأفراد يملكون إقليماً معيناً وتربطهم رابطة سياسية مصدرها الاشتراك في الخضوع لسلطة مركزية تكفل لكل فرد منهم التمتع بحريته ومباشرة حقوقه. ويذهب دوجيه إلى أن الدولة هي جماعة من الناس بينهم طبقة حاكمة وأخرى محكومة. والدولة في رأيه ظاهرة اجتماعية. أما بلانتشلي فهو يرى أن الدولة جماعة مستقلة من الأفراد يعيشون على وجه الاستمرار في إقليم معين، بينهم فئة حاكمة وأخرى محكومة. وبرغم الاختلاف في تعريف الدولة، إلا أن علماء السياسة والاجتماع يؤكدون أن مصطلح الدولة يشير إلى رابطة تسمح بوجود قيادة سياسية.

وفي الواقع يمثل أعضاء منظمة الأمم تعاريف شتى تعبر عن معنى الدولة. ولكن هناك مسلمات تبدو أنها مشتركة بينها. وهي أنها مجموعات من الناس تعيش كل مجموعة منها فوق إقليم محدد تسيطر عليه، وأنها مقسمة إلى حكام ومحكومين، وأن كلاً منها يمثل نوعاً ما من النظام.

وفي ما قدمنا من تعريفات نلاحظ أنه هناك اتفاق تام بين علماء السياسة عند تعريف الدولة. على العناصر الرئيسية لقيام الدولة. وهي الشعب (السكان) والأرض – أو الإقليم – والحكومة. أي لابد من وجود جماعة تقطن مساحة من الأرض، ولابد من إدارة حاكم يحكم فيما بينهم من أمور واختلاف. ونتكلم على هذه العناصر بالتفصيل.

١- الشعب:

تعني كلمة الشعب مجموعة من الناس الذين بدورهم يشكلون سكان الدولة أي الذين يعيشون فيها. والسكان أو الشعب هم المحور الأساسي لقيام الدولة. وهذا الشعب خليط من المواطنين وغير المواطنين، إذ يعتبر الأجانب الذين يعيشون في الدولة من السكان.

ولكن في العادة، يجب أن يجمع بين الناس صفات عامة مشتركة تحقق الانسجام بين الأفراد، ومنها الرابط المعنوي الذي يجعل مجموعة من الناس تستقر على هذا النحو، ولكن ليس من الضروري أن ينتمي شعب الدولة كله إلى جنس واحد من الأجناس البشرية، أو أن يتكلم أهله جميعاً لغة واحدة، فشعب الولايات المتحدة ينتمي إلى أجناس متعددة، وكذلك شعب الهند يتكلم لغات كثيرة.

وكثيراً ما يختلط مفهوم الدولة ومفهوم الأمة، فقد يكون في الدولة عدد أمم، كالاتحاد السويسري مثلاً، فالأمة حقيقة إنسانية اجتماعية والدولة حقيقة إنسانية قانونية، فالأمة هي جماعة من الناس تربط بينهم روابط وحدة الجنس واللغة والدين، أما الدولة لا تعدو أن تكون أكثر من وحدة سياسية قانونية. فإذا نظرنا إلى الأمة من الناحية العضوية أو روابط الدم، فسنجد أن أبناء الأمة الواحدة غالباً ما ينحدرون من أجناس مختلفة وسلالات جمعتها على بقعة في الأرض موجات الهجرة البشرية المتعددة، فكونت مصيراً واحداً وعنصراً واحداً مرتبطاً. فقد توجد الأمة التي تكون شعب دولة واحدة، وهذا هو الشئ الطبيعي الذي يحقق الاستقرار والتكامل.

والرابطة التي يضعها القانون في التمييز بين شعوب الدولة هي تلك المصطلح القانوني باسم "الجنسية". ويوضح القانون أن كل دولة لها قانون يحدد من يتمتعون بجنسيتها، وإن اختلفت معايير التحديد. وبذلك التحديد في الجنسية يتحدد من هم شعب الدولة ومن هم اجانب بالنسبة لها. وفي الدولة القومية الحديثة لا يتمتع الأجانب بنفس الامتيازات التي يتمتع بها المواطنون

الأصليون، وخاصة في الحياة السياسية، وهذا الحق يكون مقصوراً على أبناء البلد فقط.

وقد يحدث حتى مع الذين يحصلون على الجنسية، إذ تعتمد بعض القوانين على التفوق في المعاملة بين من يحملون جنسية الدولة الواحدة، فتمنح بعضهم حقوقاً لا تمنح للآخرين مثل القانون الألماني الصادر عام ١٩٣٥ الذي كان يفرق بين من هم من أصل ألماني وغيرهم من الرعايا، وخاصة اليهود.

وعلى كل حال، فإن تفرقة الدولة بين المواطنين الأصليين الذين يحملون جنسيتها وبين من يكتسبون هذه الجنسية بالتجنس تتحدد بالفترة الزمنية المحددة التي تمكن المتجنس من الانصهار في دولته الجديدة، وبعدها يصبح مواطناً يتمتع بنفس الحقوق التي يحصل عليها المواطن الأصلي.

ومن هنا، فإن الشعب في أي دولة يتكون ممن يحملون جنسية تلك الدولة، بصرف النظر عن انتماء أفراد ذلك الشعب في الأصل إلى أجناس متعددة، أو كونهم يدينون أدياناً مختلفة أو حتى يتكلمون لغات متعددة.

وهناك مواضيع تثار حول حجم الشعب، فبعض العلماء يفضلون أن يكو نحجم الشعب صغيراً ولا أهمية للحجم، مثلاً كشعب موناكو لا يزيد عن خمسة آلاف تقريبا، وما من شك أنه يتعذر - إن لم يستحل - وضع معياراً عددياً لشعب الدولة. فليس صحيحاً أن حجم الشعب يعتبر مصدر قوة للدولة في كل الأحوال، بل قد يكون العكس، فيجلب المشاكل التي تهز كيان الدولة، كما هو الحال في الهند مثلاً. وعلى ذلك، فإن غالبية الفقهاء لا تلتفت كثيراً إلى هذه القضية العددية بالنسبة لشعب الدولة. فالمهم هو وجود عدد من الناس من الكثرة بحيث يكونون مجتمعاً إنسانياً به خصائص مشتركة تؤلف بين أفراده وتميز بينهم وبين غيرهم، وهذا الشعب لابد أن يكون مستقراً على أرض معينة أو إقليم معين.

٢- الإقليم (الأرض):

إذا كان العنصر البشرى هو العنصر الأول من حيث الأهمية، فالأرض العنصر الثانى حيث لا يمكن أن نتصور شعب يعيش فى العراء. إذن لابد أن يكون العنصر البشرى مستقراً فى بقعة من الأرض، وهذا ركن من أركان الدولة. ويعتبر الإقليم هو المصدر الأساسى لثروة الدولة، فهى تستغل منه أجزاء للزراعة ومنه المواد الخام التى تقام عليها الصناعة.

ويشكل إقليم الدولة ذلك الجزء الذى تمتد فوقه سلطة الدولة، وتباشر عليه سلطانها. ونحن إذا قلنا إن إقليم الدولة هو جزء من الكرة الأرضية، فهذا يعنى أن إقليم الدولة ينحصر فى منطقة يابسة من الأرض، إذ من الممكن أن يكون إقليم الدولة يشمل عدة أجزاء متقطعة. وهو يشمل اليابس وكميات من المياه، كذلك إقليم الدولة يشمل غطاءها الجوى الذى يعلو أرضها وماءها، وقد توجد كذلك أنهار داخلية أو بحيرات، والحكم فى ذلك من اختصاص الدولة وسلطانها كحكم الإقليم البرى، طالما أن النهر أو البحيرة يقعان بالكامل داخل حدود الدولة.

٣- الحكومة:

لابد أن كل جماعة تسكن أرضاً محددة بحاجة إلى من ينظم أمورها، ويفصل فى المنازعات التى قد تحدث بين أفرادها. فتعتبر الحكومة هى السلطة الحاكمة التى تحمى الأفراد وتصون حقوقهم. والحكومة هى تلك الهيئة المكونة من مجموعة الأفراد تتولى شئون البلاد وتوجهها، فهى تشرف على حماية أمن الدولة واستقرارها واستغلال مواردها الطبيعية والصناعية لصالح كل المواطنين.

فالحكومة هى التى تملك السلطة السياسية التى هى حجر الأساس بالنسبة للدولة وما يوجد فيها من مؤسسات وأنظمة سياسية. إذ بغير السلطة السياسية لا توجد الدولة ولا تكون هناك أنظمة سياسية ولا حياة سياسية.

فالسلطة مركب من عناصر مادية ومعنوية، فهي القوة في خدمة الفكرة. إنها فكرة يولدها الوعي الاجتماعي، وتتجه تلك القوة نحو قيادة المجموعة للبحث عن الصالح العام المشترك. قادرة على أن تفرض على أعضاء الجماعة ما تأمر به. ومن هنا يتضح لنا أمران:

١ – أن السلطة السياسية ركن أساسي من أركان الدولة وأنها حجر الزاوية بالنسبة لكل تنظيم سياسي.

٢– أن السلطة السياسية في الدولة الحديثة هي ملك الدولة وأن الحاكمين يمارسون السلطة ولا يملكونها، وهم في ممارستهم لها يمثلون الدولة.

أشكال الدول:

يمكننا أن نميز بين شكلين أساسيين من أشكال الدولة هما الدولة الموحدة والدولة الاتحادية. ولكل منهما خصائصه ومميزاته:

أولاً – الدولة الموحدة:

والدولة الموحدة هي تلك التي تكون السلطة فيها في أساسها واحدة في تركيبها، واحدة في ممارستها. ويذهب البعض إلى اعتبار أن الدولة الموحدة تتميز بهذه الخصائص:

أ– واحدة في تركيبها، ومن ثم فإنه لا يوجد بها إلا جهاز حكومي واحد كامل مكتفٍ بذاته.

ب– واحدة في عنصرها البشري، إذ أن السلطة الواحدة تخاطب جماعة موحدة متجانسة برغم ما قد يكون من اختلافات بين الأفراد المكونين لتلك الجماعة.

جـ– واحدة في حدودها الإقليمية، ذلك أن سلطة الجهاز الحكومي الواحد تغطي رقعة الدولة كلها.

وهكذا يتضح أن الدولة الموحدة تجد المعيار الأساسي لوصفها كذلك في أن السلطة فيها تظهر لكل مواطني الدولة بنفس المظهر من حيث سندها أو

من حيث ممارستها. فالدستور - الدستور الوضعي للسلطة - هو دستور واحد في الدولة الموحدة، ولا يتصور أن تعدد الدساتير في الدولة الموحدة، ولو كانت دساتير الإقليم داخل الدولة أدنى مرتبة في الدستور الذي يحكم الدولة كلها.

وتتلقى الولايات والمحافظات التعليمات من السلطة المركزية (وتكون دائماً في العاصمة) وتتأثر بأمرها وتصدر التشريعات من السلطة التشريعية أي البرلمان، وهو يكون في العاصمة أيضاً. فكأن العاصمة هي الرأس المدبرة في الدولة، حيث احتوائها على العصب المركزي، وبالتالي فالمحافظات الأخرى لا تخرج عن كونها الخطوط الرئيسية.

ويمكن أن تكون الدولة الموحدة دولة لا مركزية، بمعنى أن الوظيفة الإدارية تتقاسمها الجهات المركزية والجهات المحلية، وفقاً لما يحدده القانون في ظل سيادة الدولة التي تظل - رغم ذلك - دولة موحدة.

ويعيب الدولة الموحدة صعوبة التوفيق بين المصالح المحلية للمواطنين الذين يقطنون في مناطق مختلفة في الدولة، ولهم عاداتهم وطبائعهم المحلية التي يجب أن تراعى في القوانين والتنظيمات ومعاملات السلطة التنفيذية للأفراد. وحاولت بعض الدول تلافي ذلك بوضع تنظيمات خاصة لهذا الإقليم لا تأخذ صفة القاعدة ولا تكتسب صفة الدوام.

وهناك كثير من الدول تندرج تحت مصطلح الدولة الموحدة كإنجلترا وفرنسا (وإن كانا يتخلفان في أن إدارة الأولى لا مركزية، أما فرنسا فإدارتها مركزية).

والدولة العربية كلها دول موحدة (خاصة بعد أن تعدل الدستور في ليبيا وأصبحت دولة موحدة بعد أن كانت دولة اتحادية من قبل).

ثانياً - الدولة الاتحادية:

الدولة الاتحادية هي مجموعة من الدويلات أو الولايات تخضع في بعض الأمور لسلطة موحدة، وتستقل ببعض الأمور الأخرى فتخضع بشأنها لسلطاتها.

ومن مظاهر الدولة الاتحادية:

أ- لا يوجد فى مواجهة العالم الخارجى إلا شخص دولى واحد يتعامل مع الدول الأخرى. إذ ليس من حق الوحدات الداخلية فى الدولة الاتحادية أن تتعامل مباشرة مع العالم الخارجى باعتبار أنها لا تتمتع بالشخصية الدولية ولا تخاطبها قواعد القانون الدولى. فالدولة الاتحادية هى التى تستطيع إنشاء قواعد دولية بالمعاهد حيث يخاطبها القانون الدولى، أما الدوليات المكونة لها فلا شخصية خارجية لهم.

ب- لا يوجد فيها غير جنسية واحدة يواجهها القانون الدولى الخاص. وحتى فى بعض الصور التى توجد فيها جنسية الدولة الاتحادية وجنسيات للولايات الداخلية فى تكوينها، فإن هذه الجنسيات لا يعتد بها فى مواجهة القانون الدولى العام أو القانون الخاص، ومن ثم فإن جوازات السفر التى يحملها أفراد الدولة الاتحادية هى جوازات سفر موحدة حتى وإن تعددت الولايات التى يتبعها الأفراد.

جـ- لها إقليم واحد فى مواجهة العالم الخارجى وإقليم الدولة الاتحادية الواحدة يضم سائر أقاليم الوحدات الداخلة فى الاتحاد إذ لا يوجد لهذه الأقاليم كيان دولى، والكيان الدولى ينصرف إلى إقليم الدولة الاتحادية كله.

ويتحقق الاتحاد بين الدول بالوسيلتين الآتيتين:

أ- انضمام عدد من الدول الصغرى لتكون دولة كبيرة مع احتفاظ كل دولة باستقلالها فى حدود معينة.

ب- أن تتكون من دول كبرى ذات مساحة واسعة وسكان كثيرين، وتحتفظ كل مقاطعة أو دولة باستقلال ذاتى واسع النطاق، وجزء من الشخصية الدولية لأغراض الإدارة والمحافظة على الأمن مع الإبقاء على الاتحاد. ولقد تكون اتحاد كندا وفق هذا النظام، أيضاً باكستان قبل الانفصال.

ولكى ينجح الاتحاد لابد له من عدة عوامل، أهمها:

١- أن تكون الولايات التى ترغب فى الاتحاد ملاصقة جغرافياً حتى يمكن اتصالها بسهولة.

٢- أن يكون لكل دولة أو مقاطعة نظام سياسي يقف على قدم المساواة مع نظيره، فكل إقليم يعيش في إطار نظام سياسي متساو مع سائر أقاليم الاتحاد.

٣- أن تجمع الولايات لغة وثقافة ومصالح مشتركة حتى تشع روح الترابط والوحدة بين الشعب.

هذا والاتجاه بين الدول الآن يتجه إلى الاتحادات والتكتلات. فدول أوربا مثلاً تربط بينها وبين بعضها كل يوم روابط جديدة، وتحس دول أوربا يوماً بعد الآخر إحساساً متزايداً بالخطر الذي يتهددها من وجودها بين قوتين دوليتين بالغي الضخامة، هما أمريكا وروسيا. لذلك فان دول أوربا تسير حثيثاً نحو نوع من الاتحاد يجمع بينها ويعطيها قوة ووزناً راجحاً في موازين القوى الدولية (وتعتبر السوق الأوربية المشتركة أحد مظاهر الاتجاه الاتحادي هذا).

نظريات نشأة الدولة:

إن النظريات التي قيلت في الفكر السياسي بالنسبة للدولة كانت تدور في جملتها حول قضية السلطة، حيث يختلف عنصر السلطة السياسية عن سائر العنصرين الآخرين، ونقصد بهما "الإقليم" و"الشعب". الحجر الأساسي بالنسبة لنشأة الدولة، حيث نجد أن الحديث عن نشأة الدولة يتجه أغلبه إلى الحديث عن السلطة السياسية، لما تثيره من خلاف بين المفكرين حيث أن هذا الخلاف لا نهاية له.

فقد قامت نظريات كثيرة تعرض هذا الموضع بالدراسة والتحليل، ولكل منها وجهة نظر متمسكة بها، معتمدة على فكرة معينة أو مبدأ معين. وسوف نحاول أن نتناول هذه النظريات بالقدر الذي يكفي لدراسة موضوع علم السياسة.

أولاً - النظريات الدينية:

إن تسمية هذه النظريات بالنظريات الدينية لا يعني أنها صادرة من عند الله عن طريق الأديان السماوية، وإن قال بها بعض أتباع هذه الأديان من

اجتهادهم. كما وأن هذه التسمية تلقى معارضة شديدة من بعض الفقهاء على أساس أنه من الخطأ أن تنسب هذه النظريات إلى الدين، وهذه التسمية نتيجة ترجمة خاطئة للعبارة الفرنسية doctrines thescratiques والتى تعنى المذاهب التى تنسب إلى الله. ولكن مهما كان الرأى حول هذه التسمية. فإن هذه النظريات كلها تفسر الدولة والسلطة تفسيراً يرجعهما إلى إرادة أسمى من إرادة البشر.

ثانياً – النظريات التعاقدية:

تفترض نظرية العقد الاجتماعى وجود حالة للفطرة كانت هى الأصل والمنشأ للحياة الإنسانية. ففيها لم يخضع الإنسان لأية ضبط سياسى، وإنما كان القانون الطبيعى هو الذى كان يقوم بتنظيم المجتمع.

أما ظهور الدولة بصورتها الحديثة وبما لديها من سيادة وقوة سياسية، فهو أمر يرجع إلى اتفاق أو عقد أبرمه السكان فى المجتمع. وقد تعددت الآراء حول هذا العقد، فمنهم من اعتبره حقيقة، ومنهم من يعتبره عقداً مبرماً بين الحاكم والمحكومين.

وجوهر نظرية العقد الاجتماعى إنما يدور حول تنازل الأفراد عن بعض حقوقهم للحاكم فى مقابل أن يوفر لهم الأمن والحماية. ولو تتبعنا أصول هذه النظرية لوجدناها ليست وليدة عصر معين أو فكر بعينه، وإنما هى حصيلة الفكر الإنسانى. فقد كانت موجودة فى الفكر الإغريقى عند الأبيقوريين، الذين نادوا بالإخاء والمساواة بين الناس. وكذلك نجد لها بعض الآثار فى كتب يونانية ورومانية قديمة. ونحن هنا سنعرض لثلاث صور يكاد يجمع الدارسون على أنها المصادر الأساسية لتصوير نشأة الدولة تصويراً تعاقدياً. وهذا التصوير يمثله كل من: هوبز ولوك وروسو.

هوبز (١٥٨٨ – ١٦٧٩):

انبثقت نظرية هوبز من تلك العروق من الفكر الأوربى التى تشابكت وشكلت فلسفته السياسية. فقد كانت كتابته السياسية سببها الحروب الأهلية،

وكان قصده منها التأثير لصالح الملك. وأهمها Leviathen أي "التنين أو العملاق".

ويصور هوبز علاقات الناس في حال الطبيعة الأولى قبل نشأة الدولة أنها كانت في صراع دائم قائمة على المنافسة التي تؤدي إلى الحروب. فلم يكن أحد يأمن على نفسه أو ماله، فقد كان الجميع ضد بعض مادام كل إنسان عدو الآخر. وقد امتازت هذه الحياة في الحالة الطبيعية بأنها كانت منعزلة وفقيرة وقذرة. والناس في هذه الحالة الكل يخاف الكل، فكل واحد متربص للآخر، ومن بعد ذلك أخذوا يبحثون عن السلام الذي يحقق لهم الأمن، فأدركوا أنه لابد من أن يتنازل كل منهم عن ما يدعيه من حقوق، وكان هذا التنازل هو أساس العقد الاجتماعي، الذي تقوم على أساسه الدولة. ويرى هوبز أن رغبة الجماعة في العيش بسلام تجعلهم يتنازلون عن حقوقهم وفقاً لعقد اجتماعي لشخص لم يرتبط بهذه الجماعة، وهذا الشخص يتمتع بكل الحقوق وكل السلطة، ولا يجوز أن يحاسبه أحد. فإذا ما تنازل كل فرد عن سلطته وعن حقه في حكم ذاته إلى ذلك الشخص الذي اختاره لكي يمثلهم جميعاً، تكونت الوحدة الحقيقة أو الدولة، حيث تظهر إرادة واحدة للدولة تذوب فيها كل إرادات الأفراد. ويقول رايت: "لما كان الإنسان يبغي الأمن والسلام وينزع إلى الهروب من الخوف والبؤس، فإنه ينتج عن هذا أن كوّن الناس تنظيماً يقوم على الاتفاق بينهم، بأن يتخلوا عن إرادتهم وحقوقهم لإرادة الحاكم".

فالدولة عند هوبز تنشأ حين يتنازل الأفراد عن حقوقهم لشخص يمثلهم بموجب اتفاق أو عقد فيما بينهم، مقابل أن يوفر هذا الشخص الأمن والسلام لهم. وفي هذا الصدد يقول هوبز: "إننا نقرر أن قيام الدولة يتم حين توافق وتتعاقد الأغلبية أو كل فرد مع كل فرد آخر، على أن يتنازلوا عن حقوقهم لشخص يمثلهم أو لهيئة في مقابل منحهم السلام والحماية". وهنا يقول كل فرد "إني أخول وأتنازل عن حقي في أن أحكم نفسي لهذا الرجل أو هذه المجموعة من الرجال بشرط أن تتخلى له عن حقك وأن تخوله ما يقوم به من أعمال وذلك بالطريق نفسها" لفرد آخر.

هاجم لوك فكرة هوبز التي تقول إن حالة الطبيعية هي حرب الكل ضد الكل، فمن رأيه أن حالة الطبيعية حالة "سلام، وحسن نية ومعونة متبادلة ومحافظة على الذات". إن الناس عند لوك في حالة الطبيعية كانوا يعيشون أحراراً متساوين لا يحكمهم إلا القانون الطبيعي الفطري.

لقد كان القانون الطبيعي هو الذي ينظم ويضبط العلاقات بين الأفراد، وبالتالي يمنحهم حقوقاً ثابتة. فعلى أساس هذا القانون الطبيعي كان الناس يتعاملون ويتعاونون في حالة من الحرية والمساواة واحترام حقوق وحريات بعضهم البعض.

إن هذه الحالة تميزت فيما بعد بعدم الاستقرار - وذلك لعدم وجود الشخص المنظم الذي يقوم بحماية الأفراد بعد أن تعددت مطالبهم في الحقوق (حقوق الملكية - حق الحياة - حق الحرية الشخصية) ولكون الناس يرغبون في حياة أفضل لهم، فيها شئ من التنظيم وفيها سلطة كان فيما بينهم العقد الاجتماعي الذي نتج عنه فيما بعد المجتمع السياسي، إذ تنازل الأفراد وبالتالي الجماعة عن جزء من حقوقهم وليست كلها.

ففي العقد الاجتماعي عند لوك لا يتنازل الأفراد عن حقوقهم كلها كما عند هوبز، ولكنهم يتنازلون عن بعض من هذه الحقوق بالقدر المطلوب لإقامة المجتمع المنظم.

إن الحاكم عند لوك ليس كما هو عند هوبز بل هو طرف في العقد الاجتماعي، وهو مسئول عن القيام بحماية الحقوق، فالحكم يمثل طرفاً في العقد، والشعب يمثل الطرف الثاني وليس لأحد الحق في خرقه، لأنه بذلك يصبح ملغياً، فالملك إذا أخل بتعهداته أو أهمل في مسئولياته نحو الشعب، أو تخطيت سلطته الحدود التي خولها له الأفراد وجب عزله. وكان لوك يريد من ذلك أن يجعل المجتمع هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة وهو يقول: "الذي يحرك أي مجتمع هو رضا أفراده فقط ولازم كي يسير مجتمع وهو هيئة واحدة في طريق ما فمن الضروري أن تتحرك الهيئة في هذا الطريق الذي تحملها إليه القوة الأكبر وهي رضاء الأغلبية".

إن الأفراد حين يتنازلون عن بعض حقوقهم لا يتنازلون بذلك للملك أو الحاكم، وإنما هم يتنازلون عما تنازلوا عنه للمجتمع بأسره، ومن ثم يصبح المجتمع هو المنفذ الأول والموجه الأوحد للقانون.

إن العقد الاجتماعي عند لوك له جانبان، الأول وهو ذلك العقد الاجتماعي الذى ارتضاه لتكوين المجتمع السياسى المنظم، والعقد الثانى هو العقد الذى اتفقوا فيه وبمقتضاه أن يولوا أحدهم السلطة العليا. فنظرية لوك تضم عقدين وليس عقداً واحداً، كما هو عند هوبز.

لقد كان لوك فى نظريته هذه فى العقد الاجتماعي يدافع عن ثورة البرلمان الإنجليزى ضد الملك سنة ١٦٨٨، بل واعتبر هذه الثورة ثورة شرعية، وجعلها حقاً من حقوق الشعب. وأخيراً إن مبادئ نظرية لوك كانت بمثابة الأساس النظرى للمفهوم الديمقراطى ومذهب الحرية.

جان جاك روسو:

يصف روسو حالة الطبيعة الأولى ويقول إنها كان يسودها الخير والسعادة والفضيلة، ولقد كان الناس متساوين وفى ضمان اجتماعي فلم يعرف الإنسان فى هذه الحالة القيود ولا الحواجز، وإن الإنسان ولد حراً ونضج بتلقائية وحرية ولم يكن له مسكن ثابت، وقد كانت الطبيعة موفرة له كل حاجة ومحققة له كل رغباته.

وإن الإنسان لم يحاول أن يحيا فى مجتمع إلا عندما تزايد عدد السكان بإطراد وازدادت مشاكله. ويقول ماكسى Maxey: وحينما كثرت العلاقات بين الناس، ظهر من بينهم الأقوى والأكفأ والأمهر، وتمرس أولئك بفنون لم يقوَ عليها الأضعف والأقل كفاءة ومهارة، فتميزوا وتفوقوا وأصبحوا أكثر غنى من بقية الناس. وهنا أقنع الأغنياء الفقراء على الاتحاد وتكوين المجتمع وإرساء أسس الدولة لا لحماية الضعفاء ولكن لكى يكتسب الأغنياء شرعية رسمية فى السيطرة على الفقراء. إذن هناك ظروف أثرت فى السكان على أن يتحدوا ويكونوا مجتمعاً سياسياً منظماً.

ويرى روسو أن الحرب والصراع ليسا فى صفات الحياة فى حالة الطبيعة. بل ظهر ذلك بظهور المجتمع المدنى الذى تميز بامتهان الفضائل والأنانية. وإن المجتمع المدنى عند روسو ظهر عندما وضع أول إنسان سور حول قطعة الأرض وقال (هذه الأرض لى) ثم صدقه الناس الذين من حوله، وهكذا ظهرت الملكية الخاصة حيث تسببت فى إحداث نوع من اللامساواة بين الأفراد والتنافس والصراع.

وكان لابد إذن أن يبحث الناس عن صيغة أو شكل للوحدة من شأنه أن يحمى كل عضو وماله. وهذا الشكل يكون فيه كل عضو وقد اتحد مع الأعضاء الآخرين.

فكان العقد الاجتماعى الذى ينهى عقد الفطرة ويعمل على إنشاء المجتمع، حيث تصبح السيادة والسلطان من حق المجموع ككل، لا من حق فرد واحد من الأفراد على حدة. إذ ينزل كل فرد عن نفسه وعن حقوقه للمجتمع كله.

ويختلف روسو مع هوبز ولوك، فهوبز كان يرى أن الأفراد يتنازلون عن جميع حقوقهم. ويرى لوك أنهم يتنازلون عن بعضها بالقدر الذى يتطلبه المجتمع. كذلك يرى روسو أن الأفراد يتنازلون عن جميع حقوقهم ولكن ليس لفرد أو لافراد، وإنما يتنازل الافراد لأنفسهم باعتبارهم كيانا جماعيا.

إن السلطة التى تقوم بناء على العقد ليست سلطة فرد أو أفراد معينين، وانما هى سلطة الشعب كله باعتباره صاحب السيادة، وإن الحكومة ما هى إلا هيئة تتولى تنفيذ القوانين الصادرة عن الإرادة العامة وصيانة الحريات المدنية والممتلكات. وإنها لا سلطان لها إنما السلطة هى سلطة الشعب، وإنما هى الوكيل. ومعنى هذا أن الشعب هو صاحب السلطة التشريعية والحكومة هى السلطة التنفيذية أى أن الحكومة لا تستطيع أن تصدر قانوناً وإنما الشعب هو الذى له الحق فى إصداره.

ثالثاً – النظريات العلمية:

ليست من الضرورى أن هذه النظريات العلمية نظريات صحيحة وسليمة، ولكنها هى تلك النظريات العقلية التى تجعل المنهاج العلمى أساساً فى طريقة البحث، فهى تبدأ بدايات عقلية ترتب عليها نتائج منطقية معينة وتبعد عن الفروض الغيبية. ونحن حينما نريد أن نبحث النظريات العلمية فى موضوع الدولة ونشأتها إنما نقصد إلى أننا نريد أن ندرس النظريات التى تسلك فى بحثها منهجاً علمياً فحسب، وهذه النظريات كثيرة ومتعددة، وسنكتفى بدراسة أبرزها، وهى:

١- نظرية التطور العائلى.

٢- نظرية القوة والغلبة.

١- نظرية التطور العائلى:

ترد هذه النظرية قيامها على أن الأسرة هى الخلية الاجتماعية الأولى، ومن الأسرة تنشأ الدولة. وقد بدأت الأسرة من الأم ثم انتقلت إلى مرحلة أخرى وهى الانتماء إلى الأب. فأصبحت الأسرة أو العائلة تقوم على الأب والأم وإنجاب الأطفال، وكان طبيعياً أن تكبر الأسرة ويزداد عددها، وتعدد الأسرة التى يربط بينها رابط الدم فتتكون القبيلة من عدة أسر وعشائر، وكان طبيعياً أيضاً أن تستقر هذه القبائل فى مكان معين وتقوم بين أفرادها صلات تفرضها ضروريات الحياة. حيث أن الإنسان بمفرده لا يستطيع أن يشبع حاجاته وإنما هو فى حاجة إلى الأفراد الآخرين لإشباع حاجاته هذه.

إذن قيام الأسرة، القبيلة، فالعشيرة أمر تفرضه طبيعة الإنسان وكونه مدنى بطبعه. وإن السلطة السياسية فى الدولة إنما ترجع فى أصلها إلى سلطة رب الأسرة التى أصبحت بعد ذلك سلطة شيخ القبيلة، وعلى أساسها قامت السلطة فى الدولة.

وقد واجهت هذه النظرية نقداً كثيراً على أساس أنها تبدأ بداية غير صحيحة، في اعتبارها أن الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمع، لأنها لم تكن بداية الحياة الإنسانية، إنما مرت هذه الحياة بأطوار مختلفة.

٢- نظرية القوة:

تفسر هذه النظرية نشأة الدولة على أساس أن الجماعات الإنسانية الأولى كانت تعيش في صراع أدت نتائجه إلى أن يكون هناك غالب ومغلوب، فكان لابد للغالب أن يفرض سيطرته ويقيم سلطته، أي أن قانون إرادة الأقوى هو القانون الأساسي وراء قيام الدولة ونشأتها، وذلك حين ينتهي الصراع يقيم الغالب والمغلوب على إقليم معين تمتد جذوره إلى المدى الذى تصل إليه يد الغالب وقوته، وفي ظل ذلك يُنشئ دولته.

فجوهر هذه النظرية إذن هو صراع ينتهي بغالب ومغلوب، وبفرض الإرادة للغالب وقيام دولة الأقوى.

ونجد لهذه النظرية جذور عميقة في الفكر الإنساني القديم عند تزاسيماخوس وبوليوس، وكذلك عند كثير من المفكرين المحدثين مثل ديجي وجوفينيل الذين أضافوا إلى القوة نوعاً من حكمة أحد الطرفين المتصارعين.

ولقد استخدمت هذه النظرية استخدامات مختلفة بواسطة المفكرين لكي تخدم أغراضهم الخاصة. ففي العصور الوسطى استخدمها آباء الكنيسة لتبرير سيادة السلطة الدينية على السلطة السياسية فقد ذهبوا إلى أن الدولة هي نتاج القوة، على حين أن الكنيسة هي نظام مقدس من صنع الله، وهذا بالتالي ما يبرر تفوقها وعلو شأنها، وكذلك الماركسيون اكتشفوا أصل الدولة في سيطرة طبقة على أخرى، والدولة هي أداة الاستغلال الطبقي.

وهناك انتقادات كثيرة تعرضت لها نظرية القوة، فهي تبالغ في تصوير أهمية جانب واحد فقط من الطبيعة البشرية. ومع أن القوة ولاشك لعبت دوراً هاماً في العملية التاريخية لنشأة الدولة إلا أنه لا

يمكن للسلطة أن تلجأ إليها دائماً وفي كل الظروف، فلجوء السلطة وارتكازها دائماً على القوة دليل على خلل في البناء الاجتماعي، وليس دليلاً على سلامة ذلك البنيان. وخلل البنيان لابد وأن يؤدى إلى انهياره في يوم من الأيام.

والملاحظ أخيراً أن القانون الدولي يحدد علاقات الدول ويمنع استيلاء الدول على دول أخرى بالقوة، أي بمعنى عدم استخدام القوة أو التهديد وبذلك تصبح القوة هي الدور الأساسي في المجال الدولي.

الأحزاب في الدراسات السياسية:

١- طبيعة الأحزاب السياسية:

تفرض النظرية الديمقراطية الكلاسيكية وجود علاقة مباشرة بين الحكومة والشعب، ولكن الديمقراطية التمثيلية الحديثة أوجدت وسيطاً بين الشعب والحكومة وهو المجلس، ولم يدخل في حسبان أي من النظريتين إمكان تطور النظم الحزبية. وحتى وقت قريب كانت نظريات الحكم الحديثة تنظر إلى تكوين الأحزاب السياسية بعين الشك والحذر، وكانت ترى أنها شر لابد منه، وقد عرف إدمون بيرك الحزب السياسي بأنه اتحاد بين مجموعة من الأفراد بغرض العمل معاً لتحقيق الصالح القومي وفقاً لمبادئ خاصة متفقين عليها جميعاً. ومن ذلك نرى أن الحزب السياسي هو أداة يستعملها الشعب للتعبير عن أمانيه، ويستطيع من خلالها أن يحقق هذه الأماني، وهو في الوقت نفسه يحقق مصلحة خاصة، إذ أن مجموعة الأفراد التي تركز أمانيها في حزب ما، إنما ترمي إلى تحقيق وزن أكبر لهذه الأماني وتأمل تنفيذها عن طريق العمل المشترك الذي يتيحه لها جهاز الحزب.

٢- وظائف الحزب السياسي:

في سبيل الحصول على السلطة السياسية يقوم الحزب بأعمال ترمي أساساً الى تحقيق هذا الهدف. ولكنها تحقق في الوقت نفسه خدمات للمجتمع. ولما كانت هذه الأعمال نتاجاً ثانوياً، فإنها تحدد وفقاً للمبادئ التي تتحكم في

طبيعة العمل السياسي في الدول المختلفة، وعلى ذلك يمكن القول إن وظائف الأحزاب السياسية جميعها وظائف ثانوية، قياساً إلى وظيفتها الكبرى، وهي الاستيلاء على السلطة السياسية، وهذه الوظائف تختلف من دولة لأخرى وفقاً للنظام السياسي الذي تأخذ به الدولة.

والواقع أن الدافع على تكوين الأحزاب السياسية في الأنظمة الديمقراطية الحديثة يرجع إلى إحساس الهيئة الناخبة بوجود فراغ في علاقتها بالهيئة الحاكمة. فالهيئة الناخبة تتكون من ملايين الأفراد المختلفين في درجة الذكاء والأخلاق والمعرفة السياسية والمصلحة الاقتصادية، ولهذا هم في حاجة إلى أداة تجمع بينهم وتبلور أهدافهم وتمدهم بالوسيلة التي تسهل عليهم مهمة الانتقاد لتصرفات الهيئة الحاكمة، ومهمة إسقاط حكومتها أو الضغط عليها لتغيير سياستها. وهذه الحاجة بخاصة هي التي تحدد وظائف الأحزاب السياسية في الدول الديمقراطية الحديثة.

فالأحزاب السياسية هي التي تقدم للهيئة الناخبة المرشحين الصالحين لتولي الوظائف النيابية والإدارية، وهي التي تقدم لها البرامج السياسية والطرق السليمة لتنفيذها، كما تمدها بالوسائل الفعالة لنقد أعمال الحكومة، والشعب بطبيعته غير قادر على القيام بهذه الأعمال، فهو وإن كان باستطاعته الحكم على صلاحية السياسة الحكمية أو عدم صلاحيتها، إلا أنه لا يستطيع أن يقدم سياسة بديلة عنها، لا عن عجز، إنما لعدم توافر التنظيمات وغيرها من الإمكانات التي تتيح له الحصول على المعلومات الكافية لرسم هذه السياسة.

وعلى ذلك، فالحزب يقدم للشعب مجموعة من الخدمات العامة، وهذه الخدمات ليست غاية في ذاتها، وإنما هي وسيلة للسيطرة السياسية، وتقلد مناصب الحكم، وتتلخص هذه الخدمات في الآتي:

١- يعمل الحزب كمنظمة تعليمية، فيقدم للشعب مختلف المعلومات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بالطرق المبسطة الواضحة التي توقظ فيه الوعي السياسي.

٢- يشجع الحزب على تحقيق الوحدة القومية إذ هو يعمل على التوفيق بين وجهات النظر المتعارض بين الأفراد أو الجماعات، كما يعمل على التهوين من شان الاختلافات الشخصية أو المصلحية أو الطبقية، مع إعلاء شأن كل ما يرمى إلى تنمية المصالح المشتركة.

٣- يعمل الحزب على تمكين الجماعات المختلفة من التعبير عن رغباتها ومعتقداتها بطريقة منظمة وفعالة، مما يقوى روابط الهيئة الناخبة بالهيئة الحاكمة.

٤- يقوم الحزب وهو خارج الحكم بمهمة الرقابة على أعمال الهيئة الحاكمة.

٥- يهيئ الحزب للشعب فرصة لاختيار نوابه وحكومته من بين مرشحين متنافسين، وللاختيار بين السياسات المتباينة.

٦- وجود أحزاب متنافسة تمكن الشعب من الاقتصاص من الحكام الفاسدين الخاملين ومكافأة الصالحين المجدين. ويظهر ذلك بصفة خاصة حيث يوجد نظام الحزبين، وحيث يتقيد النائب داخل البرلمان ببرامج ومبادئ حزبه، أما في حالة تمسك النائب بحريته وعدم تقيده بمبادئ حزبه فإن مسئولية الحزب وزعمائه أمام الشعب لا تكون محدودة المعالم.

خاتمة:

علم الاجتماع والسياسة:

قبل الانتهاء من هذا الفصل، يجدر بنا أن نشير إلى نوع العلاقة بين علم الاجتماع والسياسة، فنقول إن هناك علاقة وثيقة بين علم الاجتماع والسياسة، فعلم الاجتماع يعد الأب لكافة العلوم الاجتماعية الأخرى، فالاجتماع ينظر إليه على أنه العلم الذى يبحث فى أصل وتطور وتركيب ووظائف الجماعات الاجتماعية، وكذلك أشكالها وقوانينها وعاداتها ومؤسساتها، وأنماط حياتها فكراً وعملاً، وكذلك مدى مساهمتها في الثقافة والحضارة الإنسانية. فهي تهتم ببحث واكتشاف المبادئ العامة التى تحكم الظواهر الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية،

وأن تصل إلى اكتشاف القوانين الخاصة بالتغير والنمو الاجتماعي. كل هذا لاشك أنه وثيق الصلة بدراسة السياسة. وقد كانت نتيجة للعلاقة الوثيقة التي تربط بين دراسة علم السياسة وعلم الاجتماع أن استفاد علم السياسة كثيراً من التقدم الذي تحقق في دراسة علم الاجتماع، وبالذات على يد أساتذة مثل تالكوت بارسونز. وميرتون وماركس. وفيبر. وباريتو وغيرهم.

وكانت دراسة النظم السياسية بوجه خاص هي أهم العلوم السياسية التي ارتبطت بأوثق العلاقات مع دراسة علم الاجتماع. كما أصبح هناك ما يمكن أن يعرف باسم علم الاجتماع السياسي على اعتبار أنه مادة قائمة بذاتها ومستقلة عن علم السياسة وعن علم الاجتماع.

والواقع أن دراسة العلوم السياسية لا يمكن بأية حال أن تستغنى عن الدراسة الواعية والعميقة لعلم الاجتماع. كما أنه لا يمكن تحليل كثير من الظواهر والمواقف السياسية دون فهم جذورها الاجتماعية. فالتنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعي لها دون شك آثارها السياسية، حتى منذ نشأة طفولة الإنسان وتطوره في سنوات عمره المختلفة وداخل الجماعات المختلفة في المجتمع، بما في ذلك الأسرة والمدرسة والتنظيم الاجتماعي والنقابي.. الخ. كما أن علم الاجتماع بدوره لا يمكن أن يتقدم كثيراً دون تفهم كامل وواعٍ للظواهر والتيارات والعوامل السياسية المختلفة الموجودة في المجتمع.

الفصل الحادى عشر

النظام الاقتصادى

- ❖ تمهيد
- ❖ مراحل تطور النظام الاقتصادى
- ❖ اهتمامات علم الاجتماع الاقتصادى
- ❖ علاقة علم الاجتماع الاقتصادى بالعلوم الاجتماعية الأخرى
- ❖ التحليل السوسيولوجي للعلاقة بين الاقتصاد والانساق الاجتماعية الأخرى

الفصل الحادى عشر

النظام الاقتصادى

تمهيد:

فثمة فى هذه النقطة الأخيرة صراع جار حول مسألة: رقابة من؟ الإدارة، أم العمل، أم المستهلك؟ - حيث الرقابة تجرى مزاولتها فعلاً بهذا الترتيب. وإن الاتجاه نحو التنظيم الحكومى المتزايد لهو أبرز القضايا الاقتصادية الاجتماعية للقرن العشرين. ولم يكن كل ذلك ليحدث لو كان للنظم الاقتصادية وجودها المنفصل المستقل. فهى لاشك جزء من ثقافة المجتمع، يتأثر بسائر أجزائه ويؤثر فيها. وليس فقط أن النشاط الاقتصادى لا ينفصل عن الحياة الاجتماعية، بل أنه اجتماعى فى طبيعه التى تحيط بآليات الإنتاج والتوزيع الاقتصادية الصرف. وللبيئة الطبيعية للمجتمع أثرها من غير شك فى هذا النشاط الاقتصادى. كما أن نوع الاقتصاد السائد فى مجتمع ما يتأثر إلى حد كبير بنظامه الدينى والتربوى والسياسى (١).

أولاً - مراحل تطور النظام الاقتصادى:

يعتبر النظام الاقتصادى من أسبق النظم الاجتماعية ظهوراً فى الحياة، وقد مر فى تطوره بالمراحل الآتية:

أ- مرحلة الصيد: وهى أولى هذه المراحل، وفيها يعيش أفراد المجتمع على الصيد ويرحلون جماعات من مكان لآخر بحثاً عن موارد الرزق.

ومما يلاحظ أن سلوك الفرد فى هذه المرحلة يكون فطرياً استجابة للدوافع الفطرية، وذلك بالإضافة إلى التجارب التى تنتقل من جيل إلى آخر ويتوارثها الأبناء عن الآباء، كطريقة الصيد أو تربية الأطفال، ويتراوح عدد أفراد

---

(١) كمال الدسوقى، الاجتماع ودراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥١١ - ٥١٢.

الجماعة في هذه المرحلة بين عشرة أفراد ومائة يعيشون معا في صعيد واحد، ونظراً لقلة حيوانات الصيد كانت تنتشر بينهم الجماعات وتزداد – تبعاً لذلك نسبة الوفيات.

ب- مرحلة الرعي: وقد انتقل إليها الإنسان عقب مرحلة الصيد وبعد أن تمكن من استئناس بعض الحيوانات التي كانت تساعده في مهنته وفي نقل فرائسه. مثل الكلاب والخيول، ومن أهم مميزات هذه المرحلة:

١- استئناس الحيوانات والحصول على إنتاجها بانتظام كغذاء واللبن والجلود.

٢- تربية الحيوانات. فبعد أن كان همه قتلها والقضاء عليها، أصبح يربيها ويعتني بها.

٣- أمكن بفضل استئناسه للحيوانات ممارسة بعض الصناعات الخفيفة، مثل غزل الصوف ونسجه. ولذلك اتسعت حضارته، وأصبح يلبس المنسوجات الصوفية بدلاً من جلود الحيوانات.

٤- تعلم الإنسان في هذه المرحلة أن يبني، لحماية الحيوان من أعدائه، الاكواخ ليعيش داخلها بدلاً من عيشته داخل الكهوف والخيام.

وتتميز هذه المرحلة بالتنقل، فكانت تتنقل الجماعة وراء المرعى، حيث تعيش على المراعي الطبيعية. وبذلك ينتفع الناس بمنتجات الحيوان نتيجة الرعي المنتظم واستئناس الحيوان.

جـ- مرحلة الزراعة: يعتقد علماء الزراعة أن هذه المرحلة ظهرت منذ ما يقرب من عشرة آلاف سنة. وأن أول قرية ظهرت مستقرة في العالم كانت على ضفاف النيل لوجود جميع الظروف الطبيعية للزراعة من حيث المناخ الحار والأرض الخصبة والمياه. وقد تتبع أحد المصريين في هذه الفترة نباتاً ينمو طبيعياً ويخرج منه سنابل. وأدرك أنه إذا رمى حبة من السنبلة إلى الأرض تنتج نباتا آخر ينمو ويخرج سنابل جديدة. ومن هنا عرف المصريون الزراعة وانتقلوا

إلى أماكن قريبة من النيل يبنون القرى ويزرعون الارض ويروونها من ماء النيل. وبعد ذلك أخذت أساليب الزراعة وفنونها تتقدم وتنتشر فى أنحاء العالم.

وارتبطت حياة الإنسان بالأرض واستقرت حياته فيها. ومارس التعاون مع أفراد قبيلته فى بناء السدود وحرث الأرض، وظهر أول تقسيم للعمل بين المزارعين واتسعت حضارة المجتمع، إذ تكونت عادات زراعية لهذه المجتمعات يعمل الأفراد فى حدودها بعد أن كان سلوك الفرد فى المراحل الأولى سلوكاً بدائياً غير مرتبط ارتباطاً حضارياً. وابتدأ الإنسان فى هذه المرحلة يستخدم الحيوان في حرث الأرض وريها وحمل الأثقال. كما بدأ يستخدم قوى الماء والرياح فى عملياته الإنتاجية مثل الطحن ونقل الحاصلات. كما بدأ يستخدم المعادن فى صناعة أدوات الزراعة، كصناعة المحراث والفأس والشادوف والساقية، وغيرها، وكذلك تعلم خلال هذه المرحلة تخزين المحاصيل الزائدة وطرق التسويق. فكان التسويق أولاً بالمبادلة ثم تحول إلى المقايضة وظهرت الأسواق التجارية وابتكرت قواعد اقتصادية معينة يعرف بها مقدار الطلب على محصولاته. فإن كان الطلب قليلاً والعرض كثيراً احتفظ بمحصولاته في مخازن حتى يقل العرض عن الطلب مما يمكنه من الحصول على ربح أكبر.

هذا ولقد تطورت القرية عبر الأزمان من القرية البدائية البسيطة إلى قرية الإقطاع التى يرأسها الشريف، والفلاحين عنده عمال خاضعين لأوامره، ثم القرية الحديثة الموجودة الآن والتى تخلو من الإقطاع.

د- مرحلة الصناعة: وهى تعتبر آخر المراحل الاقتصادية التى وصل إليها الإنسان، وهى الشكل العام السائد فى مجتمعات اليوم، حتى سمى هذا العصر بعصر الصناعة. ويمكننا أن نميز مرحلتين مرت بهما مرحلة الصناعة:

الأولى: مرحلة الصناعة اليدوية.

الثانية: مرحلة الصناعة الثقيلة.

فمرحلة الصناعة اليدوية صاحبت مرحلة الزراعة، إذ كانت كل قبيلة تحاول أن يكون عندها اكتفاء ذاتي من حيث ما تنتجه من أدوات وسلع، وأهم السلع التي كانت تنتجها الأواني الفخارية والمعدنية والسلال وأشغال الخوص والحراب والقلائد والأساور والجلود والفراء وأدوات الصناعة بأنواعها. وكان الزائد من إنتاج القبيلة على احتياجاتها تستبدل به سلعاً أخرى من قبائل ترتبط مع القبيلة التي تقوم بالتبادل برباط الدم، وهذه المرحلة ساعدت على إيجاد نوع من التخصص تميزت به هذه المرحلة من مراحل التطور الاقتصادي، كما ساعدت في نفس الوقت على إبراز مواهب الأفراد وتطويرها، إذ بدأ بعض الأخصائيين التفنن في المنتجات الصناعية واتسع نطاق التداول في آخر هذه المرحلة ونشط نطاق المعاملات في السوق المحلية وبدأ الناس يُسوّقون الفائض من إنتاجهم في أسواق خارجية، كما تكونت طوائف حرفية مختلفة وأصبحت كل طائفة تشرف على صناعة معينة وتمارس عملية تسويق منتجاتها. ومما ساعد على تسويق المنتجات كبر المدن واتساعها.

أما مرحلة الصناعة الثقيلة، فقد بدأت بصورة واضحة في إنجلترا في القرن التاسع عشر. إذ أن عندما اكتشفت القوى البخارية بدأت الصناعات اليدوية تتحول إلى صناعات آلية كبيرة. حيث قام أصحاب المصانع ببناء مصانعهم بجوار الأماكن التي تكثر فيها خامات صناعاتهم وعلى شواطئ البحار والأنهار لسهول النقل وتوفر وسائله في تلك الجهات، وبدأت المباني تنتشر حول هذه المصانع مكونة المدن الكبيرة الحالية. وأخذت المدن تتضخم كما تعددت وسائل النقل والمواصلات فيها. وهنا تطورت المدينة من نواة بدائية صغيرة إلى مدينة متنوعة النشاط والأعمال. كثيرة الروابط، كضرورة لمواجهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي صاحبت المرحلة الصناعية (١).

وهذا بشكل عام وسريع المرحلة الاقتصادية التي تطور خلالها الاقتصاد عبر الزمان.

---

(١) د. صلاح العبد. علم الاجتماع التطبيقي. مرجع سابق. ص ١٤٩- ١٥٤.

ثانياً – اهتمامات علم الاجتماع الاقتصادي:

نستطيع أن نعرف علم الاجتماع الاقتصادي بأنه "محاولة لتطبيق الإطار المرجعي لعلم الاجتماع ومتغيراته ونماذجه التفسيرية في دراسة مجموعة من الأنشطة المعقدة التي تتصل بإنتاج، وتوزيع، وتبادل، واستهلاك السلع النادرة والخدمات" (١).

ويوضح التعريف السابق عدداً من المحاور أو الموضوعات التي تميز علم الاجتماع الاقتصادي، أهمها:

١ – تعتبر الأنشطة الاقتصادية المحور الأول لاهتمام علم الاجتماع الاقتصادي، وفي هذا الصدد تطرح عدة تساؤلات تدور حول كيفية بناء هذه الأنشطة في أدوار وتجمعات، وعن القيم التي تعطيها الشرعية والمعايير والجزاءات التي تنتظم في حدودها، ثم كيفية تفاعل هذه المتغيرات السوسيولوجية مع بعضها البعض.

٢– أما المحور الثاني لاهتمام علم الاجتماع الاقتصادي فيتمثل في التساند المتبادل بين المتغيرات السوسيولوجية حين تتجسم في السياق الاقتصادي والمتغيرات السوسيولوجية التي تكشف عن ذاتها في مجالات غير اقتصادية. مثال ذلك أن عالم الاجتماع الاقتصادي يعني بارتباط أو تدخل الأدوار الأسرية مع الأدوار المهنية، وعلاقة هذه الأدوار بالبناء السياسي لهذا المجتمع. وعلى هذا يشتمل هذا المحور على المواقف التي تتكامل فيها البناءات الاقتصادية وغير الاقتصادية، وأيضاً على المواقف التي تتعارض فيها هذه البناءات، ومن المتوقع بطبيعة الحال أن تشتمل هذه المواقف الأخيرة على عدد من التوترات، ومجموعة من ردود الفعل في مواجهة هذه التوترات، ثم محاولات لضبط ردود الفعل الناجم عن التوترات، كما أن من المتوقع أيضاً

---

(1) Smelser, N., Sociology of Economic Life, Englewood Cliffs, New Jersey, Prentice- Hall Inc., 1963.

أن يترتب على هذا التفاعل بين قوى متصارعة نتائج مختلفة كالانحراف أو إعادة التوازن.

ويمكن لعالم الاجتماع الاقتصادى أن يدرك هذا التساند أو التداخل بين المتغيرات السوسيولوجية فى المجالات الاقتصادية وغير الاقتصادية على مستويين:

أ- مستوى البناء الملموس أو المشخص للوحدات الاقتصادية:

ففى المنشأة الصناعية مثلاً يستطيع علم الاجتماع الاقتصادى أن يدرس أنساق المكانة وعلاقات القوة والسلطة والانحراف، والجماعات، والزمر الصغيرة، والعلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر، ويتأكد هذا المحور الذى يهتم بدراسة بناء الوحدة فى أحد الفروع علم الاجتماع الاقتصادى يعرف باسم علم الاجتماع الصناعى.

ب- مستوى العلاقة بين الوحدات الاقتصادية والبيئة الاجتماعية:

وفى هذا الصدد يهتم عالم الاجتماع الاقتصادى بدراسة العلاقة بين المصالح الاقتصادية ومختلف المصالح القانونية والسياسية والعائلية والدينية، وذلك على مستوى المجتمع المحلى والمجتمع الكبير معاً. كما يهتم أيضاً – وعلى مستوى أعلى من ذلك – بتحليل العلاقة بين النسق الاقتصادى وغيره من الأنساق الأخرى، وقد يترتب على هذا المحور الذى يهتم بالعلاقة بين الوحدات مناقشة مستفيضة لموضوعات ذات طبيعة عامة وشاملة فى علم الاجتماع الاقتصادى (مثل السياسة العامة وصراع العمال مع الإدارة والعلاقة بين الطبقات الاقتصادية) كتلك التى استوعبها التراث الفكرى لكل من ماركس وماكس فيبر.

وبالإضافة إلى ذلك يهتم علم الاجتماع الاقتصادى بدراسة الخصائص أو الجوانب السوسيولوجية لعدد من المتغيرات الاقتصادية الهامة، كالنقود مثلاً، باعتبارها نموذجاً من نماذج الجزاءات فى الحياة الاجتماعية.

من هنا فإننا يجدر بنا أن نظهر الخلاف بين علم الاقتصاد كعلم وبين علم الاجتماع الاقتصادى كعلم اجتماعى ينظر إلى العمليات الاقتصادية من منظور خاص. فنستطيع أن نقول إنه على الرغم من اهتمام كل من علم الاقتصاد وعلم الاجتماع الاقتصادى بدراسة نفس المركب من النشاطات الاقتصادية، إلا أن التداخل بينهما بسيط نظراً لأن لكل منهما متغيراته المستقلة والمعتمدة الخاصة. ونماذجه التفسيرية المختلفة.

ثالثاً – علاقة علم الاجتماع الاقتصادى بالعلوم الاجتماعية الأخرى:

لعلم الاقتصاد صلة بالعلوم الاجتماعية الأخرى. وسنقتصر فى السطور السابقة على علاقة علم الاقتصاد بعلمى النفس والسياسة.

١- علاقة علم الاجتماع الاقتصادى بعلم النفس:

هناك علاقات قوية بين علم النفس وعلم الاجتماع الاقتصادى. فمما لاشك فيه ان دراسة ظروف السوق والقدرة الشرائية والتوتر وتكوين الجماعات الجديدة أمور يهتم بدراستها علم النفس، ويعتنى بها – وهى أمور اقتصادية فى المحل الأول.

كما تعتمد قضايا "الروح المعنوية" ودرجة الرضا والإشباع لدى العمال على الظروف الاجتماعية والاقتصادية لموقع العمل كنظام الإشراف ومستوى مشاركة العمال فى اتخاذ القرارت الحاسمة ومستوى التفاعل القائم بين العمال وبعضهم البعض .. الخ.

غير أن هذه القضايا السيكولوجية تحدد بدورها عدة أنواع من استجابات العمال، مثل التغيب والحوادث والصراع الصناعى، على هذا النحو تتدخل "الروح المعنوية" بين المتغيرات الاجتماعية والنتائج السلوكية. وفى الوقت الذى يهتم فيه الباحثون فى مجالات علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع الصناعى بدراسة موضوعات مثل الروح المعنوية باعتبارها متغيرات معتمدة أو تابعة، يعنى علم الاجتماع الاقتصادى بدراستها كمتغيرات وسيطة.

وهناك قضية أخرى تربط ما بين علم النفس وعلم الاجتماع الاقتصادى، تلك التى تشير إلى أنماط الدافعية لدى الأشخاص الذين يسلكون خطاً مهنياً معيناً أو يقومون بأدوار مهنية معينة. ذلك لأن هذه الدافعية المتميزة تفيد من ناحية فى التنبؤ بنوعية من سيقوم بهذه الأدوار، كما يفيد من ناحية أخرى فى فهم استجابة هؤلاء الأشخاص للمواقف الاجتماعية عندما يتمثلون أدوارهم.

٢- علاقة علم الاجتماع الاقتصادى وعلم السياسة:

هناك علاقة قوية بين علم السياسة وعلم الاجتماع الاقتصادى تتضح من دراسة الأنشطة التالية:

أ- أن العلاقة بين السياسة والوحدات الإنتاجية قوية، حيث تظهر خلال دراسة موضوعات كالأسعار أو المنافسة غير العادلة وأسلوب تنظيمها، وأيضاً فى مناقشة مسألة تركيز الثروة والقدرة الاقتصادية، وما يترتب عليها من نتائج.

ب- أن العلاقة بين السياسة والاقتصاد تظهر فى دراسة السوق. ففى ظل المنافسة الكاملة لا تكون لدى المنشأة والمستهلك قدرة على ضبط وتحديد الأسعار أو النتائج فى السوق، كما يرى أن تركيز الثقة الاقتصادية فى القطاع الإنتاجى قد يؤدى إلى حالة من اللاتماثل أو التسيب لصالح الوحدة الإنتاجية. وقد يواجه هذا الموقف بقدر كبير من المقارنة المنظمة إلا أنه على الرغم من ذلك يحاول المستهلكون فى الاقتصاد الحديث والمعقد دائماً أن يتجمعوا ليشجعوا لهذا التسيب فى شكلين أساسيين:

١- التمرد أو الهياج السياسى للمستهلكين لتنظيم الأسعار.

٢- إقامة جمعيات تعاونية للمستهلكين لتوزيع السلع والخدمات وتنظمها الدولة.

جـ- كما أن هناك علاقة بين المساهمين وأصحاب الأسهم حيث تشير الدراسات الحديثة إلى أن المديرين يتمتعون بقوة سيا- مؤكدة على مستوى المنشأة، فمع ظهور نموذج الشركات المساهمة وتشتيت الملكية بين المساهمين

الذين لم يعودوا يهتمون بالإدارة اليومية للمشروع، الأمر الذى أدى فى النهاية لتعثر القدرة على اتخاذ القرارات وأبدى مديرين محترفين قد لا يساهمون بقدر ما يمكن رأس مال المنشأة.

د- كما أن هناك علاقات سياسية بين العمل والعمال، فهذه العلاقة من أهم المنظمات السياسية للمشروعات السياسية الإنتاجية، والتى شغلت حيزاً كبيرا من اهتمام الباحثين فى علم الاجتماع الاقتصادى، ولكن يرجع هذا الاهتمام إلى ذلك الصراع المستمر بين الإدارة والعمال من ناحية، ثم فى ذلك التعاطف الذى يبديه كثير من علماء الاجتماع الراديكاليين لأهداف العمل المنظم.

هـ- كما أن هناك علاقة سياسية بين الوحدات الاقتصادية والفكرية، حيث يقدم هوسيلز ثلاثة أبعاد أساسية فى تحليل العلاقة بين النشاط الاقتصادى والنشاط الحكومى:

١- بعد يوضح مدى اهتمام الحكومة بتوسع نشاطها، ومن خلال منح أراضى جديدة أو الاستيلاء على موارد اقتصادية جديدة، وذلك مقابل حركة الحكومة بالاكتفاء بالموارد الإنتاجية التى تتوافر بالفعل للوصول إلى السياسة القائمة وتمثل أمريكا هذا النموذج التوسعى بينما تمثل الدانمارك النموذج المقابل.

٢- بعد يوضح مدى سيطرة الوحدة السياسية (الدول) على مواردها الاقتصادية فى مقابل موضوعها أو تبعتها لوحدة سياسية خارجية، وتمثل فرنسا وألمانيا البلاد المستعمرة، وأجزاء من أوربا الشرقية النموذج التابع.

٣- بعد يوضح مدى تشجيع العرض السياسى للنشاط الاقتصادى الحر وذلك فى مقابل محاولتها للتدخل فى توجيه النشاط الاقتصادى – وتمثل إنجلترا الأول والاتحاد السوفيتى المقابل.

رابعاً - التحليل السوسيولوجي للعلاقة بين الاقتصاد والأنساق الاجتماعية الأخرى:

ينظر عالم الاجتماع الاقتصادى إلى المجتمع كما لو كان يقسم بطريقة اجرائية إلى عدد من الأنساق الفرعية، وينظر إلى الاقتصاد كأحد هذه الأنساق الفرعية ثم يكشف بعد ذلك عن دور المتغيرات الاقتصادية وغير الاقتصادية فى تحقيق التفاعل بين هذه الأنساق الفرعية يمكن توقف الثقة الاجتماعية بأنه يشير إلى الطابع للوحدات البنائية إلى أن كل تغير فى الوحدات البنائية يتبعه تغيرات اجتماعية تتطلب توافقاً من باقى الوحدات ويمكن أن نصنف الأنساق عن المستوى المجتمع إلى أربع وحدات نهائية هى: الوحدات الثقافية والاقتصادية والسياسية والتكاملية. ونؤكد مرة أخرى بأن هذه الوحدات متساندة ومتبادلة التأثير أولاً ولاو يمكن فهم العلاقات الداخلية الأبعد أن تكتمل صورة التفاعل بينهما جميعاً.

وعالم الاجتماع الاقتصادى فى تحليله يركز بصفة عامة على علاقة النسق الاقتصادى والأساق الاجتماعية الفرعية الأخرى وناحية الثقة، الثقافى والسياسى والتكاملى، وذلك من خلال طرقه الثلاثة أنساق رئيسية هى:

١- بالنسبة للنسق الثقافى يتساءل عن الأهمية الاقتصادية للنظم والأيدولوجيات.

٢- وبالنسبة للنسق السياسى، يتساءل عن كيفية ارتباط الاقتصاد بالسياسة بغيره من العناصر السياسية فى بيئته، كالعمال فى الشركات المساهمة والحكومات .. الخ .

٣- وبالنسبة للنسق التكاملى يتساءل عن الأهمية الاقتصادية للجماعات التضامنية كالجماعات القريبة. وسوف نناقش بشئ من الإيجاز التحليل السوسيولوجى لهذه العلاقات.

١- الاقتصاد والعوامل الثقافية:

يثير عالم الاجتماع الاقتصادى مجموعتين من التساؤلات فى بحثه للعلاقة بين المعتقدات الثقافية والأنشطة الاقتصادية.

١- مجموعة تساؤلات تربطها بالجانب التعليمى، مثل: إلى أى مدى تحتل الأنشطة الاقتصادة مكانة مرموقة فى القيم الثقافية وهل تقسيم هذه الأنشطة يعطى النظر عن مكانتها بطريقة سلبية أم إيجابية؟ وهل تنتظم كأهداف فى ذاتها أم تنظر إليها على أنها وسائل لتحقيق القوة القومية ولتدعيم تماسكها.

٢- مجموعة من التساؤلات ترتبط بالجانب الوجودى مثل: ما هى طبيعة الإنسان؟ وهل يمكن أن تنظر إليه على أنه كائن يدفع بدوافع اقتصادية أم أن هذه الخصائص الاقتصادية ليست ذات أهمية فى وجوده؟ ثم ما هى طبيعة المجتمع وهل تتيح هذه الطبيعة النوعية فرصة للنشاط الاقتصادى.

٢- الاقتصاد والمتغيرات السياسية:

يحاول عالم الاجتماع الاقتصادى تحديد العلاقة بين المتغيرات السياسية بالوحدات الاقتصادية، من خلال مناقشته لبعض القضايا العامة من أهمها:

أ- العلاقة السياسية بين الوحدات الإنتاجية:

وتدور المناقشة حول ثلاث موضوعات رئيسية هى:

١- حول التحليل الاقتصادى الرسمى لأنماط العقيدة وأثرها على الأسعار والناتج والموارد وما شابه ذلك.

٢- بينما ينحصر الموضوع الثانى فى المناقشات الموجهة سياسياً والتى تدور حول المنافسة غير العادلة وأسلوب تنظيمها.

٣- كما يرتبط الموضوع بمناقشات تدور حول تركيز الثروة والقدرة الاقتصادية وما يترتب عليها من نتائج اجتماعية وسياسية.

ب- العلاقة بين السياسة والبنية الاقتصادية:

وتتمثل فى:

١- العلاقة السياسية بالمستهلكين. خاصة في تعريفات السوق. ففي ظل ظروف المنافسة الكاملة لا تكون لدى المنشأة والمستهلك قدرة على ضبط وتحديد الأسعار أو الناتج في السوق. كما يرى أن تركيز الثقة الاقتصادية في القطاع الإنتاجي قد يؤدى إلى حالة من اللاتماثل أو التسيب لصالح الوحدة الإنتاجية. وقد يواجه هذا الموقف بقدر كبير من المقارنة المنظمة إلا أنه على الرغم من ذلك، يحاول المستهلكون في الاقتصاد الحديث والمعقد دائماً أن يتجمعوا ليشجعوا لهذا التسيب في شكلين أساسيين:

أ- التمرد أو الهياج السياسي للمستهلكين وهذا يهدف إلى تنظيم الأسعار وضبط المنافسة غير العادلة، على أن ذلك لا يتم من خلال أفعال مباشرة للمستهلكين كأفراد، بل من خلال البناء الحكومي الماركسي.

ب- إقامة جمعيات تعاونية للمستهلكين لتوزيع السلع والخدمات، غير أنه على الرغم من أن الشركة التعاونية للمستهلكين قد تكشف عن نفسها في كل البلاد إلا أنه نادراً ما كانت تمثل قوة اقتصادية فعالة.

٢- العلاقة السياسية بالمساهمين وأصحاب الأسهم: تشير الدراسات الحديثة الى أن المديرين يتمتعون بقوة سياسية مؤكدة على مستوى المنشأة. فقد أوضح بيرل ومئنى في بحثهما عن "الزكاة الدينية والملكية الخاصة" أن هناك ثمة فروق، ولقد بدأت تتحد بين ملكية الشركة وبين التحكم أو السيطرة على القرارات الاقتصادية التي تصدر من المنشأة. فبعد أن كانت سلطة الضبط السياسي لمشروع العمل تتركز في أيدى الأفراد أو الجماعات الصغيرة التي تؤول إليها الملكية، ولكن مع ظهور نموذج الشركات المساهمة وتشتيت الملكية بين المساهمين الذين لم يعودوا يهتمون بالإدارة اليومية للمشروع، الأمر الذى أدى في النهاية إلى أن تنتشر القدرة على اتخاذ القرارات، وأبدى مديرون محترفون قد لا يساهمون بقدر ما في رأس مال المنشأة.

٣- العلاقة السياسية بالعمل والعمال: تعتبر العلاقة بين العمل والعمال من أهم المنظمات السياسية للمشروعات السياسية الإنتاجية، والتي شغل حيزاً كبيراً من اهتمام الباحثين في علم الاجتماع الاقتصادى. ولكن يرجع هذا الاهتمام

إلى ذلك الصراع المستمر بين الإدارة والعمال من ناحية. ثم في ذلك التعاطف الذي يبديه كثير من علماء الاجتماع الراديكاليين لأهداف العمل المنظم. وبالطبع ارتبطت الأنماط التي يتخذها بناء العلاقة بين العمال والإدارة ارتباطاً وثيقا باختلاف أشكال النزاع القائم بين العمال والإدارة. ولقد توصل كل من كورنسهاوزر Kornthouser وروس Ross وديوبرين Dubrin إلى تصنيف شامل لأنماط الصراع.

جـ- العلاقات السياسية بين الوحدات الاقتصادية والفكرية:

تمثل العلاقات السياسية التي تقوم بين الوحدات الاقتصادية، مركز الصدارة بين مجموعة العوامل التي تؤثر في قدرة النسق الاقتصادي على إدارة وظائفه. يقدر هوسيلز B Hosatils ثلاثة أبعاد رئيسية لتحليل العلاقة بين النشاط الاقتصادي والنشاط الحكومي:

١- بُعْد يوضح مدى اهتمام الحكومة بتوسع نشاطها ومن خلال منح أراضي جديدة أو الاستيلاء على موارد اقتصادية جديدة. وذلك مقابل حركة الحكومة بالاكتفاء بالموارد الإنتاجية التي تتوافر بالفعل للوصول إلى السياسة القائمة. وتمثل أمريكا هذا النموذج التوسعي، بينما تمثل الدانمرك النموذج المقابل.

٢- بُعْد يوضح مدى سيطرة الوحدة السياسية (الدول) على مواردها الاقتصادية في مقابل موضوعها أو تبعتها لوحدة سياسية خارجية، وتمثل فرنسا وألمانيا هذا النموذج البسيط، بينما تمثل كثير من البلاد المستعمرة واجزاء كبيرة من أوربا الشرقية النموذج التابع.

٣- بُعْد يوضح مدى تشجيع العرض السياسي للنشاط الاقتصادي الحر، وذلك في مقابل محاولتها للتدخل في توجيه النشاط الاقتصادي. وتمثل إنجلترا النموذج الأول، بينما يمثل الاتحاد السوفيتي النموذج المقابل.

٣- الاقتصاد والجماعات التكاملية:

يعتبر نظام القرابة من الأسس التي تركز عليها الجماعات التضامنية solidary groups ويشير مصطلح القرابة إلى مجموعة العلاقات الاجتماعية المعقدة القائمة على واقعة بيولوجية هي الميلاد، وظاهرة بيولوجية هي الزواج، ولقد كشف نمكوف Nimkof وميدلتون Midaletowon التلازم بين طبيعة بنيان الأسرة والنشاط الاقتصادي السائد، في دراسة على بحث تشمل ٥٤٩ حالة وجد أنه في المجتمعات التي يعتمد النشاط الاقتصاد على الجمع والالتقاط، يتميز بناء الأسرة فيها بالاستقلال النسبي. بينما نجد في البلاد التي تتميز اقتصاديتها بالوفرة والاستقلال النسبي. نجد الأسرة الممتدة. وذلك لارتباط نظام الأسرة في هذه المجتمعات بالترتيب الطبقي ونظام الملكية. بينما نجد في المجتمع الصناعي الأسرة الصغيرة المستقلة.

وأشارت بعض الدراسات أن التنظيمات القرابية في الأسرة البنائية قد شجعت أنماطاً معينة من النشاط الاقتصادي خاصة بالالتحاق بالعمل في المصانع بالمدينة. بينما نجد بعض الدراسات الأخيرة التي تبين أن الأسر الصينية التي تتميز بنظام قرابي قوي كانت عوائق أمام حركة التصنيع في الصين.

من كل هذا نخلص إلى أن هناك علاقة وثيقة بين المتغيرات الاجتماعية والثقافية والايديولوجية والسياسية والجماعات القرابية، وبين النشاط الاقتصادي، وهذا ما يميز التحليل السوسيولوجي بالشمولية في تحليله لمظاهر الحياة الاقتصادية.

خاتمة:

في ختام استعراضنا لعلم اجتماع الحياة الاقتصادية، فإننا سوف نشير - في بعض الجمل - إلى ما توصلنا إليه. فلقد بدأنا بدعوى أن الحياة الاجتماعية يمكن أن تفصل - تحليلاً - إلى عدد من "الجوانب" الاقتصادي، السياسي، القانوني، الديني.. وهكذا.

على أية حال، وبالرغم من أنه من الناحية التحليلية يمكن الفل بين هده الجوانب الا أن هذه الجوانب المتعددة – في العالم الإمبريقي – تؤثر في بعضها البعض. وفي هذا الجزء اخترنا الجانب الاقتصادي كبؤرة، ولكن على خلاف الاقتصاديين الذين غالباً ما يدرسون هذا الجانب في عزلة من الجوانب الأخرى فإننا فضلنا أن نفحص التفاعل بين الجوانب الاقتصادية وغير الاقتصادية.

ولقد بدأنا هذا الفصل بعزل بعض الموضوعات في تاريخ الفكر الاقتصادي والاجتماعي. فعلماء الاقتصاد من أمثال "آدم سميث" و"كارل ماركس" و" جون كينز" قدموا بعض الاقتراحات عن العلاقات بين الاقتصاد وباقي الجوانب الأخرى للمجتمع، وهذه الاقتراحات قد أدت إلى اختلافات كبيرة في كيفية نظر هؤلاء المفكرين إلى العملية الاقتصادية.

والعلماء الاجتماعيون أمثال "إميل دور كايم" و"ماكس فيبر" و"مالينوفسكي" أثبتوا بطريقة منظمة كيف أن المؤثرات السياسية والأسرية والقانونية تكيف العمليات الاقتصادية.

وأخيراً فإن الاقتصاديين والاجتماعيين في الوقت الحديث قد بدأوا يختبرون بعض النظريات الجديدة وأنواع البحوث لقياس العلاقات بين المتغيرات الاقتصادية وغير الاقتصادية.

وتاريخ الفكر – هكذا – يقدم دعوى قوية للحاجة إلى مراعاة التفاعل بين الجوانب المتعددة للحياة الاجتماعية من أجل الحصول على قدر مناسب لأحد هذه الجوانب.

ولكن هذه الدعوى – القائمة على تراكم غير منظم لفكر مفكرين مختلفين من خلال العصور – ما هي إلا دعوى عامة جداً. ولهذا فمن الضروري أن تكون محددة ومتصلة في توضيح التداخل بين المتغيرات الاقتصادية وغير الاقتصادية. ولهذا حاولنا أن نقدم الدعوى التفصيلية لعلم الاجتماع الاقتصادي في أربع طرق.

١- لقد قارنا بطريقة منظمة بين مجالات الاقتصاد والاجتماع وقد تساءلنا عن أنواع الفروض التى يضعها كل منهم عن موضوع الآخر، وما الأسئلة التى يسألها كل منهم فى مجاله وكيف يحاول كل منهم الإجابة عليها وكيف تتطابق المجالات، وكيف أنهما من الناحية النظرية ربما يكونا متكاملان.

٢- لقد نظرنا إلى كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية على أنه نسق فرعى فى المجتمع، ثم تساءلنا بعد ذلك كيفية أن كل نسق فرعى يؤثر ويتأثر بالاقتصاد.

وعلى سبيل المثال، نسق القرابة. فلقد اقترحنا بأن أنواع معينة من الأسر لديها صلة للتوافق مع الأجر والعمل فى المصانع عن غيزها من أبنية أسر أخرى. وبالنسبة للدين، فلقد شرحنا الأبحاث التقليدية عن تأثيرات أنساق اقتصادية مختلفة على النشاط الاقتصادى.

وبالمماثلة. فلقد استعرضنا المتضمنات الاقتصادية للبحث على النسق السياسى والنسق التصنيفى الخ.

٣- ولقد تساءلنا عن كيف تكيف المتغيرات الغير اقتصادية أنواع مختلفة للأفعال الاقتصادية مثل: الإنتاج، التوزيع، الاستهلاك. وفى شرح هذه العملية فلقد قيمنا كثيراً من استنتاجات علم الاجتماع الصناعى والبحث عن بناء السوق المقارن وأعمال الاقتصاديين والاجتماعيين عن المحددات فى الإنفاق والادخار.

٤- ولقد تساءلنا عن كيف أن المتغيرات الاقتصادية وغير الاقتصادية تؤثر كل منهما فى الآخر خلال فترات التغير الاجتماعى.

وفى التركيز على مشكلة التنمية - كما سوف نرى فيما بعد - فسوف نلاحظ أولاً بعض الطرق التى تسهل أو تعوق مجهودات التحديث.

ودعوى علم الاجتماع الاقتصادى مثيرة للانتباه، خاصة فى تحليل التغير، وذلك لأن كثيراً من الافتراضات البسيطة للاقتصاديين غير صادقة عندما تكون ابنية الاجتماعية للاقتصاد فى تدفق مستمر.

وكميزة للمدخل ذى الجوانب المتعددة لعلم اجتماع الحياة الاقتصادية. فإن فى استطاعتنا أن نحدد مواضع الضعف والقوة فى ميدان ذلك العلم. فلقد اكتشفنا ليس فقط ما نعرف ولكن أيضاً ما لا نعرف، ولقد حاولنا من خلال ذلك أن نتعرف على المتغيرات فى معرفتنا، وعندما تسد هذه الثغرات تدريجياً بمجهودات الباحثين، فإن مجال علم الاجتماع الاقتصادى يلعب دوراً متميزاً وحيوى وسوف يساهم فى تطور كل من الميدانيين (علم الاجتماع والاقتصاد) الذى يحيط بهما.



الفصل الثاني عشر

علم الاجتماع والنظام الدينى

- تمهيد
- تطور علم الاجتماع الدينى
- النظرية السوسيولوجية للدين
- عناصر النظام والتنظيم الدينى
- الدين وأشكال المجتمع : المدخل البنائى الوظيفى



الفصل الثانى عشر

علم الاجتماع والنظام الدينى

تمهيد:

سوف نحاول فى هذا الفصل أن نبين كيف يدرس عالم الاجتماع النظام الديني. وسوف نبين أن هناك فرعاً من فروع علم الاجتماع يسمى الآن علم الاجتماع الديني، والذى تتلخص مهمته في بيان الدور الاجتماعي للدين بالنسبة للأفراد والجماعات. ولهذا سوف نبين الأسباب التى أدت إلى الاهتمام بالدراسة العلمية للدين، ثم نشرع بعد ذلك بتقديم التطور التاريخى للعلم الاجتماعي الديني. بعد هذا سوف نناقش كيف يقف عالم الاجتماع الديني من مشكلة التعريف والتحليل السوسيولوجي، وسوف نقدم نموذجين لهذا التحليل، الأول متمثل فى كيفية تحليل عناصر النظام الدينى وكيفية دراسة التنظيمات الدينية، والثانى بى بيان اختلاف وتنوع وظيفة الدين على المستوى الفردى والجماعى باختلاف شكل ودرجة المجتمع محل الدراسة.

١ - تطور علم الاجتماع الدينى:

الأسباب التى أدت إلى الاهتمام بالدراسة السوسيولوجية للدين (١):

تعتبر دراسة الدين من الموضوعات التى نالت اهتمام علماء الاجتماع منذ القدم، ولقد جعل كثير من علماء القرنين التاسع عشر والعشرين من التحليل الدينى محوراً لأبحاثهم في الحياة الاجتماعية والثقافية. وكان هذا الاتجاه سائداً فى أعمال العلماء الاجتماعيين في الفترة المسماة بالفترة الكلاسيكية لعلم

(1) Robertson. R. The Sociological Interportation of Religion. New York: Schockon Books. 1970. pp. 7-33.

الاجتماع، وهي التي امتدت من ١٨٥٠ - ١٩٢٠، وفيها أنجز دور كايم وماكس فيبر دراساتهم الشاملة عن الدين.

ولقد برز الاهتمام بالدين لسببين هما:

أولاً - هناك نظرة اجتماعية فلسفية للدين على أنه المنبع الأساسي لكل العمليات في المجتمع الإنساني، وهذه النظرة كان لها أساس في النسق الثقافي في المجتمعات الأوربية في ذلك الوقت، وكما سوف نرى فيما بعد أن فيبر وجد في الدراسة التي قام بها عن الدين أن فهم الخلافات الكبرى بين مجتمعات الشرق والغرب تكمن في معرفتنا لأنظمة الأديان المختلفة في كل منهما. ولكن دور كايم أعطى اهتماماً أقل للتاريخ ولكنه ركز على الدور الديني كعامل في التضامن الاجتماعي والتماسك. وقد رأى دور كايم في نفس الوقت أن الدين نفسه من صنع الإنسان أو من صنع العقل الجمعي الذي يحيط به.

ثانياً - لقد كتب علماء الاجتماع الكلاسيكيين في الفترة التي كان فيها الدين موضوعاً ذات أهمية في المجتمعات التي كانوا فيها أعضاء أو في تلك المجتمعات المتشابهة ثقافيا واجتماعيا معهم.

ولقد ساعد على الاهتمام بالدين في العالم الغربي عاملان هامان هما:

أ- التصنيع والتحضر: فلقد غيرا كثيراً من شكل وظائف الحياة الاجتماعية، مثلاً الاقتصاد والسياسة والأسرة أصبحت العلاقة بين هذه النظم مشوهة أو بمعنى آخر أصبحت العلاقة بين الدين وهذه النظم موضع تساؤل.

ب- ولقد شهد النصف الثاني من القرن ١٩ اهتماماً متزايداً بالحصول على معلومات عن خصائص المجتمعات الغير أوربية والمسماة بالمجتمعات البدائية. وظهر هذا الاتجاه في كتابات الأنثروبولوجيين في النواحي الثقافية والاجتماعية.

كل هذا بطبيعة الحال مرتبط بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية الخارجية والداخلية بالمجتمعات الأوربية في تلك الفترة، ولكن لا يعني ظهور هذين الاتجاهين أنهما من صنع القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولكن يمكن

ردهما إلى فجر التاريخ. ولكن التركيز هنا على ظهور الفلسفة العقلية وظهور الثورة الفرنسية وظهور حركة الإصلاح البروتستانتي Protestantism والإصلاح المضاد من الكاثوليكية Catholicism.

ولعل أهم ما يميز هذه الفترة هو انفصال نظام التعليم عن الدين، كذلك انفصال طبقات معينة عن السلطة الدينية وظهور علاقات جديدة للسلطة والقوة والمكانة.

كل هذه العمليات للنمو الاجتماعي استمرت وأدت إلى ظهور مشاكل جديدة هي مشاكل النظام والعلاقات الاجتماعية والأنشطة المفضلة ازدادت تماسكاً في حياة الجماعات.

وقد كان الاعتقاد الظاهر بين عدد من المفكرين الاجتماعيين هو أن ما يحتاج إليه المجتمع الغربي ليس تغييراً في الجوهر والفكر، ولكن بعض التعديلات في المبادئ الدينية وإعادة تنظيم الجماعات الدينية. كل هذا أعطى اهتماماً بالغاً لتحليل النظام الديني ووضعه تحت الملاحظة، كذلك تطلّب أن يقوم العلماء الاجتماعيون بإعطاء تفسيراتهم عن الصراع بين الدين والمجتمع.

٢- النظرة السوسيولوجية للدين:

أ- اهتمام عالم الاجتماع بالدين (١):

لعله بسبب تنوع وغناء مادة البحث في مجال الدين، فإنه من الصعوبة بمكان أن نقوم ببحث سوسيولوجي متميز. فالاهتمام بالدين لدى كثير من الباحثين هو اهتمام بالنواحي الفردية، أو الشخصية. وانعكس ذلك في تركيز الباحثين على الاهتمام بالنواحي العقلية والانفعالية للأخلاق والاعتقاد. ومثل ما فعل وليم جيمس W. James فإن كثيراً من علماء النفس يهتمون بدراسة المشاعر والأفعال وخبرات الأفراد، وذلك في علاقتهم بالمقدس Divine.

---

(1) Nottingham. E., Religion A Sociological View. New York. Rondom House. 1970.

والحق أن وليم جيمس في تعريفه للدين قد أغفل الجوانب العامة والمجتمعية والنظامية للدين، والتي هي بلا شك الاهتمام الأول لعالم الاجتماع.

ولهذا يمكن القول إن اهتمام السوسيولوجي بالدين ليس مثل اهتمام الفيلسوف Psychologist أو اللاهوتي (المتكلم) theologian أو عالم النفس الفردي individual psychologist ولكن اهتمام عالم الاجتماع بالدين يتركز في اهتمامه بوظيفته العامة في المجتمعات الإنسانية. فعالم الاجتماع بالدين يتركز في اهتمامه بوظيفته العامة في المجتمعات الإنسانية. فعالم الاجتماع يهتم بالدين على أنه جانب سلوك وأنشطة الجماعة. كذلك يهتم بالأدوار التي ومازال الدين خلال العصور في استمرار حياة الجماعة الإنسانية. وكلما كان السلوك الديني محل الدراسة أقل فردية وأكثر عمومية، وكلما قلت ندرته وكثر تكراره كلما كان ذلك السلوك مفيداً لمجال البحث في علم الاجتماع الديني. و

وعالم الاجتماع، بالإضافة، ملتزم بمحاولة دراسة الدين موضوعيا objective أي من وجهة نظر العالم الاجتماعي. والحق أن هذا يمثل مشكلة الباحث في مجال الدين. ولقد أكد بعض الباحثين أن هده الصعوبات لا يمكن تجنبها. ولقد أكدوا أنه دراسة علمية – في حالة التوصل إلى ذلك – فإن ذلك يعتبر أمراً غير مرغوب لدى كثير من الباحثين.

فالدين لدى كثير من الناس شعور قلبي، ارتبط بمشاعرهم، وارتبطت مشاعرهم بطقوسه التي أصبحت مقدسة من خلال مشاركتهم فيها.

ولهذا فإنه من الصعب عليهم القيام بدراسة موضوعية للأديان التي ينتمون اليها.

وعلى أية حال، يمكن القول إن مشكلة الرغبة في الوصول إلى دراسة موضوعية للدين تعتبر مسألة مثيرة للتساؤلات، أكثر من مشكلة إمكانية القيام بدراسة علمية عن الدين. خاصة وأن الدين قائم على الاعتقاد أو الإيمان، ولذلك يخشى ان الدراسة الموضوعية ربما تضعف الإيمان وتقلل الولاء الديني

religious allegiance. والباحث في الدين مطالب بتقصي الحقيقة، لذلك فإنه يجب أن يتحكم في مشاعره ويجنبها عن موضوع بحثه. وبالرغم من ذلك فإنه من المستحيل إنكار أن تحليل الدين بواسطة العلم عامة مفيد، ولكن يمكن القول بأنه على المدى البعيد فإن نتائج استخدام الدراسة العلمية للدين سوف تؤدى إلى فوائد. فاستمرار الجهل والانحياز سوف يكون له على المدى البعيد أضرار بالغة بالإنسانية.

ومن ناحية أخرى، فإن عالم الاجتماع، كباحث إمبريقي – ربما يتطلب منه ألا يكون علمياً بحتاً في بحثه عن العلم، وكما أشار رينجر M. Ryinger بأن "كل ما هو مهم عن الدين في متناول الملاحظة الموضوعية"، وعلم الاجتماع حتماً لابد أن يقوم بتجريد الجوانب الهامة من الواقع. ومن ثم فإنه من المغالاة أن علماء الاجتماع يدعون أن افتراضاتهم الخاصة بالدين – مهما كانت درجة موضوعيتها – قد احتوت معنى الدين كله. ومن حسن الحظ، فإن علماء الاجتماع اليوم أكثر تواضعاً في ادعاءاتهم، وهذا الاعتدال هو الذى يساعد على الدراسة الاجتماعية (العلمية) للدين.

كل هذا يؤدى إلى حقيقة ثابتة هي أن هناك أشياء غير مرئية things unseen في الدين لها من الأهمية في الحياة الاجتماعية ولا يمكن تطبيق مناهج العلوم التجريبية عليها. وهذا الاعتقاد لا يسئ إلى الطبيعة والحقائق والأساليب المستمدة في العلوم الطبيعية، ولكن يبين فقط أن حقائق العلم الطبيعي ليس وحدها الحقائق التي يعيشها الإنسان. حتى العلم نفسه، يمكن النظر إليه ليس على أنه مجموعة طرق أو إجراءات معينة أو وسيلة لتحقيق غايات، ولكنه إيمان faith في القوة النهائية للعقل الإنساني للفهم والتحكم في الكون.

والباحث في علم الاجتماع الديني عليه أن يحدد الجوانب التي يهتم بها في دراسته للظاهرة الدينية أو النظام الديني. ولا يفهم من هذا أن على عالم الاجتماع الديني أن يضيق من مدخله، وأنه لا يهتم بمساهمات العلوم الأخرى مثل علم النفس والأنثروبولوجي والفلسفة واللاهوت. وكما أشرنا سابقاً فإنه

بالرغم من أن الاهتمام الأساسي لعالم الاجتماع يختلف عن اهتمام عالم النفس، إلا أن فهم عالم الاجتماع للدين كظاهرة والدافعية الدينية قد تأثر بإسهامات علماء النفس من أمثال وليم جيمس W. James وجوردون ألبرت Gordon وسيجموند فرويد S. Freud، فإن أعمال علماء الأنثروبولوجيا من أمثال مالينوفسكي B. Malinowski ورادكليف براون Radclif Brown قد ساعدت علماء الاجتماع في فهم الكثير من الظواهر الدينية. حتى علم اللاهوت - بالرغم من مسألة اعتباره علماً أم لا - فإنه يساعد عالم الاجتماع في مهمته، بالرغم من أن عالم الاجتماع ليس مطالباً بإعطاء حكم معياري على الحقيقة أو الظاهرة التي يدرسها أو على صدق وكذب نسق ديني معين. على أية حال، فإن الأنساق العقائدية تؤثر تأثيراً بالغاً في السلوك الاجتماعي، فإنها تمد عالم الاجتماع ببيانات مهمة لا يمكن تجنبها. ولاشك أن لاهوتيين من أمثال تليك Paul Tillich ونيبور R. Hinbold Neıbuor ومارتن بوكر M Buker وغيرهم قد أثروا في الفكر السوسيولوجي، خاصة في بيان الدور الاجتماعي للدين. إننا لو أغفلنا هذه التأثيرات المتبادلة من العلوم الأخرى، فإن النتيجة سوف تكون علم اجتماع ديني "عاجز".

ب- مشكلة التعريف:

بدأ ماكس فيبر M. Weber كتابه علم الاجتماع الديني بهذه العبارة: "لتعرف الدين - للقول ما هو - أمر غير ممكن في بداية هذه الدراسة. فالتعريف ربما يمكن التوصل إليه عند نهاية هذه الدراسة" (١).

والحق أن هذا القول لفيبر يعبر بصدق عن المشكلة الخاصة بالتعريف والتي تواجه عالم الاجتماع. فالذين انشغلوا بمشكلة التعريف غالباً ما يعارضون التعريف بعضها بالآخر، ولذلك يغلب على محاولتهم الاهتمام بلا شئ سوى التلاعب بالألفاظ. فهناك الكثير من الغموض الذي يميز تعريفا الدين. والسبب في ذلك راجع إلى أن الذين يحاولون تعريف الظاهرة الدينية تختلف ثقافتهم

---

(1) Weber. M., The Sociology of Religion. Trans. By E. Fisch. Becon Press. 1963. p. L.

وتنوع اهتماماتهم. فهناك مثلا مجموعة من الكتاب يحاولون تعريف الظاهرة في لغة ما يجب أن تكون عليه الظاهرة. ولاشك أن هذا النوع من التعريفات لا يمثل أي قيمة بالنسبة لعلماء العلوم الاجتماعية. وهناك جماعة أخرى تحاول تحدد تعريفهم من بيانات مستمدة من تعبيرات خاصة لظاهرة معينة.

وأيضاً فإن هذا النوع من التعريفات ليس ذا فائدة لعلماء العلوم الاجتماعية. أما المجموعة الثالثة فهي التي تحاول أن تقدم تعريفات بعد القيام بدراسة لعدد من مظاهر الظاهرة ومعرفة ما هو شائع بينها. هذا النوع من التعريفات، هو الذي يهتم به عالم الاجتماع.

فالمشكلة - إذن - التي تواجه عالم الاجتماع هي إيجاد تعريف للدين. مناسب لاهتماماته، أعني تعريفاً محدداً يكون بمثابة أداة مفيدة لفهم أشكال معينة من الحياة الدينية. كذلك يجب أن يكون هذا التعريف متسعاً حتى يشتمل كل أنواع السلوك الدينية في مختلف الظروف.

ولكن لماذا يتطلب مفهوم واسع للدين؟ الحق أن هذا التعريف مطلب أساسي طالما أن السلوك الديني يبدو وكأنه عام بين كل الكائنات الإنسانية. فلم يكشف بعد أي أنثروبولوجي أي جماعة إنسانية بدون أن يكون لها سلوك يسمى "ديني"، ولاشك أن مظاهر السلوك الديني قد تكون متداخلة مع الجوانب الأخرى والهامة للسلوك الإنساني، وإنه من الصعب التمييز بين ما هو ديني فيها.

جـ- الدين وحالة الإنسان المتغيرة:

من الواضح أن تعريفاً واحداً للدين لا يكفي لإرضاء كل باحث. والسبب في ذلك ببساطة أن الدين بأشكاله المتعددة يدعو للوصف، أكثر من التعريف أو التحديد، فالظاهرة الدينية تستعصي على محاولات التجريد العلمي. فالدين مرتبط بمحاولات الإنسان لإحاطته التامة عن "المعنى" سواء في داخل نفسه أو في العالم المحيط به. هذه المحاولة هي التي أدت إلى ظهور إنتاج الخيال الإنساني، كذلك استخدمت لتبرير قسوة الإنسان ضد أخيه الإنسان. وبالرغم من انشغال الدين بحقيقة العالم الغير مرئي، فإن الدين أيضاً ينشغل بالمشاكل اليومية

فى تفصيلها. فالدين قد استخدم لإنارة الطريق فى عالم المجهول، وظهرت يوتبيان Utopeans باسم الدين، ومع هذا فإن الدين استخدم أيضاً لتقييد الناس بالعادات والاعتقادات البالية.

والعبادة العامة والمشاركة فى الرموز الدينية قد وحدت الجماعات الإنسانية بأقوى روابط عرفها الإنسان، ومع ذلك فالاختلافات الدينية قد أدت إلى تغير الجماعات الإنسانية. والعبادة الدينية قد تجلت وعبّر عنها فى الفنون، ولكنها أيضاً ازدهرت تحت ظروف صعبة. والدين أمدّ الإنسان بالرموز التى تعبر عن ما هو صعب التعبير عنه ولكنه مع ذلك فإن جوهر التجربة الدينية بفضل النزعات التخلصية والتفكير فى الله قد يستخدم لتشجيع الإنسان فى مهامه اليومية، ولتوحيدهم جميعاً فى مصيرهم أو مرة أخرى تساعدهم ضد مواجهة المشاكل التى تعترضهم. والتناقض موجود فى جوهر الدين، لأنه طالما أن الناس يحاولون التعمق فى أسرار الأشياء فإنهم يحاولون ضرورياً فهم الكثير - فى العالم وفى أنفسهم - الخير والشر، الحب والكره، العبادة والإلحاد، الله والشيطان.

ماذا يعنى كل هذا لطالب علم الاجتماع الديني؟ فعالم الاجتماع بالرغم من اهتمامه الأساسي بالدين والجانب السلوكي منه. إلا أنه يجب أن ينظر إلى الدين كتجربة كلية. والمناقشات السابقة تبين أن قاعدة الدين فى المجتمع الإنساني شئ مركب مثل ظروف وحالات الإنسانية نفسها، وأن طبيعة الدين لا يمكن فهمها فقط بلا علاقاتها بالحالة الكلية للإنسان.

والخلاصة، أن الدين من وجهة النظر السوسيولوجية هو من إنتاج الثقافة، وهو نتاج فاعلية الإنسان كمخلوق ثقافي.على هذا الأساس، فإن الدين يمكن اعتباره أداة ثقافية عن طريقها يستطيع الإنسان أن يكيف نفسه لتجربته مع بيئته الكلية التى تشمل نفسه وأقرانه من البشر والعالم الطبيعي المحيط به، والذى يشعر بأنه يتسامى بكل هذا.

٣- عناصر النظام والتنظيم الديني:

أ- عناصر النظام الديني:

١- المقدس Sacred:

ما هو المقدس في كل دين؟

الحق أنه من السهل التعرف عليه عن أن نعرفه. ففي كل المجتمعات توجد تفرقة بين ما هو مقدس وبين ما هو عادى. أو بين المقدس Holy sacred والعلماني secular أو المدني sacred.

ويختلف الشئ الذى يوصف بالقداسة من شعب إلى آخر، فالهنود يعتبرون البقرة شيئاً مقدساً، أما بالنسبة للمسيحيين فإنهم ينظرون إلى الصليب على أنه شئ مقدس، بينما بالنسبة للمسلمين الكعبة شئ مقدس، وهكذا الأمر بالنسبة للشعوب البدائية التى تتخذ من الحيوانات والنباتات رموزاً تمثل المقدس لهم. وهذه الأمثلة للمقدس يمكن رؤيتها، ولكن هناك جوانب أخرى غير مرئية للمقدس، فالأشياء المقدسة مثل الإله والأرواح، والملائكة والشياطين والأشباح، كلها ينظر إليها على انها طبيعة مختلفة عن الأشياء العادية. ولكن ما هو الشئ الهام الذى يمكن ملاحظته بين هذه الأشياء المقدسة التى يميزها بالقداسة؟.

الحق أنه ليس فى ذاتها هى التى لها قداسة، ولكن طبيعة الاتجاهات والمشاعر هى التى تضفى عليهم القداسة. فالقداسة إذن تتكون من اتجاه عقلى انفعالى هو الذى يفصل فيميز أحدهما بالتقديس. فالمقدس هو الشئ الذى يجب ويعبر عن حدود المنفعة اليومية الذى يحاط بشئ من الاهتمام ولا يسهم عن طريق التجربة الحسية.

ويجب التركيز على أن الأشياء المقدسة لا تختلف ماديا عن الأشياء العادية. فالبقرة المقدسة عند الهنود لا تختلف عن أى بقرة أخرى. ولكن الذى يعطى الاختلاف هو اتجاه المؤمنين بذلك.

والكائنات المقدسة الغير مرئية، والتى لا يعتمد وجودها على الحس، فالولاء لها إيمان حقيقى، لكن طريقة المشاعر والاتجاهات ليس فقط يصبح

وجود لهذه الكائنات، ولكن أيضاً يصبح لها مكان فـي عقـول المؤمنـين بـها. وبالتالي يصبح لها تأثيرات أمبريقية ملحوظة.

وفي مقابل المقدس هناك الدنس، الذي يتضمن كل شئ وفي أي مناسبة اعتبر مدنسا للمقدس، ولتجنب ذلك أحيط المقدس دائما بنوع من المحرمات والتابو. فالأشياء المقدسة يجب ألا تمس أو تؤكل ولا يقترب منها إلا في مناسبات معينة أو بواسطة أشخاص لهم هذه السلطة.

كذلك فاستخدام اللغة القديمة عند الحديث في وصف الأشياء المقدسة يعتبر أحد الخصائص المميزة للأديان في الشرق والغرب. فالهنود والبوذيين يستخدمون اللغة Sanskrit والبالي Pali واللغة الصينية القديمة.

وبالنسبة لليهود والرومان الكاثوليك يحتفلون بالأمور المقدسة في لغة دينية خاصة. كذلك مازالت الكنائس الكاثوليكية تستخدم اللغة اللاتينية في احتفالاتها.

٢- الاعتقاد والممارسة Beliefs and practice:

لا يكفي أن يكون هناك أشياء مقدسة، فوجودها يجب دائماً أن يجدد وتصبح مثلاً حياً في عقول جماعة المؤمنين بها.

فالاعتقاد (العقيدة - الأساطير) والممارسة الممثلة في الاحتفالات والشعائر يساعدان في تحقيق هذه الفرصة، فالاعتقاد الديني لا يفترض فقط وجود أشياء مقدسة ولكن تكرار هذا الاعتقاد يقوى من الإيمان faith، والاعتقاد يساعد أيضاً لشرح طريقة أصل الأشياء المقدسة ويمدنا بدليل لفهم العالم الغير مرئي (الله - الملائكة .) كذلك يمدنا يفهم كيف أن هذا العالم الغير مرئي مرتبط بعالم الحقائق، والأديان الكبرى غالباً ما تضع بعض التركيز على الاعتقاد في صورته العقلانية أو الخلافات الدينية الاعتقادية.

وبالنسبة للفهم السوسيولوجي للدين، فإن الشعائر والاحتفالات لها أهمية كبرى في فهم الدين. فالشعيرة هي الجانب النشط الملاحظ من السلوك الديني، وهي تحتوي أيضاً نوعاً من السلوك، مثل ارتداء أي نوع من الملابس،

التضحية بالحياة، ترتيل شعارات، الصمت، الغناء، الصلاة، التسبيحات، الصيام، الرقص، القراءات.

فالطبيعة المقدسة للشعير تعتمد ليس على الأشياء المقدسة نفسها، ولكن على الحالة الفعلية والانفعالية التي يكونها أفراد الجماعة نحو هذه الشعيرة، والمحتوى الاجتماعي والثقافي الذي تمارس فيه الشعيرة. نفس السلوك، كالأكل مثلاً، يكون عادياً في إحدى المناسبات مثل الإفطار العادي. ويكون مقدساً في تناول الخبز والخمر في الاحتفالات بأعياد "الميلاد المسيحي". فالشعيرة إذن تحدد المحتوى الذي من خلاله يأخذ السلوك المقدس مكانه، كذلك تحدد الشعيرة الأدوار للمشتركين فيها.

٣- الرمزية Symbolism:

لما كان جوهر الشعور الديني ينظر إليه على أنه لا يوصف أو يعبر عنه، فإن المحاولات للتعبير عنه تقريبية، ولهذا فهي رمزية. وكوسيلة لجعل العالم الغير مرئي للأشياء المقدسة حياً في عقول المؤمنين به، فالرمزية تقوم بهذه الوظيفة، خاصة وأن الرموز لها قوة استجلاب المشاعر، فإنها تعتبر نتيجة لتاريخها المشترك مع المقدس، وتعتبر إحدى المثيرات القوية للمشاعر الإنسانية، ولهذا ليس من الغريب أن نفهم أن المشاركة في رمز شائع هو طريقة فعالة لتقوية وحدة جماعة المؤمنين.

٤- مجتمع المؤمنين Community of Worshipers:

كل ما تقدم يشير إلى أن المشاركة في الاعتقاد والممارسة بواسطة جماعة اجتماعية يطلق عليها جماعة المؤمنين تعتبر شيئاً أساسياً للدين، فعندما تأخذ هذه المشاركة مكانها في الاعتقاد والممارسة تحتفظ بحيويتها، وهذه الجماعة قد تكون قبيلة معينة تحتفظ بشعيرة طوطمية، أو أي جماعة دينية أخرى، وليس المهم نوع أو شكل الشعيرة ولكن ما هو مهم هو المشاركة العامة والجماعات الإنسانية التي تشارك اعتقادها وممارستها تصبح مجتمعاً أخلاقياً.

فعمليـة المشـاركة فـي الشـعائر العامـة والرمزيـة والاعتقـاد يقـوى إحسـاس الجماعـة بذاتيتـها ويقـوى الشـعور باجتماعيـة الجماعـة. هـذا مـا لاحظه دور كايم على القبـائل الأسـترالية، فـإن المشـاركة فـي أكـل الطوطـم يقـوى مـن ذاتيـة الجماعـة. كما هـو الحـال فـي الإسـلام: فـإن الصـلاة عنـد المسـلمين أيضـا تـؤدي إلى خلـق نـوع مـن الأخـوة تزيـد مـن ارتبـاط الجماعـة.

هـ- القيم الأخلاقية Moral Values :

فمشـاركة الاعتقـاد والشـعائر يتضمـن أن علاقـة أعضـاء الجماعـة بـالمقدس بطريقـة مـا يتعلـق بـالقيم الأخلاقيـة للجماعـة. هـذه العلاقـة الضمنية تظهر بوضـوح فـي ملاحظـة منـع جماعـة معينـة مـن نـوع معين مـن الطعـام أو الحيوانـات. فعـدم أكـل لحـم البقـر عنـد الهنـود هـو قيمـة دينيـة يتمسك بها الهنـود جميعاً. فـالبقرة هـي شـئ مقـدس عنـد الهنـود، وامتناعـهم عـن أكـل طعامها هـو قيمـة أخلاقيـة أيضـاً. وذلـك لأن عـدم أكـل لحمـها يميزهم عن الذين يـأكلون لحـم البقـر أو الذيـن لا يـأكلون لحـم الخـنزير.

ومـن هـذه الحالـة هنـاك علاقـة بـين القيمـة الأخلاقيـة المشـتركة بـين أعضـاء الجماعـة وبـين المقـدس أو الأوامـر الدينيـة والعلاقـة بـين مفـهوم النـاس للمقدس والقيـم الأخلاقيـة يمكـن توضيحـها مـن خـلال معرفـة مفـهوم الإنسان عن المقدس يفترض عليـه قيمـة الأخلاقيـة.

ففـي المجتمعـات الرعويـة يـأخذ الإلـه شـكل الراعـي الصـالح، ولذلـك فـإن القيـام بصفـات الراعـي الصـالح تصبـح مثـلاً للقيـم الأخلاقيـة، وتوضـح العلاقة بين الإلـه والمؤمنـين بـه. كذلـك الحـال فـي المسـيحية. حيـث يُشبّه الإلـه بـالأب. وتشـبه الآلهـة بالكائنـات المقدسـة بالأسـرة الإنسـانية، كـل هـذا يضفـي نوعاً مقدساً على قيم الأسـرة فـي مجتمعنـا.

والمشكلة المهمة هنا. ليست أن الإنسان يخلق المقدس على الشكل الذى يراه. ولكن الاتصال بين القيمة الاخلاقية المستمدة من العالم الغير مرئى وبين المؤمنين. فالقيم الأخلاقية تمدنا بتصديق مقدس للأشياء في عالمنا الإنساني.

على أية حال، يجب ألا نفهم هذا القول بأن كل القوانين الأخلاقية مستمدة من الدين فقط وما هى إلا تصديق له. فكلما كان المجتمع معقداً وأكثر علمانية. فإن الأصول الدينية للقيم الأخلاقية تصبح أقل وغير مباشرة فى السلوك الأخلاقى.

ب- ميكانيزمات التنظيم الدينى:

١- المشكلات الاجتماعية للتنظيم الدينى:

هناك بعض المحن التى لا يمكن تجنبها مما تتعرض له جميع المنظمات الاجتماعية التى من شأنها أن تدمج السلوك الإنسانى فى نمط محدد سواء كان هذا النمط قد حددته العقيدة الدينية أو المسلمات الأخلاقية أو الفلسفة السياسية. ولكن يمكن للمنظمات أن تواصل نجاحها فى التأثير على المجتمعات الإنسانية فى سبيل تحقيق أهدافها فعليها أن تكون مؤثرة فى ناحيتين:

الأولى: أن تنظم وتسيطر على عادات بعض أعضائها بحيث تتمشى مع المثل المعبأة والمحددة فى المجتمع. ومن ناحية أخرى، فلكى تؤثر على المجتمع الأكبر فإن عليها أن تمتد وتتسع فى تنظيماتها وتزيد من طائفة تأثيرها من خلال اجتذاب بعض الأشخاص ذوى المكانة والقوة فى المجتمع الأكبر، وعلى ذلك فإن التنظيم الدينى يواجه بالاختيار ما بين المحافظة على النقاء الخلقى والروحى على حساب تحديد نطاق التأثير الاجتماعى فى نطاق المجتمع.

وعلى ذلك فإن المحقق مما سبق يستنتج فرضين أساسيين:

الأول - يشير إلى المحافظة على النظام فى الجماعة. ويعنى هذا الفرض أن الضبط الدينى والاخلاقى قد يتعارض مع سلوك معظم أعضاء الجماعة، فالأفراد يختلفون من حيث طاقاتهم الدينية واهتماماتهم. فقلة منهم يتميزون

باستعدادات دينية، وعلى ذلك فهم يتقبلون كل ما يختص بالأخلاق والضبط الديني دون مناقشة. وهنا نجد أن المطالب المطلقة للمعايير الدينية تؤثر على الشخص بأكمله وقد يطلب منه أن يتنازل عن حريته الشخصية فيما يتعلق بصرف النقود أو العلاقات الأسرية والاستمرار في عمل مستقر أو التنازل عن بعض المتعة في الطعام أو الشراب أو العلاقات الجنسية، بل أكثر من هذا، قد يستلزم الأمر أن يعيد تهيئة عالمه النفسي، أي أفكاره وتصوراته ورغباته وما إلى ذلك، ولا نجد أي من المنظمات الاجتماعية أو الإنسانية يطالب بمثل ذلك فيما عدا بعض المنظمات السياسية التي نجدها اتخذت طابعاً شبه ديني.

والفرض الثاني يتعلق بمشكلة التأثير على السلوك الإنساني من حيث أن الأهداف الأخلاقية للمنظمات الدينية عادة ما تكون غير مستقرة أو متلازمة مع الأهداف الدنيوية للمجتمع ومؤسساته. وبمعنى آخر فهناك صراع أساسي قائم بين الاهتمامات الدينية والمجتمعات الدنيوية. وتستطيع الجماعات الدينية أن تواجه هذا الموقف بأحد طريقين. فهي تستطيع أن تحاول تخليص أعضائها من العالم الملئ بالشر عن طريق الانسحاب منه بقدر الإمكان، والبديل الآخر أنهم يشغلون في معركة فعلية مع الدنيا محاولين تغيرها وعندما ينمو التنظيم الديني في مسئولياته وتأثيره الاجتماعي فإنه يشمل العديد من المشاكل الدنيوية مثل مشكلات السياسية والحكومة والقيادة والطموح وتنمية الثروة واستخدامها وتوزيعها وضبطها وعلى غير ذلك من الجوانب التنظيمية. دو نالتركيز على الجوانب الروحية البحتة، ويتميز الدين في هذه الحالة بنفس المشكلات الإنسانية الموجودة في الحياة الاجتماعية بوجه عام. ويتعرض الجماعات التنظيمات الأساسية لبعض جوانب النقص كما تتعرض للتغير. ويشير التاريخ الديني وتطور المذاهب الدينية في الغرب إلى ما يؤيد قولنا هذا.

٢- الأشكال المتغيرة للتنظيم الديني:

يمكن أن تظهر المحنة الأساسية التي يعانيها التنظيم الديني بشكل ملموس عندما نضع في اعتبارنا أحد مظاهرها وهو على وجه التحديد الحركات الدينية.

وتشير الحركة الدينيه هنا إلى كل محاولة منظمة بقصد انتشار دين جديد أو تفسير جديد لأحد الأديان القائمة فيمكن النظر إلى الأديان الكبرى في العالم كالبوذية والمسيحية وغيرها باعتبارها نتاج لحركات دينية. وبالمثل فإن الحركات الدينية تنمو في إطار الأديان القائمة مثل حركات الفرنسيسكان والبروتستانت في إطار المذهب الكاثوليكي المسيحي وما الى ذلك. وتسيطر شخصية مؤسس الحركة على قوة الاجتذاب والتعبير والإقناع التي تجعل الناس يلتفون حوله، ويطلق على هذه الصفات عادة اسم الطاقة الروحية. وتبدأ العملية أساساً بأن يؤثر مؤسس الحركة في مجموعة من الأفراد الذين يتبعونه في مبدأ الأمر ثم يؤثر كل منهم في مجموعة أخرى متأثرين أصلاً بالاتصال المباشر لموسس الحركة الذي يتميز بالطاقة الروحية أو "الكرزما" وينقل إليهم صفات التماسك والدينامية.

وفي المرحلة الثانية للحركة الدينية فإن أتباع مؤسس الحركة يجدون أنفسهم مضطرين لتفسير الأمور الأساسية المرتبطة بالتنظيم والمعتقدات التي لم يقدر لها أن تنضج في حياة المؤسس. وفي هذه المرحلة فإن الحركة تتحول إلى ما يسمى بالتنظيم الرسمي لجماعة من المتدينين الذين يشتركون في عقائد محددة وعامة بينهم، تختص بالأشياء المقدسة وما يتصل بها. وفي هذه المرحلة الثانية التي يتحمل مسئوليتها عادة الجيل الثاني من الأتباع، فإن الأمور الدنيوية تصبح أكثر وضوحاً. فإن حدود السلطة بالنسبة للتنظيم تزداد وضوحاً. ويتلازم مع هذه المرحلة نوع من الصراع على القيادة مثل ما حدث في الدين الإسلامي وأدى إلى ظهور الشيعة، أو الصراع الخاص لتكوين المعتقدات الذي هز المسيحية في القرن الثاني والثالث الميلادي. ولكي يمكن التغلب على هذه الصراعات فإن الأمر يستلزم في بعض الأحيان ظهور مؤسس ثاني يدعم الحركة.

وإذا ما نجحت الحركة في البقاء عبر المرحلة الثانية، فإن المرحلة الثانية تتميز بالتوسع والتنوع. إذ أن الحركة تصبح أكثر تماسكاً وتتخذ أشكالاً متعددة من التنظيم وتصبح من مهمة القيادة حينئذ على الرغم من نجاح الحركة في كسب المزيد من الأتباع وأن يجيبوا على الأسئلة الخاصة للأهداف الأصلية والحقائق المتعلقة بها، وتتميز هذه الحركة بالصعوبة والدقة، مثال ذلك تقديم تفسير لعودة المسيح للحياة.

٣- أنماط التنظيم الديني وأنماط المجتمعات:

تعتبر لفظة الكنيسة "مكان عام للعبادة" معبرة بوجه عام عن جميع أشكال الجماعات الدينية، إلا أننا نستخدم هنا ألفاظاً أخرى للتوضيح، مثل الملة والمذهب والطائفة وما أشبه...

فالملة: عبارة عن "كنيسة" تؤكد انتشارها في إطار محدود بعينه سواء قومياً أو عالمياً. وجميع الأعضاء الموجودين والمولودين في هذه المنطقة يعتبرون داخلين في هذه الملة. وأنماط السلطة الخاصة رسمية وتقليدية. وهي تسير بطريقة هرمية من أعلى إلى أسفل التنظيم، من خلال سلسلة من القيادة، هناك عدد من القادة أهمهم القسيس الذي يحل الرسول أو النبي.

وتستهدف الملة السيطرة على العالم من خلال اهتمامات:

- التنظيم. وعلى ذلك فهناك تبادل مباشر بين التنظيم والملة والمؤسسات الدنيوية في المجتمع. وعلى ذلك فإن الملة تتحكم في العالم كما أنها خاضعة لتحكم العالم فيه.

أما الفرقة: فتتمثل في جماعة صغيرة حيث يرتبط أفرادها طواعية، وتمارس السلطة عادة من خلال الطاقة الروحية بدلاً من التنظيم الهرمي، على الرغم من ذلك فإن الضبط الديني قوي، ويدعم عادة من خلال نشاط الجماعة. وتتميز الفرق بالجماعة الدينية والخلقية، كما أن معقداتها تؤكد التعاليم السابقة لما يعود إلى بداية المسيحية.

وحيث أن الفرق ترفض الحكومة الدنيوية، فإن أعضاءها يرفضون الوظائف الحكومية أو دفع الضرائب في المجتمعات الغربية، وربما عدم المشاركة في الأمور السياسية أو الدنيوية.

والطائفة: هي جماعة مستقرة نسبياً ذات حجم معقول وعلى شئ من التعقيد، وهي واحدة ضمن عدد من "الكنائس" في إطار حدود معينة أو عدد من المقاطعات.

والطائفة لا تنسحب من الحروب ولا تحاول السيطرة على العالم، ولكنها في الغالب تتعاون مع المنظمات الدنيوية والسلطات المحلية والمؤسسات الدينية المختلفة.

وهناك جماعة الطقوس الدينية Cult التي تشبه المذهب وإن كانت تختلف عنه في ان عضويته قاصرة على سكان منطقة معينة، وأعضاء هذه الجماعة غالباً ما يلجأون للانضمام إليها عندما يواجهون بالوحدة في زحام المدينة. وتعتبر العضوية فيها تطوعية. وخط السلطة هنا ضعيف وليس له أثر واضح ولا ينسحب أفراد هذه الجماعة من الأمور الدنيوية ولا يعارضونها، كما أنهم يمارسون الأنشطة السياسية والاجتماعية. ووظيفة هذه الجماعة هي مساعدة الاعضاء أن يتوافقوا في سعادة تامة مع الأمور الدنيوية ومؤسساتها.

٤- المنظمة الدينية والحركات الدينية:

على الرغم من إمكانية تواجد أنماط مختلفة من التنظيمات الدينية في مجتمع واحد، إلا أن بعض أنماط الكنائس أكثر تجانساً وتلاؤماً مع بعض أنواع المجتمعات أكثر من غيرهم.

وتشير الشواهد التاريخية إلى أن الحركات الدينية الجديدة قادرة على ترك بصماتها على المجتمعات الإنسانية في خلال فترات الاضطراب، وتاريخياً فإن ذلك واضح في انتشار بعض الأديان التي ظهرت قبل المسيحية، مثل البوذية. كما أن المسيحية ترعرعت في أثناء اضطراب المجتمع في روما،

وكذلك اليهودية. ويمكن القول بأن المسيحية كان مقضياً عليها بالزوال إذا لم تكن الإمبراطورية الرومانية تعاني من الفردية والغموض.

ومن شأن الظروف الاجتماعية المعقدة التي تؤيد الجوانب القومية والتصنيع، وكذا التسامح الديني ألا تكون راغبة في وجود نظام الملة. ففي مجتمعاتنا الحديثة لا نجد مجالاً لنشأة الجديد من هذه النظم. وتعتبر الطوائف التطوعية هي النمط المناسب للتنظيم الديني في النمط الثالث من المجتمعات. وعندما لا تعمل الحكومات الدنيوية على توحد النظم الدينية فإن الانضمام إلى الجمعيات الدينية يصبح أمراً مرتبطاً بالاختيار الفردي، الذي غالباً ما يتأثر بأمور تتعلق بتحقيق المكانة الاجتماعية.

وعندما يهاجر الناس من المناطق الريفية إلى مدن الكبيرة، فغالباً ما يجدون أنفسهم في حالة ضياع وعدم استقرار في كنيسة المدينة الكبيرة، حتى ولو كانت لا تخرج عن كونها ممثلة لطائفتهم.فإنهم يجدون أنها لا تحقق أو تشبع نفس الحاجات التي كانت تشبعها الكنيسة في وطنهم الأصلي. وعلى ذلك فإن مهاجري الريف، وخاصة الذين يعملون بأجور منخفضة في المدينة. وعلى ذلك فإن مهاجري الريف، وخاصة الذين يعملون بأجور منخفضة في المدينة، يشكلون جماعات دينية صغيرة أو ينضمون إلى قائمة منها في الجماعات الكبيرة، حتى يحصلوا على نوع من المكانة وليواصلوا أداء الطقوس الدينية التي اعتادوها في موطنهم الأصلي بالريف.

ويلاحظ أنه بالمجتمعات في النمط الثالث، على الرغم من أن النظام الطائفي هو السائد، فإن المذاهب وجماعات الطقوس ليس لها النظرة الكاملة، وذلك لأنه في هذه المجتمعات فإن سيطرة المؤسسات الدنيوية الحكومية وتأثير الحياة الاقتصادية يحرم المنظمات الدينية من أن تكون لها قوة مؤثرة على النظم الاجتماعية.

٥- تأثير التنظيم الديني في المجتمع المعاصر:

سبق أن ذكرنا أنه فى المجتمعات الدينوية يلاحظ الكنائس تعكس فى المحيط الاجتماعى بدلاً من إدماجه، ولا يعنى هذا أن الطوائف المسيحية لا تبذل من جانبها أى محاولات للتأثير على المجتمعات المحلية والقومية لتسير بها نحو الكمال الدينى، بل على العكس من ذلك، فإننا نجد أن محور الوعظ الدينى وأنشطة الإحسان التى تبذلها المنظمات الدينية تمثل الكثير من الجهد الذى يبذل فى هذا المجال. ويبقى أمامنا السؤال عن مدى تأثير هذه الجهود فى تعديل الشكل الاجتماعى.

لكى نفهم طبيعة الجهد المبذول من الكنائس فى المجتمعات الحديثة فمن المفيد أن نعتبر بعض الوسائل أو الطرق التى تعمل على خلق الضغوط الاجتماعية فى خلال الطوائف الفردية، وتشير البحوث فى هذا المجال، والتى قامت أساساً فى أمريكا، إلى أن هناك نسبة من الآراء المتفقة على ارتباط التغيرات مع القيم الأخلاقية المسيحية، بينما كانت هناك نسبة كبيرة فيما بين الأفراد المسئولين عن الشئون المالية لوضع السياسات فى الكنائس ممن يعارضون أى تغيرات اجتماعية فى المجتمع المحيط بهم. وعلى الرغم من أننا قد لا نعطى اهتماماً كبيراً لهذه الآراء التى نبعت من بحث فردى واحد تضمن عدداً محدوداً من الحالات، إلا أنه يساعدنا على المزيد من الاستبصار. عندما نلقى النظرة حولنا فى مجتمعنا المعاصر، نجد أن الوعظ الذى يقوم رجال الدين ومقترحاتهم فيما يختص بشئون التغير الاجتماعى لها ومنها وتجد آذاناً صاغية من المسئولين.

٤- الدين وأشكال المجتمع: المدخل البنائى الوظيفى:

أ- تعريف المدخل الوظيفى:

هناك اتجاهان أساسيان يمثلان وجهات نظر بالنسبة لفهم علماء الاجتماع بالدين:

الأول: يهتم ببحث بناء الدين. أعنى الأجزاء المكونة له وأن علماء الاجتماع الدين درسوا بناء الدين اتفقوا على أن هناك ثلاثة أنساق مترابطة هى التى تشكل ذلك البناء، وهى:

أ- النسق الفكرى أو الاعتقادى intellectual or belief system.

ب- نسق الفعل action system أو نسق الشعائر ceremonies.

جـ- النسق المجتمعى communal system أو التفاعل الاجتماعى interaction أو تنظيم الجماعة.

الثانى: على أن هناك اتجاهاً آخر يهتم بوظائف الدين – أعنى ماذا يفعل الدين لاستمرار بقاء المجتمعات الإنسانية والجماعات؟ هذا الاهتمام سواء من علماء الاجتماع أو الأنثروبولوجيا ما يطلق اسم الوظيفية "Functionalism"، وهذا المدخل الذى ساعد على فهم الدين على أنه ظاهرة اجتماعية لا يهمل بناء الدين. وكما قال "بارسونز" فإن أفضل اسم يطلق عليه اسم Structural Functionalism البنائية الوظيفية.

والحق أن هذا المدخل قد تعرض لانتقادات كثيرة، إما لعدم فهم النقاد للأفكار الأساسية لهذا المدخل، أو لعدم اتفاق المدافعين عن هذا المدخل حول موضوعاته الرئيسية.

على أية حال، فإن الأساس للوظيفية الاجتماعية للدين يجب ألا تكون فى فراغ تاريخى، فالوظيفة الاجتماعية للدين مرتبطة بفهم شكل هذا المجتمع وتطوره التاريخى، فمن خلال التطور التاريخى فإن حقيقة الدين يمكن رؤيتها إما على أنها عامل مساعد لتماسك المجتمع، أو على أنها عامل معوق أو محافظ للاتجاه الثورى فى المجتمع.

وسوف نحاول هنا أن نبين كيف أن وظيفة الدين تختلف بشكل أو بآخر عن نموذج المجتمع. وسوف نبين أن هناك ثلاثة نماذج تختلف باختلاف وظيفة الدين. وسوف نهتم ببيان كيف يختلف شكل وخصائص النظام الدينى والرموز الدينية والشعائر والجماعات الدينية باختلاف

شكل المجتمع. كذلك يجب أن يكون واضحاً أن الدين نفسه بالرغم من أنه يغير من المجتمع إلا أنه هو نفسه يتغير ويتشكل بشكل المجتمع. أو بعبارة أخرى. فإن الدين والمجتمع يدخلان في علاقة تفاعل مستمرة، ويغير كل منهما الآخر.

والنماذج الأساسية التى سوف نبحثها هى:

١- النموذج الأول: وهو الذى تكون فيه القيمة الدينية هى السائدة والمسيطرة.

٢- النموذج الثانى: من نوع المجتمع الذى يحتوى القيمة الدينية والعلمانية.

٣- النموذج الثالث: المجتمع الذى تسيطر عليه القيمة العلمانية.

وبالرغم من أن هذه النماذج لا تمثل مراحل حتمية للتطور التاريخى لأى مجتمع. إلا أنه يمكن القول بأن المجتمعات الإنسانية قد مرت بطريقة أو بأخرى بهذه المراحل أو بمراحل شبيهة بها.

ب- الدين ونماذج المجتمعات:

١- النموذج الأول: المجتمعات البدائية والقيم الدينية:

هذا النموذج يمثل المجتمعات الصغيرة والمنعزلة، والغير متعلمة، والتى يتميز سكانها بقدر بسيط من التطور التكنولوجى وتقسيم العمل وتقسيم واضح للطبقات الاجتماعية.

والأسرة فى هذه المجتمعات هى أهم الأنشطة الاجتماعية، ويسير التغير فيها بطريقة بطيئة.

١- ففى نسق الاعتقاد:

نجد أنه لا يمكن التمييز بين الاعتقاد والأفكار والأساطير. كذلك نلاحظ أن أفراد هذه المجتمعات لا يفصلون بين المقدسات الدينية وأنفسهم. كذلك تأخذ شكل الرموز الدينية أشكالاً أسطورية مثل أسلاف

القبائل أو الاشكال الثقافية أو الأبطال الذين يرمز إليهم برموز مختلفة. كذلك نجد أن الفرد والمجتمع يرتبطان في علاقة طبيعية إلهية كونية.

٢- نسق الفعل:

أما بالنسبة لنسق الفعل، فهو موجه عامة لتحقيق تماثل بين جماعة المؤمنين وصفات الشئ الذى يعبدونه. ففى حالة الاحتفال بالطواطم والذى يحمل رمز القبيلة والذى يجرى فيه قتل الطوطم والمشاركة فى أكله. نجد فى هذا الاحتفال مثالاً واضحاً فى الهدف العام من السلوك الدينى ومن تحقيق وحدة القبيلة وتمثلهم لصفات الطواطم.

٣- الجماعات الدينية:

وهى غالبا موجودة، أو ليس لها وجود مستقل عن المجتمع ككل، فكل عضو فى المجتمع هو عضو يشارك فيها. والجماعة الدينية لا تتميز بكونها دينية، ولكن تمارس أنشطة أخرى (الاقتصاد – السياسة – الحياة الأسرية والترفيهية).

ففى جزر "تروبيانو" لاحظ مالينوفسكى أنهم يبنون أكواخهم ويقومون بالزراعة كجزء من قيامهم بالشعائر الدينية والسحرية التى ارتبطت بهذه الأعمال.

٤- أما عن الوظيفة:

التى يقوم بها الدين فى هذه المجتمعات، فإنه كما قلنا إن الدين يميز المجتمع بأساس التكامل والتماسك الاجتماعى، والقيم الدينية فى هذا المجتمع غالباً ما تقف ضد أى تغيير ولهذا تمثل التقاليد قوة كبرى فى السيطرة على الفرد والمجتمع. ولهذا وبسبب تداخل الدين مع كلا الأنشطة الاجتماعية، فإن الدين يكون عاملاً مؤثراً لجعل هذه المجتمعات ثابتة نسبياً، فبالنسبة للفرد فالدين له تأثير واضح فى عملية التنشئة الاجتماعية. وهى مرتبطة بالحياة الدينية مثل الولادة والزواج وكل حلقات الحياة. كذلك تتمثل الشخصية فى هذه المجتمعات بالقيم الدينية التى ترتبط بها الأسرة والمجتمع، والدين عامة يقوم بوظيفة أساسية فى تكامل الشخصية للأفراد فى هذه المجتمعات.

٢- النموذج الثانى: المجتمعات قبل الصناعية أو التقليدية:

وهو الذى يشير إلى المجتمعات الأول انعزالية، والتغير فيها بسرعة، خاصة في مجالات معينة، كذلك يتميز بدرجة عالية من التقدم والتكنولوجيا أكثر من النموذج الأول، كذلك يتميز بتقسيم العمل. ويسود هذه المجتمعات درجات متفاوتة من الأمية التعليمية والمفارقات في الطبقات الاجتماعية والزراعية والصناعات اليدوية هى الأساس الأول للاقتصاد مع بعض المراكز الحضرية والنظم الحكومية والاقتصادية منفصلة ومتخصصة.

وبالرغم من التطابق بين الأنشطة الحكومية والاقتصادية والدينية والترفيهية، إلا أنه يمكن التمييز بوضوح بين ذهاب الناس في هذه المجتمعات إلى العمل واللعب والذهاب لدور العبادة عن سلوك الأفراد وواجباتهم في النموذج الأول، ونجد أمثلة لهذه المجتمعات في الديانات البوذية والهندوسية واليهودية والمسيحية.

١- وبالنسبة لنسق الاعتقاد:

تؤكد أنساق الاعتقاد وجود "المتسامى"، وهذا ما يميزها عن نسق الاعتقاد في مجتمعات النموذج الأول والنسق الرمزى في هذا النموذج يتميز بالثنائية. الثنائية في العالم أى المقارنة بين الحياة في هذا العالم والحياة في العالم الآخر، ويفسر العالم الآخر بأنه الحياة الحقيقية ونهاية الإنسان وخلاصه. ولهذا فالصعود إلى السماء والتنوير أو الخلاص أو الراحة أو الحكمة هى المسعى الأساسى للدين.

٢- وبالنسبة لنسق الفعل:

يكون الاهتمام مركز أساساً حول التوصل إلى الخلاص. ولهذا فإن السلوك الدينى الذى قد يؤدى إلى الخلاص هو السلوك المتطلب من كل شخص. والإنسان نفسه في هذه المجتمعات لم يعد فرداً في قبيلة معينة أو أنه انحدر لإله معين، ولكنه فرد بالمعنى العام، أعنى أنه

كائن إنساني يستطيع الخلاص. ولكي يصل الإنسان إلي هذا الخلاص فإن ذلك يتطلب كفاحاً معيناً وإنكاراً للذات، فالإنسان لذلك مطالب بإنكار ذاته والتخلص من ماديات ومتاعات هذا العالم التي قد تقف حاجزاً أمام وصوله إلي هدفه النهائي وهذا العالم الآخر.

وواضح أن الأديان في هذه المجتمعات تقلل من أهمية العالم المادي، ولهذا فإن أكثر الأفعال الدينية تأثيراً هي الزهد والانسحاب من شئون الدنيا.

٣- بالنسبة للجماعات الدينية فهي نوعان:

الأول خاص بالجماعة الصفوة. والآخر خاص بالشعب والأمور الدنيوية والنوع الآخر من الجماعات الدينية يمثل وصفا أقل من النوع الأول الذي يمثل الدينية والذي يمثل طبقة الكهنة أو القساوسة أو رجال الدين.

٤- وظائف الدين:

في النموذج الثاني أكثر تعقيداً وتناقضاً بالمقارنة بالنموذج الأول. فالدين في النموذج الثاني مازال يعطي معني وتماسكاً لنسق القيم في المجتمع. ولكن الدين أيضاً يقوم بوظيفة فعالة كمثير للصراع الاجتماعي داخل المجتمعات أو بينهما. ذلك لان الدين والعلمانية في هذا النموذج، بالرغم من أنها تحتوي التطابق إلا أنها تختلف بوضوح كل منها عن الآخر. بالإضافة فإن ظهور النظام الحكومي هو تطور منتظم، وعليه فإنها أصبحت البديل للنظم الدينية أو الكنيسة. وأصبحت الحكومة هي مركز التماسك والتقابل والثبات في المجتمع. ومن ثم فإن إمكانية التصادم الداخلي للنظم قائمة. وبطبيعة الحال فإن الحكومة في هذه المجتمعات ليست علمانية بالقدر الكافي حتي تستطيع أن تستخلص السلطة كلية من السلطة الدينية. وبالرغم من ذلك فإن إمكانية التوتر بين الحكومة والكنيسة أو الدين تظل قائمة.

وصراع الأهداف بين الجماعات الدينية والسياسية يكون شديداً خاصة في المراحل المتأخرة من نموها، أي عندما تنمي كل جماعة بناءها الهرمي وفلسفتها وتقبلها الولاء من الأفراد والأعضاء.

وتاريخ مجتمعات النموذج الثاني يبين كيف أن هذه المجتمعات بأكملها قد استخدمت في تنفيذ أمور دينية. ومجتمعات النموذج الثاني مجتمعات توسيعة، ولهذا فإن المنظمات الدينية متصارعة مع القوى السياسية من أجل السيطرة والتوسع السياسي. وعلى سبيل المثال، في العصور الوسطى فالمجتمعات الإسلامية والمسيحية عملت على توسعها، وأدى ذلك إلى صراع سياسي بين الإمبراطورتين. وهذا التصادم الديني والسياسي قد يكون عاملاً يساعد على التكامل بالنسبة لكل من الطرفين المتصارعين، فالحرب العالمية قد يُنظَر لها أيضاً على أنها عامل فعال للدين لكيفية استخدام الدين على أنه عامل تدميري.

وفي النموذج الثاني فإن الدين ليس فقط عاملاً من عوامل الفرقة، ولكن أيضاً له دور خلاق ومجدد. وبالمقارنة في حالة النموذج الأول، فإن الدين ليس فقط شعائر أو عادات ضمنية، ولكنه يشكل إلى حد كبير نسق حيوي للسلوك المقبول، فالدين في هذه المجتمعات ليس فقط تطبيقاً قبلياً ولكنه يدعي إلى أن يكون عالمياً، وبالإضافة فإن الدين مطالب بتقديم القيم الأخلاقية التي هي أعلى من مستويات الحياة اليومية.

فعندما تكون هذه المجتمعات أكثر تعقيداً، وعندما تخضع الطبقات المسيطرة لتحدي الطبقات الجديدة التي تحاول أن تقدم نظاماً اقتصاديا وسياسياً جديداً، فإن ذلك يسبب تغيراً أساسياً في الأخلاق الدينية التي يجب أن تكون. والتجديدات الأخلاقية ربما تكون عوامل مساعدة للإسراع بالتقدم الاقتصادي والاجتماعي كما أوضح ماكس فيبر ذلك بالإضافة بأن دور الدين أيضاً في هذه المجتمعات يتمثل في حماية وحفظ القيم التقليدية.

أما بالنسبة للفرد. فالقيم الدينية في هذه المجتمعات تظل الأساس أو المركز الذي ينبع منه تكامل سلوك الشخص وتكوين صورة لنفسه بالإضافة فإن

التصديق المقدس الذى يعطى من الدين لنسق المراكز والأعمال فى المجتمع يساعد الفرد على أن يقبل مكانته ووضعه الاجتماعى بدون أن يصاب بصراع داخلى فى نفسه. وبتقدم الوقت، وبتقدم التخصص فى هذه المجتمعات، وكذلك الإقلال من الأمية، وزيادة الاحتكاك مع الثقافات، فإن هذا ربما يشجع الإلحاد والشك الدينى.

وفى مناقشتنا للنموذج الثانى. فإننا ننظر إليه فى ديناميته، أى عملية التغير التى تميز هذا النموذج وتصبح واضحة عندما تتطور هذه المجتمعات.

وليس فقط النسق الاقتصادى والتكنولوجى الذى يؤدى إلى كسر قاعدة العادات القديمة، ولكن أيضا التطورات الداخلية فى الدين نفسه فى نسق اعتقاداته والممارسة والجماعات الدينية. كل هذا يساعد للوصول إلى هذا الهدف.

٣- النموذج الثالث: المجتمعات العلمانية الصناعية:

على خلاف النموذجين السابقين اللذين تعرفنا عليهما من البيانات الأنثروبولوجية والتاريخية من كل أجزاء العالم، فإن النموذج الثالث قائم أساساً على الوضع الاجتماعى والثقافى للمجتمعات الحديثة. هذه المجتمعات تتميز بأنها على درجة عالية من الدينامية. فالتكنولوجيا بدأت تؤثر فى كل جوانب الحياة، ولها من التأثير على التكيف مع العالم الطبيعى كذلك مثل ما لها من التأثير على العلاقات الإنسانية. كذلك فإن تأثير العلم والتكنولوجيا لها نتائج مهمة على الدين هذا التأثير هو أحد الأسباب لماذا يتعود أعضاء هذه المجتمعات لأن يستخدموا مناهج الحس الامبريقى (التجريبى) العام والاهتمام الخاص بالإنسانيات. هذا الاهتمام بالعلمانية يتزايد ويتوسع على حساب فكرة المقدس، ودعوى هذه العلمانية قائمة على أساس أن الاعتقادات الدينية والممارسات هى محدودة لقطاعات صغيرة ومتنوعة من قطاعات الحياة فى المجتمع.

ولكي تجاري هذه النزعة، فإن الكنائس في هذه المجتمعات انشغلت بأنشطة علمانية.

أما بالنسبة للرموز الدينية:

فإن هناك تعدد بالنسبة للرموز، فإلى جانب الرموز المقبولة من الكنيسة والتي يتطلبها من أعضائها، فهناك أنساق أخرى رمزية موجودة وماثلة في حياة الأفراد. فالرموز التقليدية قد تفسر مرة على أنها دينية، ومرة أخرى على أنها علمانية، وهذا التفسير يختلف حسب العضوية للهيئات المختلفة.

وبالرغم من تماسك بعض المجتمعات الدينية بالنظرة الثنائية، فإن هناك اتجاه قوى في الفكر الديني الحديث نحو إعادة تفسير الاعتقاد الديني ورموزه حتى تصل إلى نوع من الانسجام مع الظروف العلمية والاقتصادية والسياسية للقرن العشرين.

أما نسق الفعل الديني:

التأكيد في هذا النموذج على الفعل في داخل هذا العالم، حتى في الأنظمة الدينية التي كانت تتميز بانعزالها عن العالم، فإن الاهتمام المتزايد الآن بالتعليم والطب وأشكال أخرى من الخدمة الاجتماعية - وكثير من القس والراهبات في الكنيسة الكاثوليكية الطائفية عملوا على البحث عن مهمة وتدريب فني في جماعات علمانية كجزء من تأدية واجبهم الديني في هذا العالم - والفاتيكان الثاني قد اكد على الحاجة إلى الأمور الاجتماعية كجزء من أنشطة الكنيسة، وكثير من أعضاء الكنائس الكاثوليكية في أمريكا يلعبون دوراً هاما في مشكلة نضال الزنوج لحقوقهم الإنسانية. كذلك الأديان الأخرى نجد اهتماماً خاصاً بها بإنشاء أقسام للفعل الاجتماعي أو العدالة الاجتماعية والتكيف مع الحياة الحضرية.

وفي أمريكا فإن الطبقة المتوسطة لكل الأديان كان اهتمامها في الأساس هو بالأخلاق المهذبة المتعلقة بأعمال المهنة أو السياسة أو الأنشطة الأسرية.

ولهذا فإن الكنائس تنظم لهم محاضرات ومناقشات التي من خلالها يصبح الأفراد على وعي بهذه المسائل الأخلاقية وكيفية حلها.

كل هذا يعني أن الاتجاه العام بالنسبة لهذا النموذج بأنه إذا كان للدين أن يكون له مكان فإنه لابد أن يثبت وجوده في أنواع السلوك الخاصة بهذا العالم.

الجماعات الدينية:

والجماعات الدينية في هذا النموذج من المجتمعات الصناعية متعددة ومقسمة، فالعقيدة اختيارية على الأقل من حيث المبدأ. فليس هناك أي كنيسة لها السيطرة في الادعاء بأن الولاء يجب أن يكون لها من كل أفراد المجتمع. وليس هناك أي علاقة رسمية بين الجماعات الدينية والحكومة العلمانية.

وبالرغم من ذلك. فهناك في هذه المجتمعات عدد هائل من الجماعات الدينية المنافسة. ففي مجتمعات الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٦٤ فإن هناك حوالي ٢٥٨ جماعة دينية تمثل ٦٣.٤ ٪ من السكان، ٣٦ ٪ غير منتمي لأي جماعة.

وهذه الجماعات سوف تختفي نتيجة للفردية الزائدة بين الأعضاء .

وظائف الدين:

في هذا النموذج تتأثر بشكل واضح بتغير خصائص الدين:

فالانقسامات الدينية بالإضافة إلى النمو المتزايد للعلمانية تغير في الوظيفة التكاملية للدين. والتسامح بوجود الاختلافات الدينية هو نتيجة لسيطرة القيم العلمانية على نسق القيم العام لهذا المجتمع.

وكما أشرنا أن ٣٦ ٪ من سكان المجتمع الأمريكي لا ينتمون لأي جماعة دينية. وهذا بدوره يثير تساؤلاً عن وظيفة الدين في المجتمع الحديث.

والدين قد يؤدي وظيفة تكاملية في مختلف الجماعات الدينية، خاصة إذا ما كانت العضوية فيها قائمة على أساس الطبقة أو السلالة أو العنصر، فالدين هنا يقوم بوظيفة الانتماء وتقوية الشعور بالانتماء للجماعات التي تشعر بأنها مظلومة

او انها اقلية بالنسبة للمجتمع الكبير. فالدين عامة يستخدم لوظائف التكامل. ففي وقت الأزمات في هذه المجتمعات عادة ما يقوم الدين بوظيفة التكامل أو التماسك. ونجد أن الاتجاه العام في ذلك هو الرجوع إلى التقاليد الموروثة. وغالبا ما يبدأ الرؤساء أحاديثهم بالصلاة أو ببعض الشعائر الدينية، وفي وقت الحروب فإن مساعدة الإله شئ يتوخاه ويتمناه الجميع.

والسؤال، هل تستطيع العلمانية أن تحقق تكامل المجتمع بدون الرجوع إلى بعض القيم الدينية؟ ولقد حاول الإجابة على هذا السؤال هربرج بقوله إن أديان أمريكا تقدم الروحانية للطريقة الأمريكية في الحياة، التي تتميز بالديمقراطية أو الأخلاقية. وبهذا تصبح متميزة بالمقدس. فالأديان تصبح أداة تحفظ القيم الوطنية والتي تلقائيا يتزايد الاعتقاد بأنها قيم عليا. كذلك الشيوعية والفاشية تعبر عن اتجاه مماثل نحو جعل الدولة شئ مقدس للفرد ذاته وإحاطة نفسها بنوع من القداسة والتبجيل.



الفصل الثالث عشر

علم الاجتماع والنظام الأسرى

- تمهيد
- التطور التاريخى للدراسات الأسرية
- تعريف الأسرة
- الأسرة النواة والأسرة الممتدة
- أشكال الزواج
- وظائف الزواج ووظائف الأسرة
- تنظيم الأسرة
- مشاكل الأسرة
- الأسرة المصرية والتغير الاجتماعى



الفصل الثالث عشر

علم الاجتماع والنظام الأسرى

تمهيد:

تعتبر دراسة الأسرة فى علم الاجتماع من أكثر الموضوعات التى نالت اهتمام أغلب الباحثين فيه، وقد عبر الكثيرون عن المكان الهام الذى تشغله الأسرة فى المجتمع بطرق متعددة، حتى أن أحد تعريفات علم الاجتماع فى وقت ما كانت تجعل الأسرة الموضوع الرئيسى لهذا العلم، وليس هناك موضوع اتفق عليه علماء الاجتماع مثلما اتفقوا حول المسائل التى يجب معالجتها عن دراسة التنظيم الأسرى، كما أن الأبحاث عن الأسرة القديمة وعن التنظيم الأسرى فى المجتمعات البدائية كثيرة إلى الحد الذى مكن علم الاجتماع من أن يطور الدراسة العلمية لهذا الجانب الهام من موضوعاته المتعددة. ومن أجل هذا نجد من المناسب أن نوجز فى مطلع هذا الفصل لتاريخ الأسرة فى علم الاجتماع، ثم نتناول تعريف الأسرة ومعرفة وظائفها ومشاكلها.

أولاً - التطور التاريخى للدراسات الأسرية:

على الرغم من كثرة الدراسات التى أجريت حول موضوع الأسرة، فليس لدينا فى الوقت الحاضر تاريخ شامل للمحاولات التى بذلت على مر التاريخ لهذا النظام الإنسانى، وكل الذى نستطيع أن نفعله هنا أن نعرض المسألة فى خطوطها العريضة.

١- يتبين الباحث من استقراء علم اجتماع الأسرة (وهو فرع من علم الاجتماع يقتصر على دراسة مسائل الأسرة) أن هناك عدة نماذج من الدراسة تأثرت بمناهج العلم من ناحية وبالأيديولوجيا السياسية والدينية من ناحية أخرى.

٢- عندما كان علم الاجتماع الأسرى فى أول مراحله فى أواخر القرن التاسع عشر، كانت الأفكار التطورية المتأثرة بالدروانية الاجتماعية تسيطر على كل نواحى الاهتمام بموضوع الأسرة، ولذلك كانت أهم موضوعات البحث تدور حول الإجابة عن عدد من الأسئلة مثل: هل المجتمعات الإنسانية من حيث الأصل تأخذ بنظام الوحدانية فى الزواج أو بالنظام المختلط؟ أو هل الأسر من حيث النسب أبوية أو أمية؟ ومن الطبيعى أن الإجابة على هذه الأسئلة التى تتعلق بأصل الأسرة الإنسانية ونموها كانت تتطلب استخدام الوثائق التاريخية والفولكلور والأساطير. أما إذا اتجه الباحث إلى دراسة الأسرة دراسة مباشرة فإن مادته كان يستمدها من الحقائق المعروفة عن أكثر المجتمعات بدائية. ولقد كان يظن فى هذا الوقت أن الأنساق الأسرية للمجتمعات البدائية المعاصرة مشابهة للصور الأولية للأسرة، ولذلك فإن دراسة هذه الأسرة يمكن أن تلقى ضوءاً على أصل الأسرة الإنسانية ونموها.

٣- ان نتيجة هذه الاستقصاءات لم تكن متسقة أو شاملة، ونشير هنا إلى أن مورجان وإنجلز حاولا أن يدللا على وجود أمثلة من الزواج المختلط (الشيوعية الجنسية) والزواج الجماعى فى المجتمعات البدائية، وهذا فى الوقت الذى حاول فيه وسترمارك أن يقدم الأدلة التى تثبت أن الأسر البدائية كانت أسراً (وحدانية) ومخلصة فى نفس الوقت.

٤- جمع هنرى مين عدداً كبيراً من الأدلة التى تثبت أن النظام الأبوى كان موجوداً فى الصور الأولية للاسرة، ولكن باخوفين قدم أدلة أخرى تثبت أن الأموية كانت سابقة فى وجودها فى المجتمع الإنسانى على الأبوية.

ونظراً لأن الأدلة التى قدمها هؤلاء لم تكن قاطعة أو واضحة فقد ظلت موضوعات الخلاف بينهم قائمة. ولكن هذه الدراسات لم تذهب عبثاً لأن المعلومات التاريخية والإثنولوجية التى جمعت جعلت الاهتمام يتركز حول الأسرة، الأمر الذى ترتب عليه فيما بعد أن أصبحت موضوعاً هاماً للبحث العلمى. ظل يتطور حتى أصبح الاتفاق على عدد من المفاهيم المتعلقة ببناء الأسرة ووظائفها نقطة التقاء هامة بين علماء الاجتماع اليوم.

٥- وقد تحول الاهتمام فى أواخر القرن التاسع عشر إلى دراسة مشاكل الأسرة المعاصرة وقت داك. نتيجة للتغيرات الاجتماعية السريعة وما ترتب عليها من تصدعات فى عدد كبير من الأسرة، ووقوع نسبة منها على خط الفقر.

ومن أبرز الاستجابات التى ظهرت فى هذا القرن الأبحاث التى أجراها سدنى وبياتريس ورواونترى التى دارت حول الحياة والعمل فى مدن أوربا وأمريكا. ويلاحظ أن بعض الدراسات المماثلة لمشاكل الأسرة أهملت دراسة الظروف الاقتصادية، والتفتت إلى مسائل مثل الكون والطابع العنصرى.

٦- ويعتبر لبلاى من أبرز العلماء الاجتماعيين الذين اهتموا بموضوع الأسرة، وخصوصاً الجانب الاقتصادى منها، ويبدو هذا من منهجه فى الدراسة الذى جعل مستوى المعيشة، المقياس الموضوعى الذى عن طريقه يمكن كشف بناء الأسرة ووظائفها.

٧- وقد تحول الاهتمام فى مطلع القرن العشرين إلى استقصاء مشاكل أخرى غير مستوى المعيشة أو الفقر، نظراً لازدياد حالات الطلاق والانفصال. كما أجريت دراسات على نسب المواليد واشتغال المرأة وظهور النزعة الفردية. وما ترتب على ذلك تدرس عن طريق استخدام الإحصاء الذى يستخدم الأرقام المسجلة عن الطلاق والجريمة والإجهاض وحجم الأسرة ونسب المواليد والوفيات.

٨- ومن الجدير بالذكر هنا أن عدداً من الباحثين أدرك منذ أوائل هذا القرن عدم جدوى استخدام الإحصاء وحده فى دراسة الأسرة، وتتلخص دعواهم فى أن الأسرة تميل بسرعة إلى التفكك، وأى أسرة جديدة فى سبيلها إلى الظهور، ولهذا يجب أن يكون تحليل الأسرة مرتكزاً على نوع خاص من التفكير يتصور الأسرة جزءاً متكاملاً من مجتمع يتغير بسرعة.

٩- وعندما بدأت دراسة الأسرة تتقدم بدأ الباحثون يدخلون فى الدراسة عوامل أخرى لم تكن من قبل موضع الاهتمام، ومن أهم العوامل التى استحوزت على اهتمامهم (عامل التوافق) الذى اعتبر أساساً هاماً فى ثبات

الأسرة وفى تكامل أعضائها، كما أصبح من المألوف مناقشة مشاكل التوافق الشخصي والجنسي وأثره في حياة الأسرة.

١٠- وتعتبر دراسة برجل نقطة تحول في اتجاه البحث الأسرى، ويبدو هذا التحول من تعريفه للأسرة بأنها وحدة من شخصيات متفاعلة، وجوهر هذا التحول يظهر في التقليل من أهمية الأسرة كبناء اجتماعي، والتركيز بالتالي على اتجاهات الأعضاء، وقد ظل هذا الاتجاه الجديد يتلقى مصادر جديدة من التأييد والتثبيت عن طريق الدراسات التى تجرى فى علم النفس والتحليل النفسي.

١١- وقد بدأ الباحثون في الأسرة منذ الحرب العالمية الثانية نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية التى ترتبت عليها هذه الحرب، يهتمون بالدراسات المقارنة ويحاولون أن يكشفوا عن أنماط الأسرة المتعددة، ويبينون كيف يتميز كل نمط منها بطابع خاص في العلاقات وفى رعاية الأطفال وفى تربيتهم.

١٢- ومن أبرز الاتجاهات الحديثة الآن ذلك الاتجاه الذى يهتم بدراسة كل التفاصيل التى تكشف عن الحياة اليومية للأسرة في محاولة لفهم علاقة الأسرة كنسق اجتماعي بالأنساق الأخرى في المجتمع من الناحيتين البنائية والوظيفية. كما أن الاهتمام بالفرد في الأسرة أصبح من العلاقات المميزة لهذا الاتجاه عند عدد كبير من الذين يفضلونه كمدخل أساسي لفهم الأسرة الحديثة.

وهكذا نتبين أن دراسة الأسرة مرت على عدة تطورات كانت تعكس ظروف العصر وطابع الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولذلك عندما أدرك الباحثون أن الأسرة أخذت تواجه عدداً من المشاكل نتيجة لانتشار التصنيع وما صاحبه في أول الأمر من بؤس وفقر وهجرة، حولوا اهتمامهم إلى دراسة العوامل التى تؤدى إلى تصدع الأسرة، وما قد يترتب عليه من طلاق وانفصال وانحراف للأحداث. وتحول اتجاه الباحثين مرة أخرى عندما تزايد اشتغال المرأة وما ترتب عليه من تغيرات هامة في وظائف الأسرة وفى ظهور الفردية، وذلك نظراً لتغير عمليات التنشئة الاجتماعية وعلاقة الأسرة بالجماعات الأخرى

في المجتمع. كما أن الاهتمام الحديث بالفرد عند دراسة الأسرة يعـور النظرة الخاصة لطبيعة العلاقات الأسرية في بعض المجتمعات التي بلغت فيها الفردية ميلغا واضحا، ونحن حين نتعرض لمجتمعنا لبحث الأسـرة فيه. نجد أنها أخذت تتغير تقريباً في الاتجاه الذى سارت فيه الأسرة في بعض المجتمعات التى تسبقنا في مراحل النمو الاقتصادى والصناعي. ولهذا نجد من المناسب أن نؤكد على أهمية دراسة الأنماط الأسرية في مختلف أجزاء محتمعنا في الوقت الحاضر لما تمثله هذه الدراسة من أهمية في الدراسة المقارنة على مستوى عـالمي، أو على مستوى التغير في مجتمعنا نفسه في السنين القادمة.

ثانياً: تعريف الأسرة:

هناك خطأ شائع يقول إن هناك ارتباطـاً كبيراً بـين مصطلحـي الـزواج والأسرة، حتى أن هناك ميلاً الى استخدامها في نفس الوقت ليشير إلى نفس الشئ، ولكنها في الحقيقة ليسا شيئاً واحداً. فالزواج عبارة عن تزواج منظم بين الرجال والنساء على حين يجمع معنى الأسرة بين الزواج والإنجاب، وتشـير الأسرة كذلك إلى مجموعة من المكانات والأدوار المكتسبة عن طريق الزواج والإنجاب. وهكذا نجد أنه من المألوف اعتبار الزواج شرطاً أولياً لقيام الأسرة واعتباره نتاجاً للتفاعل الزواجي (١).

ولقد ظهرت خلال السنوات الماضية عدة تعريفات للأسرة تتجه جميعاً إلى إبراز الارتباط الدائم بين الرجل والمرأة وما يترتب على ذلك من إنجاب ورعاية للأطفال والقيام ببعض الوظائف التى لم تسقط عن الأسرة في تطورها من صورة الى أخرى بتغير المجتمع والثقافة (٢).

وسنستعرض هنا بعض أهم التعريفات للأسرة:

---

(١) د. سناء الخولي. الزواج والعلاقات الأسرية. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٧٩، ص ٣٩.

(٢) كمال الدسوقي. الاجتماع ودراسة المجتمع. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١، ص ٤٣.

١- يعرف كونت الأسرة بأنها الخلية الأولى في جسم المجتمع، وأنها النقطة الأولى التي يبدأ منها التطور، وأنها الوسط الطبيعي الاجتماعي الذي ترعرع فيه الفرد [١].

٢- ويعرف هربرت سبنسر الأسرة بأنها الوحدة البيولوجية والاجتماعية.

٣- أما عالم الاجتماع الأمريكي وارد، فيعتبر أن المشاعر والأحاسيس الإنسانية قوة اجتماعية، وبنى على ذلك نظريته في الحب على أساس أنه أول خطوة في وجود نظام الزواج.

٤- ويرى سمنر أن هناك جاذبية في الرجال النساء زودتهم بها الطبيعة، وهي السبب في دوام وبقاء الجنس البشري، وأدت هذه الجاذبية الطبيعية إلى الزواج الذي يعتبر إلى جانب ذلك مظهراً للتعاون والإبقاء على وجود الذات وحفظ الكيان الاجتماعي.

٥- ويعرف وليم أجبرن الأسرة بأنها منظمة دائمة نسبياً، مكونة من زوج وزوجة وأطفال أو بدونهم. ويرى أن العلاقات الجنسية والوالدية هي المبرر الاساسي لوجود الاسرة. وانها من مميزات الأسرة في كافة المستويات الثقافية.

٦- أما "بل" وفوجل فيعرفان الأسرة بأنها الوحدة البنائية المكونة من رجل وامرأة يرتبطان مع أطفالهما بطريقة منظمة اجتماعياً، سواء كان هؤلاء الأطفال من صلبهما أو بطريق التبني.

٧- ويعرف ماكيفر الأسرة بأنها "جماعة دائمة مرتبطة عن طريق علاقات جنسية بصورة تمكن من إنجاب الأطفال ورعايتهم". وقد تكون في الأسرة علاقات أخرى تقوم على معيشة الزوجين معاً، ويكونان مع أطفالهما وحدة مميزة [٢].

٨- ويعرف نيمكوف الأسرة بأنها "ارتباط يدوم قليلاً أو كثيراً للزواج وللزوجة بأطفال أو بدون أطفال، أو هو ارتباط رجل وامرأة فقط بالأطفال.

---

(١) د. صلاح العبد، علم الاجتماع التطبيقي، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢) صلاح العبد، مرجع سابق، ص ١٢٥-١٢٦.

٩- أما لندبرج فيعرف الأسرة بأنها النظام الإنساني الأول، ومن أهم وظائفها إنجاب الأطفال والمحافظة على النوع الإنساني، كما أن النظم الأخرى عند أصولها في الحياة الأسرية إلا أن أنماط السلوك الاجتماعي والاقتصادي والضبط الاجتماعي والترفيه والدين نمت أول الأمر داخل الأسرة (١).

والملاحظ على التعاريف السابقة أنها أعطت الأسرة بعض الخصائص التي تميزها عن غيرها من النظم الاجتماعية، وهي:

أ- وجود علاقة جنسية زواجية بين رجل وامرأة.

ب- صورة من صور الزواج أو أي ترتيب نظامي تقوم على أساسه هذه الرابطة الزواجية وتستمر على مر الزمن.

جـ- نظام للتسمية يتضمن في نفس الوقت طريقة لتحديد سلسلة النسب.

د- مسكن مشترك قد تختص به الأسرة وحدها، أو يشاركها فيه عدد من الأسر الأخرى.

خلاصة القول إن الأسرة تعني من الناحية السوسيولوجية معيشة رجل وامرأة أو أكثر معاً، على أساس الدخول في علاقات جنسية يقرها المجتمع، وما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات، كرعاية الأطفال وتربيتهم، أولئك الذين يأتون نتيجة لهذه العلاقات، أو أنها جماعة تقوم على العلاقة الجنسية بشرط أن تكون محدودة ودائمة بصورة تكفي لإعالة الأطفال وتربيتهم (٢).

ثالثاً: الأسرة النواة والأسرة الممتدة:

هناك نوعان أساسيان من الأسر يسمى الأول بالأسرة النواة والثاني بالأسرة الممتدة. فالأسرة الممتدة تشكل نمطاً شائعاً في المجتمعات البدائية والمجتمعات غير الصناعية، وهذه الأسر عبارة عن جماعة متضامنة، الملكية فيها عامة والسلطة فيها لرئيس الأسرة أو الجد الأكبر. أو بمعنى آخر هي الجماعة

---

(١) عاطف غيث، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٤٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧٦ - ٤٧٧.

التى تتكون من عدد من الأسر المرتبطة، سواء كان النسب فيها إلى الرجل أو المرأة، ويقيمون في مسكن واحد، وهي لا تختلف كثيراً عن الأسرة المركبة أو العائلة.

والعائلة هذه أو الأسرة الممتدة توجد في القرية أكثر مما توجد في المدن، حيث ترتبط الأسر وتترابط فيما بينها حيث أن انتماؤهم يكون لجد واحد.

أما الأسرة النواة فتعتبر الآن ظاهرة عالمية – وترجع عالمية الأسرة النواة إلى الوظائف الأساسية التى تؤديها والمشكلات التى قد ترتب على قيام أية جماعة أخرى بهذه الوظائف – ويمكننا أن نلمس أربعة وظائف أساسية تؤديها الأسرة النووية للحياة الاجتماعية والإنسانية، هي الوظائف: "الجنسية والاقتصادية والتناسلية والتربوية". ويمكننا أيضاً التمييز بين الوظائف الاجتماعية والسيكولوجية التى تؤديها الأسرة النووية. فلقد ميز كنجزلي دافيز بين أربعة وظائف اجتماعية أساسية هي: التناسل والرعاية للأطفال والصغار، والوضع والتنشئة الاجتماعية. ومن بين هذه الوظائف نجد الوظيفتين الأوليين والوظيفة الرابعة تحتل الأهمية الكبرى. ذلك لأن وظيفة الوضع التى تعنى ربط الفرد بنسق مهنى أو تسلسل رئاسى ليست وظيفة عالمية للأسرة النووية، فهى توجد فقط في المجتمعات القائمة على نسق تدريجى جامد، بينما لا توجد بنفس الدرجة من الشيوع في المجتمعات الصناعية الحديثة، أما الوظائف السيكولوجية فتتمثل أساساً في إشباع الحاجات الجنسية للزوجين، ثم تحقيق الأمان العاطفى للزوجين والأطفال على السواء.

ويستند البناء الأساسى للأسرة النووية على مبدأ تحريم الزواج من المحارم، ويترتب على ذلك نتيجة هامة هي أن الأسرة النووية لا تستمر عبر الزمان، بل أنها تقتصر على جيلين. أما الجيل الثالث فيمكن أن يظهر فقط عندما تشكل أسر جديدة عن طريق تبادل ذكور وإناث الأسر النووية القائمة، ومعنى ذلك أن كل راشد طبيعى في كل مجتمع ينتمى لأسرتين نوويتين على الأقل:

أسرة التوجيه التي يولد فيها ويتربى بها. والتي تضم أباه وأمه وإخوته وأخواته. وأسرة التناسل التي يقيمها بزواجه والتي تشمل زوجته وأولاده.

وتعد الأسرة النووية المستقلة خاصية هامة من خصائص المجتمعات الصناعية الحديثة. ويعود شيوع هذه الأسرة إلى عدد من العوامل، أهمها سيطرة النزعة الفردية التي انعكست على كثير من المظاهر كالملكية والقانون والأفكار الاجتماعية العامة المتعلقة بسعادة الفرد ورضائه الذاتي. كما يعود إلى شدة كل من الحراك الجغرافي والاجتماعي (١).

رابعاً: أشكال الزواج:

أما عن أشكال الزواج، فإننا نستطيع أن نميز هنا بين هذه الأنواع:

أ- الزواج الجماعي: من المعتقد أن هذا الشكل من الزواج كان سائداً في المجتمعات البدائية في العصور القديمة، إلا أن هذا الرأي لم يتأكد بصورة علمية دقيقة حتى الآن. وهو يعني زواج عدد من الذكور من عدد مساو لهم من الإناث. إلا أن هذا الشكل من الزواج نادر الحدوث في الوقت الحالي إلا في حالات فردية تكون شاذة إلى حد كبير.

ب- تعدد الأزواج: وهو أن تتزوج امرأة واحدة بعدد من الرجال، وهذا الشكل من الزواج محدود الحدوث، ولا يوجد إلا في بعض القبائل الإفريقية ذات التقاليد الصارمة. وقد تبين من عينة عالمية أخذت من ٥٥٤ مجتمعاً أن تعدد الزوجات يلقى قبولاً وتأثيراً ثقافياً في ٤١٥ مجتمعاً أي بنسبة (٧٧ ٪) بينما لم يجد زواج امرأة واحدة من عدة رجال قبول سوى في أربع مجتمعات فقط، أي بنسبة أقل من (١ ٪) وهذه النسبة خير دليل على أن هذا النوع من الزواج نادر جداً.

جـ- تعدد الزوجات: وهو من أكثر الزواجية انتشاراً، ويوجد في المجتمعات البدائية والنامية - ويدل من ناحية منه على المكانة العالية

---

(١) بوتومور. تمهيد في علم الاجتماع. ترجمة د. محمد الجوهري وآخرين. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٧٣، ص ٢٥٩ - ٢٦٣.

والثراء - أما لماذا يتخذ الرجل أكثر من زوجة، فهناك ظروف ودوافع عديدة تؤدي إلى ذلك، فإلى جانب إظهار المكانة العالية والهيبة، توجد في بعض الحالات الحاجة أو الرغبة في الإنجاب، وخاصة إنجاب الذكور. هذا وعادة يراعى في الأسرة التي تتعدد فيها الزوجات عدة اعتبارات مثل:

١- أن يكون للزوجات حقوقاً متساوية.

٢- أن تقيم كل زوجة في مكان مستقل.

٣- أن يكون للزوجة الأولى (الأكبر سناً في العادة) مميزات ونفوذ معروف.

د- وحدانية الزواج: ويعتبر هذا الشكل من الزواج من الأشكال المفضلة في كثير من المجتمعات. ومعناه زواج رجل واحد من امرأة واحدة. وهذا الشكل منتشر على أوسع نطاق عالمياً، بل أن هناك مجتمعات ترفض كل أشكال الزواج عدا الوحدانية، إلا أن هذا لا يعني أن الزواج لابد وأن يحدث مرة واحدة طوال العمر فقط، بل يمكن السماح بالزاوج مرة أخرى في حالة الطلاق أو وفاة أحد الزوجين (١).

خامساً: وظائف الزواج ووظائف الأسرة:

للزواج وظائف عديدة يفاد فيها الفرد والمجتمع. وتختلف وظائف الزواج باختلاف أبنائه، فعندما يكون الزواج من داخل النسق القرابي أو الأسر الممتدة يصبح الإنجاب والمحافظة على اسم الأسرة وملكيتها من وظائفه الأساسية.

وفي المجتمعات نجد أن الزواج تكون له وظائف عديدة منها: الاستقلال والاستقرار، وتأسيس أسرة خاصة، والإنجاب، وتحقيق السعادة والحب، والاعتماد

---

(١) د. سناء الخولي. مرجع سابق. ص ٥١- ٥٣.

على النفس، والأمن الاقتصادي، والعلاقة الجنسية المشروعة، وتبادل العواطف، واستبعاد مشاعر الوحدة ... الخ [1].

وللأسرة وظائف عديدة – ولكننا نستطيع أن نجمل أهم هذه الوظائف في الوظائف التالية:

أ– وظيفة تنظيم السلوك الجنسي والإنجاب:

حيث أن الزواج يعتبر اتفاقاً تعاقدياً يعطي العلاقات الجنسية والاجتماعية التي تكون الأسرة طابعاً رسمياً وثابتاً. فالمجتمع لا يسمح بالعلاقات الجنسية بغير زواج، وإن كان قد يسمح في بعض الأحيان في بعض المجتمعات الأخرى.

ب– العناية بالأطفال وتربيتهم:

فمن أهم وظائف الأسرة إنجاب الأطفال والإشراف على رعايتهم وتربيتهم. ولذلك تكون الأسرة مسئولة مسئولية تامة عن عملية التنشئة الاجتماعية التي يتعلم الطفل من خلالها خبرات الثقافة وقواعدها في صورة تؤلهة وتمكنه من المشاركة مع غيره من أعضاء المجتمع.

جـ– التعاون وتقسيم العمل:

يكون الرجل والمرأة فريقاً متعاوناً على الأقل من الناحية الاقتصادية، أو بتقسيم العمل داخل الأسرة بين الرجل والمرأة في المسائل المتعلقة براحة الأطفال وطمأنيته النفسية، وتربيته وتوجيهه، وتختلف المجتمعات في مبلغ مشاركة الرجل والمرأة في النهوض بهذه المستويات، ويلاحظ أن الإشراف على المنزل ورعايته من الأعمال التي تتحملها المرأة.

د– الإشباع:

تعتبر الأسرة الجماعة الأولية التي توفر للطفل أكبر قدر من الحنان والعطف، وذلك يتوقف على قدر كبير من التكامل الانفعالي والعاطفي عند أعضاء الأسرة وعلى مبلغ ما يتوفر لهم من إشباع لرغباتهم المتعددة، ويلاحظ أن

---

(1) المرجع السابق، ص ١٦٩ – ١٧٠.

هذا الإشباع لا يقتصر على الأطفال فقط. ذلك أن الكبار يجدون مسرة كبيرة فى مداعبة الأطفال واللعب معهم (١).

تعتبر الاسرة مدرسة لافرادها، فهى التى تشكل حياة الصغار وهى التى تقوم بدور التنشئة الاجتماعية، كما أنها تعمل على نقل التراث الاجتماعى من جيل إلى جيل، وتعودهم على التقاليد المرعية فى المجتمع، وخاصة ما يتعلق منها بالسلوك والآداب العامة والدين – ومن ثم فهى نواة المجتمع وأساس تكوينه. فإذا كان النظام الأسرى فى مجتمع ما منحلا وفاسداً فإن هذا الفساد يتردد صداه فى المجتمع ويساعد على تدعيمه وتقويته، ومن ثم يتبين أن وظائف الأسرة تعدت من ناحية الإشباع الجنسى والإنجابى إلى وظيفة التنشئة الاجتماعية وإعداد المواطنين (٢).

سادساً: تنظيم الأسرة:

إن الأسرة موجودة فى كل مجتمع مهما كانت ثقافته بسيطة، ويتأكد هذا القول عن طريق الأبحاث التى أجريت فى المجتمعات البدائية أو المجتمعات التاريخية. أما ما قد يثيره البعض عن شكل الأسرة قبل وجود الثقافة، فأمر لا نستطيع تصوره. ويلاحظ أن تنظيم الأسرة قد تعرض لتغيرات واسعة النطاق خلال التاريخ. والصورة العادية للأسرة بين البدائيين تشبه أسرتنا اليوم لأنها تنتظم حول زوج وزوجة وأطفالهما. الأمر الذى جعل الأسرة عبارة عن وحدة مستقلة لها وظائف تقوم بها، بعيدة عن الوظائف التى تقوم بها أسر من نفس النوع، والتغير الأساسى فى تنظيم الأسرة يكون إما بإضافة أعضاء آخرين لها، أو بزيادة الوظائف أو تناقصها. وقد عرفت المجتمعات على مر التاريخ أيضا أن الاسرة إما أن تقوم على زواج داخلى أو على زواج خارجى. والأساس فى هذه الحالة يقوم على اعتبارات متعددة، منها النظرة الخاصة إلى الأقارب باعتبارهم من المحارم الذين لا يجوز الزواج منهم، أو الرغبة فى توسيع نطاق العلاقات

---

(١) د. عاطف غيث. مرجع سابق. ص ٤٨٧.

(٢) د. صلاح العبد. مرجع سابق. ص ١٢٨.

القرابية من الداخل. محافظة على الثروة او العصبية او الرغبة في إنشاء علاقات مع الغير توسيعاً لنطاق العلاقات الاجتماعية، أو طلباً لمراكز القوة التى قد تترتب على الزواج الخارجي.

ويقرر ماكيفر وبيج أن هناك عدداً من المظاهر المميزة للتنظيم الأسرى يجدر بنا هنا أن نشير إليها على النحو التالي:

١- العمومية: ومعناها أن الأسرة أكثر الصور الاجتماعية تردداً في المجتمع الإنساني، كما أنها توجد في كل المراحل التي مر عليها هذا المجتمع.

٢- الأساس العاطفي: الذى يقوم على مجموعة من الحوافز المعقدة العميقة التى تترجم عن الطبيعة العضوية للإنسان.

٣- التأثير العميق: الذى يظهر ما في الأسرة من تأثير واضح باعتبارها البيئة الاجتماعية الأولى التى تطبع الطفل بطابع خاص يظل ملازماً له طوال حياته.

٤- الحجم المحدد: لأن الأسرة باعتبارها جماعة لا تنمو إلى ما لا نهاية، بل أنها تتوقف عن النمو عند حد معين.

٥- الوضع الفريد: في البناء الاجتماعى الذى يظهر من أنها نواة كل التنظيمات الاجتماعية الأخرى.

٦- مسئولية الأعضاء: الي يتحملونها بصورة قد لا تتكرر كثيراً عند أعضاء أى جماعة أخرى في المجتمع، ذلك أن العضو في الأسرة لا يستطيع أن يتهرب من واجباته إزاءها، بينما يستطيع ذلك بصورة ما إذا كان منتمياً لأى جماعة أخرى في المجمتع.

٧- يشدد المجتمع حراسته على الأسرة عن طريق القواعد القانونية والمحرمات الاجتماعية، ولذلك فإنها تحظى بأكثر اهتمام أدوات الضبط الاجتماعي، ويعتبر هذا أبلغ دليل على أهميتها القصوى بالنسبة لمجتمعات الإنسان.

٨- الأسرة دائمة ومؤقتة في نفس الوقت: فهي دائمة من حيث كونها نظاماً معيناً موجوداً في مجتمع الإنسان في كل زمان ومكان، وهي مؤقتة لأنها لا تبقى اذا كنا نشير إلى أسرة بعينها. بل أنها تبلغ درجة معينة من النمو في الزمن تتحل فيها أن تنتهي لتقوم محلها أسرة أخرى وهكذا (١).

سابعاً: مشاكل الأسرة:

لاشك أن الأسرة في عصرنا الحديث تتعرض لعدد من المشاكل نتيجة للتغيرات الاجتماعية والثقافية التي يعتبرها البعض شديدة الوطأة على نظام الأسرة الحديث.

ومن أهم المشكلات التي تتعرض لها الأسرة:

١- الطلاق:

يلاحظ أن زيادة نسب الطلاق في مجتمعات اليوم يرجع أهم أسبابه إلى عدم التوافق الجنسي، واختلاف المستوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي بين الزوج والزوجة، ومنها الحب الرومانتيكي الذي يسبق الزواج والذي يصطدم بواقع الحياة ومشقاتها، ومنها أيضاً الخيانة الزوجية، والمرض والعقم وغير ذلك.

وأما عن أثر هذا الطلاق على الأطفال، فإن ذلك - بلا شك - له تأثيره الضار عليهم. فهؤلاء الأطفال يتعرضون لكثير من المآسي والضياع نتيجة لتخلف أساليب رعاية الطفولة، وكذلك نتيجة لعدم كفاية المؤسسات والتنظيمات التي يكون من مهامها الأساسية رعاية هؤلاء. وحتى إذا كان أحد الأبوين يقوم برعاية الأطفال فلاشك أن الطفل في حاجة لرعاية أبوية معاً. فالأم وما تضفيه من حنان على الطفل، والأب ورعايته الدائمة له وتوجيهه أمر هام للنشئ.

٢- عمل المرأة:

من مشاكل الأسرة الحديثة خروج المرأة للعمل - ولا يقصد بذلك أن مجرد خروج المرأة للعمل هو المشكلة في حد ذاتها - ولكن المشكلة جاءت

(١) د. عاطف غيث. مرجع سابق. ص ٤٨٣- ٤٨٥.

نتيجة لهذا الخروج. فنجد أن خروج المرأة للعمل أظهر مشاكل لم تكن موجودة من قبل، أهمها:

أ- مشكلة تربية الأطفال: حيث أن خروج المرأة للعمل جعل رعاية الأطفال وتربيتهم والعناية بهم أقل نجاحاً عن ذى قبل.

ب- انهيار تقسيم العمل خارج المنزل: حيث أن المرأة التحقت بأعمال كانت حكراً على الرجال، وأصبح من الصعب الآن أن نجد مهنة تخص الرجال وحدهم. هذه المشاركة بين النساء والرجال فى نفس المهن أدى إلى زيادة حدة التنافس والصراع بينهما.

جـ- انهيار تقسيم العمل فى المنزل: حيث أن الخط التقليدى الذى يميز أعمال الرجال وأعمال النساء فى المنزل أصبح أقل وضوحاً عن ذى قبل - حيث أن عمل المرأة فى المنزل أصبح يشارك فيه الرجل - وإذا تمسك الرجل بالمعايير القديمة لتقسيم العمل فإن ذلك يؤدى إلى شجار ومتاعب مستمرة بينهما.

ثامناً: الأسرة المصرية والتغير الاجتماعى:

نتيجة للتغيرات الاجتماعية العميقة والمستمرة التى حدثت فى المجتمع المصرى، فإن هذه التغيرات كان لها تأثيرها الواضح فى بناء الأسرة المصرية ووظائفها، وغيرت من شكل الصورة العامة للأسرة المصرية.

ويمكن أن نحصر أهم التغيرات الاجتماعية التى حدثت فى الأسرة المصرية فيما يلى:

١ - أن الأسرة المصرية تغيرت نتيجة لخروج المرأة للعمل وحصولها على الفرص المادية للرجل فى التعليم، وهو من أهم آثار التغير الاجتماعى المباشرة على الأسرة. كما أن مشاركة الزوجة فى تخطيط ميزانية الأسرة وفى اتخاذ القرارات المتعلقة بتنشئة الأطفال يتناسب طرديا مع عمل الزوجة أو دخلها الخاص، وليس معنى هذا أن الزوجة غير العاملة لازالت تابعة للرجل وتماثل الزوجة فى الأسرة الممتدة التقليدية، إن التغير الاجتماعى العام فى المجتمع

وتأثير وسائل الاتصال وزيادة الخصائص الحضرية وانتشار التعليم وتناقص حجم الأسرة أدى إلى تغير ملحوظ فـى دور الزوجـة وفـى مركزهـا فـى الأسرة إلى الدرجة التـى تستطيع معها القول بأنها تشارك ببطء فى مسئولية رعاية الأسرة وتخطيط مستقبلها وإن كانت هذه المشاركة متخلفة مـن منظـور سرعة التغير بالقياس إلى ما هو واقع فى الأسر التى حظيت فيها الزوجة على درجة عالية من التعليم.

٢- يعتبر حجم الأسرة الصغيرة نسبياً من أهم الدعائم التى تقوم عليها أسر اليوم. والأسرة المصرية حالياً لها خصائص الأسرة النواة التى تحـدث عنها علماء الاجتماع، ومن بين العوامل التى أدت إلى تناقص حجم الأسرة فى الوقت الحاضر ذلك الاتجاه نحو التحكم فى إنجاب الأطفال على الرغم من وجود عدد كبير منهم بالفعل. وهذا دليل على أن هناك اقتناعاً عاماً بضرورة تحديد حجم الأسرة مما يميل إلى الاعتقاد بأن الدعاوى التى كانت ذات قوة يوماً ما مؤكدة مجافاة مثل هذا الاسلوب للدين أو لأية اعتبارات أخرى تتعلق بالعصبية أو بالحاجة إلى عدد كبير من الأطفال للمعاونة فى الأعمال الإنتاجية أو الزراعية التى تهتم بها الأسرة لم تعد لها فعالية فى تحديد اتجاهات الأسر. فالأسرة المصرية المعاصرة بدأت تحس بمسئوليتها المباشرة عن تعليم أطفالها ورعايتهم الصحية وتهيئة أفضل الظروف لهم ليستطيعوا الاشتراك فى العمل الاقتصادى من واقع الخبرة والمؤهل الأعلى. وهذا لن يتأتى إلا إذا حدثت موازنة مخططة بين دخل الأسرة ومستواها الاقتصادى بوجه عام، الأمر الذى يعتبر مؤشراً واقعياً لمدى قدرتها على مواجهة أعباء التربية، وقد تبين من حيث النظرية والواقع أنه كلما ارتفع دخل الأسرة قلت رغبتها فى إنجاب عدد كبير من الاطفال. وكلما انخفض دخلها اقتنعت بالمساوئ التى تترتب على كثرة الإنجاب فى الوقت الذى لديها أطفال كثيرون بالفعل.

إن مجرد التوعية مهما تعددت أساليبها لتنظيم الاسرة لـن تـؤدى إلى النتائج التى يتصورها الذين يأخذون بهذا المنهج. ذلك لأن تنظيم الأسرة

بالفعل، وخاصة من حيث تحديد عدد الأطفال يرتبط ارتباطاً واضحاً بزيادة المستوى الثقافي وتغير المناخ الاجتماعي وارتفاع المستوى الاقتصادي.

٣- يعتقد البعض أن التغير الاجتماعي والتكنولوجي قد فرض على الأسرة مصيراً لا مفر منه، وهو الانحلال التدريجي حيث ينهار نمطها التقليدي الممتد وتتحول إلى أسرة "نواة"، وفي خضم المجتمع الحضري الصناعي المعقد تنعزل. فبدب التفكك والتصدع في بنائها، حيث لا يبقى هناك مبرر لوجودها غير أنها لازالت بوصفها الحالي ونظامها أدخلت على هذا الاتجاه، إلا أن الأسرة من وجهه النظر العلمية الغربية "نواة منعزلة"، وقد يصدق هذا الوصف على الأسرة في المجتمعات الغربية المتقدمة. لكن إذا نظرنا إلى الأسرة المصرية في عمومها نجد أنها تتحول بالفعل إلى أسرة نواة بنائية وتفقد كثيراً من وظائفها بانتقالها إلى مؤسسات ومنظمات أخرى في المجتمع، لكنها، ولظروف عديدة، لم تتحول بالفعل إلى أسرة منعزلة، وليس هناك دليل واحد يمكن أن يؤكد اتجاهها إلى هذا النمط. أما إذا كان المقصود بالعزلة هنا عزلة عن النسق القرابي الكبير، فقد بدأ بالفعل. إن علاقات الأسرة المصرية تضيق وخاصة في المدينة لتشتمل على أقل علاقات ممكنة بهذا النسق، إلا أنها لا تزال محافظة عليها. كما أن فقدان الأسرة لعلاقاتها بالنسق القرابي لا يستتبع فقدانها لعلاقاتها بالجيران أو زملاء المهنة أو رفقاء الهواية أو المعتقد، إذ أنه من المعروف أن العلاقات الأولية لازالت وستظل موجودة في المجتمع الحضري ولم تتحول نهائياً إلى علاقات ثانوية، كما ذهب إلى ذلك بعض علماء الاجتماع. وإذن فالأسرة من حيث علاقاتها، وبأي معنى، لا يمكن أن تتحول إلى أسرة نواة منعزلة (١)

---

(١) د. سناء الخولي، مرجع سابق، ص ١٥٨ ، ١٦١.



الباب الخامس

الفصل الرابع عشر : التغير والمشكلات الاجتماعية

الفصل الخامس عشر : مدخل إلى دراسة المشكلات الاجتماعية

الفصل الرابع عشر

التغير الاجتماعى

تمهيد

أولاً : تعريف التغير

ثانياً : عوامل التغير

١-العامل الجغرافى	٢- العامل السكانى
٣- عامل التكنولوجيا	٤- العوامل الفكرية
٥- الثورات والحروب	٦- القادة والزعماء
٧- الاتصال بين المجتمعات	

ثالثاً : اتجاهات التغير الاجتماعى

١- تغير تراجعى	٢- تغير دائرى
٣- تغير متذبذب	٤- تغير ذو نطاق محدود
٥- تغير تقدمى وارتقائى	

رابعاً : أنواع التغير الاجتماعى

١- التغير فى القيم الاجتماعية	٢- تغير النظام
٣- التغير فى مراكز الأشخاص	

خامساً : نظريات التغير الاجتماعى

١-	٢- النظرية العقلية
٣- نظرية التطور	٤- النظرية الدائرية
٥- النظرية الإنتشارية	٦- النظرية الحتمية

الفصل الرابع عشر

التغير الاجتماعى

تمهيد

ما من مجتمع إلا وتعتريه تغيرات، هذه التغيرات تحدث باستمرار فى المجتمع بحث يمكن القول بأن سمة المجتمع التغير لا الثبات. حقًا إن معدل التغير قد يختلف من مجتمع لآخر. فإذا كان المجتمع سريع التغير، فهو مجتمع دينامى. أما إذا كان التغير – من الناحية الأخرى – يحدث بمعدل أبطأ نسبيًا فإنه يقال عن مثل هذا المجتمع أنه مجتمع إستكاتيكى. وكلما كانت درجة التغير الاجتماعى فى المجتمع أكبر، أو بالأحرى كلما كانت درجة التغير الاجتماعى التكيفى أكبر، بالمعنى الأعم، كانت درجة المستوى الثقافى للمجتمع أكثر تقدما.

أولاً : تعريف التغير

يجدر بنا قبل البدء فى فهم التغير الاجتماعى ودراسته أن نعرفه – وإن كان هذا الأمر به كثير من الصعوبة، نظراً لما يكتنف هذا الاصطلاح من تداخل وعدم وضوح – وهو ما سيظهر من خلال السطور القادمة.

يمكن أن نعرف التغير الاجتماعى بأنه "العملية التى تؤدى إلى اختلاف المجتمع (نظام – انساق – قوان – قيم . . . الخ) بالمقارنة بحالة سابقة له فى مدى قريب أو بعيد".

كما يعرف التغير بأنه "التحول الذى يقع فى التنظيم الاجتماعى سواء فى تركيبه وبنيانه أو فى وظائفه". كما عالج البعض باعتباره "ظاهرة طبيعية تخضع لها مظاهر الكون وشئون الحياة من خلال التفاعلات والعلاقات والتبادلات الاجتماعية المستمرة والتى تفضى إلى تغير دائم"[1].

---

(١) د. صلاح العبد علم الاجتماع التطبيقى دار التعاون، القاهرة، ١٩٧٣ – ص ٢٢٣.

عموماً. يمكننا أن نقول أن التغير الاجتماعي هو التغير الملحوظ في البناء الاجتماعي وفي المظاهر الثقافية كالقيم والمعايير ونحوها. أي أن التغير عملية اضطرارية مستمرة التغيير في أنساق العلاقات الاجتماعية.

تحديد بعض المفاهيم

هناك خلط وتداخل بين اصطلاح التغير الاجتماعي وبين اصطلاحات أخرى كالتطور Evolution والنمو Development والتقدم Progress وسنلقي الضوء على كل من هذه المفاهيم.

١ - لعل مفهوم التطور الاجتماعي مستق مباشرة من نظريات التطور البيولوجية ولقد كان لتأثر العلماء الأوائل بالعلوم البيولوجية أثره في ظهور هذا الاصطلاح. ولعل هذا يبدو واضحاً عندما تكلم هوبرت سبنسر عن تطور المجتمعات.

ولقد أشار الكتاب المحدثون إلى الاختلافات بين النظرية البيولوجية والنظريات المختلفة للتطور الاجتماعي، حيث يشير تشايلد إلى ذلك بقوله أن هناك اختلافات هامة بين التقدم التاريخي والتطور العضوي. فالتراث مثلا الذي تتوارثه الأجيال أمر مكتسب وليس فطري. ومن هنا تعتبر كلمة التطور (والتي يقصد بها في العلوم البيولوجية تطور الكائن الحي من مرحلة إلى مرحلة) أمر لا يتمشى مع التطور الاجتماعي.

٢- وهناك من العلماء من يفضل استخدام اصطلاح النمو الاجتماعي للإشارة إلى عملية التغير التاريخي، ويستخدم هذا المصطلح حالياً ليشمل التغير بمعنى الظهور بالتدريج أو كشف إمكانية ظهور الشيء وتتبعه. وبالرغم من ذلك، فإن مصطلح النمو ليس أكثر دقة من مصطلح التطور في تطبيقه على الظاهرة الاجتماعية، ففي الاستعمالات العادية يعني النمو "النمو التدريجي" مثال ذلك نحو الكائن الحي من الطفولة إلى الرجولة أو نمو النبات أو نمو المرض ولكن من الصعب أن نتكلم بنفس الطريقة عن النمو الاجتماعي لأننا لا نستطيع بأي صورة من الصور أن نرجع ظاهرة ما إلى خلاياها أو نضع حداً فاصلاً بين النمو

والانهيار. وبالرغم من ذلك فهناك عمليتين اجتماعيتين يمكن تطبيق مصطلح النمو عليهما وهما المعرفة والتحكم الإنساني في البيئة الطبيعية كما يظهر في الكفاية التكنولوجية والاقتصادية.

٣- أما عن مفهوم "التقدم" فهو مرتبط بمفهومي التطور والنمو أيضاً. فنجد هوبهوس يفترض أن هناك اختلافاً بين التطور الاجتماعي والتقدم الاجتماعي، وبالرغم من هذا فقد كان مفهوم التقدم يسيطر على أعمال هوبهوس، إلا أنه أكد أن النمو في مجال معين في الحياة الاجتماعية قد يؤدي إلى نتائج غير مرغوب فيها. ومع ذلك فمفهوم التقدم يوجد فقط كتصور تقويمي أو ذاتي، وطبيعته كقيمة مميزة تعتمد على وجهة نظر الملاحظ، كما أن التصور يمكن أن يكون في بعض الأحوال تقدماً، وفي بعضها الآخر تخلفاً. ولهذا تبدو بعض أوجه التغير الاجتماعي والثقافي في بعض الأحيان متميزة أو مختلفة ولكنها في وقاع الأمر تتصل كلتهما بالأخرى.

ولعل الصعوبة في تمييز هذه المفاهيم ترجع إلى أن "الاجتماعي Social" يشير إلى المجتمع Society الذي لا يكون مترادفاً مع "الثقافة Culture" التي تشمل على كل العناصر المادية واللامادية، وكل ما هو نتاج الوجود الإنساني. كما أن المجتمع قد يشار إليه أو تحلل ظواهره من خلال تصورات سيكولوجية لا تنطبق على الأشياء المادية. وعلى ذلك إذا كان من الممكن تحديد "اجتماعي" من خلال بعض الملامح المجتمعية، فإن هذا يستدعي بالضرورة أن يكون التغير تغيراً في آلية الترابط الإنساني.

٤- مما سبق يتضح لنا أن كل من مفهوم التطور والنمو والتقدم وتطور كل المفاهيم السابقة أدى إلى ظهور التغير الاجتماعي ليشير إلى جميع الاختلافات التاريخية في المجتمعات الإنسانية، وقد ساعد على انتشار هذا المفهوم نشر كتاب "التغير الاجتماعي" لويليام أجبرن سنة ١٩٢٢م. فلقد رأى أجبرن أن هناك اختلافا بين التطور والتغير وذلك في تمييزه بين الثقافة المادية واللامادية حيث يذهب إلى أن التغيرات التي تطرأ على جزء من الثقافة المادية، ومن ثم يصبح هذا مصدراً للضغوط والصراعات. ولقد ظهر بعد ذلك العديد من الدراسات في

التغير الاجتماعي تناولت تغيرات في الأسرة والطبقة والقانون والدين، إلا أن هذه الدراسات كانت تفتقر في الجانب الأكبر منها إلى مراعاة العلاقات المتداخلة بين أنواع التغيرات المختلفة، أو في الأزمنة أو الأماكن المختلفة[1].

ثانياً : عوامل التغير

إن التغير الاجتماعي وليد لعوامل مختلفة، وليس وليداً لعامل واحد. وسنعرض فيما يلي للعوامل المختلفة التي تسهم في ذلك.

١- العامل الجغرافي

ويقصد بالعامل الجغرافي مكونات البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان، وتشمل الموقع والتضاريس والتربة والمناخ والمواد الأولية. ومع أن هذا العامل ليس العامل الوحيد الذي يمكن عن طريقة تفسير التغير الاجتماعي، إلا أنه يلعب دوراً كبيراً في إحداث هذا التغيير. وعلى سبيل المثال، نجد أن المناخ أثر في نوع المحاصيل وفي الإنتاج الصناعي والنشاط والتجاري. ولا شك أن اقتصاد الدولة يتأثر بذلك وبالتالي ينعكس هذا على حياة السكان وأنشطتهم.

٢- العامل السكاني

يذهب "مالتس" أن السكان يزدادون وفق متوالية هندسية على حين تزيد الموارد وفق متوالية عددية. وبالرغم من أن تقدم الصناعة والزراعة في القرن التاسع عشر قد أثبت عدم صحة هذه النظرية فيما يتعلق بنسبة زيادة الموارد، إلا أن النظرية في مجموعها صحيحة إذا طبقناها على المجتمعات التي تعتمد كلياً على الزراعة.

وطبقاً لهذه النظرية يمكن أن نرجع العامل السكاني المؤثر في التغير الاجتماعي إلى عناصر مختلفة منها كثافة السكان وحجم الجماعات أو المجتمعات ومعدلات المواليد والوفيات بالزيادة أو النقصان والهجرة داخل

(١) انظر في ذلك : د. محمد علي وآخرون، دراسات في التغير الاجتماعي - الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٤ - ٣٤ وما بعدها. كذلك : د. سناء الخولي - التغير الاجتماعي والتربية، الإسكندرية دار المعرفة الجامعية ١٩٨٤.

المجتمع الواحد والهجرة الخارجية واستحداث مناطق جديدة للعمران والسكن والعلاقات الاجتماعية ومستوى التكيف بالنسبة لمهاجرين وقاطني المناطق السكنية الجديدة ونسبة الأطفال أو الشباب أو الشيوخ إلى سكان المجتمع وأثر ذلك فى العمل والإنتاج والاقتصاد القومى.

٣- عامل التكنولوجيا

يقصد بالتكنولوجيا تطبيق أحدث النظريات العلمية فى مشاريع التطور الاجتماعى والاقتصادى. ومن المسلم به أن صناعة الأشياء المادية تقوم على تطبيقات العلم. والحقيقة أن الاهتمام بالتكنولوجيا ليس مقصوداً فى ذاته بالنسبة للاجتماعيين، وإنما لأن التكنولوجيا لها علاقة بعلم الاجتماع من حيث أن لها دوراً فى الحياة العامة من جهة، وإن تأثيراتها فى تغير المجتمع ترجع إلى استخدام المجتمع لها. فالثورة الصناعية وما أدت إليه من اكتشافات فى العلوم المختلفة غيرت الكثير من صفات وبناء ونظم المجتمع الأوروبى.

٤- العوامل الفكرية

للعوامل الفكرية بما تشتمله من آداب وعلوم ومعتقدات فلسفية ودينية اكبر الأثر فى تنظيم الحياة الاجتماعية، وإذا كانت مثل هذه العوامل الفكرية فى اغلب الأحيان تأخذ شكل التفكير التركيبى، فلعل هذا يساعد على أن تؤدى دورا فعالا فى التفسير قد يفوق بالكثير من الأحيان دور العوامل التكنولوجية العلمية التطبيقية. وهناك أمثلة واضحة فى المجتمعات المختلفة التى عانت من الظلم والكبت وعبودية الاستعمار. وأوربا خلعت التخلف عنها بتركها بعض الأفكار البالية فنجدها فى ثوراتها تنادى بمبادئ المساواة والإخاء وتحرير المرأة، وكلها أفكار ألهبت روح التقدم وتغير المجتمع إلى الأفضل.

٥- الثورات والحروب

وللثورات والحروب دور هام فى أحداث التغيرات الاجتماعية حيث أن هذه الثورات كثيرا ما تعجل بتغير ظروف المجتمع والمناداة بالوصول به إلى مراحل متقدم.والثورات أو الحروب دائما ما تزيح فى طريقها العوامل التى

كانت تقف ضد تقدم المجتمع وازدهاه - الأمر الذى يساعد بعد ذلك على فسخ المجال أمام التغير الاجتماعي والاقتصادى.

٦- القادة والزعماء

يرى بعض علماء الاجتماع أن أفكار الزعماء والقادة التى توحى بها الظروف والحقيقة التى يعيشها مجتمعهم الواقعى، تخدم في دفع المجتمع وتوجيه الناس توجيها سليما في اتجاهاتهم وآرائهم وسلوكياتهم.

٧- الاتصال بين المجتمعات

يعتبر الاتصال وسيلة فعالة ومؤثرة في نقل عناصر الثقافة والحضارة من مجتمع لآخر، ولاشك أن العزلة تعنى الكود والموت بينما الاتصال الخارجي يتيح الفرص للتغير - وكلما تيسرت وسائل الاتصال وتنوعت كلما زادت فرص الانتشار الثقافى وبالتالى نشطت عمليات التغير الاجتماعى[1].

ثالثاً : اتجاهات التغير الاجتماعى :

يمكننا في هذا الصدد أن نميز بين خمسة أنواع من اتجاهات التغير الاجتماعى وهي:

١- تغير تراجعى

حيث يرى البعض أن المجتمع يمر بمرحلتين: مرحلة ذهبية حيث يقطع فيها المجتمع شوطا تقدميا كبيرا ممتعا بالرفاهية وانتعاش الاقتصاد الفردى والقومى.

ومرحلة اخرى تعتمد على التراجع والنكوص. يتفكك فيها المجتمع وينحل. هذا الرأى يمكن الأخذ به عند دراسة الأزمات الاقتصادية والسياسية والاضطرابات الداخلية التى تحدث في بعض المجتمعات وتغير هذا المجتمع إلى النكوص بعد أن كان متقدما نوعا ما.

٢- تغير دائرى

ويشبه أصحاب هذا الاتجاه المجتمع بالإنسان الذى يمر بمراحل متدرجة تبدأ بالطفولة فالشباب فالنضج ثم يصل إلى الشيخوخة فالموت. أى أن المجتمع يبدأ من نقطة معينة ثم يتجه دائريا إلى أن يعود إليها. ولعل أوضح مثال لذلك اضمحلال الإمبراطوريات والحضارات القديمة فى مصر واليونان، بعد أن بلغت شأناً عظيماً من التقدم والازدهار ثم أصابها الوهن. وإن كان يعتقد أن هذه المجتمعات ستعود دائرتها مرة أخرى وتعود إلى ما كانت عليه من مجد.

٣- تغير متذبذب

أى أن المجتمع يتذبذب فى تغيره من تقدم وارتقاء إلى تراجع ثم يعود إلى الارتقاء مرة أخرى، وقد يتأخر ثانية بغير ضابط أو نظام. ومثال ذلك الهزائم التى قد يتعرض لها المجتمع فى عدة حروب يخوضها فتؤدى إلى تراجعه وتأخره. ولكنه لا يلبث أن يعود إلى سابقَ تقدمه. وأوضح مثال على ذلك ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، وكذلك اليابان.

٤- تغير ذو نطاق محدود

وهذا النوع من التغير لا يشتمل إلا على الحالات أو العوارض الاجتماعية، بمعنى أنه لا يشتمل جوهر الظواهر أو طبائع الأشياء، ولكنه يتعلق بأوضاع بعض الظواهر الاجتماعية. فقد يحدث تغير فى علاقة اجتماعية كالتنافس حين تزداد حدته فيصبح صراعاً. أو تقل فيصبح تعاوناً. أو قد يزداد الفوارق الطبقية فى مجتمع ما أو قد تذاب . . . وهكذا.

٥- تغير تقدمى وارتقائى

ويرتبط هذا الاتجاه بالتقدم، وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن المجتمعات تنشأ بسيطة ثم تنمو وتزدهر. أى أن المجتمع يتغير دائماً إلى الأحسن، ومثال

ذلك التغيرات التى حدثت فى المجتمعات الأوروبية حتى وصلت إلى المرحلة التي هي عليها الآن غير أننا نرى أن التقدم شيء والتغير شيء مختلف تماماً[1].

رابعاً : أنواع التغير الاجتماعى

١- التغير فى القيم الاجتماعية

أكثر التغيرات البنائية أهمية، ذلك التغير فى المستويات الشاملة التى نطلق عليها اسم القيم، والقيم التى نعالجها هنا هى القيم التى تؤثر بطريقة مباشرة فى مضمون الأدوار الاجتماعية والتفاعل الاجتماعى. ولنقرب الفكرة فى الأذهان سنقرب مثلاً يدور حول الانتقال من النمط الإقطاعى للمجتمع إلى النمط التجارى والصناعى. فالتغيرات التى تكون فى هذا الانتقال لا تحدث خلال فترة وجيزة من الزمان، بل قد تستغرق أجيالاً بأكملها. ففى المجتمع من النمط الأولى كان الفرسان ورجال الدين يمثلون قمة المجتمع، والقيم السائدة ترتبط بأخلاقيات هاتين الطبقتين، ولذلك فإن الوظائف الاقتصادية على الرغم من أهميتها لضرورتها، لم تكن تحظى بالتقدير الكبير. ولذلك كان المشتغلون بها فى مرتبة أقل. والعكس فى المجتمع من النمط الثانى فالإنتاج الاقتصادى يمثل المقام الأول والاشتغال به يعتبر أمراً يفاخر به المرء. ولذلك كان القادة فى الميدان يحصلون على مراكز سامية.

٢- تغير النظام

ونعنى به التغير فى البناءات المحددة مثل صور التنظيم والأدوار ومضمون الدور. فالتغير فى نظام تعدد الزوجات إلى نظام وحدانية الزوج والزوجة ومن الملكية المطلقة إلى الديمقراطية، ومن النظام الذى يقوم على المشروعات الخاصة إلى الاشتراكية، أمثلة للتغيرات التى تحدث فى نظم المجتمع على نطاق واسع. وقد تكون التغيرات التى تحدث فى بعض أنظمة المجتمع قليلة نسبياً، إلا أن انتشارها بعد ذلك يؤدى إلى تغيرات هامة فى البناء الاجتماعى باسره. ومثال ذلك ان الانتقال من نظام التعدد إلى الوحدانية فى

---

(١) انظر فى ذلك : د. سناء الخولى، مرجع سابق - ص ١١ - ١٣.

الزواج لم يحدث مرة واحدة بل ظهر في بعض العائلات ثم انتشر بعد ذلك حتى أصبح النظام الأخير هو السائد وأصبحت العائلات التي لا زالت تأخذ بنظام تعدد الزوجات تعتبر شاذة أو منحرفة[1].

٣- التغير في مراكز الأشخاص

قد يحدث التغير في أشخاص بالذات يقومون بأدوار في النسق الاجتماعي، ذلك أنه خلاف فترة طويلة من الزمن تصبح مثل هذه التغيرات لا مفر منها، لأن الناس يتقدمون في السن ويحالون على المعاش أو يموتون. ولعل أهمية مثل هذه التغيرات تختلف، ومع ذلك فإنه من المهم أن ندر الأهمية الدائمة التي تكون للأشخاص الذين يشغلون مراكزاً اجتماعية معينة، لأنهم بحكم مراكزهم يستطيعون التأثير على مجريات الأحداث في المجتمع. وبعبارة أخرى قد لا يكون في تعاقب الأشخاص تغير بنائي في حد ذاته ولكنه قد يسبب في إحداث تغير بنائي في ظل ظروف معينة. وما ناقشناه عن تغير الأشخاص يمكن أن يطبق على التغير في قدراتهم واتجاهاتهم، فإنه لا يؤدي إلى تغير بنائي ولكنه قد يكون سبباً مباشراً فيه[2].

خامساً : نظريات التغير الاجتماعي

من أهم نظريات المفسرة للتغير الاجتماعي ما يلي :

هناك فرق بين الزعامة والقيادة ومع هذا فالنمطين ينطويان في نظرية واحدة ويعتقد مؤيدوا هذه النظرية أن للزعماء قوى خارقة للعادة. ومن أمثلة هؤلاء الزعماء إسكندر الأكبر ونابليون وهتلر وجمال عبد الناصر، الذين احتلوا في قلوب شعوبهم مكان الصدارة وتفاعلوا مع الجماهير وأثروا عليها تأثيراً عميقاً وفعالاً. أما القادة فصنف آخر خلاف الزعماء، وبالرغم أنهم ليسوا موهوبين أو ليسوا أصحاب قوى خاصة أو خارقة، لكنهم يتميزون بصفات القيادة وعناصرها الأساسية التي تتمثل في قوة الشخصية والقدرة على الإقناع والثقة بالنفس وقوة

---

(١) د. عاطف غيث. مرجع سابق – ص ٥٣٨ – ٥٣٩.

(٢) المرجع السابق. ص ٥٣٩.

الإرادة وإنكار الذات والتضحية والقدرة على تكوين العلاقات وعلى فهم الناس والتعبير عنها. وقد يكون هؤلاء القادة طبيعيون أو مهنيون، وهؤلاء القادة وإن كانت قدرتهم على التأثير أقل من تلك التي للزعماء، إلا أن تميزهم بالصفات القيادية يجعلهم قادرين على قيادة الجماهير والجماعات والمجتمعات.

على أن يؤخذ على هذه النظرية أن الشعوب لا يمكنها أن تطيع زعماءها وقادتها طاعة عمياء، فطالما أن بعضهم كانوا هدفاً للاعتداء أو المقاومة من كثيرين، فالزعيم أو القائد، اذن، لا يمكنه أن يفرض التغير على المجتمع ولا يمكنه أن يخلق المجتمع المتطور، فهناك عناصر وعوامل أخرى يجب أن يكون لها أكبر الاعتبار تؤثر في الزعيم أو القائد وتتأثر به مثل الرأى العام ومستوى التقبل والعرف والتقاليد والسلوك الإنساني السائد وغيرها.

٢- النظرية العقلية

ويؤيد أصحاب هذه النظرية آرائهم بالعقل والمنطق والبرهان. وقد نادى أرسطو بأن الإنسان كائن اجتماعي، ولا يمكن تصور أن يكون الإنسان بمعزل عن المجتمع وعن الحياة الاجتماعية. فلا بد أن ينشأ في الأسرة طفلاً نافعاً فإذا كبر يلتقي شريكة الحياة. وإذا عمل تعاون مع غيره لمصلحة أسرته ولمصلحة مجتمعه. وقد أوضح أرسطو أن التغير شرط أساسي في حياة المجتمعات وأنه يتم بطريقة تلقائية فنمو يؤدى إلى نمو القرية ثم نمو الدولة. ولعلم ما أرتآه أرسطو ينطبق على ما انطوت عليه نظرية العقد الاجتماعي التي حمل لواءها من المفكرين هوبز ولوك وروسو التي تعتمد على حقيقتين أساسيتين :

أ- نظرية التنظيم الاجتماعي التي ترى أن الطبيعة التي تدفع الإنسان للوجود في جماعة أو المجتمع لا يتكون إرادياً وليس هو من عمل هي التي تسبب في وجوده ٣٢٦ الأفراد بل ينشأ تلقائياً والطبيعة وحدها.

تذهب هذه النظرية أن الناس لم تشابكت مصالحهم وتعقدت أحوالهم وحدوه أن الحالة الفطرية السابقة لا يمكن الاعتماد عليها في التنظيم

الاجتماعي، فلجأوا إلى التعاقد الاجتماعي كوسيلة مقصودة لإنشاء حياة اجتماعية منظمة لتطوير المجتمع الذي يضمهم ويعيشون فيه.

٣- نظرية التطور

وقد ظهرت نظرية دارون للنشوء والارتقاء. واعتقد أصحابها أن المجتمع شأنه شأن الكائن العضوي يبدأ بناؤه بسيطاً، ثم لا يلبث أن تنمو وحداته وتتعقد. وهكذا، يصبح المجتمع في حال من النمو والتغير المستمر. وهناك مدرستان لهذه النظرية الأولى تسمى مدرسة دارون الاجتماعية. والثانية يطلق عليها اسم المدرسة الأنثروبولوجية.

أ- مدرسة دارون الاجتماعية : وترى هذه المدرسة، أن الجماعات البشرية في صراع ونزاع من قديم الزمن. فإذا سيطرت جماعة قوية على أخرى ضعيفة طوقتها تحت سلطانها. وفي هذه الحالة يتكون من الجماعتين مجتمع جديد يظهر فيه بوضوح التباين الطبقي الذي من مظاهره السيد والمسود والغالب والمغلوب، وهو أمر تؤكده القوانين الجائرة التي تفرضها على الأغلبية المحكومة حكومة الأقلية. وما يحدث من صراع داخل الدولة الواحدة، يحدث أيضاً بين الدولة والدول الأخرى، والبقاء للأصلح.

ومن المآخذ على هذه الفلسفة أن هناك أسساً أخرى يمكن أن تقوم عليه الجماعات والمجتمعات غير الصراع والتناحر، كالتعاون والتماسك وعدم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، إذن فما يمكن أن يقال عن الحيوان لا ينطبق بأي حال على المجتمع الإنساني الذي يحيا حياة اجتماعية متعاونة.

ب- المدرسة الأنثروبولوجية : ويرى أصحاب هذه المدرسة أن الإنسان قد مر بأكثر من مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي لكي يصل إلى المرحلة الاجتماعية المنظمة. وهم يعتقدون أن المجتمعات بدأت بالتوحش وارتفعت إلى البربرية ثم ارتقت إلى المدنية. كما يقولون أن الحياة الاقتصادية هي الأخرى تمر بمراحل ارتقائية شأنها الحياة الاجتماعية.

من مناصرى المدرسة الأنثروبولوجية أيضاً أوجيست كونت الذى يرى ارتقاء المجتمعات عند انتقالها من مرحلة لأخرى يظهر فى جانبين هما :
١- تقدم فى الحالة الاجتماعية. ٢- تقدم فى الطبيعة الإنسانية.

ويرى كونت أن التقدم فى الثانية يتضح بيولوجيا فى زيادة متوسط عمر الإنسان وعقلياً فى تمكين الإنسان من السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمته.

٤- النظرية الدائرية

وقد سبق الإشارة إلى هذه النظرية عند الحديث عن التغير الدائرى كواحد من اتجاهات التغير. وتقوم هذه النظرية على أساس أن التغير يتجه صعوداً فهبوطاً ممتداً من نقطة معينة فى دورة تعود بالمجتمع إلى نقطة مشابهة للنقطة التى بدأ منها، ومن خلال ما قام به العلماء من دراسة للمجتمعات سواء بدراسة ظاهرة واحدة من ظاهرات المجتمع أو يدرس جميع ظواهره. وقد تفرغت هذه النظرية إلى نظريتين هما :

أ- النظرية الدائرية الجزئية : وهى التى تعنى بدراسة ظاهرة اجتماعية معينة فى المجتمع لإثبات أنها تسير فى اتجاه دائرى منتهية إلى النقطة التى بدأت منها. مثال ذلك نظرية ماركس التى ترى أن الملكية لابد أن تعود مرة أخرى إلى بدايتها الأولى وهى الشيوعية.

ب- النظرية الدائرية العامة : وتفسر هذه النظرية التغيرات التى تلحق بالمجتمعات عن طريق دراسة كافة الظاهرات الاجتماعية فيها. ويأخذ أصحاب هذه النظرية فى اعتبارها أهمية تنازل جميع العناصر المكونة للمجتمع سعياً من وراء ذلك إلى التعميم. مثال ذلك آراء سبنجلر الذى يرى فى كتابه "سقوط الغرب" إن ثقافة أى مجتمع تمر فى دائرة تبدأ بالميلاد فالطفولة وتستمر نحو النضج والاكتمال ثم تتجه إلى الشيخوخة ثم تعود مرة أخرى للرقى والتقدم وهكذا، وتخلق لنفسها ثقافة وتستعيد قوتها ومجدها.

٥- النظرية الانتشارية

تقوم هذه النظرية على أن لكل مجتمع ثقافته المميزة وحدوث اتصال بين مجتمع وآخر هو الأصل في الانتشار. وقد يكون الاتصال داخل مجتمع كبير واحد، أو بين مجتمع محلى وآخر كما هو الحال في مجتمعى الريف والحضر. وقد يكون الاتصال بين مجتمعين كبيرين مختلفين في الثقافة المميزة لكل منهما. ويظهر ذلك في الاتصال بين شعبين أو بين مجتمع شرقى وآخر غربى وهكذا.

٦- النظرية الحتمية

اتجه أصحاب هذه النظرية إلى إبراز بعض العوامل باعتبارها المتسببة في التغير الاجتماعى. ويفسر التغير عند أصحاب هذه النظرية بأنه يرجع إلى عامل واحد متميز له قوانينه الخاصة به والمستقلة في نفس الوقت عن باقى العوامل الأخرى بما في ذلك إرادة الإنسان ورغباته وهذا الاتجاه في تفسير التغير الاجتماعى هو ما نعبر عنه بالحتمية وللحتمية صورة مختلفة فقد يرجع إلى عامل الحتمية الجغرافية أو الحتمية العنصرية أو الحتمية الثقافية أو الحتمية الاقتصادية. ويرى أصحاب نظرية الحتمية أن وجود العامل المتسبب في التغير يحتم إحداث تغيرات اجتماعية كبيرة في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية.



الفصل الخامس عشر

مدخل إلى دراسة المشكلات الاجتماعية

١- تمهيد

٢- تعريف المشاكل الاجتماعية

١- المشاكل الشخصية عكس المشاكل الاجتماعية

٢- المشاكل الطبيعية عكس المشاكل الاجتماعية

٣- استجابة المجتمع للمشاكل الاجتماعية

١- الوعي بالمشكلة		٢- الرفض الاجتماعي

٣- العمل الجماعي والمسئولية المشتركة

٤-التعريف الإجرائي للمشكلة الاجتماعية

٤- المصادر الاجتماعية للمشاكل الاجتماعية

١- تطور التحليل الاجتماعي

٢- نظريات المجتمع

- النظرية التطورية
- النظرية البنائية الوظيفية
- نظرية الصراع
- النظرية التفاعلية الرمزية

المنظورات الأساسية للمشاكل الاجتماعية

تفسيرات متميزة للمشاكل الاجتماعية

الفصل الخامس عشر

مدخل إلى دراسة المشكلات الاجتماعية[1]

١ – تمهيد

قد عان الغالبية العظمى من أفراد المجتمع على مر العصور من الفقر والجريمة والمرض والجهل والحروب والظلم، ولكن كان في إمكانهم التصدي للتقليل من مثل هذه المشاكل وفي العصور القديمة اهتم بعض المفكرين بهذه الظواهر الاجتماعية، فلقد انزعج كل من أفلاطون وارسطو -مثلا- من الطغيان السياسي، وأشاروا في كتاباتهما عن تكاليفه فبالنسبة لغالبية سكان المجتمع كانت الأمراض الاجتماعية والمتمثلة في الفقر والجهل مظاهر للحياة لابد منها. وفي القرون الأخيرة تزايد عدد المفكرين والفلاسفة وطلاب العلم الذين اهتموا بدراسة الظروف الاجتماعية التي جلبت البؤس لكثير من فئات المجتمع، ولقد تميز منتصف القرن التاسع عشر بالاهتمام المتزايد بمشاكل مثل العبودية والأمية، والفقر والجريمة، وإدمان الخمور، وكبت النساء، والتفكك الأسري ومشاكل أخرى كثيرة.

وفي نفس الوقت كانت شعوب أوربا وأمريكا تعيش مشاكل جديدة متمثلة في التحضر والتصنيع الذي خلق مشاكل لم تكن موجودة في الماضي. ولقد جلب الكساد الاقتصادي والبطالة وتشغيل الأطفال تدهورا في الحياة الاجتماعية وتفكك في الحياة الأسرية. وكان النمو السكاني المتزايد وتلوث البيئة بشكل سريع دورا كبيرا في ظهور المشاكل الاجتماعية التي تفاقمت قبيل القرن التاسع عشر. حيث كان التحضر والتصنيع في بداية عهده. ولقد جذبت

---

(1) Melvin H Defleur. social problems in American societry Boston. Houghton, miffim company, 11983 - pp. 1 - 26.

مشاكل اجتماعية عديدة اهتمام أفراد المجتمع بدرجة كبيرة واصبح مطلب الإصلاح أمرا لا مفر منه.

واليوم يتضح لنا أن المشاكل الاجتماعية واسعة الانتشار وأنها تستمر وسوف تمس حياة غالبية أفراد المجتمع بطريقة أو بأخرى، وهؤلاء الذين لم تتأثر حياتهم بسبب المشاكل الاجتماعية لا يمكنهم الإفلات من نفقاتها. وحتى هؤلاء الذين لم يتعرضوا إحالات السلب يدفعون مبالغ اكثر مقابل حماية البوليس اهمم حينما تزداد حالات السرقة والنهب وهؤلاء الذين يقعون في الإدمان يدفعون ثمنا غاليا نظير نفقات برنامج العلاج وتكاليف التامين. وحيث انه ليس في وسع أحد أن يتجنب النتائج المترتبة على هذه المشاكل فكل مواطن يحتاج أن يتعلم أسباب المشاكل الاجتماعية: نشأتها ومداها، والنتائج المترتبة عليها، والحلول الممكنة لها. ولا يمكن أن يشارك بفاعلية في التخفيف من حدة هذه المشاكل الاجتماعية ما لم يكن على وعي وفهم تام بأسبابها وجذورها التاريخية.

٢-تعريف المشاكل الاجتماعية

أن مفهوم المشكلة الاجتماعي من المفاهيم الإجرائية في علم الاجتماع نظرا لصعوبة انطباق تعريف واحد يصلح لتفسير كافة المشاكل الاجتماعية هذا من ناحية، ونسبية المشاكل الاجتماعية من ناحية أخرى .. ... إلا أن هناك من يرى أن ازدياد نسبة الجريمة والمرض العقلي والفقر والرعاية الصحية غير المناسبة... الخ هي من قبيل المشاكل الاجتماعية.

أن صياغة تعريف بسيط للمشكلة الاجتماعية يتطلب فهما للمسائل التالية:

(١) كيف يمكن التمييز بين المشاكل الاجتماعية وبين المتاعب الأخرى التي تقلق الناس وتزعجهم؟

(٢) ما هي بعض الحالات العامة التي يوافق فيها أفراد المجتمع على وجود مشكلة وانه يجب عمل شئ ما بشأنها.

وبالنظر إلى هذين التساؤلين نستطيع أن نطور تعريفا أساسيا - نوعا ما - يساعدنا على فهم طبيعة المشاكل الاجتماعية. وجدير بالذكر أن المشاكل الموجودة في المجتمع ليست بالضرورة أن تكون كلها مشاكل اجتماعية فهناك مشاكل أخرى بيئية أو مجتمعية، وهناك مشاكل فردية يحس بها أفراد معينين كالمشاكل النفسية والعاطفية.. . الخ ولكل مجتمع مدى معين يعرف فيه الموقف إذا كان يمثل مشكلة اجتماعية أم لا، ومن ثم يتعامل مع هذا الموقف بناءا على تحديده.

الخصائص العامة للمشاكل الاجتماعي

المشاكل الاجتماعية هي مشاكل تعيشها جماعة في ظروف معينة، ولكن هناك أفكار أخرى تتصل بالمشكلة الاجتماعية، فيمكن أن تحدث كوارث طبيعية ينتج عنها مشاكل اجتماعية لم تكن في الحسبان من قبل .. . ومن ثم ينبغي التفرقة بين المشاكل الشخصية الطبيعية والمشاكل الاجتماعية.

أ- المشاكل الشخصية عكس المشاكل الاجتماعية

يعاني كثير من أفراد المجتمع من التقلبات المالية والرفض الاجتماعي ومجموعة أخرى من الكوارث بمختلف أنواعها وعلى الأقل يتركز مصدر المشاكل في بعض الحالات في اختيارها عن عمدن، فمثلا الشخص الذي يختار عن وعي استثمار خطير على أمل إحراز نجاح مفاجئ. ربما بدلاً من ذلك من خسارة مالية فادحة، وترتبط مثل هذه الأحداث المؤسفة ارتباطاً قليلاً بالمشاكل الاجتماعية.

وفي حالات أخرى تكون أدوار الاختيار الشخصي والتأثير الاجتماعي أصعب تمييزاً وأحياناً ما تقلل العوامل الاجتماعية أو طبيعة المجتمع من قدرة الفرد على القيام بأنواع معينة من البدائل الممكنة. وقد يتركز الخلل الذي يعاني منه فرد - ما - في طبيعة البيئة الاجتماعية الذي يعيش فيه، فمثلاً إذا نشأ طفل في جماعة تتفق تقاليدها مع استخدام الذكور للمشروبات الكحولية بشكل طبيعي وبدرجة كبيرة، فإن قدرة هذا الطفل على القيام بالاختيار بين إقباله

على هذه المشروبات الكحولية من عدمه سوف تكون محدودة للغاية. فهو يرى والده وأخوته الذكور سكارى عادة ولسوف يتعلم أن "السكر" متعة وجزء من السلوك "الرجولي" وربما يقبل هذا الفتى في مواقف معينة لسكره، وقد يكون من الأمور الملفتة للنظر وتجلب الدهشة عدم إقبال هذا الفتى على المشروبات الكحولية كشخص بالغ. ومن ثم فإن احتمالات التنبؤ بسلوك طفل ينشأ في مثل هذه الجماعة تكون قوية لأنه سوف يسلك مثلما يفعل أقرانه في سن الرجولة. ولكن هذه لا يمنع من وجود احتمال ضعيف جداً أن يخالف هذا الطفل في المستقبل سلوك مدمني المشروبات الكحولية ولكن في مثل هذه الحالة سوف يواجه بمؤثرات اجتماعية قوية أو رفض اجتماعي.

إلا أنه سوف يكون من الخطأ أن نستنتج بأن البدائل الشخصية ليست مهمة في تقرير - على الأقل - سلوكيات شخصية معينة، فالشخص الذي يصدر قراراً سبق له التفكير لارتكاب جريمة معينة يجب أن يتحمل المسئولية الشخصية كهذا العمل ويتحمل نتائج هذه الجريمة إذا أدركها المجتمع. وعموماً أن كافة المجتمعات لا تخفي حقيقة أن القتل والاغتصاب والسرقة وجرائم أخرى معي انتهاكات شنيعة لمعايير المجتمع المتفق عليها، وتعاقب كافة المجتمعات مرتكبي هذه الأفعال الإجرامية.

وفي الواقع أن المؤثرات الاجتماعية ربما تكون لها أثراً في الحكم على المعتدي كمبرر لعقاب أخف، إلا أنه مع ذلك يمر الناس بمشاكل ليس لها أي صلة باختياراتهم، فعلى سبيل المثال، أن المرأة الأرملة التي لا تجد لها مكاناً للعمل وتنحصر مهمتها في تربية الأطفال وإدارة شئون المنزل لأن المجتمع لا يسمح بعمل الزوجات فمثل هذه المرأة - خاصة إذا كان موارد زوجها قبل وفاته بسيطة - سوف تجد نفسها أمام مشكلة اقتصادية خطيرة. وسوف تصبح جزءاً من مشكلة اجتماعية وسوف يكون من غير المنطقي أن نفسر تورطها في بعض المواقف على أنه نتيجة لخيارات شخصية في الوطن الذي كانت فيه - طيلة حياتها - تسلك في كل مرة بطريقة مثالية تتفق مع المعايير التي يقررها المجتمع.

على أية حال، أن فهم المشاكل الاجتماعية على أنها نتيجة لخيارات شخصية غير صائبة. فهم يجانبه الصواب، فكثيراً من الأفعال تتأثر أما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالأعراف الاجتماعية والعادات والتقاليد التى تحيط بالناس. وتدخل المشاكل الاجتماعية فى نطاق ذلك. أى أنها تتأثر - إلى حد ما - بظروف المجتمع ذاته. ومن ثم يؤمن الكثيرون بأننا ينبغى أن نتحمل لمسئولية جماعية مساعدة هؤلاء الذين يعانون من الضرر بسبب المشاكل الاجتماعية.

ب- المشاكل الطبيعية عكس المشاكل الاجتماعية

لا شك أن للأعاصير والثورات البركانية والزوابع والفياضات والزلازل، وغيرها آثاراً اجتماعية واضحة إلا أننا نتميز عما نعرفه بالمشاكل الاجتماعى. ففى الواقع أن الأسباب الطبيعية - وليست الاجتماعية - تعلل وجودها بشكل مطلق، أما المشاكل الاجتماعية فهى فى حاجة إلى دراسة وتفسير وتحليل لأنها تضرب بجذورها فى أعماق السلوك الإنسانى داخل المجتمع هذا فضلاً عن التنوع الهائل للمشاكل الاجتماعية فى المجتمع الواحد، فمثلاً هناك مشاكل تنتج عن التفاوت الطبقى الصارخ، ومشاكل أخرى تنتج عن التمييز العنصرى وينتج عن الرفض الاجتماعى لجماعات الأقلية مشاكل أخرى من نوع خاص . . . . هكذا.

وتتركز جذور هذه المشاكل بوضوح فى طبيعة البناء الاجتماعى ونظمه المختلفة فالأجيال الجديدة تتعلم اتجاهات وقواعد السلوك التى ظلت سائدة وجعلت جماعات الأقلية منفصلة فى الماضى، فهذه النظم والتنظيمات الاجتماعية تمنع الأجيال الجديدة من تحقيق المساواة الكاملة، وربما توجد أسباب إضافية أخرى لمشاكل الأقليات ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر أن لكل المشاكل الاجتماعية أصول فى البناء الاجتماعى للمجتمع.

فى نفس الوقت تلعب العوامل الطبيعية أو البيولوجية دوراً هاماً فى ظهور بعض المشاكل الاجتماعية فانتشار المرض على سبيل المثال - قد يكون سببه خللا بيولوجياً، ولكن التطوير أو الفشل فى تطوير نظام مناسب لتوفير الرعاية

الطبية هو مسألة اجتماعية وهكذا فعلى الرغم من أن للمشاكل الاجتماعية اصولها في طبيعة النظام الاجتماعي، إلا أن هذه الأصول الاجتماعية ليست كافية لتفسير المشاكل الاجتماعية.

٣- استجابة المجتمع للمشاكل الاجتماعية

غالباً يبدأ المجتمع في الاستجابة للمشاكل الاجتماعية إذا كانت المواقف، التي تسبب المشكلة تمثل إزعاجاً لجماعات اجتماعية كثيرة، خاصة الصحفيون ورجال الأعمال والسياسيون ورجال التربية وجماعات المصلحة أو النفوذ . . . الخ فهذه الجماعات عندما تدرك الموقف الذي ينتج عنه مشكلة اجتماعية معينة، تقوم برفض هذا الموقف والسعي إلى تعديله أو إصلاحه وكلما كان الرفض قوياً كلما قل هذا من حدة المشكلة الاجتماعية والقضاء عليها.

وهذه الإجراءات تتخذ من خلال عمل جماعي على افتراض أن المجتمع له مسئولية مشتركة في محاولة تقليل حجم المشكلة إلى أكبر درجة ممكنة. وهناك أربعة أبعاد أساسية لاستجابة المجتمع للمشكلة الاجتماعية. وهي الوعي الاجتماعي، والرفض الاجتماعي والعمل الجماعي والمسئولية المشتركة وهذه الأبعاد هامة في تقديم تعريف مناسب للمشكلة.

أ- الوعي بالمشكلة:

هنالك سؤال قد دار حوله العديد من الجدل والنقاش بين الفلاسفة والمفكرين.وهذا السؤال مؤداه: إذا سقطت شجرة في غابة لا يوجد بها أحد هل هذه الشجرة تحدث صوتا ! هذا سؤال غريب ولكنه وجهته بالنسبة لتحديد ماهية المشاكل الاجتماعية. وتعتمد الإجابة بالطبع على تحديد ماهية الصوت، والتعريف الطبيعي للموت يركز على عشرات جزئيات من الهواء في نموذج أو نمط للموجات الصوتية. وبالنسبة لهذا التعريف سوف تكون الإجابة على هذا السؤال "نعم" فالشجرة الساقطة سوف تحدث صوتا سواء سمع هذا الصوت أحدا أم لم يسمعها وفي مقابل ذلك أن التصور النفسي يتعامل مع الصوت على

أنه تجربة أفراد قد أدركوا مؤثرات معينة بحاسة سمعهم وبناءاً على هذا التعريف فإن الشجرة الساقطة لا تحدث صوتا إذا لم يسمعها أحد.

ومن ثم يوجد هناك اتجاهين متقاربين لتعريف المشاكل الاجتماعية يؤكد بعض علماء الاجتماع بأن المشاكل الاجتماعية قد تتواجد حتى إذا لم يكن الجمهور على وعي أو إدراك لها فمثلاً لعدة عشرات السنين لم يعرف الناس غير القليل عن معدلات الوفاة المرتفعة والتي ترتبط بتدخين السجائر إلا أن عدة آلاف من الناس ماتوا مبكراً بسبب شراهة التدخين، وكان لهذا الموقف صلة ليس فقط بالخيارات الفردية للمدخنين، وما أحدثه ذلك من تلف لنسيج الرئة ولكن هناك أيضاً عوامل اجتماعية لهذه المشكلة متمثلة في صناعة السجائر والدعاية لها من قبل وسائل الإعلان الجماهيري المختلفة، هذا فضلاً عن المواقف المؤيدة للتدخين من قبل بعض الجماعات. وفي السنوات الأخيرة بدا إدراك عامة الشعب لما تتضمنه هذه العادة الواسعة الانتشار من أضرار خطيرة أثبتتها الأبحاث العلمية والتي نشرت وأعلنت للجماهير على نطاق واسع. ويرى الآن كثير من غير المدخنين (بعض المدخنين) استعمال الدخان على أنه مشكلة اجتماعية ضارة ومنع التدخين في بعض الأماكن العامة كذلك أصبح نوع معين من الإعلان غير قانوني، كما أن بيع السجائر أصبح محظور من بعض الأماكن، وبالإضافة إلى ذلك قد اتخذ وما زال يتخذ بعض الإجراءات الجماعية لرفع أفراد المجتمع إلى نبذ هذه العادة السيئة.

وهنا يثار تساؤل أساسي، هل كانت لدينا مشكلة اجتماعية عندما كانت هذه المشكلة تخص جماعة صغيرة من أفراد المجتمع بمعنى آخر عندما كان التدخين محصور في جماعة صغيرة كان هناك مشكلة إجتماعية متصلة بالتدخين؟ فهل الوعي بهذه المشكلة هو الذي أظهرها على أنها مشكلة اجتماعية ؟ . .

على أية حال. أن الوعي العام يمكن النظر إليه باعتبار أحد الجوانب الأساسية التي تساعد على فهم المشكلة الاجتماعية.

ب- الرفض الاجتماعي

تظهر المشكلة الاجتماعية عندما يعى أفراد المجتمع أن هناك تغيراً سلبياً قد حدث في ظاهرة ما، فمثلاً يعى أفراد المجتمع الأمريكي أن هناك تزايداً ملحوظاً في معدلات الجريمة وهذا الوعى العام من جهة والرفض الجماعي من جهة أخرى هو خير دليل على اعتبار أن هذه الظاهرة أصبحت تشكل مشكلة اجتماعية مرضية.

أما فيما يتصل بظاهرة الهجرة الداخلية غير القانونية فهناك اتجاهات متعارضة حول كون هذه الظاهرة تشكل مشكلة أم أنها من الأمور العادية. فبينما يرفض بعض الجماعات هذه الهجرة ويطالبون بالتغيير، نجد جماعات أخرى تتقبل الموقف دون خوف، وجماعات ثالثة ترحب بالمهاجرين غير الشرعيين على أنهم عمالة رخيصة لمصانعهم ومزارعهم.

وحينما يحدث الرفض الاجتماعي يكون غالبية أفراد المجتمع يشاركون مجموعة من القيم تعرف الموقف على أنه مرفوض والقيم هي معتقدات عامة عن طريقها - يمكن قبول مواقف أو أنوع معينة من السلوك أو عدم قبولها قبولاً عاماً، ولكل مجتمع قيمة التي يتميز بها وهذه القيم لها أهميتها الخاصة في تقرير المواقف والسلوكيات التي يعتبرها المجتمع مشكلة فمثلاً، التقبيل العلني في الهند يعتبر على نطاق واسع - عمل غير أخلاقي ومن المعتقد أن السماح به من شأنه أن يهدد أخلاق المجتمع. وفي الحقيقة يعتبر التقبيل علناً ضاراً بدرجة كافية بحيث اعتبر غير قانوني في المجتمع الهندي. ففي عام ١٩٨١ قبل أحد رجال السياسة الهندية البارزين علناً فرد زائر من أفراد العائلة المالكة البريطانية أثناء احتفال بالترحيب به وحوكم هذا الرجل السياسي فيما بعد على جريمة التقبيل العني، والعامل الهام هو أن شعب الهند يؤمن بأن التقبيل العلني سوف يؤدى إلى الانهيار الأخلاقي، وهم يشتركون سوياً في تعريف الموقف الذي يربط الاثنين بطريقة سببية، هذا هو تركيبهم للحقيقة، وعموماً فإن أي تهديد للقيم سوف يؤدى إلى رغبة في العمل الجماعي لتعويق تأثير موقف ما قد يتسبب في ظهور مشكلة.

جـ - العمل الجماعي والمسئولية المشتركة

إن قامت مؤسسات خاصة أو عامة وبرامج خاصة أو عامة للحصر تأثير مشكلة اجتماعية أمر مكلف المال وغالباً ما يكلف المال الكثير وإذا كان المجتمع يهتم قليلاً بذلك فإن هذا الاهتمام يؤيد الجهود الجماعية لعمل شيء ما بخصوص هذه المشكلة وخاصة إذا كانت المشكلة تسبب متاعب على نطاق كبير يتطلب تقليلها رؤوس أموال كبيرة ويحدث التغير في وعي أفراد المجتمع عندما يعبر الغالبية عن سخطهم لانتهاك الحرمات الأخلاقية، وتكون هناك رغبة أكيدة في عمل شيء بخصوص ذلك وعند هذه النقطة يكونون مستعدين لتوفير الموارد، وتصمم برامج للتغيير وتوضع في مكانها وتبدأ حملات جماعية منظمة على المشكلة. ولكن مسألة من هو المسئول عن محاولة عمل شيء بخصوص المشاكل الاجتماعية هي مسألة حرجة وخطيرة. هل تقع المسئولية بصفة أساسية على هؤلاء الذين يضارون بمشكلة معينة ؟ أم هل يجب على المجتمع أن يشارك في مسئولية تقليل تأثير المشاكل ؟ وأن ما يسمى بالموقف المحافظ، وهو أن المجتمع ككل ليس له مسئولية مشتركة وحسب هذا الرأى يجب أن يتطلعوا إلى أنفسهم كأفراد وإذا عانوا من المشاكل يكون ذلك أمر مؤسف، ولكن معاناتهم لا تعطيهم الحق في أن يتوقعوا من الآخرين أن يضعوا الأشياء في وضعها الصحيح، ويوجد في الجانب المقابل ما يسمى بالموقف "الحر" والذى ينادى بأن المجتمع يجب أن يأخذ على عاتقه المسئولية محاولة حصر الآثار الضارة للمشاكل الاجتماعية.

ولقد احتد هذا الجدال بين وجهتي النظر منذ فترة طويلة ولا يزال هذا الجدال موجود في الوقت الحالي ولكن في صورة معدلة أو مطورة، فاليوم الكل يقبل أن المشاكل الاجتماعية - على الأقل - لها جذورها الأصلية في البناء الاجتماعي وأن المجتمع له مسئولية في محاولة حصر آثارها وتتركز المحاولات المعاصرة في درجة كبيرة على أفضل استراتيجيات حصر الآثار الضارة المترتبة على المشاكل الاجتماعية.

(د) التعريف الإجرائي للمشكلة الاجتماعية

إذا اتفقنا على الأفكار التي ناقشناها فيما سبق يمكننا أن نرى أن هناك خمسة أفكار جوهرية يمكن أن يتضمنها تعريف المشكلة الاجتماعية وهي :

(١) المشكلة الاجتماعية هي موقف أو حالة أو شكل متكرر من السلوك الاجتماعي.

(٢) هذا السلوك يحدث لأسباب اجتماعية أو غير اجتماعية.

(٣) يعين عدد غير قليل من أفراد المجتمع.

(٤) يقابل هذا السلوك بالرفض لأنه ضد قيم المجتمع.

(٥) وهذا يقود أفراد المجتمع إلى تحمل المسئولية المشتركة والقيام بإجراءات جماعية لحصار تأثير هذا السلوك وتخفيف صدقه.

ومع أن هذا التعريف بسيط إلا أنه يشتمل على أفكار عديدة فالمشاكل الاجتماعية معقدة وصعبة ولا تتشابه مشكلتين في آن واحد - إلا فيما ندر - إلا أن جميع المشاكل الاجتماعية تشترك في هذه الخصائص السابقة بدرجة تميل إلى الزيادة أو النقصان أي بشكل نسبي.

فعل سبيل المثال أن رعب الحرب النووية يثير اهتماماً جماهيرياً واسع النطاق على فترات متقطعة وبالنظر إلى التعريف السابق للمشكلة فإن تهديد الحرب النووية يشكل مشكلة اجتماعية حتماً يثير وعياً عاماً بين أفراد المجتمع حول خطورة هذه الحرب وآثارها المدمرة، ومن ثم تقابل فكرة هذه الحرب بالرفض الجماعي، ثم العمل الجاد على تلاشيها. ومن ثم ينظر المجتمع إلى سلوك ما على أنه مشكلة إذا أدرك أفراده بخطورة هذا السلوك. وتارة أخرى قد لا يكون مثل هذا السلوك مشكلة إذا لم يدرك أفراد المجتمع ذلك.

٤- المشاكل الاجتماعية المعاصرة

هناك العديد من المشاكل الاجتماعية المعاصرة التي تصيب المجتمع وهذه المشاكل تتدرج من المشاكل المألوفة والتي سببت بؤس لأفراد

المجتمع لفترات طويلة مثل (الأمية والأمراض المستوطنة، ومشاكل الشيخوخة، والفقر . . . .) إلى المشاكل التى لها أصول أحدث مثل (سوء استخدام الدواء، مشاكل الطاقة، ومشاكل البيئة، ومشاكل الاتصال الجماهيرى. . . . .الخ) وعلى الرغم من أن هذه المشاكل أصبحت معروفة من حيث أسبابها ومظاهرها والنتائج المترتبة عليها هذا فضلاً عن العديد من الاقتراحات لحلها إلا أنها لا تزال موجودة وبصورة متفاقمة تدعو إلى التوقف أمامها وإعادة النظر فى كافة الحلول التى قدمت للتخلص منها.

وعادة، تصنف المشاكل إلى أربعة أنواع، الأول، يتمثل فى المشاكل المألوفة لدى معظم الدارسين وهى مشاكل مارسها أفراد ليسوا على وفاق مع المجتمع مثل مشاكل الجريمة، والانحراف وسوء استخدام العقاقير وإدمان المشروبات الكحولية وإدمان المخدرات والمرض العقلى والانحراف الجنسى ولا شك أن لهذه المشاكل جذورها فى البناء الاجتماعى للمجتمع ولها نتائج سلبية عديدة على أفراده فى جميع جوانب الحياة الاجتماعية.

والنوع الثانى من المشاكل الاجتماعية يتمثل فى هؤلاء الأفراد الذين ينحرفون عن توقعات المجتمع وهم الذين يعانون من الطريقة التى يعاملهم بها المجتمع فأفراد الأقلية - مثلاً يشعرون بعدم المساواة الاجتماعية. ولكن ليس هم وحدهم الذين يعانون من المشاكل الاجتماعية فمشكلتهم هى مشكلة متصلة بالتنظيم الاجتماعى والتدرج الطبقى الاجتماعى.

أما النوع الثالث من المشاكل الاجتماعية، فهو ينتج عن سلوك جماعات معينة أو جوانب منظمة من المجتمع مثل المؤسسات الاجتماعية (كالعمل الحر، والحكومة، والتعليم والأسرة . . . . الخ) فهناك مؤسسات كبيرة مشهود لها بممارسات غير قانونية وهذه المؤسسات من شأنها تعويق النظام السياسى عن أداء وظائفه وتحقيق أهدافه، ومن الأمثلة على ذلك التفكك فى النظام الأسرى وانحراف المؤسسات التعليمية عن القيام بواجباتها والصراع بين الأديان الرئيسية . . . . الخ. ومن هنا تنشأ المشاكل الاجتماعية.

وأخيراً يظهر النوع الرابع من المشاكل الاجتماعية من خلال عملية التغير الاجتماعي المستمر، فهذا التغير يحدث حتماً صراعاً بين القيم التقليدية والقيم المستحدثة هذا فضلاً عن بعض الآثار الاجتماعية غير المرغوب فيها والتي تفرض نفسها على مساحة الحياة الاجتماعية وأصبح هناك صراعاً حول المصادر النادرة فعلى سبيل المثال – أن الاهتمام بالصحة العامة قد خلق مشكلة من نوع آخر وهي الانفجار السكاني وأن انخفاض نسبة الطاقة المستخرجة من باطن الأرض كالبترول والفحم قد أدى إلى استخدام وسائل أخرى للطاقة كالطاقة الكهربائية والطاقة النووية . . . الخ وهذه الأخيرة جلبت ورائها العديد من المشاكل، هذا فضلاً عن تقدم المجتمع وتطور أساليب الاتصال قد خلق أنواعاً معينة من هذه الأساليب التي تبث قيم معينة وأنماط من السلوك قد تكون ملائمة لمجتمع ما ولكنها مدمرة أخلاقياً واجتماعياً لمجتمع آخر وأدى التطور العلمي إلى عدد من الكوارث الأخلاقية التي أزعجت كثيرين من أفراد المجتمع . . . الخ.

٤- المصادر الاجتماعية للمشاكل الاجتماعية

لا شك أن للمشاكل الاجتماعية أسبابها الاجتماعية، ولكن ما هي هذه الاسباب وكيف تؤدي إلى مشاكل نوعية، أن مثل هذه الأسئلة كانت محور اهتمام علم الاجتماع ولقد استطاع علماء الاجتماع تطوير أفكاراً وطرقاً لتحليل طبيعة المجتمع وكيفية تنظيمه وكيفية تغيره وكيفية تأثيره على الأفراد وكيفية ظهور المشاكل الاجتماعية إلا أنه في بادئ الأمر كانت التفسيرات السوسيولوجية تتسم بالسطحية وبعد ذلك تطور التحليل السوسيولوجي وتنوعت مداخله. وأصبح لزاماً على دارس المشاكل الاجتماعية أن يدرس طبيعة البناء الاجتماعي القائم للفوضى في جذور المشاكل الاجتماعية وتفسيرها وتحليلها واقتراح البدائل الممكنة لحل هذه المشاكل.

أ- تطور التحليل الاجتماعي

من المعروف أن عالم الاجتماع الفرنسي "أوجست كونت" هو المؤسس الحقيقي لهذا العلم. وهو الذي أطلق عليه مصطلح "علم الاجتماع

Sociology" في أوائل القرن التاسع عشر فلقد شاهد "كونت" منذ بداية حياته مدى الفوضى السياسية والاجتماعية التى كانت سائدة فى فرنسا آنذاك وهذا فضلاً عن مظاهر البؤس الذى أزعجته كثيراً ولقد تتبع "كونت" جذور المشاكل الاجتماعية فى المجتمع الفرنسى وردها إلى عمليات التغير الاجتماعى المستمرة هذا من ناحية وطبعة المؤسسات الاجتماعية من ناحية أخرى وأشار إلى أن هذه المشاكل كانت أمراً طبيعيا وأن المجتمع ليس شيئاً للغاية وأن إمكانية إصلاحه ليس بالأمر الهين وأن مهمة علم الاجتماع الأساسية هو دراسة المجتمع دراسة علمية ونوضيح مشاكله وأسبابها وطرق علاجها وآمن "أوجست كونت" بأن هدف علم الاجتماع الأساسي يكمن في الكشف عن الأسس العامة للتنظيم الاجتماعى وبيان مدى الخلل الذى يصيب هذا التنظيم من أجل تحقيق الصالح العام لأفراد المجتمع. وأن الطريق الوحيد لحل مشاكل المجتمع هو دراسته دراسة علمية، فهذه الدراسة سوف تؤدى إلى إعادة تنظيم المجتمع بطريقة أكثر عقلانية.

ولقد أيد "أوجست كونت" التدخل "المعتمد" لتحسين المجتمع وآمن بأن المعرفة السوسيولوجية سوف توفر أساس تطوير السياسات والبرامج التى يمكنها تحقيق الإصلاح الاجتماعى ومثلما فعل "كونت" وغيره من المؤسسين لعلم الاجتماع أكد "هربرت سبنسر" على أن التنظيم الاجتماعى وأنماط التغير تعتبر من المصادر الأساسية للمشاكل الاجتماعية.

فلقد كان "سبنسر" مهتماً – على العكس من كونت بالتطور الطبيعى للحياة الاجتماعية. وآمن أنه ليس من الحكمة التدخل المعتمد "كما أشار كونت – فى عملية التطور الاجتماعى بحجة القضاء على المشاكل الاجتماعية فالمجتمع يتطور بشكل طبيعى نحو نظام اجتماع أكثر استقراراً وتماسكاً وأن أفضل طريقة لتحقيق التقدم الاجتماعى هو ترك المجتمع يتطور حسب قوانين تطوره الطبيعية دون تدخل من قبل أفراد المجتمع ولقد أكد على حتمية القوانين الطبيعية للتغير الاجتماعى وأن هذا التغير من شأنه أن يحسن من

أحوال المجتمع وأن التدخل بالبرامج أو القوانين الجديدة سوف يؤدى إلى نتائج غير مرغوب فيها.

ومن المعروف أن "هوبرت سبنسر" فيلسوف وعالم الاجتماع إنجليزى، كان مهتماً بالحياة الاجتماعية فى إنجلترا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. فلقد جاء فكره على خلاف فكر "أوجست كونت" وذلك لاختلاف طبيعة الحياة الاجتماعية فى كل من المجتمع الفرنسى والمجتمع الإنجليزى فى هذه الفترة.

أما "كارل ماركس" فكان فيلسوفاً سياسياً وكانت له أداء فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية أو على الرغم من أن ماركس لم يذكر فى مؤلفاته العديدة اسم "علم الاجتماع" إلا أن أدائه جميعها تعد من أساس الدراسة فى علم الاجتماع وكان له رأى فى المشاكل الاجتماعية واعتقد أنها تجلت من خلال بناء القوة أو السلطة الموجودة فى المجتمع فهؤلاء القلة أو "صفوة القوة" الذين تحكموا فى وسائل الإنتاج (الأرض والآلات والمصانع ورأس المال) وسخروها لمصلحتهم الشخصية وعملوا جاهدين على استغلال طبقة العمال (البروليتاريا) قد جلبوا لهم العديد من المشاكل الاجتماعية ويعتقد "ماركس" أن أى تحسن لهذه المشاكل الاجتماعية لا يمكن أن يحدث بصورة فردية بل لابد من تكاتف كافة الذين وقع عليهم الضرر لكى يستطيعوا تغيير أوضاعهم وحل مشاكلهم.

وأكد ماركس أن صور الاستغلال الاقتصادى والاجتماعى كانت موجودة على مر التاريخ ولكن بصور مختلفة حسب طبيعة النسق الاقتصادى السائد. وجدير بالذكر أن "ماركس" لم يكن يثق فى فكرة الإصلاح التدريجى للمشاكل الاجتماعية والذى يحدث من خلال تطور المعرفة، والتدخل الاجتماعى عن طريق رسم السياسات ووضع الخطط والبرامج المختلفة لأنه يرى أن العلم والعلماء كانوا فى خدمة من بيدهم السلطة وأن هؤلاء الذين يتحكمون فى مصائر المجتمعات واعتادوا مقاومة التغيير ما لم يكن مصمماً بهدف الإبقاء والمحافظة على الوضع القائم، ومن ثم نادى "ماركسى" باتحاد العمال، والعمل

على قلب النظام القائم. وأكد أن الإصلاح الاجتماعي يمكن تحقيقه فتطور عن طريق الثورة السياسية الكاملة والتي يتقلد فيها العمال تقاليد السلطة وأن يمكنوا بزمام الأمور في المجتمع وأن يتحول المجتمع من ديكتاتورية البرجوازية إلى ديمقراطية البروليتاريا. وبهذه الطريقة - كما يرى "ماركس" يمكن تحقيق ما أسماه بالإنصاف الاجتماعي - وتطوير المجتمع على أسس أكثر عدالة.

على أية حال، أن هذه النظريات المتصلة بالمجتمع والمشاكل الاجتماعية واستراتيجيات الإصلاح هي مجرد أفكار غريبة عن طبيعة الحياة الاجتماعية في هذه المجتمعات وهذه الأفكار لا يمكن قبولها بشكل مطلق دون ضرر شديد، لأن ما يتناسب مع مجتمع ما، قد لا يتناسب مطلقاً مع مجتمع آخر.

فالمجتمع الأمريكي - على سبيل المثال - يتدخل فعلاً كما يرى "أوجست كونت" عن طريق البرامج والسياسات التي تهدف إلى التقليل من وطأة المشاكل الاجتماعية في الوقت الذي يقاوم فيه هذا التدخل بعض الجماعات الذين يشعرون بأن أفراد المجتمع ينبغي أن يحلوا مشاكلهم بأنفسهم دون تدخل من قبل جماعات أخرى. وهذا الرأي يتفق مع أنفسهم دون تدخل من قبل جماعات أخرى. وهذا الرأي يتفق مع ما أشار إليه "سبنسر"بأن أفضل حكومة هي التي تحكم بلا تدخل في حياة الجماعات الخاصة. وهناك مجتمعات عديدة في العالم تعيش داخل أنظمة اجتماعية مستمدة من وحي أفكار "ماركس".

وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبح علماء الاجتماع أقل اهتماماً بالمشاكل العامة وبدءوا يركزون على المشاكل الخاصة والبحث عن تفسيرات ملائمة من خلال أصولها الاجتماعية وفي عام ١٨٩٧ قام عالم الاجتماع الفرنسي "أميل دور كايم" E Durkheımw بنشر نتائج دراسة عن الانتحار والتي قام بها على نطاق واسع. وتعتبر هذه الدراسة أول دراسة تفصيلية عن أسباب المشاكل الاجتماعية تقوم على بيانات إحصائية وأوضحت هذه الدراسة أن معدلات الانتماء تتفاوت بين مختلف المجتمعات الأوربية ومختلف طبقات المجتمع، ووجد أن غير المتزوجين كانت معدلات الانتحار بينهم أعلى مما كانت بين المتزوجين

وكانت نسبة الانتحار بين البروتستانت أعلى مما كانت عليه بين الكاثوليك. وأكد دور كايم أن هناك عامل أساسي يكمن وراء هذه الاختلافات وهو الروابط والعلاقات الاجتماعية فمعدلات الانتحار تميل إلى الانخفاض حينما يكون هناك تضامناً اجتماعياً قوياً بين أفراد المجتمع وتزداد معدلات الانتحار في الحالات التي يوجد فيها تفكك اجتماعي واضح.

وفي نفس الوقت كان عدد كبير من الناس في الولايات المتحدة الأمريكية يأملون أن تؤدي الدراسة العلمية للمشاكل الاجتماعية الخاصة بقطاعات معينة من السكان إلى معرفة أفضل أسبابها الاجتماعية، وبالتالي إلى فهم أفضل لطريقة معالجتها ففي الولايات المتحدة الأمريكية ظهر أكثر من عمل سوسيولوجي حاد لدراسة المشاكل الاجتماعية أهمها الدراسة التي نشرت في كتاب "بواش" Bais بعنوان "زنحي فيلادليفيا" والذي وصف فيه بالتفصيل الفقر والتمييز العنصري الذي عاني منه السود في مدينة أمريكية كبير قبيل الحرب العالمية الأولى وهذه الدراسة تعتبر من الدراسات الجيدة في دراسة المشاكل الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية هذا فضلاً عن الدراسات الكلاسيكية التي قام بها كل من "توماس" و"زنانيكي" ونشرت في عام ١٩١٨ تحت اسم "الفلاح البولندي" وتهتم هذه الدراسة بوصف حالة المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية والصعوبات التي يواجهونها وتجاربهم مع الهجرة وجدير بالذكر أن "الهجرة" كانت تمثل واحدة من أهم المشاكل الاجتماعية في ذلك الوقت.

وفي بداية القرن الحالي بدأ علم الاجتماع ينمو ويتطور بشكل سريع كمجال أكاديمي في الولايات المتحدة الأمريكية فقامت معظم الكليات والجامعات بتدريس علم الاجتماع وخصصت الأموال للإنفاق على البحوث السوسيولوجية وبدأت المشاكل تتواجد، وبدا المجال ينمو بسرعة أكثر فأكثر خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها. ولقد أصبحت كثير من المشاكل الاجتماعية التي ركز عليها علماء الاجتماع الأوائل محور اهتمام مخططي السياسة الاجتماعية وأصبح هناك مؤسسات مختلفة وميادين جديدة تهتم أيضاً

إلى جانب علم الاجتماع بدراسة المشاكل الاجتماعية منها على سبيل المثال، ميدان الاتصال الجماهيرى والخدمة الاجتماعية وعلم النفس الاجتماعى وتهدف هذه الميادين إلى دراسة المشاكل التى درسها علماء الاجتماع وإضفاء عليها بعداً جديداً يتخصص فيه كل ميدان على حدة. إلا أن دراسة المشاكل الاجتماعية ما زالت إلى حد بعيد موضوعاً يتصل اتصالاً مباشراً بعلم الاجتماع ففهم المشاكل الاجتماعية يحتاج إلى معرفة بالمجتمع ككل وتنظيماته المختلفة وعوامل تغيره والكيفية التى يتولد من خلالها الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى مشاكل اجتماعية واسعة الانتشار.

ولا شك أن علماء الاجتماع اليوم أصبحت لديهم أدوات بحثية متقدمة تمكنهم من دراسة المشاكل الاجتماعية بصورة أكثر دقة بالمقارنة بعلماء الاجتماع الرواد، وأصبحت هناك تفسيرات واضحة للمشاكل الاجتماعية من حيث أسبابها وطرق علاجها ولكن ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن الحلول النهائية للمشاكل ليست أمراً سهلاً. وما زال هناك جدال حول طبيعة بعض المشاكل الاجتماعية وكيفية التصدى لها.

وجدير بالذكر أن علماء الاجتماع اليوم لم يتقيدوا بالتعميمات الشاملة التى كان يقع فيها الرواد، فلقد نقحوا عدداً من النظريات عن طبيعة المجتمع وعمليات تغييره وتوفر هذه النظريات إطاراً مرجعياً لتفسير الأصول الاجتماعية للمشاكل الاجتماعية ولقد حاول علماء الاجتماع تطوير أبعاد مختلفة فى تفسير المشاكل الاجتماعية وهذه الأبعاد لا يمكن الحزم بأنها نهائية وشاملة، ولسها - على الأقل تعطى صورة واضحة لبعض المشاكل الاجتماعية مثل مشكلة سوء استعمال العقاقير الطبية، والانحراف الجنسى، وإدمان المخدرات والكحوليات . . . الخ ويرى علماء الاجتماع أن هناك فئات معينة من العوامل الاجتماعية تلعب أدوارا هامة فى إثارة المشاكل الاجتماعية وهذه العوالم التى قد تسبب مشكلة ما وقد لا تكون كذلك فى مشكلة أخرى وقد تكون العادات والتقاليد الخاصة - مثلاً - بمشكلة الإدمان، لها صلة بزيادة السكان أو بزيادة معدل الجريمة أو قد لا يكون لها صلة.

ب- نظريات المجتمع

يستند البحث الاجتماعي على مجموعة من الافتراضات العامة عن طبيعة المجتمع وهذه الافتراضات العامة تتصل بالثبات والتغير الاجتماعي وتسمى بالنظرية وهذا المصطلح يشيع استخدامه في علم الاجتماع ولقد استخدم في كثير من البحوث السيوسيولوجية توجه من خلال نظرية معينة والنظرية قضية متصلة بكيان العلم فكلما تطورت النظرية وأصبحت أكثر تحديداً كلما تطور العلم المتصل بها فمثلاً، قدم علماء الفلك الأولون مجموعتين مختلفتين من الافتراضات النظرية لتفسير طبيعة النظام الشمسي وافترض أحد هذه النماذج النظرية (وهو الخاص بمركزية الأرض) أن الأرض كانت مركزاً للنظام الفلكي بما فيه من المجموعة الشمسية وغيرها، وكانت الكواكب كلها تدور حولها وهذا الافتراض قد بدا مناسباً ومقبولاً آنذاك نتيجة للمشاهدات التي توصل إليها علماء الفلك بهذا الشأن.

أما النموذج الثاني (وهو الخاص بمركزية الشمس) فقد افترض هذا النموذج أن الشمس تتوسط المجموعة الشمسية وأن الأرض والكواكب الأخرى كانت كلها تدور حولها ومع مرور الزمن وتطور العلم أدواته البحثية أكدت المشاهدات بشكل قاطع صحة هذا النموذج وصحة افتراضاته التي فسرت العديد من الأحداث الكونية مثل كسوف الشمس وخسوف القمر، والتغيرات التي تحدث في حركات النجوم في السماء وأصبح اليوم هذا النموذج النظري هو النموذج المعترف به علميا.

ولا شك أن النموذج العلمي والمتمثل في "النظرية " theory هو مجموعة من الافتراضات الأساسية عن كيفية تنظيم جانب من جوانب الطبيعة أو الحياة الاجتماعية وكيفية التنبؤ به أن تاريخ العالم مليء بنماذج نظرية متعددة، ولقد طور "دراوين" نموذجا نظريا لأصول الفضائل الحية واقترح "فرويد "نموذجا نظريا لطبيعة ووظيفة النفس الإنسانية وطور آخرون مجموعات نظرية أخرى عن تركيب الذرة والكهرباء وجرثومة الأمراض المعدية . . . الخ.

وعندما يستخدم علماء الاجتماع مصطلح " النموذج النظرى " فإنه يرمز إلى نموذج أو قطاع من المجتمع، وهذا النموذج النظرى عبارة عن مجموعة من القضايا النظرية المنطقية التى تصف التنظيم الكامن لمجتمع ما أو قطاع معين من هذا المجتمع وعمليات استقراره وعوامل تغيره وهذه الافتراضات عبارة عن فروض تثبت صحتها ومنطقيتها وقد خضعت هذه الفروض من قبل للجدل والنقاش فمثلا الفروض المتصلة بمركزية الشمس دار حولها العديد من الأبحاث حتى تثبت صحتها ومنطقيتها فالفرض إذن هو عبارة عن تصور مبدئى لقضية ما لم يثبت صحتها والبحث هو الذى يثبت مدى صحة هذه الفروض أو أخطائها.

ومع التسليم بأن هناك تفاوت فى طبيعة الحياة الاجتماعية من مجتمع لآخر ومن فترة زمنية لأخرى فى المجتمع الواحد،فهناك أيضا تفاوت فى طبيعة المشاكل الاجتماعية.

ومن ثم اختلفت وجهات النظر السوسيولوجية فى دراسة المشاكل الاجتماعية وظهر أكثر من نموذج نظرى كل منها يحاول دراسة المشاكل الاجتماعية من منظور مختلف ومن هنا جاء فهم الاصول الاجتماعية للمشاكل الاجتماعية متنوع فى دراسات علم الاجتماع.

وبصفة عامة لقد تطورت أربع نماذج نظرية رئيسية فى ميدان البحث السوسيولوجى خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة – أى منذ أن نشاء علم الاجتماع حتى اليوم – وهذه النماذج النظرية تحاول كل منها وصف تفسير وتحليل طبيعة الحياة الاجتماعية وهذه النماذج النظرية هى: النظرية البنائية الوظيفية، ونظرية الصراع، ونظرية التفاعل الرمزى، والنظرية التطورية.

أ- النظرية التطورية

احتلت النظرية التطورية مكانة هامة فى تاريخ تطور النظرية السوسيولوجية فالعدة قرون وصف المفكرون – بطريقة غامضة – نوعا ما المجتمع على أنه نوع من "البناء structure وهذا البناء يتكون من مجموعة

"أنساق" system (كالنسق الاقتصادي والنسق السياسي، والنسق الديني، والنسق العائلي، والنسق التربوي) وهذه الأنساق مترابطة فيما بينها ويعتمد كل منها على الآخر وأن أي تغير في أحد هذه الأنساق لابد وأن يصاحبه تغير في باقي أجزاء البناء الاجتماعي.

وقبيل بداية القرن التاسع عشر كان من المعروف جيدا أن هذا "البناء" لم يكن مجرد مجموعة من الأجزاء تعتمد فيما بينها على بعض اعتماد متبادلا، ولكن هذا البناء يمر بنوع ما من التطور، وكانت المجتمعات الحديثة قد مرت بمراحل تطورية مختلفة حتى وصلت إلى الوضع التي كانت عليه وهناك مجتمعات أخرى فقدت عناصر استمرارها وبقائها فاندثرت.

ولقد استخدم علماء الاجتماع النموذجي التطوري في عقد مقارنة بين المجتمع والكائن العضوي(البيولوجي) نظرا لتشابه كل منهما في عدة وجوه فافترض علماء الاجتماع أن المجتمع منظم بطريقة تشبه تنظيم الكائن العضوي فالمجتمع مقسم إلى أنساق ولكل منها دور محدد فضلا عن الاعتماد المتبادل بين هذه الأنساق بعضها البعض أيضا في المقابل يتكون الكائن الحي من مجموعة أعضاء حتى يستمر هذا الكائن في الوجود والمجتمع يبدأ بسيطا ثم ينمو ويتطور ويصبح أكثر تعقيداً أيضاً الكائن الحي يبدأ صغيراً ثم ينمو ويتطور ويصبح أكثر تعقيداً أيضاً الكائن الحي يبدأ صغيراً ثم ينمو ويتطور على فترات تاريخية . . . وهكذا "فأوجست كونت" في وصفه للمجتمع أشار إلى أنه "كائن تضامني" ووصف التضامن في المجتمع الحديث بأنه "تضامن عضوي" فالمجتمع من وجهة نظر "كونت" ليس كالكائن الحي في شريعته (كالحيوان أو النبات) ولكن كالكائن الحي في تركيبه الداخلي.

وأضاف "هربرت سبنسر" H. Spenesr فكرة هامة لهذا التشبيه وأكد على أن المجتمع كان يمر بمرحلة تطورية أشبه بكثير لتلك المرحلة أو العملية التي وضعها "داروين" لشرح التغير الذي يحدث في عالم الكائنات الحية ولقد أكد "سبنسر" أن تطور المجتمع تحكمه مجموعة من القوانين الطبيعية والتي لا تتغير ويمكن تفسير عمليات التغير الاجتماعي في ضوء هذه القوانين وأشار "سبنسر"

إلى أن المجتمع كان يطور دائماً أشكالا اجتماعية جديدة عن طريق عملية تسمى "بالانتقاء الطبيعى".

واعتادت هذه الأشكال الاجتماعية على البقاء طالما أنها تتفق مع طبيعة المجتمع وحاجاته الملحة، بينما الأشكال الاجتماعية الأخرى والأقل منفعة فقد اعتادت أن تختفى من الوجود وفقاً لقانون "البقاء للأصلح" Survival of the fittest وأن التدخل فى هذه العمليات الطبيعية – كما أشار "سبنسر" يعد نوعاً من الحماقة لأن ذلك سوف يعطل قوانين التطور الطبيعية والثابتة والتى لا تقبل التغير ويكون من الأفضل أن نترك الطبيعة تأخذ مجراها وتحدث مجتمعاً أفضل بطريقتها ولشدة الشبه بين هذا الرأى ونظريات "داروين" أصبح يطلق عليها نظرية داروين الاجتماعية Social Darwinism theory.

واليوم بعد أكثر من قرن من النقاش حول الأفكار الأساسية التى تقوم عليها النظرية التطورية، أصبحت فكرة ترك الطبيعة تأخذ مجراها من الأفكار المبتذلة والتى لم تعد مقبولة الآن. على أية حال، أن نظرية التطور قد قامت على عدة افتراضات أساسية يمكن الإشارة إليها على النحو التالى :

(١) يتكون المجتمع من مجموعة من الأجزاء المترابطة فيما بينها والمعتمدة على بعضها البعض اعتماداً مباشراً.

(٢) يمر المجتمع بسلسلة من التغيرات ويحدث هذا التغير تفاضلاً متزايد وتخصيصاً لبعض الأجزاء.

(٣) تحدث الصور الاجتماعية الجديدة عن طريق التداخل أو الاستعارة من مجتمعات أخرى فالأفراد ينشدون دائماً الوسائل الفعالة للوصول إلى أهدافهم القيمة.

(٤) تتبع الصور الاجتماعية الجديدة التى تساعد أفراد المجتمع على تحقيق أهدافهم بفاعلية والتى لا يقاومها الآخرين وتنتشر هذه الصور فى المجتمع فيصبح أكثر تعقيداً ويتخلى أفراد المجتمع عن الصور الاجتماعية الأقل فاعلية.

وهكذا تقدم لنا نظرية التطور تشابها معدلاً بين المجتمعات والكائنات الحية. فالمجتمع يعدل من نفسه عن طريق عملية تطورية تقوم على الانتقاء الطبيعي لنماذج اجتماعية جديدة، والاحتفاظ بهذه النماذج التي تساعد الأفراد على تحقيق أهدافهم وحذف النماذج التي ليست لها فعالية والتغير المستمر تركيب شامل أكثر تعقيداً وأكثر فعالية وأن أي نموذج للسلوك يعوق هذا التطور يعتبر حالة مرضية.

٢- النظرية البنائية الوظيفية

لم تعد نظرية التطور ذات أهمية في الدراسات السيوسيولوجية ومن ثم بدأ التفكير في نظرية ملائمة فجاءت النظرية البنائية الوظيفية والتي تنظر إلى المجتمع على أنه "بناء" مكون من مجموعة من الأجزاء بينها اعتماد متبادل وهذه الأجزاء تساهم في حفظ ثبات واستقرار "البناء" والجديد في هذه النظرية هو تأكيدها على ثبات النسق واستقراره هذا فضلاً عن تأكيدها على دور وظائف الأجزاء المكونة للبناء الاجتماعي في الحفاظ على البناء واستمراريته.

وعلى الرغم من أن مفهوم البناء والوظيفة من المفاهيم الشائعة في كثير من العلوم الاجتماعية الأخرى والعلوم البيولوجية إلا على علم الاجتماع يتعامل مع هذه المفاهيم بطريقة مختلفة فمفهوم البناء الاجتماعي يتضمن أربعة أفكار رئيسية ومعنى المعايير Morms والأدوار Roles والمكانة Sates والثواب والعقاب sanctions وقد يكون هناك أفكار أخرى تتصل بالبناء الاجتماعي إلا أن هذه الأفكار السابقة هي الأفكار الأساسية.

فالمعايير Norms هي قواعد للسلوك يشارك فيها جميع أفراد المجتمع على نطاق واسع وهذه المعايير تشكلت داخل المجتمع على مر الزمن، ويمكن تعريفها من خلال التوقعات التي ينبغي أن يسلكها أعضاء المجتمع في المواقف الاجتماعية وتساعد المعايير على إمكانية التنبؤ بالسلوك الاجتماعي وتمكن الناس من أن يتفاعلوا مع بعضهم البعض بطريقة منظمة. نحن نفهم - مثلاً - كيف نأكل في مطعم وكيف - يحيى بعضنا بعضاً، وكيف نرتدي الملابس

المناسبة فى المواقف المختلفة، وكيف نقود السيارة وكيف نتعامل من خلال عمليات البيع والشراء وكيف نلتزم بمواعيد العمل . . . الخ من الأنشطة الاجتماعية الأخرى. وذلك لأن معايير هذه الأنشطة واضحة، من ثم يمكن التنبؤ تماماً بسلوك الآخرين وسلوكنا وفقاً لمعرفتنا الجيدة لهذه المعايير.

وتمكين التمييز بين ثلاثة نماذج المعايير وهى : الطرق الشعبية Folkways والأخلاق Marcs والقوانين Laws وأن لبعض هذه المعايير أهمية كبرى يشير انتهاكها استهجاناً كبيراً من قبل أفراد المجتمع وهناك معايير أخرى لا يثير انتهاكها مثل هذا الاستهجان العام وما يسمى غالباً بالطرق الشعبية هى مثل هذه المعايير المتعارف عليها فقد تطورت هذه الطرق الشعبية من خلال العديد من المواقف الاجتماعية التى تتدرج من كيفية توقع الفرد أن يرد على التليفون إلى ما يعتبر سلوكاً لائقاً فى حفلة موسيقية أما المعايير الأكثر حيوية وتحظى بالتقدير من قبل أفراد المجتمع هى ما تسمى "بالأخلاق" Mores فهى ترتبط بالقيم العميقة لأفراد المجتمع وأن السلوك الذى ينتهك المعايير الأخلاقية (مثل الاعتداء الجنسى على طفل، أو أكل لحوم البشر، أو ضرب امرأة عجوز لا حول لها ولا قوة ضرباً مبرحاً) من المحتمل أن يثير رد فعل قوى من قبل أفراد المجتمع وإذا أصبح الاعتداء تحدد فى صور قوانين مكتوبة تميزها الهيئة التشريعية وتؤيدها سلطة الدولة.

وتصدر القوانين عندما يلزم توضيح النظم وضبط السلوك بشكل أكثر فعالية وعلى أية حال من أن الطرق الشعبية والمعايير الأخلاقية والقوانين كلها تساعد فى ضبط جوانب معينة من السلوك الاجتماعى وتوفر أسس محددة للتفاعل فى كل موقف اجتماعى وهى تجعل السلوك قابلاً للتنبؤ ومن ثم تساعد على الاستقرار الاجتماعى.

والمظهر الثانى للبناء الاجتماعى يتمثل فى "نسق الأدوار" System of roles التى يقوم بها الأفراد داخل البناء الاجتماعى فالأفراد يقومون بالعديد من الأنشطة المختلفة والمتداخلة وهذه الأنشطة تعرف بالأدوار فلكل مجتمع مجموعة من الأدوار المحددة التى يقوم بها الرجال وأخرى التى تقمن بها

النساء هذا فضلاً عن الأدوار المحددة التي يقوم بها أعضاء المؤسسات الاجتماعية كالجيش، أو المدرسة أو الوحدة العلاجية أو المصنع . . . الخ. وهذه الأدوار محكومة بقيم معينة فلكل دور مجموعة من المعايير التي توجهه ومن ثم تجعل عملية التنبؤ به ممكنة وهذه المعايير تحدد ما يمكن أن يفعله أفراد معينين في مواقف معينة كطبيب الأسنان أو أستاذ الجامعة، أو المهندس . . . فلكل منهم دور محدد ومطلوب من القائم بهذا الدور أن يسلك بطريقة معينة يمكن توقعها وبطريقة مقبول من قبل أفراد المجتمع وهذه الأدوار تسهم إسهاما مباشراً في عملية تقسيم العمل داخل المجتمع.

وتتمثل فكرة "المركز" أو "المكانة" Status اتصالاً وثيقاً بهذه الأدوار فأفراد المجتمع يتلقون مستويات مختلفة من حالات الثواب والعقاب بسبب شغلهم لأدوار معينة فيحظون بالتكريم، أو يحصلون على دخل أعلى أو أقل أو مكانة اجتماعية مرموقة أو أقل هيبة من خلال شغلهم لأدوار معينة فالناس يرتب بعضهم بعضاً اجتماعياً وهذا الترتيب يسمى ترتيب المكانة على المستوى الفردي وترتيب الطبقات الاجتماعية حينما يشترك مجموعة من الأفراد في مستوى اجتماعي متقارب.

ولضبط السلوك في جماعة أو مجتمع يستخدم أفراد المجتمع قوانين الثواب والعقاب كعقوبات رادعة لعقاب هؤلاء الذين لا يتبعون القواعد وثواب هؤلاء الذين يتبعونها بطريقة مثالية. وتعتبر قوانين الثواب والعقاب Sanction صورة من صور السلوك التي يفهمها الآخرون على أنها للثواب أو العقاب وتتدرج مستويات هذا السلوك من التصفيق لأداء جيد إلى الرفض بوضوح وفعالية علانية عن قاتل مذنب. فقواعد العقاب والثواب هي أساس الضبط الاجتماعي Social Control.

أي جعل سلوك أفراد المجتمع يتمشى مع المعايير والأدوار التي يشغلها أعضاء وتؤكد قوانين العقاب والثواب الاستقرار وإمكانية التنبؤ بالنظام الاجتماعي.

الوظيفة Function

يمكن تفسير مصطلح "الوظيفة" على أن يعني المساهمة في استقرار النظام الاجتماعي فمثلاً إذا كان المجتمع يبقى الاستمرار في الوجود د لأفراد أن ينجبوا أطفال ويعتنون بهم فالوظيفة الأساسة للأسرة هي انجاب الأطفال والوظيفة الأساسية للمدرسة كمؤسسة اجتماعية تعليم النشئ لتوفير مواطنين مدربين أفضل لإدارة المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة ومع ذلك فالمدرسة أيضاً وظائف أخرى كامنة مثل الاحتفاظ بجماعة من الشبان خارج نطاق القوة العاملة (وهذا يحد من مشكلة البطالة) وتوفير بعض الأفراد الذين لديهم مهارات وخبرات علمية أفضل هذا من ناحية كي نحصل في النهاية على مجتمع مقسم إلى طبقات من ناحية أخرى.

وتفترض النظرية البنائية الوظيفية أن كل شكل من أشكال السلوك الاجتماعي يسهم في عملية استقرار أو توازن المجتمع وفي الحقيقة أن أنواع محددة من هذا السلوك تعد ضرورة لبقاء المجتمع واستمراره فبدونها لا يمكن للبناء الاجتماعي أن يستمر بشكل منظم ومستقر. فإذا حدث هناك خللاً في واحد من المعايير الأساسية فإن هذا الخلل سوف يؤدى إلى تدهور المجتمع وسوف يكون التفاعل بين أفراد المجتمع مستحيلاً ولا يمكن التنبؤ به.

على أية حال أن النموذج البنائي الوظيفي الذي يقوم على أفكار البناء والوظيفة يصف مجتمعاً يكاد يكون ثابتاً، وإن حدث تغير فهو تغير طفيف فالمجتمع يظل ثابتاً بسبب الأشكال المتكررة للسلوك التي يقوم بها أفراده. وهناك اختلافات كثيرة حول النموذج البنائي الوظيفي ولكن هناك بعض الأسس التي يقوم عليها هذا الاتجاه وليست موضع خلاف وهي :

(١) المجتمع هو نظام لأجزاء مترابطة وسلوكيات متكررة تقوم وفقاً لمعايير محددة من قبل تحكم مجموعة الأدوار والمراكز المتعارف عليها.

(٢) يميل المجتمع إلى الاحتفاظ باستقرار بنائه وإذا حدثت تفككات أو انحرافات داخل البناء فهناك ميكانزمات داخلية تحاول إعادة البناء إلى حالة الاستقرار والتوازن التي كان عليها من قبل.

(٣) كل شكل من أشكال السلوك الاجتماعي الموجود داخل البناء الاجتماعي يعمل بطريقة أو بأخرى على استقرار وثبات البناء فالكل يلعب دوراً ما في المحافظة على توازن النسق واستقراره.

(٤) بعض أنماط السلوك الأساسية والتي لا غنى عنها في استمرار المجتمع ولا شك أن عملية التوظيف البنائي هامة في دراسة الأصول الاجتماعية للمشاكل الاجتماعية فهي تنبئنا بأنه إذا ظهرت مواقف معينة تحدث خللاً في البناء الاجتماعي فسوف تظهر عندئذ قوى أخرى تحاول أن تعيد التوازن ومع ذلك فقد لا يتمكن المجتمع من أن تعيد التوازن ومع ذلك فقد لا يتمكن المجتمع من أن يعالج هذا الخلل فربما يدوم هذا الخلل لفترة تطول أو تقصر وربما يستمر لفترات طويلة على الرغم من الجهود المبذولة في محاصرته والقضاء عليه وإعادة النسق إلى حالة التوازن التي كان عليها من قبل.

فعلى سبيل المثال تحدث "الهجرة" الداخلية من الريف إلى المدينة مشاكل اجتماعية ملحوظة أهمها صراع القيم والذي يتخذ مظهرين الأول يتمثل في الصراع بين القيم التقليدية والقيم المستحدثة، والثاني صراع بين قيم المهاجرين التقليدية وقيد المجتمع الجديد الذين انتقلوا إليه بعد الهجرة وهذا الصراع قد يحدث ما أطلق عليه "دور كايم" "بالأنومي" Anomie أو فقدان المعايير أو "اللا معيارية"، وهذا المصطلح استخدام لأول مرة على يد "دور كايم" هذا فضلاً عن العديد من الظواهر الاجتماعية المختلفة والتي تسبب خللاً في البناء الاجتماعي مثل : التغير التكنولوجي السريع، والذي يمزق الأدوار في القوى العاملة ونمو السكان المتزايد والحروب المدمرة والكساد الاقتصادي ونقص الطاقة والغزو الأيدلوجي، . . . الخ فإلى جانب حالة "اللا معيارية" التي يعاني منها أفراد المجتمع وهذه الصراعات الاجتماعية المختلفة يحدث

"التفكك الاجتماعي" Disorganization وانهيار قواعد السلوك والروابط الاجتماعية التقليدية، تؤدى حالة الفوضى الاجتماعية التى يصبح عليها المجتمع إلى العديد من المشاكل الاجتماعية حينما يحاول أفراد المجتمع التوافق مع نظام اجتماعي جديد لا يمكن التنبؤ بأنماط السلوك المكونة له فى ضوء القيم والمعايير التقليدية. ومن هنا استطاع علماء الاجتماع الذين يهتمون بالنظرية البنائية تطوير مدخلا أساسياً لدراسة المشاكل الاجتماعية يعتمد على بعد "التفكك الاجتماعي" والذى يساعد على فهم أفضل لجذور المشاكل الاجتماعية.

٣- نظرية الصراع

لا شك يعتبر "الصراع" Conflict من العمليات الاجتماعية الأساسية فلا يخلو مجتمع فى حقبة من الحقبات التاريخية التى مر بها من وجود نوعاً ما من "الصراع" وتاريخ المجتمعات على حد تعبير كارل ماركس - هو تاريخ الصراع الطبقي ومن ثم فالصراع يلعب دوراً هاماً وأساسياً فى تطور المجتمع.

وتبدأ نظرية الصراع بافتراض أساسي مؤداه أن أى مجتمع مكون من طبقتين أساسيتين لكل منهما أهداف وقيم مختلفة ففى المجتمع الرأسمالى أشار "ماركس" إلى وجود طبقتين أساسيتين الأولى هى طبقة "البرجوازية" وهى الطبقة التى تملك وسائل الإنتاج ويتحكمون فى كل شىء أما الطبقة الثانية فهى طبقة "البروليتاريا" وهى الطبقة العاملة والتى لا تملك أى شىء سوى بيع قوة عملها إلى الطبقة الأولى والهدف الأساسى لطبقة "الملاك" هو الوصول بالأرباح إلى أقصى حد ممكن وبسبب ذلك فهم يستغلون الطبقة الثانية أسوء استغلال فى سبيل تحقيق هذا الهدف. ومن ثم فالصراع بين هاتين الطبقتين لا يمكن تجنبه فهو "حتمى" ونهاية هذا الصراع هو "بؤرة" عنيفة ونتيجتها محسومة لصالح طبقة العمال لأنهم الأكثر عدداً والأكثر وعياً وتماسكاً. وعندما يصل الصراع إلى هذه الدرجة يقوم العمال بتسلم مقاليد الأمور فى المجتمع ويتحول الحكم من ديكتاتورية البرجوازية إلى ديكتاتورية البروليتاريا وهكذا تتغير صورة المجتمع وتتحول من مجتمع رأسمالى إلى مجتمع اشتراكى.

ولا يمكن الحزم بأن أفكار ماركس مطلقة، وأن أى صراع بين الطبقات المتعارضة فى المجتمع يمكن أن يؤدى إلى ثورة هذا فضلاً عن وجود أنماط مختلفة للتغيير تحدث بدون ثورات.

هذا فضلاً عن وجود أنماط مختلفة للتغيير تحدث بدون ثورات ففى المجتمع الحديث توجد فئات عديدة وجماعات مختلفة ومتعارضة فى أهدافها وقيمها من بعضها البعض ومع هذا لم تحدث ثورة والأمثلة على ذلك كثيرة فعلى سبيل المثال هناك خلاف بين العمال والإدارة وخلاف بين المؤيدين للقوى النووية وبين المعارضين لها وخلاف بين المستهلكين والصناع والمنتجون . . الخ من عشرات الأحزاب المتعارضة والمختلفة أهدافها. هذا فضلاً عن العديد من الصراعات الخفية وبعض هذه الصراعات تحدث تغيراً بسيطاً فى البناء الاجتماعى وبعضها يحدث تعديلات هامة فى النظام الاجتماعى، وبعضها الآخر لا يحدث شيئا بل قد تكون ضرورية لاستمرار النظام الاجتماعى.

ويمكن تلخيص الأفكار الرئيسية المتصلة بالصراع على النحو التالى :

(١) يتكون المجتمع من فئات عديدة وجماعات تختلف أهدافها وقيمها عن بعضها البعض.

(٢) هذه الفئات والجماعات تواصل اهتماماتها بالتنافس Competition مع الفئات الأخرى حينما تحاول أن تحقق أهدافها.

(٣) ينشأ الصراع غالباً من مثل هذه المنافسات حينما تناضل Struggle كل جماعة أو فئة للوصول إلى أهدافها وبعبارة أخرى فإن الصراع يعد من الأمور العادية والواسعة الانتشار فى المجتمع.

(٤) أن التعميم والإصرار Resolution على هذه الصراعات يتيح أساساً للتغير المستمر وهكذا ألا تظل المجتمعات فى حالة توازن ولكنها تكون فى حالة تعديل دائمة.

وتعتبر المظاهرات الشعبية أحد مظاهر الصراع الاجتماعى وأصبحت معروفة فى بعض المجتمعات خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى العقود

الأخيرة وغالباً لا نرى في هذه الصراعات التلاحم المباشر بين الملاك والعمال - كما أشار ماركس - ولكن مواجهة بين مختلف القيم الاجتماعية وطرق الحياة وكما يرى مؤسس هذه النظرية أن هذا الصراع ظاهرة أساسية ملازمة لجميع المجتمعات.

وعلى ما يتضح أن صورة المجتمع من منظور الصراع تختلف تماماً عن صورته من منظور البنائي الوظيفي فتغير المجتمع مرتبط بعملية الصراع المستمر، ومن خلال هذا الصراع سوف يكون من الصعب لجميع فئات المجتمع أن تصل إلى أهدافها بصفة مستمرة وبعضها ترى نفسها كفئات خاسرة تمزقت أهدافها على يد المنتصرين في نتيجة الصراع.

وتظهر المشاكل الاجتماعية نتيجة للصراعات الموجودة في المجتمع ففي بعض حالات الصراع يعرف هؤلاء الذين يخسرون في الصراع عن متابعة القواعد التي تضعها الفئات المتسلطة والسائدة في المجتمع وينتج عن ذلك أن بعض الجماعات سوف تنحرف عن المعايير والتوقعات التي تحددها الجماعة المتسلطة وسوف نجد هذه الجماعات السائدة أن هذه السلوكيات التي تسلكها جماعات الأقلية التي خسرت نتيجة الصراع سلوكيات منحرفة وغير معتدلة لأنها تنتهك المعايير السائدة في المجتمع.

٤- النظرية التفاعلية الرمزية

يركز نموذج إلى تفاعل الرمزي في وصفه للنظام العام على أهمية دور الرموز في كافة الأنشطة الاجتماعية وهذا النموذج يفترض أن الرموز لها دلالات ومعاني مشتركة مثلها في ذلك مثل الكلمات وهذه الرموز لها توقعات تتصل بطرق تفاعل أعضاء المجتمع مع بعضهم البعض ولها معايير تحملها ويفترض أن هذا النموذج أيضاً أن الرموز ودلالاتها توجد ضمن الإطار السيكولوجي للأفراد. وبعبارة أخرى أن افتراضات التفاعل الرمزي تركز على المعاني المشتركة بين أفراد المجتمع والتي من خلالها تشكل هذه المعاني التفاعلات المتداخلة في البناء الاجتماعي للمجتمع.

إن التفاعلات الرمزية لها جذورها التي تضرب في أعمال السلوك الإنساني. ولقد أشار "هورتون كولي" وهو عالم اجتماع مرموق – في بداية القرن العشرين إلى أهمية التفاعل الرمزي وأكد "جورج هربرت ميد" على دور التفاعلات الرمزية في تشكيل المواقف الاجتماعي ولقد طور "ميد" مجموعة من الأفكار الأساسية الخاصة "بالتفاعل الرمزي" وأشار إلى أن هذا التفاعل قد استخدم على نطاق واسع بين الحربين العالميتين، وفي علم الاجتماع اليوم يستخدم التفاعل الرمزي في دراسة السلوك الاجتماعي خاصة في الجماعات الصغيرة.

ويمكن تلخيص أهم الأفكار الأساسية لنظرية التفاعل الرمزي على النحو التالي :

(١) المجتمع في جوهره نظام له معاني مشتركة، ويشارك أفراد المجتمع في هذه المعاني التي ترتبط برموز اللغة والتي من خلالها يتم الاتصال بين هؤلاء الأفراد، ومن خلال هذه التفاعلات المتداخلة يطورون توقعات مشتركة يسترشدون بها في سلوكهم في أنماط ثابتة ويمكن التنبؤ بها.

(٢) يستخدم أفراد المجتمع معاني مشتركة لتفسير كل من الحقائق الاجتماعية والطبيعية وتساعد التفاعلات الرمزية في فهم هذه الحقائق وتفسيرها.

(٣) تقوم القوى الاجتماعية التي تعمل على تضامن الأفراد أو تفككهم على مجموعة من الأفكار والمعتقدات التي لديهم عن أنفسهم وهذه المعتقدات الذاتية هي أهم حقائق الحياة الاجتماعية.

(٤) يسترشد السلوك الفردي في مواقف محددة بالعلاقات التي تعطي لهذه المواقف والمعاني التي تثيرها ومن ثم فالموقف أو السلوك ليس استحالة آلية تلقائية للمؤثرات الخارجية بل هو نتائج أبنية ذاتية من النفس والآخرين والمواقف الاجتماعية المشتركة.

وخلاصة القول. أن التفاعلات الرمزية التي يستخدمها أفراد المجتمع في حياتهم الاجتماعية تعطي مفتاحاً هاماً لفهم كيف يستجيبون بأفعالهم نحو مواقف

اجتماعية معينة ويستخدم الأفراد والرموز كأساس للتعرف في مواقف سلوكية محددة، ومن ثم تلعب الرموز دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية خاصة إذا كانت هذه الرموز ذات معاني مشتركة ومتعارف عليها من قبل أعضاء الجماعة. وجدير بالذكر أن هذه الرموز قد تطورت من خلال مؤسسات المجتمع المختلفة ويمكن القول أن لكل مؤسسة اجتماعية (كالجيش - أو المستشفى) رموزها الخاصة وعلى جميع الأفراد الذين يشتركون في واحدة من هذه المؤسسات أن يعرفوا جيداً هذه الرموز ومعانيها حتى يستقيم النظام داخل هذه المؤسسة.

المنظورات الأساسية للمشاكل الاجتماعية

لقد أشرنا إلى أربعة نماذج رئيسية لفهم طبيعة المجتمع وكل نموذج من هذه النماذج قد أعطى لنا مدخلات أساسية لتفسير وتحليل المشاكل الاجتماعية ولكن أي من هذه النماذج أكثر فعالية فكما أشرنا من قبل أن كل هذه النماذج لها وجهاتها في تفسير المشاكل الاجتماعية من الناحية العلمية ومن ثم لا يمكن الحكم على خطأ أحد هذه النماذج فهي جميعاً صحيحة ويمكننا أن نفترض صحة أي منها وأن نرى كيف تساعدنا على فهم أحد جوانب الحياة الاجتماعية وفي نفس الوقت لا يمكن "الحزم" بأن أحد هذه النماذج صحيحة بطريقة مطلقة أو نهائية، فهي ليست معتقدات دينية بل هي مجرد أدوات فكرية يمكن استخدامها كإطار مرجعي لمساعدتنا على فهم نوع ما أو آخر من العمليات الاجتماعية ومن ثم يجب أن نختار من هذه النماذج ما يتناسب مع طبيعة الموقف المراد دراسته فهناك بعض المشاكل يمكن دراستها من المنظور البنائي الوظيفي، وأخرى من منظور الصراع وثالثة من منظور التفاعل الرمزي . . . هكذا. وفي حالات معينة قد يكون من المفيد استخدام أكثر من مدخل في دراسة مشكلة اجتماعية معينة.

على أية حال أن هناك قاسم مشترك يجمع بين هذه النماذج النظرية هو إرجاع كافة المشاكل المراد دراستها إلى بعض سمات المجتمع، أي أن كل من هذه النماذج يحاول تفسير المشكلة الاجتماعية من خلال إرجاعها إلى طبيعة البناء الاجتماعي وهناك بعض الأبعاد الأساسية التي تركز عليها هذه النماذج

النظرية في دراستها للمشاكل الاجتماعية مثل "التفكك الاجتماعي، والسلوك المنحرف واللا معيارية. . . الخ" ويمثل كل من هذه الأبعاد الأساسية طريقة مميزة إلى النظر إلى المشكلة الاجتماعية.

أ- علم الأمراض الاجتماعي Social Pathology

لا شك أن مفهوم علم الأمراض مستعار من علم الطب حيث كان وما زال يستخدم للإشارة إلى علم أو دراسة المرض وفي علم الاجتماع استخدام هذا المصطلح ليؤدي نفس المضمون هذا بالإضافة إلى أن يشير إلى الظروف الاجتماعية "غير الصحيحة" أو إلى السلوك المرضي أكثر من الإشارة إلى الظروف البيولوجية ولقد بينا من قبل أن الفرد يمكن أن يتبنى الفروض التي تصور المجتمع على أنه يتطور بطريقة إيجابية ومن الناحية المنطقية فإن الظروف الاجتماعية التي تضعف هذا التطور يمكن تعريفها على أنها أشكال من "المرض الاجتماعي" الذى يحتاج إلى "علاج" وبعبارة أخرى يمكن تعريفها على أنها علم الأمراض الاجتماعية.

وجدير بالذكر ان علم الامراض الاجتماعية الذى يقوم على النموذج التطوري كان هو البعد الرئيسي للمشاكل الاجتماعية التي استخدمها الجيل الأول من علماء الاجتماع الأمريكيين حتى بداية الحرب العالمية الثانية، ولا يزال يستخدم البعض مفهوم "المرض الاجتماعي" خاصة الذين يعتقدون أن علماء الاجتماع لهم خبرة في تشخيص الامراض الاجتماعية، وفي فهم طبيعة الحلول التي من شأنها إعادة المجتمع إلى حالته الصحية ولقد لاحظنا من قبل أن هذا الرأي لا يتمشى مع تعريفنا للمشاكل الاجتماعية كمشاكل اجتماعية معترف بها على نطاق واسع، ويحكم عليها عدد كبير من أفراد المجتمع بأنها غير مقبولة.

وفي نفس الوقت أن الأفكار التقليدية المتصلة بعلم الأمراض الاجتماعي تتمشى مع الإدراك السليم إذا استخدمت بتحفظ فعلى ما يتضح توجد ظروف اجتماعية سوف يجمع كافة المفكرين على أنها ضارة بالمجتمع ومن ثم تسبب

مشكلة وهناك فئة قليلة تدعى أن مواقف معينة كالبطالة وشرب المشروبات الكحولية وازدياد معدلات الجريمة هى ظواهر طبيعية صحيحة ومواقف أخرى قد تكون أكثر غموضاً مثل استخدام "الماريجوانا" على نطاق واسع، هل هو مؤثر على علم الأمراض الاجتماعى ؟ وهل امتلاك الأسلحة لدى فئة من الجماعات المتطرفة يمثل مؤشر على علم الأمراض الاجتماعى ؟ . . . ربما نجد صعوبة فى الوصول إلى نتائج محددة تؤيدها الأغلبية فيما يتصل بمثل هذه المواقف نظر لاحتوانها على قيم مختلفة، وهذا الافتراض ربما يقلل من أهمية الاعتماد على منظور علم الأمراض الاجتماعى فى دراسته للمشاكل الاجتماعية.

ب- التفكك الاجتماعى Social Disorganization

يستخدم مفهوم التفكك الاجتماعى للإشارة إلى خلل ما يصيب النظام الاجتماعى وهذا الخلل قد يكون ناتجاً عن عوامل بنائية داخلية أو بسبب التغيرات الاجتماعية المستمرة وقد يحدث التفكك نتيجة لمواجهة موقف ما لمجرد أنه لم يحدث من قبل أو لم يحدث منذ وقت قريب، وبدقة أكثر يتضح مفهوم التفكك من خلال عدم اتباع المعايير الاجتماعية المتفق عليها وتداخل الأدوار وتدرج المكانة وعدم فاعلية نظام العقاب والثواب فى حفظ النظام والتوازن الاجتماعى العام ويستخدم منظور التفكك الاجتماعى فى دراسة حيث المشاكل الاجتماعية فقد ركز علماء الاجتماع اهتمامهم على مصادر التفكك الاجتماعى الناتج عن الحروب والكساد الاقتصادى وزيادة السكان وازدياد معدلات الجريمة . . . الخ وأثر هذا التفكك على البناء المعيارى فى المجتمع. فقد أحدثت الحروب - مثلاً - تغيرات فى ازدياد معدلات الاكتئاب النفسى وارتفاع معدلات الجرائم، وارتفاع معدلات الانتحار، واتجاه متزايد نحو التفكك الأسرى. هذا فضلا عما أحدثته الهجرة سواء كانت داخلية أو خارجية من آثار ضارة بالمجتمع وظهرت حاجة متزايدة إلى رجال البوليس وتدهور فاعلية قوانين العقاب والثواب . . . . الخ.

على أية حال، أن أهم مميزات منظور التفكك الاجتماعى فى دراسة المشاكل الاجتماعية هو أن لا يتطلب أن يقرر الفرد أن هذه الحالة الاجتماعية

صحيحة أو مرضية فهؤلاء يعتمد على الأحكام القيمية في تعريفه للمشاكل الاجتماعية وربما تعلل لنا هذه الحالة جاذبية هذا المنظور التفكك الاجتماعي واستخدم على نطاق واسع حينما كانت مشاكل المدينة تتزايد بشكل سريع قبل وبعد الحرب العالمية الثانية.

ولكن هذا لا يعني أن منظور التفكك الاجتماعي يعطينا تفسيراً كاملاً للمشاكل الاجتماعية من حيث أسبابها ومظاهرها والنتائج المترتبة عليها، فهو يركز الانتباه على المواقف التي ربما قد تكون وقفت حالاً دون حدث مشكلة في وقت مبكر ولكن لم تعد فعالة في الوقت الحالي فعلى سبيل المثال أن التفكك الذي يصيب المجتمع مع انهيار فاعلية الضبط الاجتماعي غير الرسمي، قد لا يؤدي إلى ظهور أنواع مختلفة من الجرائم، أو ظهور مشاكل من نوع معين، وقد تؤدي إلى ذلك وفي هذه الحالة لا يمكن الاعتماد على منظور التفكك اعتماداً كليا في تفسير مثل هذه الحالة، وينبغي الاستعانة بأساليب أخرى في التفسير ولكن هذا لا يقلل من أهمية مدخل التفكك الاجتماعي في دراسة الأصول الاجتماعية للمشاكل الاجتماعية.

جـ- السلوك المنحرف Deviant Behavior

نستطيع أن نعرف - بوجه عام - السلوك المنحرف على أنه أي شكل من أشكال السلوك لا يتمشى مع توقعات جماعة ما وهذه الفكرة ترتبط ارتباطاً واضحاً بأفكار النظرية البنائية الوظيفية والتي تفترض أن المجتمع ينبغي أن يحافظ على استقراره وتوازنه وذلك من خلال تحديد الأدوار والمعايير التي تحكمها أما أي سلوك يحاول تهديد هذا الاستقرار يعد سلوكاً منحرفاً وسوف يقابل بالمقاومة من قبل أفراد المجتمع.

على أية حالة أن منظور السلوك المنحرف يكمن في الافتراض الذي مؤداه أن أي تهديد لقيم المجتمع المتعارف عليها من قبل الفرد أو الجماعة يعد سلوكا منحرفاً قد يتسبب في ظهور مشكلة اجتماعية من نوع ما. ويمكن تفسير "السلوك المنحرف" أيضاً ضمن أفكار نظرية الصراع حيث أنها تفترض أن

المجتمع يتكون من فئات أو جماعات تختلف في أهدافها وقيمها الواحدة عن الاخرى وفي هذا الموقف تكون هناك جماعه على الأقل تمثل سلوكا منحرفا من وجهة نظر جماعة أخرى.

ويتضح في كثير من الحالات أن الجماعات التي تنتهك معاييرها هي جماعات داخل المجتمع وأن الشخص المنحرف هو الذى ينتهك مستويات السلوك المتحضر. فنادراً ما يفر الشخص الذى يقتل بالجملة أو الذى يغتصب النساء بالإكراه وبطريقة وحشية أو الشخص الذى يقوم بعمليات خطف النساء والأطفال شخص يعاني من صراع القيم، فغالبية الآراء سوف تجمع على أنه شخص منحرف. وموقف مثل هذا الشخص يعتبر واضحاً ولكن هناك حالات أخرى تكون أقل وضوحاً مثل الشخص الذى يقبض عليه ومعه جرامات قليلة من مخدر الماريجوانا هل يمكن الحكم عليه بأنه منحرف ؟ وهل الشخص الذى يشرب الخمر حتى يصبح ثملاً ؟ والمرأة التى تمارس الجنس وخارج نطاق الزوجية ؟ وغير ذلك من المواقف تعتبر سلوكاً منحرفاً إن الإجابة على مثل هذه التساؤلات سوف تتفاوت من جماعة إلى أخرى وفقاً لمعايير هذه الجماعة وفقا لمعايير هذه الجماعة وتحديدها للسلوك المنحرف وفي كل هذه الحالات سوف تعتمد الإجابة على أين ومع من وتحت أى ظروف حدث هذا السلوك فما يمكن اعتباره سلوكا منحرفاً في موقف ما، وربما لا يكون كذلك في موقف آخر. ومن ثم فالانحراف نسبي ويمكن أن يتغير في أوقات مختلفة وبين فئات مختلفة من أفراد المجتمع وبناء عليه يصعب الحكم على أى سلوك بانه صواب أو خطأ إلا في ضوء معايير الموقف الذى تم حدث فيه هذا السلوك ومن ثم فعلماء الاجتماع ليسوا مطالبون بتقديم أحكام حتمية على سلوك ما. بقدر ما هم مطالبون بتفسير هذا السلوك وبيان أسبابه ونتائجه وعلاجه. وهل هذا السلوك يتفق مع توقعات المجتمع أم لا يتفق.

وهناك بعض الانتقادات التى وجهت لمنظور السلوك المنحرف أهمها أن هذا المنظور يهتم بالتركيز على السلوك الفردى أكثر من تركيزه على العوامل الاجتماعية التى دفعت الفرد إلى أن يسلك مثل هذا السلوك هذا فضلاً عن أن

هذا المنظور يهتم بدراسة بعض المشاكل الناتجة مثلا عن السلوك الإجرامي أو السلوك الشاذ ووصفه بأنه منصرف في حين يتجاهل موضوعات أخرى أكثر حيوية مثل سوء توزيع الرعاية الصحية في مجتمع ما، أو أثر وسائل الإعلام الجماهيري على انحراف الشباب .... الخ فمثل هذه الموضوعات لا تجد لها مكاناً من خلال هذا المنظور.

أما فيما يتصل بقواعد الثواب والعقاب فهي تتفق في جوهرها مع المنظور البنائي فعلى سبيل المثال أن تعاطي المخدرات الممنوعة قانوناً يعتبر سلوكا منحرفاً فباستخدام المنظور البنائي الوظيفي يمكننا أن نحلل هذا السلوك على أنه انتهاك أو خرق لمعايير المجتمع وتهديداً لاستقراره ورداً على ذلك يستخدم المجتمع معايير الثواب والعقاب في صورة قوانين تتمثل في رفض هذا السلوك، وهذا الرفض يأخذ درجات تبدأ من الاستهجان وتنتهي إلى السجن على أية حال أن السلوك المنحرف يمكن فهمه بصفة عامة على أنه انتهاك لمعايير المجتمع المتعارف عليها هذا من ناحية وكانعكاس للصراع بين الأهداف والقيم الاجتماعية لدى فئات معينة من المجتمع من ناحية أخرى.

ويستخدم المجتمع في بعض المواقف الاجتماعية رموزاً معينة تعطي دلالات عن قيم وعادات وتقاليد هذا المجتمع، وهذه الرموز تكون عامة ومتعارف عليها - على الأقل - داخل نطاق الجماعة الجماعية وفي أحياناً أخرى نجد جماعة ما تحمل أفكاراً سلبية أو متميزة ضده جماعة أخرى، ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا - هناك تحيز ضد الأقلية السوداء، وعادة ما ينعت هذه الأقلية باسم مثل "زنجي" Negro للتقليل من شأن أي فرد ينتمي إلى هذه الأقلية السوداء ويظل هذا الاسم لضيق الصلة بهذه الأقلية فالرموز أو الصفات التي تلصق بفئة معينة من المجتمع تظل ملازمة لها لفترات طويلة وتؤثر في عملية التفاعل بين هذه الفئة المرصومة وباقي أفراد المجتمع فمثلاً الوصفة التي تلحق بالمرأة الصاهرة أو الشباب المدمن، أو المريض النفسي أو المريض العقلي تظل ملازمة لكل منهم طيلة حياتهم، ليس هذا وحسب فالفرد مثلاً الذي يسلك ولو فترة وجيزة جداً سلوكاً يحدده المجتمع بأن متخلف عقلياً أو منحرف

أو مجرم، فمن ذلك الوقت فصاعداً يضطر هذا الفرد أن يعيش وكأنه قد كتب عليه عبارة "متخلف عقلياً" أو "منحرف" أو "أثم" وتظل هذه الوثيقة تطارده وتحول دون أن يحيا حياة اجتماعية طبيعية.

وجملة القول أن عملية تصنيف الأفراد ووصمهم برموز او صفات معينة. والكيفية التى من خلالها يسلك هؤلاء الأفراد داخل المجتمع والطريقة التى يتعامل بها أفراد المجتمع مع هؤلاء الموصومين يمكن أن تكون ذات أهمية فى فهم مشاكل اجتماعية من نوع خاص مثل السلوك الجنسى المنحرف وإدمان المشروبات الكحولية والمرض النفسى، وإساءة استخدام الدواء . . . . الخ.

وعلى ما يتضح أنه لا يمكن دراسة جميع المشاكل الاجتماعية عن طريق هذا المنظور فهو غير ملائم لدراسة حركة السكان والسياسة الاقتصادية أو التحول التكنولوجى ولكن يمكن لهذا المنظور أن يدرس نماذج معينة من السلوك والذى يعتمد فى المقام الأول على الرموز ذات المعانى المتفق عليها لدى جماعة ما.

وعموماً أن هذا المنظورات الأربعة تقوم على أربعة تصورات مختلفة لطبيعة المجتمع وكل منظور يقدم لنا رأياً مختلفاً لما هو مهم فى تشخيص ودراسة المشاكل الاجتماعية ولا يمكن الجزم بأن أحد هذه المنظورات صواب أو خطأ فلكل منهم مبررات استخدامه ومنطقية تصوراته ولا يمكن تطبيق هذه المنظورات بطريقة واحدة على كل مشكلة اجتماعية. فهى قد تكون هامة فى دراسة بعض المشاكل وليست كذلك للبعض الآخر.

٦- تفسيرات متميزة للمشاكل الاجتماعية

لا تفسر لنا هذه النماذج التى أشرنا إليها سبب وجود حالة معينة باعتبارها تمثل بالضبط مشكلة فعلى الرغم من أنها تساعد على فهم الكيفية التى من خلالها يمكن أن تحدث مشكلة كمدخل التفكك الاجتماعى والذى يحدد الانحراف إلا أنه ينبغى الاستعانة بأكثر من نموذج للحصول على تفسير أكثر دقة للمشاكل الاجتماعية وبعبارة أخرى نحن فى حاجة إلى نظريات معينة تفسر أنواع خاصة

من المشاكل والنظريات تحاول أن تفسر بالضبط لماذا يظهر سلوك ما وأين ومتى يظهر هذا السلوك وسوف نطلق على هذه النظريات لفظ "فريد" Unique أو "متميز".

وتعتبر نظرية "سولازلاند" Southland من النظريات الفريدة التى تفسر لنا الانحراف بالرجوع إلى المجتمع والممارسات القهرية التى تسلط على بعض الأفراد. وهذه النظرية والتى ظهرت فى بداية الثلاثينيات كانت تعتمد أساساً على نموذج التفاعل الرمزى وتحاول هذه النظرية تفسير الكيفية التى من خلالها "يتورط" الفرد فى أنشطة إجرامية. ففى وقت مبكر منذ بداية هذا القرن كان يعتقد أن الجريمة موجودة بالفطرة فى الإنسان ولا تكتسب من خلال العمليات الاجتماعية وفى خلال العشرينيات وبداية الثلاثينات بدءا "سوزلاند" وغيره من العلماء الاجتماعيين برون أن الجريمة سلوك مكتسب يتعلمه الفرد من خلال ممارسته اليومية وأكد "سوزلاند" على أن السلوك الإجرامى يتعلمه الفرد أثناء عملية التأثير المتبادل مع الآخرين، ويتعلم الناس فنون ارتكاب الجرائم، ويتعلمون المواقف والدوافع والتبريرات المنطقية التى تمكنهم من تنفيذ الأنشطة الإجرامية.

على أية حال أن مضمون هذه النظرية هو "أن الفرد قد يولد مجرماً أو مزوداً بالدافعية الإجرامية، ولكن المجتمع هو الذى يخلق من الفرد "مجرماً" نتيجة لممارسة بعض الضغوط الاجتماعية التى تجعل الفرد يتورط فى سلوك معين يصفه المجتمع بانه سلوك إجرامى. ولا شك أن كل التحليلات التى قام بها علماء الاجتماع بخصوص المشكلة الاجتماعية على درجة كبير من الأهمية فالنماذج النظرية الأربعة التي أشرنا إليها من قبل والنموذج النظرى المتميز الذى أشار إليه "بسوزلاند" كلها ذات أهمية فى دراسة المشاكل الاجتماعية وتساعدنا هذه النظريات على الرد على الأسئلة المتصلة بالأصول الاجتماعية للمشاكل الاجتماعية، وتوفر لنا أيضاً خطوط عريضة لتقرير ما يمكن عمله بخصوص هذه المشاكل. فإذا لم نستطيع فهم أسباب السلوك الذى ينتج عنه مشكلة فهناك أمل ضعيف فى إمكانية اتخاذ الإجراءات المناسبة للتقليل من

حدة هذه المشكلة ويجب أن تكون أبحاث عالم الاجتماع أكثر من مجرد عدد الأفراد لكي يرى كم من الأفراد متضرر من مشكلة ما أو أن يشرح بالتفصيل ما يعمل بخصوص المشكلة فالبحث عن تفسيرات ملائمة لجذور المشاكل الاجتماعية وتطوير نظريات بخصوص الأسباب الكامنة هو المدخل الملائم لفهم طبيعة المشاكل الاجتماعية وفي النهاية تقرير ما يمكن عمله حيالها.

خاتمة

أن المشكلة الاجتماعية هي أي موقف أو حالة أو شكل متكرر من السلوك غالباً ما يتواجد بسبب مؤثرات اجتماعية ويواجه هذا السلوك استنكاراً لعدد كبير من أفراد المجتمع وهذا يدفعهم إلى تحمل قدر من المسئولية المشتركة للعمل على حصار هذا السلوك الذي يسبب المشكلة.

لقد قدم علماء الاجتماع الأوائل قواعد عامة عن طبيعة المجتمع وطور اللاحقون تفسيرات أكثر تخصيصاً للمشاكل الاجتماعية ولا شك أن مستويات التحليل التي قدمها علماء الاجتماع تعتبر مفيدة لدراسة المشكلات الاجتماعية.

(١) أن النماذج النظرية الأربعة التي طورها علماء الاجتماع في دراستهم للمشاكل الاجتماعية وهي نظرية التطور ونظرية الصراع والنظرية البنائية الوظيفية والتفاعلية الرمزية هذه النظريات تقوم لنا أبعاد أساسية لدراسة المشاكل الاجتماعية كالتفكك الاجتماعي والسلوك المنحرف وعلم الأمراض الاجتماعي، والوصمة الاجتماعية وهذه الأبعاد ذات أهمية خاصة في دراسة المشاكل الاجتماعية.

(٢) يفترض النموذج "التطوري" أن المجتمع يتكون من أجزاء متصلة ومترابطة داخلياً وأن المجتمع في تغير دائم وأن هذه التغيرات تحدث زيادة مستمرة في التخصص الدقيق وتقسيم العمل الاجتماعي داخل البناء الاجتماعي.

(٣) يفترض النموذج "البنائي الوظيفي" أن المجتمع عبارة عن بناء يتكون من مجموعة أنساق أساسية مترابطة ومتداخلة وتميل إلى المحافظة على

الاستقرار والثبات لفترات طويلة. ولكل نسق من الأنساق الأساسية لهذا البناء وظيفة محددة يسهم بها في المحافظة على استقرار البناء وتوازنه.

(٤) ويفترض نموذج "الصراع" أن المجتمع يتكون من فئات من الناس لهم أهداف وقيم مختلفة وينتج عن اختلاف القيم والأهداف لدى هذه الفئات (الطبقات) نوعاً من الصراع يؤدى إلى تغيير المجتمع بصفة مباشرة.

(٥) أما نموذج "التفاعل الرمزى" فهو يرى أن المجتمع في جوهره مجموعة من المعاني المشتركة وتكون هذه المعاني بناءاً من الرموز ذات الدلالات الاجتماعية والتي تستخدم في فهم السلوك الاجتماعي والتنبؤ به.

(٦) أما منظور "علم الأمراض الاجتماعي"، فهو يرى أن المشاكل الاجتماعية تعد بمثابة أمراض تصيب جسم المجتمع وهذه الأمراض في حاجة إلى تشخيص وعلاج.

(٧) ويؤكد منظور "التفكك الاجتماعي" على كيفية انهيار المعايير والأدوار والمراكز وقوانين الثواب والعقاب الأمر الذى يسمح بظهور المشاكل الاجتماعية ويساعد على تطورها.

(٨) يؤكد منظور الانحراف على المدى الذى من خلاله ينظر إلى السلوك باعتباره منحرفاً عن معايير جماعة ما.

(٩) ويركز منظور "الوصمة الاجتماعية" على الكيفية التي من خلالها يتم وصل فرد ما أو جماعة بصفة معينة "كزنجي" أو "مجرم" أو "منحرف" وأثر ذلك على خلق المشاكل الاجتماعية.

(١٠) أن هذه النماذج وتلك المنظورات المختلفة في تفسير المشاكل الاجتماعية في حاجة إلى تنقيح وتعديل لكي تكون ذات فائدة في فهم طبيعة المشاكل الاجتماعية وجدير بالذكر أن هناك العديد من الاجتهادات من قبل علماء العلوم الاجتماعية بصفة عامة، وعلماء الاجتماع بصفة خاصة لفهم طبيعة وأسباب المشاكل الاجتماعية والكيفية التي من خلالها يمكن التوصل إلى حلول مناسبة لهذه المشاكل وذلك من خلال تقديم العديد

من البدائل الممكنة والتصورات النظرية الملائمة، ولعل مـن أبـرز هـذه المحاولات محاولة "سوزلاند" على النحو الذى أشرنا إليه.


Bibliotheca Alexandrina
06354482